

سلسلة الرسائل الجامعية (٢)

أصول الدين عند الإمام الطبري

تأليف
د. محمد نجيب رمضان

إشراف وتقرير
الأستاذ الدكتور مصطفى محمد هادي

دار الكتاب العربي

الطبعة: ١٩٧٢م - ١٤٠٤هـ



كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

رقم الإيداع

٢٠٠٥/١١٦٠٢

دار الكيان

المملكة العربية السعودية - الرياض

ص. ب. : ٥٧٦٨٤ - ١١٥٨٤

الملز - شارع فاطمة الزهراء - متفرع من شارع الإحساء

هاتف وفاكس : ٢٠٦٧٠٦٧ - جوال : ٠٥٠٤١٩٧٢٤٨

البريد الإلكتروني : Dar_alkayan@hotmail.com



أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير مقدمة إلى «قسم الفلسفة الإسلامية»

«كلية دار العلوم» - جامعة القاهرة

بعضات:

«آراء الطبري الكلامية»

وقد تكونت لجنة المناقشة من:

أ.د. مصطفى محمد حلمي، الأستاذ بالجامعة (مشرفاً).

أ.د. عبد الحميد عبد المنعم مذكور، الأستاذ بالكلية «عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة» (عضواً).

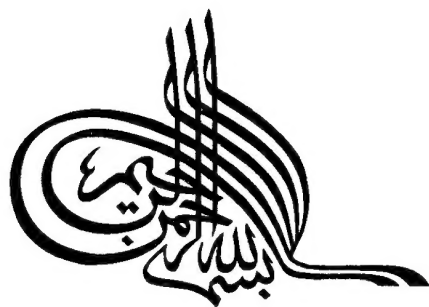
أ.د. عبد الفتاح أحمد فؤاد، الأستاذ بجامعة الأسكندرية، ووكيل كلية التربية، (عضواً).

وقمت المناقشة بتاريخ (٢٠/٢/٢٠٠٠م)

ومنح الباحث عنها: درجة الماجستير، بتقدير ممتاز، مع الترقية بطباعة

الرسالة وتبادلها بين الجامعات





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الرسالة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:

[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

□ فليس من شك في أن الإمام الطبري هو واحد من أوعية العلم الكبار، وأئمة رجاله في تاريخ الإسلام.

□ ولئن كان مألوفاً - فيما مضى - أن يكون للعالم مشاركة في علوم عديدة، وإن برز في فرع أو أكثر منها، فثمة - رغم ذلك - صفحات في هذا التاريخ، هي حكرٌ على أناس لهم خصوصية ليست لغيرهم؛ فلا يُذكر تاريخ العلم إلا مقرونا بهم، بدءاً منهم، أو انتهاءً إليهم، أو مروراً بهم، وهم في أثنائه معلّم بارز، لا تحطهم عين، ولا يُغفلهم ذكر، كما يقرن الفقه بذكر الأربعة، والنحو بسيبويه، .. فكذلك يقرن التفسير بذكر ابن جرير الطبري، حتى عده السيوطي

طبقة، وحده، من المفسرين^(١)، ثم نقل إجماع العلماء على أنه لم يؤلف في التفسير مثل كتابه. وناهيك بتاريخه، أول كتاب للمسلمين في التاريخ العام، فيما وصلنا^(٢)، وفقهه الذى استقل فيه بمذهب نسب إليه، وله أتباع، إلا أنه لم يكتب له البقاء بعد الطبقة الأولى من حملته^(٣)...

□ وشخصية كهذه لاشك أنها حقيقة باهتمام المؤرخين والدارسين، قديماً وحديثاً. وقد نال الطبرى بالفعل قسطاً من ذلك الاهتمام، إلا أن جُلَّ هذه الدراسات إنما كانت حول تفسيره ومنهجه فيه، وما يتصل به من جوانب مختلفة، وبعضها حول تاريخه...، والقليل منها هو الذى تطرق إلى قضايا أصول الدين عنده، وما بقى من تراثه فى هذا الجانب.

□ وفيما يخص هذا الجانب الأخير، وهو موضع دراستنا هذه، لم يتيسر لى الوقوف على دراسة متخصصة معينة به، وإن تطرقت إليه - عَرَضاً - بعض الدراسات التى ترجمت له، كما فعل د. أحمد الحوفى فى كتابه «الطبرى»؛ حيث عقد فصلاً لألوان من آرائه، أشار فيه إلى «سلفيته» وبغضه للبدع، ونفى الجبرية وتهمة التشيع عنه^(٤).

□ وثم دراسة من نوع آخر، عرض صاحبها لعقائد المفسرين بصفه عامة^(٥)، وخصص فيها مبحثاً لابن جرير الطبرى اقتصر فيه على عقيدة الطبرى فى «الأسماء والصفات»، ثم اقتصر من ذلك على مجموعة من النصوص التى عرضت

(١) الإتقان فى علوم القرآن (٢١٣/٤)، وانظر بعض ما قيل حول تفسير الطبرى وقيمه فى: التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبى (٢٠٢/١) وما بعدها، «الطبرى» للحوفى (١١٨) وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (٤٥/٣)، «الطبرى» (٢٢٦).

(٣) انظر: بروكلمان: السابق (٣١٨/٣).

(٤) انظر: الطبرى، للحوفى (٢٤٢-٢٥٦).

(٥) انظر: عبد الرحمن المقرأوى: عقائد المفسرين (١٢٥-١٦٥).

- في التفسير- لهذا الجانب، كالذى ورد في «الدين» و«الإتيان» و«الاستواء» و«الكرسى»...، وهو ينقل النص بطوله، ثم يذكر في أسطر قليلة، سطرين أو أكثر قليلا، ما إذا كان تقرير الطبرى موافقا لمنهج السلف أم لا^(٦).

□ ولقد بدا لى أن هذه الدراسات السابقة، وإن احتازت فضل السبق، لم تغلق باب البحث دوننا، شأن الأول والآخر (!!).

□ ثم تأكدت عندى أن ثمة مجالا لدراسات أخرى في ذلك الجانب من تراث الطبرى بالعثور على رسالة الطبرى الهامة: «التبصير في معالم الدين».

□ أما عن المنهج العام لهذه الدراسة، فقد اجتهدت في جمع نصوص الطبرى المتعلقة بموضوع الدراسة من كتبه الموجودة بين أيدينا، وأهمها تفسيره الذى هو ينبوع آرائه، ثم رسالتاه الكلاميتان «التبصير» و«صريح السنة»، ثم ما تبقى لدينا من كتابه الفذ: «تهذيب الآثار»، ومواضع من تاريخه، خاصة في الجزء الأول.

□ وثم نصوص للطبرى، وحكايات لبعض آرائه التى فُقدَ أصلها من تراثه، تيسر لى الوقوف عليها في بعض المصادر الوسيطة، كشرح ابن بطل لصحيح البخارى وهو أهم هذه المصادر الوسيطة، ونصوص أخرى وقفت عليها في الاعتصام للشاطبي، وفتح البارى لابن حجر، وبعض كتب ابن الوزير، وغيرها من المصادر.

□ وقد حاولت ترتيب آراء الطبرى التى وقفت عليها وفق الأبواب المعروفة لترتيب العلم عند متأخرى المتكلمين: الإلهيات، النبوات، السمعيات. ثم تحليل هذه الآراء، ومحاولة تتبع أصولها الفكرية، والإشارة إلى أهم الآراء حول كل قضية، مع نقل بعض نصوص أئمة أهل السنة المتقدمين، السابقين للطبرى،

(٦) من هذه الدراسات المستقلة التى وقفت عليها: كتاب «الطبرى» للحوفى، وهو أسبقها وأجودها، وكتاب: «الإمام الطبرى» للدكتور محمد الزحيلي، صدر عن دار القلم فى دمشق، سلسلة أعلام المسلمين، رقم (٣٣).

والمعاصرين له. والاهتمام بالإشارة إلى موقف المعتزلة، ومكانتهم في التاريخ الكلامي، خاصة في عصر الطبري، معروفة مشهورة، لا سيما وقد وجدناهم أكثر من يُعنى الطبري بالإشارة إلى مقالاته، أو ردها.

□ وما نقلته من نصوص الطبري، وإن كان يعيبها الطول في بعض المواطن، إنما نقلته بغية عرض فكرة الطبري مكتملة، قدر الإمكان، بحيث يكون القارئ على بينة من المسألة التي ندرسها. ثم تزداد أهمية نقل ذلك النص بلفظه إذا كان منقولاً عن مصدر وسيط، كما فعلت في بعض النصوص التي نقلتها عن ابن بطلال.

□ وفيما يخص القضايا التي عرض ابن جرير لذكر الخلاف حولها، فقد أكتفى بسياقته، مع التعليق على ما حكاه من أقوال، وعزوها إلى أهلها، وتوثيقها من مصادر أصحابها، إن وُجدت. ومن المباحث التي جريت فيها على ذلك ما جاء في «الرؤية» و«خلق أفعال العباد». وقد قصدت بذلك التأريخ لجانب من فكر الطبري الكلامي، وهو نقله لأهم الأقوال في المسألة، وهل يعرض لذكر مقالات زائدة على ما نعرفه في كتب المقالات، أو لا؟

□ وثم أهمية أخرى لنقل ما حكاه ابن جرير من الخلاف، تخص المسائل التي لم يصرح باختياره من هذه الأقوال التي حكاها وهل يمكن معرفة اختياره من مواطن أخرى، أو من خلال معرفة منهجه العام أو لا؟

□ على أني لم ألتزم بنقل حكايته للخلاف في كل مسألة، بل ربما اكتفيت بإشارة من عندي لأطراف الخلاف حول موضوع البحث، ثم أعرض لرأي ابن جرير، مع التنبيه على ما إذا كان حكى الخلاف حول المسألة أم لا. ومن ذلك ما يأتي - إن شاء الله - في بحث «اليدان» و«الاستواء».

□ وقد كونت المادة التي تم دراستها اثني عشر فصلاً، توزعتها ثلاثة الأبواب التي قُسم إليها البحث:

فالباب الأول، وعنوانه قضايا منهجية في حياة الطبري وتراثه، يضم ثلاثة فصول: أولها عن المحنة في حياة الطبري، عرضت فيه لمحنة ابن جرير مع الحنابلة، ثم لتهمة التشيع التي رُمي بها وبينت أسبابها وحقيقتها، ولم أتناول من ترجمته هنا إلا تعريفا يسيرا به؛ كأنه تكملة الصورة، أو تحلة القسم !!؛ إذ كان هذا الجانب قد أوفى حقه سواء في البحوث الجامعية السابقة، أو الدراسات المستقلة التي أُفردت لترجمته^(٧).

وفي الفصل الثاني: عرضت لأصول المعرفة عند الطبري، وموقفه من الدليلين: السمعى والعقلي، وعرضت بالبحث لقضيتين متعلقتين بذلك هما: مذهبه في وجوب النظر والاستدلال، وحكم الجاهل والمخطئ في قضايا التوحيد.

وفي الفصل الثالث: عرضت لقضية التأويل ومكانتها في الفكر الكلامي، كمدخل بين يدي دراسة موقف ابن جرير من قضية التأويل، وضوابط التأويل السليم للنص الشرعى عنده.

أما الباب الثاني وهو لباب البحث، ومعظم فصوله، فقد عرضت فيه آراء ابن جرير في المسائل المتعلقة بأسماء الله وصفاته وأفعاله «الإلهيات»، ويحتوى هذا الباب على خمسة فصول:

أولها، وعنوانه: الوجود والوحدانية، تناولت فيه استدلال ابن جرير على القضيتين، وأشارت فيه إلى التفاوت المنهجي بين «التاريخ» و«التفسير» إزاءهما.

وفي ثانيها، وعنوانه: مباحث عامة في الأسماء والصفات، عرضت لخمس قضايا، هي: «اسم الله الأعظم»، الاسم والمسمى، أقسام الصفات وأحكامها، دلالة الأسماء على الصفات، فهم الصفات على ظاهرها.

(٧) يأمل الباحث أن يتلقى ملاحظات إخوانه، حول هذه الدراسة، وما يقفون عليه فيها من

أخطاء، عبر بريده الإلكتروني: Tahanaga@hotmail.com

وفي ثالثها عرضت لمجمل الصفات العقلية عند ابن جرير، وفصلت القول في ثلاثة منها، هي: العلم، والكلام، والرؤية.

وفي رابعها عرضت لمجمل الصفات الخبرية عند الطبري، ثم توسعت في بحث ثلاثة منها، أيضًا وهي الاستواء على العرش، وصفة «اليدين»، وآخر مباحثه يدرس ما جاء في «استهزاء الله» - تعالى - بالمنافقين.

وفي الفصل الخامس والأخير من هذا الباب عرضت لموقف ابن جرير من البحث في القضاء والقدر، وذكرت منزلة هذه القضية، وارتباطها بالتوحيد في فكر ابن جرير، ثم عرضت لمراتب القضاء والقدر التي دار الخلاف حولها، وهي العلم السابق، والكتابة، والمشية العامة، وخلق أفعال العباد. ثم عرضت لبعض المسائل الهامة المتعلقة بهذه القضية، كالاستطاعة، وتكليف ما لا يطاق. وأما الباب الثالث والأخير في تناول قضايا «النبوات والسمعيات» التي تعرض لها ابن جرير، وقد جعلتهما جميعًا: النبوات والسمعيات، بابًا واحدًا، مراعاة للتوازن الكمي، نوعًا ما، بين أبواب البحث. وقد خرج هذا الباب في أربعة فصول:

الأول، وهو الخاص بقضايا النبوات، يدرس اثنتين من القضايا الرئيسة في «النبوات» وهما دلائل النبوة، وعصمة الأنبياء.

والثاني: يتناول مسائل الإيمان والإسلام، وقد تعرضت فيه لمفهوم الإيمان وحكم الاستثناء فيه، وحكم مرتكب الكبيرة.

والثالث يعرض لبعض مسائل السمعيات، وهي أحوال القبور (عذاب القبر - سماع الأموات)، ثم بعض مسائل الآخرة (الشفاعة - وزن الأعمال).

والفصل الرابع، وهو خاتمة فصول الدراسة تناول مسائل الإمامة، والتفضيل بين الصحابة. ورأى ابن جرير في اشتراط القرشية، وإمامة المفضول، ورأيه في الخروج على الإمام والقتال في الفتنة.

وبعد؛ فهذا هو البحث على ما كان عليه حين أجز في الجامعة، لم أغير من بنائه العام، أو مما فيه من بحوث وآراء شيئا، وإن اضطرتني طبيعة النشر إلى تغيير اسم الدراسة الأصل «آراء الطبرى الكلامية» إلى اسمها الحالي؛ إذ كان الاسم القديم ثقیل الهضم على كثير من القراء، وأرجو أن يكون الأمر فيه سهلا إن شاء الله.

□ بيد أنى - رغم ذلك - أصلحت طائفة مما وقعت فيه من أخطاء، ونبهني عليها أساتذتي الكرام، أو انتبهت إليها فيما بعد، وحررت بعض العبارات تحريرا يسيرا، حسبما سمح لى به الوقت والجهد فى هذه الفترة، وأضفت نصوصا يسيرة، تكشفت لى فيما بعد، تأكيداً لفكرة كانت موجودة فى الأصل، وهى . على أية حال . فى مواطن محدودة جدا .

□ وبذلك أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فى جمع آراء الطبرى فى نَسَقٍ واحد، ودراستها، وبيان موقفه من القضايا المختلفة التى اقتضرت عليها الدراسة .

□ نعم، لم تستكمل الدراسة عرض جميع المسائل الكلامية التى تدرج عادة ضمن هذا النوع من الدراسات؛ إذ كنت مقيدا فى ذلك بما أقف عليه من آراء الطبرى، فلا معنى لذكر ما لم يذكره الطبرى، أو الاهتمام بما لم يهتم به؛ وأما ما لا يخلو منه المرء عادة من ذهول، أو غفلة عن مهم، أو تقصير أحيانا، فهذا أمر معروف من الإنسان، كل إنسان، فليعذر المنصف، إن اللبيب من عذر !!



شكر وتقدير

وبعد، فما بقي إلا أن أشير إلى إحسان من أحسن إلى في بحثي هذا:

□ فأول ذلك أستاذي وشيخي، الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حلمي، الذي كان لهديه وسَمِيَّتِهِ يوم دَرَسْنَا مَادَّةَ الأخلاق في الفرفة الأولى، أثرٌ كبير في توجُّهي نحو التخصص في الفلسفة الإسلامية، ثم كان لإشرافه، بحمد الله ومَنِّه، أكبر الأثر في خروج هذه الدراسة على ما خرجت عليه.

□ وإذا كان لأستاذي المشرف، بعد الله، فضلٌ نَجَازِ هذه الدراسة، فإن لأستاذنا الودود الأستاذ الدكتور عبد الحميد مذكور، الفضل - بعد الله تعالى - في اختياري شخصية الطبري موضعاً لدراستي، فهو الذي دلني عليه، وحثني وشجعني كلما جُمْتُ عنه، ثم لم يَضِنَّ علينا طِيلَةَ هذه الدراسة، في مجلسه، وهاتفه، بما نحتاجه من علمه. ثم أكرمني الله تعالى. بعد ذلك. بمشاركته في مناقشة البحث وتقويمه.

□ وأما أستاذنا الجواد الفضال، الأستاذ الدكتور حسن الشافعي، فقد كان مكتبه ومكتبته نَادِيَنَا الذي لا نزال نعتاده، ننهل من علمه، ونأخذ ما شئنا من كتبه، ولا نقع منه إلا على خير وفائدة.

□ أما أبي وأمي اللذان رَعَيَا هذه الدراسة وصاحبها، بعينهما ودعاهما، وسائر فضلهما، لحظة بلحظة، حتى قُدِّرَ لها أن ترى النور، فكيف أذكر فضلهما، وكيف أشكره، وأنا - كلى - وبحثي، وما ملكت يدي، ملك لهما. فاللهم اجزهما عني خير الجزاء، وأطل عمرهما، وأحسن عملهما، وأحسن ختامهما، وارحمهما كما ربياني صغيراً.

□ ثم آخر ما أشير إليه فضل زوجي الودود الصبور، أم عبد الرحمن، التي

آثرتني على نفسها، ونذرت نفسها - منشرة بما تبذل - لتهيئة الجو المناسب لدراستي، وتحملت عني عبء البيت والولد.

□ إلى هؤلاء جميعا، وإلى غيرهم ممن أحسن إلى، أو أعان على إنجاز هذه الدراسة ولو بدعوة صالحة، ممن يؤثر طي اسمه، أو ذهلت عن ذكره، إليهم جميعا مني جميل الامتنان والشاء، ومن الله عظيم الفضل والجزاء.

وكتب

طه نجا رمضان

البريد الإلكتروني: Tahanaga@hotmail.com

أبواب الأرواح

قضايا منهجية في حياة الطبري وتراثه

الباب الأول

قضايا منهجية في حياة الطبري وتراثه

الفصل الأول

المحنة في حياة الطبري

المبحث الأول

موجز حياته

مولده ونسبه:

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، الإمام صاحب التصانيف المشهورة^(١).

ولد ابن جرير في أكبر مدن إقليم طبرستان، مدينة آمل، التي زخرت بالعديد من العلماء في شتى الفنون^(٢). وكانت ولادته في آخر سنة أربع، أو أول سنة خمس وعشرين ومائتين. قال تلميذه القاضي أبو بكر بن كامل^(٣): «... فقلت له -أى: لابن جرير-: كيف وقع لك الشك في ذلك؟ فقال: لأن أهل بلدنا

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق (١٨/١٦٠).

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت (١/٦٣-٦٥)، (٦/١٧-٢١).

(٣) هو: أحمد بن كامل بن شجرة بن منصور، القاضي أبو بكر البغدادي، أحد أصحاب أبي

جعفر الطبري، ت (٣٥٠هـ)، انظر: تاريخ بغداد (٤/٣٥٧)، موقف الطبري من الفتنة

(١/١٦٦).

يؤرخون بالأحداث والسنين، فأرَّخَ مولدى بحدث كان فى البلد، فلما نشأت سألت عن ذلك الحادث، فاختلف المخبرون لى؛ فقال بعضهم: كان ذلك فى آخر سنة أربع. وقال آخرون: بل كان فى أول سنة خمس وعشرين ومائتين^(١).

طلبه العلم، ووفاته:

نعم ابن جرير بحسن التشيئة والصيانة منذ نعومة أظفاره، وقد أشار هو إلى ذلك، فقال: «رأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله ﷺ وكان معى مخلاة مملوءة حجارة، وأنا أرمى بين يديه. فقال المعبر: إن ابنك، إن كبر، نصح فى دينه، وذبح عن شريعته. فحرص أبى على معونتى على طلب العلم، وأنا حينئذ صبى صغير»^(٢).

وقد تراءت على ابن جرير علائم النبوغ، وهو بعد فى غُضارة الصبا، ويظهر ذلك من قوله: «حفظت القرآن ولى سبع سنين، وصليت بالناس إماما وأنا ابن ثمان سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين»^(٣)، وقال عن التفسير: «حدثنى به نفسى وأنا صبى»^(٤).

وكان أول ما كتب الحديث ببلده، ثم بالرى وما جاورها، .. ثم رحل إلى بغداد ثم البصرة فالكوفة. .. ثم إلى فسطاط مصر، «وكان فيها بقية من الشيوخ، فأكثر عنهم الكِتبة». .. ثم عاد إلى الشام، ثم رجع إلى مصر^(٥). .. وهكذا جدَّ فى التَّرحال، ولُقيا الشيوخ، وجمع فى رحلاته وطلبه «من العلوم

(١) معجم الأدباء لياقوت (١٨/٤٧-٤٨).

(٢) السابق: (١٨/٤٩).

(٣) معجم الأدباء: (١٨/٤٩).

(٤) السابق (١٨/٦٢).

(٥) انظر السابق (١٨/٤٩ وما بعدها)، ابن عساكر (١٨/١٦١).

ما لم يشاركه فيه غيره»^(١). حتى ألقى عصا التَّطواف... واستقر به النوى في بغداد، التي «استوطنها إلى حين وفاته»^(٢) عشية يوم السبت، ودفن في داره، غداة يوم الأحد، لأربع بقين من شوال، في سنة عشر وثلاثمائة^(٣).

هل سمع ابن جرير من الإمام أحمد؟

ذكر د. فؤاد سزكين في ترجمته للطبري أنه «ذهب أول الأمر إلى الري، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد، حيث حضر دروس أحمد بن حنبل»^(٤).

وهذا الذي ذكره د. سزكين، لم أجد له مستنداً فيه، ولم يبين هو مصدره، ولم أقف على أحد، ممن ترجم للإمام أحمد، أو لابن جرير، نص على ذلك^(٥). ومما يُقوّى عدم سماعه من الإمام أحمد أنه لم يترجم له في تاريخه^(٦)، ولم نجد في رواياته في التفسير أو تهذيب الآثار أو التاريخ رواية واحدة صرح فيها بالسماع من أحمد^(٧).

(١) انظر: الأنساب (٤٦/٤)، معجم الأدياء (٥٩/١٨).

(٢) السمعاني: الأنساب (٤٦/٤)، ابن عساكر (١٦٢/١٨)، ابن الجوزي: المنتظم (١٣/٣١٥).

(٣) الأنساب (الموضع السابق)، ابن عساكر (١٧٠/١٨)، وقيل: كانت وفاته بعد ذلك بيوم أو يومين. انظر: المنتظم (٣١٧/١٣)، ابن عساكر: (١٦٩/١٨).

(٤) تاريخ التراث العربي (١٥٩/٢).

(٥) انظر على سبيل المثال: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: الباب الثاني عشر «في ذكر من حَدَّثَ عن أحمد» ص (١٢١) وما بعدها، ص (١٣٦-١٣٨) فيمن اسمه محمد منهم.

(٦) وإنما ذكر طرفاً من أخبار المحنة (٦٣١/٨ - ٦٤٥).

(٧) روى الطبري في بعض مواطن من تاريخه بواسطة شيخ له عن أحمد، غير منسوب، وذكر محققه أنه هو ابن حنبل انظر (٢/٢٩٢، ٣٨٤، ٣٩٠). وهذا وإن لم يكن صريحاً في أنه أحمد بن حنبل، فقد ثبتت هذه الرواية بالواسطة في رسالة صريح السنة، كما يأتي في مسألة اللفظ بالقرآن.

وأصرح من ذلك كله، ما ذكره تلميذ ابن جرير، أبو بكر بن كامل، عن شيخه أنه دخل إلى مدينة السلام (بغداد) وكان في نفسه أن يسمع من أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فلم يتفق ذلك لموته قُبيل دخوله إليها، وقد كان أبو عبد الله قطع الحديث قبل ذلك بسنين^(١).

هل سمع ابن جرير من البخاري؟

إذا طالعنا كتب الرجال والتراجم التي تُعنى بذكر شيوخ الراوى وتلامذته، فإننا لا نجد ذكراً لابن جرير فيمن سمع من البخاري، ولا ذكراً للبخاري في شيوخ ابن جرير.

وأما ما رواه في تاريخه: «حدثنا محمد بن إسماعيل قال: حدثنا قتيبة بن سعيد... أن ابن عباس كان يقول في: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيْكِلَ عَشْرِ ٢﴾ قال: الفجر هو المحرم، فجر السنة»^(٢).

وما رواه في التاريخ أيضاً: حدثني محمد بن إسماعيل قال: حدثنا أبو نُعيم...^(٣)، فشيخه هذا ليس هو البخاري، وإن كان هذا الشيخ يروى هنا عن شيخين يروى عنهما البخاري أيضاً، وإنما هو محمد بن إسماعيل بن أبي ضرار، الضَّرَّارِيُّ (أو الضَّرَّارِي)، أبو صالح الرازي، أحد مشايخ ابن جرير، كما صرح ابن جرير نفسه بنسبته في غير ما إسناد في كتابه تهذيب الآثار^(٤)، وكما ذكر

(١) معجم الأدباء (٥٠/١٨)، وانظر مقدمة محقق التاريخ: (٧/١).

(٢) التاريخ (٣٩٠/٢) ولم يروه في التفسير، وعزه السيوطي في الدر المنثور (٣٤٤/٦) إلى سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب وابن عساكر: ولم يعزه إلى البخاري في شيء من كتبه.

(٣) انظر التاريخ (السابق)، وانظر أيضاً: (٣٨٨/٢) (٣٨٩، ٣٨٤/٢) (٥١٨/٧)، (٥٤٤).

(٤) انظر: مسند علي: الأرقام (٤٤، ١٧٣، ٣٢٨)، وحديث (٤٣)، ومسند ابن عباس (٧١) و(٩٦٠).

ابن حجر في ترجمة الضراري^(١).

لكن، مع ذلك، يبقى إشكال حول ما رواه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [٢٢] إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، حيث قال:

«حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، قال: ثنا آدم، قال: ثنا المبارك عن الحسن، في قوله: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ ﴿٢٢﴾ قال: حسنة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ﴿٢٣﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَنْظُرَ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْخَالِقِ»^(٢). حيث لم أجد ذلك التصريح بـ «حدثنا.. البخاري» إلا في هذا الإسناد الفذ، من بين ما وصلنا من تراث ابن جرير.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرته آنفا من أن أحدا لم يذكر لابن جرير سماعا من البخاري، فقد كنت تخيلت أن يكون في ذلك تحريف من النساخ أو الطابعين، أو أن تكون الصيغة التي روى بها الأثر: حَدَّثْتُ عَنْ مُحَمَّدٍ، كما قد يفعل ذلك أحيانا في أسانيد أخرى^(٣). إلا أنه أوهن ذلك كله، بل رده، أن ابن كثير نقل نفس ذلك الأثر من طريق ابن جرير، وبنفس سياقه له، فقال: قال ابن جرير: حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري^(٤) فذكره، ثم نقله أيضا ابن حجر في فتح الباري، قال: وأخرج -يعني: ابن جرير- عن البخاري عن آدم.. فذكره^(٥). فإذا كانت هذه الصيغة «حدثنا» قاطعة في إثبات سماع الراوي الثقة من أحد الشيوخ^(٦)، فإن هذه الرواية كافية في إثبات سماع ابن جرير من البخاري.

(١) انظر: تهذيب التهذيب (٤١/٥).

(٢) التفسير (١٩٢/٢٩) ط الفكر.

(٣) انظر مثلا: التفسير (٢٣٥/١) ط شاكر.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/٤٥٠).

(٥) فتح الباري (١٣/٤٣٤).

(٦) قال النووي: حدثنا للاتصال بإجماع العلماء.. ا.هـ. شرح صحيح مسلم (٣/١٩).

لكن إذا أغضينا الطرف عن كون ذلك لم يرد إلّا في أثر مقطوع^(١) على الحسن، فيبقى سؤال مشكل حول هذه الجزئية وهو:

أكان يمكن لمن صنف في ترجمة ابن جرير، فذكر شيوخه، أن يترك ذكر البخاري، وهو مَنْ هو؟! أو كان يمكن لمن صنف في ترجمة البخاري، فاستوعب ذكر من سمع منه^(٢)، أن يهمل، لو أهمل أحدا، ذكر محمد بن جرير الطبري وهو أيضا من هو؟

هذا ما لم أجد جوابه حتى الآن، واللّه المستعان.



(١) المقطوع في مصطلح الحديث هو ما رُوي عن التابعي من قوله.

(٢) كالمزى في تهذيب الكمال (٢٤/٤٣٠-٤٦٩)، وذكر الرواة عن البخاري (٢٤/٤٣٤-

٤٣٧): وقد ذكر المزى النسائي في الرواة عن البخاري، بناء على رواية: حدثني محمد...، لم يصرح فيها بأنه البخاري، واختلف المحدثون حول المعنى بـ (محمد)

فيها!!

المبحث الثانى

محنة الطبرى مع الحنابلة

إن من أعظم ما يعانىه العلماء والدعاة هو دلالة الخلق على الخالق سبحانه وتعالى، فإن الله تعالى «اصطفى من خلقه رسلا، ابتعثهم بالدعاء إليه، وأمرهم بالقيام به، والصبر على ما نابههم فيه من جهلة خلقه. وامتحنهم من الحن بصنوف، وابتلاهم من البلاء بضروب، تكرما لهم غير تذليل، وتشريفا لهم غير تحسير...»^(١).

وكما ورث العلماء الأنبياء فى علمهم، لاسيما علماء هذه الأمة، فلقد ورثوا من قَدَرِ الابتلاء ما ورثوا، حتى عبر ابن جرير عن هذه السنة القدرية بقوله: «ثم جعل، جل وعلا، علماء كل نبي ابتعثه منهم ورأته من بعده للقوام بالدين، ثم جعل، جل ثناؤه، علماء أمة نبينا ﷺ من أفضل علماء الأمم التى ضلت قبلها... مع ابتلاء الله أفاضلها بمنافقيها، وامتحانه خيارها بشرارها، ورفعاءها بسفلتها ووضعائها، فلم يك يشيهم ما كانوا به يقابلون^(٢)، ولا كان يصدهم ما فى الله منهم يلقون، عن النصيحة لله فى عباده وبلاده أيام حياتهم، بل كانوا بعلمهم على جهلهم يعودون، ومجلمهم لسفهمهم يتعمدون...»^(٣).

ومهما يكن من أمر هذه الحن، فإنها توشك أن تنكشف، فكأنها ما كانت، إلا أن تكون المحنة فى الدين، فهى التى يتصدع لها القلب، وينفلق الكبد. قال أبو بكر بن كامل: «حَضَرْتُ أبا جعفر حين حَضَرَتْهُ الوفاة، فسألتُه أن يجعل كلَّ

(١) الطبرى: صريح السنة ص (١٥) ط الكويت.

(٢) فى الأصل (مخطوط دار الكتب): يقبلون، وفى ط الكويت: يبتلون.

(٣) السابق (ق ١٦٢-١٦٣)، وص (١٦-١٧) ط الكويت.

من عاداه في جِلٍّ . . . فقال: كل من عاداني وتكلم [فيَّ] ^(١) في حلِّ إلاً رجلاً رمانى ببدعة ^(٢).

وإذا كان هذا الموقف من ابن جرير يُلمح إلى ما ناله من هذه المحنة، فإن أبا عبد الرحمن السلميّ قد لخص هذه المحنة، بقوله لمن سأله عن ابن جرير: «تكلّموا فيه بأنواع» ^(٣).

والذي عمق محنة ابن جرير مع خصومه أنه ما كان يُداجي أحداً، أو يتستر بما اعتقد، بل متى رأى رأياً كاشف به، ولم يبال بما ناله. يقول تلميذه أبو محمد الفرغاني: ^(٤) «وكان ممن لا يأخذه في الله لومة لائم، ولا يعدل في علمه وبيانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين إلى باطل، لرغبة ولا رهبة، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد، فأما أهل الدين والورع فغير منكرين فضله وعلمه . . .» ^(٥).

وكان من غوائل ذلك المزاج أن تألب عليه خصومه حتى نسبوه إلى الرفض، بل من الجهلة من رماه بالإلحاد؟! ^(٦)، وكان أكثر هؤلاء من العوام والرّعا

(١) سقطت من (المعجم) والسياق يقتضيها.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء: (٨٤/١٨)، وانظر موقفاً قريباً منه لأبي بكر بن أبي داود في تاريخ بغداد (٤٦٨/٩).

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق: ١٦٤/١٨ (مخطوط مصور).

(٤) هو عبد الله بن أحمد بن جعفر، أبو محمد الفرغاني، صاحب ابن جرير، وله كتاب (الصلة) على تاريخ ابن جرير (ت ٣٦٢)، انظر ترجمته في تاريخ بغداد (٣٨٩/٩)، سير أعلام النبلاء (١٣٢/١٦).

(٥) تاريخ دمشق (١٦٦/٨) وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: (٢٧٤/١٤).

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية (١٥٧/١١)، وقال ابن الأثير: «وكان على بن عيسى يقول: والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه». هـ الكامل (٦/١٧١).

وأصحاب الهوى^(١).

لكن ابن جرير، وإن لقي من خصومه ما لقي، فإنه - فيما يبدو - لم يكن أحد أشد وطأة عليه من الحنابلة!!

وقد اتفق المؤرخون الذين تعرضوا للعلاقة بين ابن جرير والحنابلة، على أن هذه العلاقة كانت متردية إلى حد كبير. لكن تعددت الروايات حول السبب الذي من أجله وقع الشر بينه وبينهم، حتى وصل الأمر بالحنابلة إلى أن حاولوا منع الاتصال به أو الجلوس إليه، على ما رواه الحاكم قال: سمعت حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ^(٢) يقول: أول ما سألتني ابن خزيمة، فقال لي: كتبت عن محمد ابن جرير الطبري؟ قلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لأنه كان لا يَظْهَرُ، وكانت الحنابلة تمنع من الدخول عليه..»^(٣).

ويظل ذلك الفصل الأسيان من محنة ابن جرير لا ينتهي إلا بنهاية حياته، حتى روى ابن كثير أنه دُفِنَ في داره، لأن بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً^(٤).

ومن خلال الروايات التي بين أيدينا عن هذه المحنة، يمكننا أن نخرج بثلاثة أسباب رئيسة لها:

السبب الأول: هو موقف ابن جرير من الإمام أحمد، وانتقاده بعض آرائه،

(١) انظر: ابن الجوزي: المنتظم (٣١٧/١٣)، سير أعلام النبلاء (٢٧٦/١٤).

(٢) حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ هو: الحسين بن علي التميمي، أبو أحمد الملقب بحسينك، ثقة عابد، كانت تربيته عند ابن خزيمة، وكان ملازماً له. انظر: تاريخ بغداد (٦٧/٨)، البداية والنهاية (٣٢٤/١١).

(٣) انظر: تاريخ دمشق (١٦٤/٨٨)، سير أعلام النبلاء (٢٧٢/١٤)، تاريخ بغداد (٢/١٦٤).

(٤) البداية والنهاية (١٥٧/١١).

بل الغمز من مكانته الفقهية، على ما قيل.

السبب الثاني: عداوته مع بعض علماء الحنابلة، مما أدى إلى تعصب عوامهم عليه.

السبب الثالث: تأثر الحنابلة باتهامات أبي بكر بن داود الظاهري^(١) له. فقد ذكر ابن كثير تهمتهم له بالرفض والإلحاد، ثم قال: «وإنما تَقَلَّدُوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث كان يتكلم فيه، ويرميه بالعظائم والرفض...»^(٢).

أما السبب الثاني: وهو عداوته مع بعض علماء الحنابلة، فقد كان أبو بكر ابن أبي داود^(٣)، قرَنَ ابن جرير في هذه العداوة، ومُقَدِّمَ الحنابلة فيها. قال الذهبي: «وقد وقع بين ابن جرير وبين ابن أبي داود، وكان كل منهما لا ينصف الآخر. وكانت الحنابلة حزب أبي بكر بن أبي داود، فكثروا وشغبوا على ابن جرير، وناله أذى، ولزم بيته، نعوذ بالله من الهوى...»^(٤).

وإذا عرفنا أن ابن جرير رُمي بالرفض، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأن ابن أبي داود كان يرمى بالنصب^(٥)، عرفنا مدى ما كان بينهما، بغض النظر عن

(١) هو محمد بن داود بن علي، أبو بكر الظاهري، علامة بارع ذو فنون، له «كتاب الانتصار في الرد على محمد بن جرير الطبري». ت (٢٩٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ١٠٩-١١٦)، البداية والنهاية (١١/ ١١٧-١١٨).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٥٧). وقارن بمعجم الأدباء (١٨/ ٧٩-٨٠).

(٣) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث، أبو بكر ابن الإمام أبي داود صاحب السنن (ت ٣١٦هـ). قال الخطيب: كان فُهْمًا عالما حافظا. قيل عنه: إنه كان أحفظ من أبيه. انظر. تاريخ بغداد (٩/ ٤٦٤-٤٦٨)، البداية والنهاية (١١/ ١٠٧).

(٤) السير (١٤/ ٢٧٧).

(٥) قال الخطيب: «كان ابن أبي داود يتهم بالانحراف عن علي، والميل عليه» ثم روى عنه أنه كان يقول «كل من كان بيني وبينه شيء... فهو في حل، إلا من رمانى ببغض علي بن

صدق ما رُميا به .

أما ابن جرير، فإنه لما بلغه أن ابن أبي داود يقرأ على الناس فضائل على بن أبي طالب، قال [تهكما]: «تكبيرة من حارس»^(١)!!

ولما بلغه أنه تكلم في حديث (غدير خم)^(٢) عمل كتاب (الفضائل)... وتكلم على تصحيح حديث غدير خم، واحتج لتصحيحه، وأتى من فضائل أمير المؤمنين على بما انتهى إليه...^(٣).

وأما ابن أبي داود فقد أربى في خصومته لابن جرير، ولم يقف عند حد المطارحات الكلامية، بل بلغ - فيما يُروى - أن استعدى عليه السلطان، وألصق به بعض التهم، التي ردها ابن جرير، دون أن يترك - بدوره - حظه من الشرف في هذه الخصومة، حيث أجاب عن القصة التي رفعها ابن أبي داود في شأنه إلى السلطان قائلاً - فيما حكاه ابن الجوزي -: «لا عصابة في الإسلام كهذه العصابة الخسيسة...»^(٤). ويبدو أن ابن الجوزي نفسه، وهو فقيه مؤرخ حنبلي، لم يكن مقتنعاً تماماً بصدق هذه التهم، إلا أنه لم يرتضِ طريقة ابن جرير في الجواب.

= أبي طالب^١. هـ وانظر ميزان الاعتدال للذهبي (١٤٨/٣).

(١) تاريخ بغداد (٩/٤٦٧)، السير (١٤/٢٧٧). وقوله: «تكبيرة من حارس» لم أره في شيء من كتب اللغة والأدب ثم وقفت على تفسير لها من كلام المعلّمي - رحمه الله - يقول: «هذا ليس بجرح؛ إنما مقصوده أنه كما أن الحارس قد يقول رافعاً صوته: الله أكبر، لا ينوي ذكر الله عز وجل؛ وإنما يقصد أن يسمع السراق صوته، فيعرفوا أنه موجود يقظان، فلا يُقْدِمُوا على السرقة؛ فكذلك قد يكون ابن أبي داود يروي فضائل عليّ ليدفع عن نفسه ما رماء بعض الناس من النصب، وهو بغض عليّ (عليه السلام)». هـ التنكيل (ص ٥١٨) ترجمة رقم (١٢٣)...

(٢) تأتي الإشارة إليه في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق (٨/١٦٦)، السير (١٤/٢٧٤).

(٤) انظر: المتنظم (١٣/٢١٧).

نقول ذلك مع اعتبار أن الجزم بوقوع هذه القصة من أصلها ، لا يساعدنا عليه المصدر الوحيد الذى وقفت عليها فيه ، وهو كتاب ابن الجوزى ، والذى ساقها من غير إسناد يمكننا من النظر فى صحتها .

وأما السبب الأول من أسباب هذه المحنة ، وهو ما روى من موقف ابن جرير من الإمام أحمد نفسه . . . فقد كان ذلك ، فيما يبدو ، هو بيت القصيد فى هذه القصة .

ومن بين الروايات التى تتحدث عن موقفه من الإمام أحمد ، يمكن الخروج بروايتين :

الرواية الأولى تذكر أنه جمع كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، لم يُصنَّف مثله ، وأنه لم يذكر فيه أحمد بن حنبل^(١) . ف قيل له فى ذلك ، فقال : لم يكن فقيها ، وإنما كان محدِّثا ؛ فاشتد ذلك على الحنابلة^(٢) .

وأما الرواية الأخرى ، التى ذكرها ياقوت عن عبد العزيز بن هارون ، فتقول : إن ابن جرير لما قدم بغداد . . قصده الحنابلة ، فسأله عن أحمد بن حنبل ، وكان ذلك فى الجامع يوم الجمعة ، وسأله عن حديث الجلوس على العرش فقال : أما أحمد بن حنبل فلا يعد خلافة . فقالوا له : فقد ذكره العلماء فى الاختلاف فقال : ما رأيته روى عنه ، ولا رأيت له أصحابا يعول عليهم ، وأما حديث «الجلوس» فمحال . ثم أنشد :

(١) فُقِدَ جُلُّ هذا الكتاب ، وطبعت منه قطعتان صغيرتان ، إحداهما سنة (١٩٠٢م) والأخرى

سنة (١٩٣٣م) انظر مقدمة الشيخ محمود شاكر لتهديب الآثار -مسند عمر- (١٢/١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل (١٧١/٦) وقد اعتذر د. الحوفى عن ذلك بأنه لم يفعل إلّا ما فعله

بعض سابقيه ولاحقيه . انظر : أحمد محمد الحوفى : الطبرى ص ٢٢ . وانظر قريبا من

هذه النظرة للحنابلة عند آدم متز فى كتابه : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع (١/

٣٨٨) . وأحمد أمين : ضحى الإسلام (٢/ ٢٣٥) . وانظر الأسباب التى أدت إلى هذه

النظرة ، والرد عليها فى كتاب (ابن حنبل) للشيخ محمد أبو زهرة (٧-٨) .

سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَنْيْسٌ وَلَا لَهُ فِي عَرْشِهِ جَلِيسٌ
فلما سمع منه الحنابلة ذلك، وَثَبُوا عليه فرموه بمحابرهم. وقيل: كانت ألوفا
فقام ودخل داره، فرموا داره بالحجارة.. وركب صاحب الشرطة في جند معه،
ومنع العامة عنه، وأمر برفع الحجارة..

ثم إنه خَلَا في داره، وعمل كتابه المشهور في الاعتذار إليهم، وذكر مذهبه
واعتقاده وجرح من ظن فيه غير ذلك...^(١).

وأول ما يرد حول هذه القصة أنها لم توجد في كتاب مُسْنَدٍ، مما بين أيدينا
من المصادر، الأمر الذى لا يمكن معه الجزم بثبوتها^(٢). فإذا أضيف إلى ذلك أن
جميع ما بين أيدينا من المصادر التى ترجمت للطبرى -سوى معجم الأدباء- لم
تذكرها، كان ذلك دافعا قويا للتشكك فى أمرها.

أما إذا ما نظرنا إلى القصة فى نفسها، فإن أول ما يُبَادِهُنا هو السبب الذى
دارت حوله، وهو تفسير الإمام أحمد للمقام المحمود بأنه الجلوس على العرش،
ومبالغة ابن جرير فى الإنكار عليه، مما أدى إلى تعصب الحنابلة على ابن جرير.
وعند التأمل فى ذلك السبب نجد أن قدرًا كبيرًا من الشك يكتنفه، يمكن أن
نخرج منه بأن هذه القصة، إن لم تكن مختلقة من أصلها، فإن قدرًا كبيرًا من
التزويد قد داخلها.

وآية ما قلنا أن فى صحة ذلك التفسير عن الإمام أحمد نظرًا شديدًا، إذ إن ابن
القيم ذكر بضعة وعشرين اسمًا ممن قال بهذا القول، حتى ذكر عبد الله ابن

(١) انظر: معجم الأدباء (١٨/٥٧ - ٥٩)، ضحى الإسلام (٣/٢٠٠-٢٠١)، (الطبرى)
للحوفى: (٢٥٨-٢٦٠). ويبدو أن الإشارة هنا إلى رسالته (صريح السنة) انظر ما سيأتى
ص (١٦).

(٢) توسع فى نقد هذه القصة وبيان عدم ثبوتها الباحث: مشهور حسن سلمان فى كتابه
«قصص لا تثبت» (٢/١٠٠-١١٤) وقد أفدت منه فى ذلك.

الإمام أحمد، ولم يذكر الإمام أحمد فيهم^(١).

ولو كان ذلك القول مسنداً إليه، أو صحيح النسبة، لم يكن ليذكر هؤلاء جميعاً ثم يترك ذكر إمام المذهب، بل إمام السنة!!

ثم إن طعننا في صحة هذا القول عن الإمام أحمد، ليس بأولى من الطعن فيما تقوله القصة من أن ابن جرير أنكره عليه... أو بالغ في إنكاره!! وذلك أن ابن جرير لما ذكر في تفسيره القولين في تفسير المقام المحمود المذكور في قول الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]، ورجح أنه مقام الشفاعة، عاد وعقّب على القول الثانى، الذى يفسره بالقعود على العرش، بأنه «غير مدفوع صحته لا من جهة خبر ولا نظر...» وبالعكس في تصحيح ذلك حتى تكلف له جدلاً لا يكاد يقبل^(٢).

فهل يمكن بعد ذلك أن نترك ما تثبته هذه المصادر، ومنها كتاب ابن جرير نفسه، الذى هو أشهر كتبه وأهمها، لرواية لا زمام لها ولا خطام؟؟ لقد تنبه د. الحوفى إلى ذلك التناقض، غير أنه لما أراد أن يفسره ذكر له احتمالين، فى صورة استفهام، وكأنه لم يترجح عنده أى منها، فقال: «فهل يرجع هذا إلى أنه بعد معاداة الحنابلة له، رجع عن رأيه، وذهب إلى أن رأيهم غير مستحيل لِيَرَضَاهُمْ؟!

وإذا كان لم يُعَرَفْ فى حياته أنه عدل عن رأى من آرائه، ليجارى أصحاب رأى آخر، فهل لى أن أفترض أن ما زيد على تفسيره لهذه الآية مدخول عليه^(٣)؟! هكذا كان تفسيره لهذه المشكلة!!

والواقع أن كُلاً من الاحتمالين اللذين ذكرهما لا يمكن قبوله عند البحث

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣٩/٤).

(٢) انظر التفسير (١٥/١٤٣-١٤٧) ط الفكر، وقارن: تفسير القرطبي (١٠/٣١١).

(٣) الطبري: (٢٦٢ - ٢٦٣).

والتأمل. أما الفرض الأول فإن افتراض عكسه، لو صح لنا أن نفترضه، أدنى إلى القبول. بمعنى أن ابن جرير يكون قد أملى التفسير، وكان رأيّه حينها رأى الحنابلة في ذلك، ثم إنه عاد فخالفهم. وذلك أنه أملى تفسيره ما بين عام ثلاثة وثمانين ومائتين، وعام تسعين ومائتين^(١)، فيكون إملأؤه لهذا القول في [سورة الإسراء] قبل عام تسعين بعامين على أقل تقدير، في حين أن هذه القصة، إن ثبتت، كان ينبغي أن تكون ما بين عام تسعين ومائتين، عام رجوعه من طبرستان إلى بغداد^(٢)، وعام أربعة وتسعين الذي توفي فيه أبو عبد الله البياضي، أحد من تعصبوا على ابن جرير في تلك الكائنة^(٣). وهذه التواريخ تؤيد الفرض العكسي الذي ذكرناه، فيكون رجوعه عن ذلك، وقوله الجديد سبب محتمة مع الحنابلة التي ذكر بعض المؤرخين أنها استمرت إلى أن توفي ابن جرير^(٤).

لكن يردُّ على ذلك أيضا أمور:

الأول: أنه يبعد جدا أن يوافق ابن جرير رأى الإمام أحمد في أول الأمر، ثم يعود فيخالفه ويشتد على أحمد وأصحابه بسبب ذلك، ثم يعود على بدئه، ليخلو في داره، ويعمل كتابا في الاعتذار إلى الحنابلة. . ويصوب اعتقاد أحمد ومذهبه. . ويظل على ذلك إلى أن يموت، على ما ذكره ياقوت^(٥).

والثاني: أنه كان يمكن للحنابلة: أن يردُّوا على ابن جرير غلواءه عليهم، بأنه ذكر ذلك القول في تفسيره وتكلف لتصحيحه، فكيف يغلو الآن في رده، من غير أن يشير إلى أنه كان قد قاله، ثم رجع عنه؟!

(١) انظر: تاريخ بغداد (٢/١٦٤)، تاريخ دمشق (١٨/١٦٤).

(٢) معجم الأدباء: (١٨/٥٦، ٥٧).

(٣) انظر: قصص لا تثبت (٢/١٠٤-١٠٥).

(٤) انظر ما سبق ص (١٠).

(٥) معجم الأدباء (١٨/٥٩).

والثالث: أنه لم يثبت لدينا أن ابن جرير تراجع عن رأى له في التفسير، وهو ما يذكره د. الحوفى نفسه، ولو كان ذلك لُعني تلامذته بنقله لماله من الأهمية^(١).

والأمر الأخير الذى يرد هذا التفسير، أن ابن جرير عاد إلى إقراء تلامذته هذا التفسير، على ما كتب فى أول النسخة التى بين أيدينا: «فى سنة ست وثلاثمائة»^(٢). وهذا التاريخ لابد أن يكون بعد الواقعة المزعومة!!

وأما الفرض الثانى الذى ذكره د. الحوفى فهو أبعد من الأول، ويرده أنه مبنى على صحة هذه القصة التى إن لم نقطع بطلانها، على ما يؤدى إليه النقد الداخلى لها، فإنها، على الأقل، لا تقوى على أن يؤسس عليها ذلك الفرض الخطير.

فأين هذه النسخ التى كتبها تلامذته، ونشروها؟! وإذا كانت النسخ التى بين أيدينا فى المشرق، تتفق مع النسخ التى كانت فى يد المغاربة^(٣) فى إثبات ذلك القول، فأين إذا النسخ الصحيحة؟! ومتى وأين حدث ذلك الدّخل؟!!

الواقع أن إرسال مثل ذلك الفرض، أو قبوله، يفتح الباب لأن يقول من شاء، فيما شاء، من ذلك التفسير، بل من غيره من التراث العلمى: إن ذلك مدخول على صاحبه.. أو على الأقل محتمل!!

وإذ قد انتهى بنا البحث ذلك المنتهى، فالذى يَصِحُّ للباحث أنه كان لابن جرير ميل عن اختيارات الإمام أحمد الفقهية؛ يشي بذلك تركه ذكره فى (اختلاف

(١) انظر: قصص لا تثبت (٢/١٠٨-١٠٩)، وقد ذكر فيه وجوها أخرى فى بيان بطلان هذه القصة منها أن صاحب الشرطة (نازوك) المذكور فى القصة لم يتسلم الشرطة إلا سنة (٣١٠هـ) فى حين أن البياضى المذكور بتعصبه على ابن جرير فى القصة توفى سنة (٢٩٤هـ) انظر (٢/١٠٥ وما بعدها).

(٢) مقدمة تفسير الطبرى (٣/١) ط شاكر.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣١١/١٠) حيث ذكر ذلك عن ابن جرير.

الفقهاء) وما حكاه من خلاف فقهي في (تفسيره) وما وصلنا من (تهذيب الآثار).

إلا أن ما بدا لنا من ذلك إنما هو في الجانب الفقهي فقط، وذلك أنا نجد ابن جرير في اعتقاده (صريح السنة) يذكر الإمام أحمد بما يكاد يوحى للناظر فيه لأول وهلة أنه حنبلي، كأشد ما يكون حنبلي إجلالا لإمامه واعتدادا بآرائه؛ فقال عند كلامه حول مسألة «اللفظ بالقرآن»:

«وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضي، ولا تابعي قفا، إلا عمن في قوله الغني، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله عندنا مقام الأئمة الأولى، الإمام المرتضى أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، رضي الله عنه. ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله؛ إذ لم يكن لنا فيه إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع، رحمة الله عليه»^(١).

وإذا كان تاريخ هذه العلاقة قد دخله قدر كبير من التزويد، فإن ما أشيع عن ابن جرير في حياته، وعودى من أجله، لم يكن، فيما يبدو، خلوا من التزويد والافتراء أيضا، الأمر الذي حدا به إلى أن يقول، بعد أن ذكر اعتقاده:

«الذي ندين الله به في الأشياء التي ذكرناها ما بيننا لكم، على وصفنا، فمن روى عنا خلاف ذلك فهو كاذب مفتر، متخرص معتد، يبوء بسخط، وعليه غضب الله ولعنته في الدارين»^(٢).

وهذا التزويد عليه في حياته هو ما عبر عنه ابن خزيمة بقوله: «ولقد ظلمته الحنابلة»^(٣).

(١) صريح السنة (مخطوط ق ١٦٦-١٦٧)، ص (٢٥-٢٦) ط الكويت.

(٢) السابق (ق ١٦٧)، وانظر ميزان الاعتدال (٣/١٤٩).

(٣) تاريخ بغداد (٢/١٦٤)، تاريخ دمشق (١٨/١٦٤).

المبحث الثالث

تهمة التشيع

لم تكن محنة ابن جرير مع الحنابلة هي كل ما هنالك؛ وإنما حملت في أطوائها فصلاً آخر، ربما كان من توابع الأول وآثاره، وذلك الفصل هو تهمة التشيع، ذلك الأمر الذي اختلفت الأقوال حول مدى ما بلغ ابن جرير منه؛ فعلى حين يرى الذهبي في (ميزانه) أنه «ثقة صادق فيه تشيع يسير وموالاته لا تضر»^(١)، فينسب إليه قدرًا من التشيع لا يحيط من شأنه، ولا يُطعن فيه من أجله، نجد في موطن آخر أميلَ إلى نفى هذه التهمة من أسسها؛ فيقول: «وكان ابن جرير من رجال الكمال، وشُنع عليه بيسير تشيع، وما رأينا إلا الخير»^(٢).

ولم يقف الأمر عند حد تهمة التشيع، بما تحتمله من أن يكون يسيرًا، أو غالبًا، حتى صرح بعضهم باتهامه بالرفض^(٣).

قال الذهبي: «وأقذَع أحمد بن علي السليماني»^(٤) الحافظ، فقال: كان يضع

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال (٤/٤١٩).

(٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٧).

(٣) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من نسب إلى التشيع من أهل العلم بالحديث لم يكن يبلغ أن يفضل عليًا، على أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعًا، فإن ذلك لا يعرف في علماء الحديث، بل غاية المتشيع منهم أن يفضلوه على عثمان، أو يحصل منه كلام أو إعراض عن ذكر محاسن من قاتله، ونحو ذلك. انظر منهاج السنة (٧/٣٧٣)، وأيضًا: تهذيب التهذيب (١/٦٣) لابن حجر، ترجمة أبان بن تغلب.

(٤) هو أحمد بن علي بن عمرو السليماني البُيْكَندِي البخاري، الإمام الحافظ المعمر، محدث ما وراء النهر، لم يكن له نظير في زمانه إسناده وحفظًا، ودراية وإتقانًا. لكن قال الذهبي: رأيت للسليماني كتابًا فيه حط على الكبار، فلا يسمع منه ما شذ فيه. مولده (٣١١هـ) ووفاته (٤١٢هـ). انظر: الباب، لابن الأثير (١/١٩٩)، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ =

للروافض^(١) وهذا ما أباه عليه الذهبي؛ فقال: «وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعى عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى». ثم اعتذر عن السليمانى بأنه لعله أراد: محمد بن جرير بن رستم^(٢)، أبا جعفر الطبرى، وهو رافضى له تواليف.

وقد ذكر ابن حجر أن ممن اتهم ابن جرير بالرفض أبا حيان، فقال: «وقد اغتر شيخ شيوخنا أبو حيان بكلام السليمانى؛ فقال فى الكلام على الصراط فى أوائل تفسيره: وقال أبو جعفر الطوسى، وهو إمام من أئمة الإمامية: الصراط بالصاد، لغة قريش وهى اللغة الجيدة، وعامة العرب يجعلونها سينا، والزأى لغة لُعْدَرَة^(٣)».

وأول ما يَرِدُ على ذلك أن الذى نقل عنه أبو حيان هنا، ووصفه بهذا الوصف، هو «أبو جعفر الطوسى» كما فى كتاب أبى حيان نفسه، البحر المحيط، وابن جرير ليس طوسيا، ولا علاقة له بطوس كما هو معروف؟! ثم إن الكلام الذى نقله أبو حيان هنا ليس فى تفسير ابن جرير^(٤)، وهو ما يؤكد أن أبا حيان إنما يعنى شخصا آخر رافضيا، ليس هو ابن جرير الطبرى، فظن ابن حجر أنه يعنى: محمد بن جرير الطبرى.

= ٢٠٠ - ٢٠٢.

(١) الميزان (٤/٤١٩)، وانظر أيضًا: لسان الميزان (٥/١١٥)، الممتزج لابن الجوزى (١٣/٣١٧).

(٢) انظر ترجمته فى الميزان و(لسانه) وسير الأعلام. . بعد ترجمة ابن جرير مباشرة. وجزم ابن حجر فى اللسان بما ذكره الذهبي.

(٣) لسان الميزان (٥/١١٥) والنقل فى البحر المحيط لأبى حيان (١/٤٥) ط دار الفكر، (١/٢٥) دار الكتاب الإسلامى بمصر. و«عُدرة» اسم قبيلة كبيرة من قضاة. انظر: الباب لابن الأثير (٢/٣٣١).

(٤) انظر التفسير (١/١٧٠) ط شاكر.

وهذا الشخص الآخر هو: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى [٣٨٥-٤٦٠هـ]^(١) وقد نقل عنه أبو حيان عدة مرات فى تفسيره هكذا (أبو جعفر الطوسى)^(٢). وأما ابن جرير فإنه ينقل عنه كثيراً فى تفسيره باسمه: محمد بن جرير الطبرى^(٣)، أو نسبته: الطبرى^(٤)، وهذا هو الأغلب، أو كنيته: ابن جرير^(٥)، ولم أره كناه بأبى جعفر مرة واحدة.

ثم إن أبا حيان ينقل عن ذلك الرافضى آراء يُقطع بأنها ليست هى آراء محمد بن جرير الطبرى، ومن أمثلة ذلك أنه نسب إليه مجلدة كبيرة فى مسألة الرؤية وأنه نصر فيها مقالة أصحابه نفاة الرؤية^(٦). وهذا ليس مذهب ابن جرير قطعاً، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى الباب الثانى.

فوضح من ذلك كله أن أبا حيان لم يتهم ابن جرير بالرفض، كما ذكر ابن حجر، وأنه إنما عنى ذاك الرافضى.

فإذا أردنا أن نتعرف الأسباب التى أدت إلى إثارة هذه التهمة حول ابن جرير، فإننا نقتصر هنا على ثلاثة منها^(٧)، لعلها أهم ما يقال فى ذلك:

(١) ترجم له ابن كثير فى البداية (١٠٤/١٢) وقال: فقيه الشيعة وشيخ الطائفة فى زمانه وله تفسير كبير وهو (التبيان فى تفسير القرآن). وانظر حول الطوسى وتفسيره هذا كتاب بين الشيعة والسنة، دراسة مقارنة فى التفسير وأصوله د/ على السالوس (٢١٣-٢٢٥).

(٢) انظر (١/٤٢، ٤٥، ٣٤١)، (٣/٥٨٥) وتصحف فيه إلى (الطاوسى) (٤/٦٠٦) دار الفكر.

(٣) انظر: ٢/٣٦، ٣/١٥ ط الفكر.

(٤) انظر مثلاً: ١/٥١، ٣٠١، ٤٥/١١، ط الفكر.

(٥) انظر ٢/١٣٧، ج٣/ ١٨٠.

(٦) انظر: (١/٣٤١)، (٤/٦٠٦) ط دار الفكر.

(٧) توسع فى عرض هذه الأسباب ونقدها د. محمد آمحزون فى كتابه القيم: تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة فى ضوء روايات الطبرى والمُحدّثين (١/١٨٧ - ٢٠١) وقد أفدت منه

السبب الأول: أنه صحح حديث غدير خم^(١).. وفيه أن النبي ﷺ قال: «من كنت مولاه، فعلي مولاه..»^(٢). ولما كانت أخبار الغدير من أهم ما تعلق به الرافضة في تصحيح مذهبهم، فلقد نُسب ابن جرير إلى الرفض بسبب تصحيحه لذلك الحديث.. قال ابن حجر: «وإنما نبز بالتشيع لأنه صحح حديث غدير خم»^(٣).

وهذا الحديث مما تنازع الناس في صحته، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه حسنه، كما حسنه الترمذي^(٤) بل قال الذهبي في الروايات التي جمعها ابن جرير لهذا الحديث: «جمع طرق حديث غدير خم، في أربعة أجزاء (!!) رأيت شطره، فبهرنى سعة رواياته، وجزمت بوقوع ذلك»^(٥).

فليس ابن جرير وخذه هو الذي صحح هذا الحديث، من أهل السنة، حتى يرمى بالرفض من أجله، بل صححه جمع من أهل الحديث سواء، حتى جزم مثل الذهبي بوقوعه. ومثل ذلك مما لا يصلح التذرع به لنبزه بهذه التهمة. والسبب الثاني: أنه قال بمسح الرجلين في الوضوء. قال ابن الجوزي:

= كثيرًا في ذلك، وسوف أشير إليه في موضع النقل والإفادة، إن شاء الله.

(١) غدير خم: موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان. انظر معجم البلدان لياقوت (٦/٢٦٩)، (٣/٤٦٥-٤٦٦).

(٢) انظر سنن الترمذي، مع شرحها «تحفة الأحوذى» (١٠/٢١٤-٢١٦).

(٣) لسان الميزان (٥/١١٥)، وانظر حول أهمية هذا الحديث عند الرافضة: ابن تيمية: منهاج السنة.. (٧/٣١٣-٣٢٥)، الألوسي: مختصر التحفة الاثني عشرية (١٧٦-١٨٠).

(٤) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة (٧/٣١٩-٣٢٠)، وانظر في تخريج الحديث وذكر من صححه: الألباني: السلسلة الصحيحة رقم (١٧٥٠)، د. محمد آمحزون: السابق (١/١٨٨-١٩٠).

(٥) السَّيَر (١٤/٢٧٧). وانظر في مخالفة الطبري للشيعة فيما بنوه على هذا الحديث: د. محمد آمحزون السابق (١/١٩٠-١٩٣).

«كان ابن جرير يرى جواز المسح على القدمين، ولا يوجب غسلهما - فلهذا السبب نسب إلى الرضا^(١)».

وقبل مناقشة ما ذكر عنه في هذه المسألة، وما قاله أهل العلم فيها، يحسن بنا الوقوف على كلامه هو، لتبين رأيه منه، قال:

«القول في تأويل قوله - عز ذكره ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]:
اختلفت القراءَةُ في قراءة ذلك. فقرأه جماعة من قراءَةِ الحجاز والعراق: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ نصبًا.. عطفًا على (الأيدي) وتأول قارئو ذلك كذلك، أن الله، جل ثناؤه، إنما أمر عباده بغسل الأرجل، دون المسح بها...
وقرأ ذلك آخرون من قراءَةِ الحجاز والعراق: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بخفض الأرجل؛ وتأول قارئو ذلك كذلك، أن الله إنما أمر عباده بمسح الأرجل في الوضوء، دون غسلها، وجعلوا الأرجل عطفًا على الرأس، فخفضوها لذلك^(٢)...»

ثم قال:

والصواب من القول عندنا في ذلك، أن الله - عز ذكره - أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم، وإذا فعل ذلك بهما المتوضي، كان مستحقًا اسم (ماسح غاسل)؛ لأن غسلهما إمرار الماء عليهما، أو إصابتهم بالماء، و(مسحهما) إمرار اليد أو ما قام مقام اليد عليهما. فإن فعل ذلك بهما فاعل، فهو غاسل ماسح».

«فإذا كان «المسح» المعنيان اللذان وصفنا: من عموم الرجلين بالماء، وخصوص بعضهما به؛ وكان صحيحًا بالأدلة الدالة التي سنذكرها بعد، أن

(١) المنتظم (٢١٧/١٣)، وقارن: ابن كثير: البداية (١٥٧/١١ - ١٥٨)، الحوفي (الطبري)

ص (٢٥٧)، ولم يتعرض د. محمد آمحزون لذلك السبب.

(٢) انظر التفسير (١٠/٥٢ - ٦١) ط شاكر.

مراد الله من مسحهما العموم، وكان لعمومها بذلك معنى «الغسل» و«المسح» فيبين صواب قَرَأَةِ القراءتين جميعًا؛ أعني: النصب في «الأرجل» والخفض؛ لأن في عموم الرجلين بالماء^(١) غسلهما، وفي إمرار اليد، وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.

فوجهُ صواب قراءة من قرأ ذلك نصبًا، لما في ذلك من معنى عمومهما بإمرار الماء عليهما.

ووجه صواب قراءة من قرأ خفضًا، لما في ذلك من إمرار اليد عليهما، أو ما قام مقام اليد، مسحًا بهما...».

ثم قال:

«فإن قال قائل: وما الدليل على أن المراد بالمسح في الرجلين العموم، دون أن يكون خصوصًا، نظير قولك في المسح بالرأس؟

قيل: الدليل على ذلك، تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار»^(٢)، ولو كان مسح بعض القدم مجزئًا من عمومها بذلك، لما كان لها الويل بترك ما تُرك مسحها بالماء، بعد أن يُمسح بعضها؛ لأن من أدى فرض الله عليه فيما لزمه غسلها منها، لم يستحق الويل، بل يجب أن يكون له الثواب الجزيل...»^(٣).

(١) في الأصل: لأن في عموم الرجلين بسمحهما بالماء غسلهما، ولعل الصواب ما أثبت.
(٢) لم يسنده الطبري بزيادة ويطون الأقدام؛ ورواه بهذا اللفظ: أحمد (١٧٧١٠ - الرسالة) والحاكم (١/١٦٢)، والبيهقي (١/٧٠)، من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه.
وصححه الذهبي في «تهذيب سنن البيهقي» كما في فيض القدير (٦/٤٧٩)، وصححه أيضًا: الألباني في صحيح الجامع، ومحقق المسند.

والحديث بدون زيادة «ويطون الأقدام» ثابت في الصحيحين وغيرهما، وذكره الكتاني في نظم المتناثر من الحديث المتواتر، رقم (٣٠).

(٣) مقتطفات من التفسير (١٠/٦١ - ٦٤) ط شاكر.

وأول ما يدلُّنا عليه ذلك النص أن المسح عند ابن جرير، لا بد فيه من عموم الرجلين بالماء ظاهراً وباطناً، فلا يُجْزى مسح جزء منهما، أو ظاهرهما فقط، كما هو مذهب المجتزين بالمسح^(١) من الرافضة.

ثم إن المسح في اللغة يطلق على الغسل أيضاً؛ فيقال للرجل إذا توضأ: قد تَمَسَّح. والمسح يكون مسحاً باليد وغسلاً^(٢). فالمسح «جنس تحته نوعان: الإسالة وغير الإسالة.. فما كان بالإسالة، فهو الغسل. وإذا خص أحد النوعين باسم الغسل، فقد يخص النوع الآخر باسم المسح. فالمسح يقال على المسح العام الذي يندرج فيه الغسل، ويقال على الخاص الذي لا يندرج فيه الغسل..»^(٣).

ونحن إذا تدبرنا كلام ابن جرير ظهر لنا أنه لم يُردِّ بمسح الرجلين المسح الذي هو قَسِيمُ الغسل، بل المسح الذي هو جنس الغسل نوعٌ منه^(٤). فهو يرى أن المسح الذي تدل عليه قراءة الجر التي اختارها يتضمن الغسل، وزيادة إمرار اليد على الرجل، وذلك هو المعروف بالدلك، لكنه لما عبر عن ذلك الرَّجْلِ، بالمسح، لم يفهم كثير من الناس مراده^(٥)، وجَرَّ ذلك عليه وجوهاً من الغلط: فأما أولها وأذهبها في الغلط عليه، فهو نسبته إلى القول بالاكْتِفَاءِ بالمسح، وبالمفهوم الذي عنته الرافضة، ومن ثم نسبته إلى الرفض؟!!

ولما حُكِيَ مثل ذلك عنه، وكان معلوماً لدى محققي العلماء أن كلامه لا يدل عليه، عُدَّ غلطاً عليه من قائله. قال ابن حجر: «ولعل ما حكى عن محمد ابن

(١) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة (١٧٢/٤، ١٧٤)، فتح الباري (٣١٩/١).

(٢) انظر: لسان العرب (٤١٩٦/٦)، وأيضاً: الراغب الأصفهاني: المفردات (٤٦٧).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة (١٧٢/٤)، وانظر: الشنقيطي: أضواء البيان (١٣-١٤).

(٤) انظر: منهاج السنة (١٧٣/٤).

(٥) انظر: ابن كثير: التفسير (٢٦/٢)، والبداية والنهاية (٥٨/١١).

جرير من الاكتفاء في الوضوء بمسح الرجلين، إنما هو هذا الرافضي، فإنه مذهبهم^(١)، وهذا الذي ذكره ابن حجر احتمالاً، جزم به ابن السبكي^(٢).

وأما الثاني فنسبته إلى القول بوجوب الجمع بين الغسل والمسح^(٣). قال ابن كثير «ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر الأعضاء ولكنه عبر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك»^(٤).

وأما الثالث فالقول بأنه يُخَيَّر بين المسح والغسل^(٥) وقد قدمنا مفهوم المسح عنده، ومفهومه عند القائلين به، وسبب ترجيحه لقراءة الجر التي استدل بها القائلون بالمسح.

والسبب الثالث، من أسباب اتهامه بالفرض هو سرده لبعض الروايات التي يتعلق بها الرافضة، أو يتأيد بها مذهبهم.

ومن هذه الروايات ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه الآية على

(١) لسان الميزان (١١٧/٥).

(٢) الإبهاج شرح المنهاج (٣/٢٣٩-٢٤٠). وتحرف ابن جرير فيه إلى ابن حجر، وهو خطأ ظاهر (!!) ومرت الإشارة إلى الرافضي الذي قصدها.

(٣) حُكي مثل هذا القول عن بعض الظاهرية والناصر للحق من الزيدية. انظر: نيل الأوطار (١٦٨/١)، التفسير الكبير للرازي (١٢٧/١١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٢٦)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار (٦/١٩٠).

(٥) انظر: أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن (٢/٥٧٧)، النووي: شرح صحيح مسلم (٣/١٦١).

رسول الله ﷺ دعاني فقال لي: «يا علي: إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين...» وذكر الحديث بطوله، وفي آخره أن عليا قال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك. فأخذ برقبتي، ثم قال: «إن هذا أخي، وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا»^(١).

ومع أن هذه الرواية مما تعلق به الرافضة لتصحيح مذهبها، فإنني لم أر من تذرع برواية ابن جرير لها، فاتهمه بالرفض إلا باحثا معاصرا^(٢) قطع في مبحث خطابي (!!) بنسبة ابن جرير إلى التشيع بناء على ذلك. قال: «إن مشكلة التشيع من المشاكل التي قوضت دعائم الوحدة الإسلامية؛ أقول هذا والأسى والحزن يملآن قلبي (!!) ويزداد الأسى والأسف عندما أذكر أن الإمام الطبري، شيخ المؤرخين، وإمام المفسرين كان متشيعا (!!) ولا أدل على ذلك من الحديث الذي أورده في تفسير سورة الشعراء...»^(٣).

وبغض النظر عن أسلوب الباحث في عرض تهمته، فغير خفى أن مجرد ذكر رواية كهذه^(٤) ليس دليلاً كافياً للقطع بمثل تهمة التشيع، خاصة إذا عرفنا أن منهج الطبري، بل وكثير من المحدثين، أن يسوق ما انتهى إليه مسندا، حول

(١) التفسير (١٩/١٢١-١٢٢) ط الفكر، التاريخ (٢/٣١٩-٣٢٢) وفيه: إن هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم. وفي رواية، قال علي: فضرب بيده على يدي قال: فبذلك ورث ابن عمي أ. هـ ولم يتعرض د. محمد آمحزون لهذا.

(٢) هو الباحث: عبد الرؤوف محمد عثمان في رسالته للدكتوراه حول: النحو في تفسير ابن جرير الطبري، المقدمة إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر. وهي في المكتبة المركزية للجامعة تحت رقم (٩٧٣).

(٣) الرسالة السابقة (٥٢-٥٣).

(٤) وقع عند ابن جرير، كما وقع عند غيره من المحدثين، روايات أخرى من هذا القبيل، مثل حديث: «أنا دار الحكمة وعلي بابها». [تهذيب الآثار - مسند على رقم (٨)] وروايات أخرى تشبهها.

الموضوع الذى يتحدث فيه، وليس ذلك قطعاً منه بصحة كل ما ذكر، فضلاً عن أن يكون تصحيحاً لما بناه غيره على تلك الروايات. يقول ابن تيمية: «كتب التفسير التى يوجد فيها هذا، مثل تفسير ابن جرير وابن أبى حاتم والثعلبى والبغوى، ينقل فيها بالأسانيد الصحيحة ما يناقض هذا.. ولكن هؤلاء المفسرين ذكروا ذلك على عادتهم، أنهم ينقلون ما ذكر فى سبب نزول الآية من المنقولات الصحيحة والضعيفة، ولهذا يذكر أحدهم فى سبب نزول الآية عدة أقوال، ليذكر أقوال الناس وما نقلوه فيها، وإن كان بعض ذلك هو الصحيح، وبعضه كذب»^(١).

وإذا كان ابن جرير قد بدأ بذكر الروايات الثابتة فى نزول هذه الآية، ثم ذكر هذه الرواية الواهية^(٢)، بناء على القاعدة التى مرت فى كلام ابن تيمية، فليست نسبته إلى التشيع بناء على ذكرها، بأولى من دفعها عنه بناء على ما ذكر من الروايات الصحيحة. بل قد مر فى كلام شيخ الإسلام أن ابن جرير لم ينفرد بهذه الرواية، وإنما رواها ابن أبى حاتم، والبغوى وغيرهما، ولا نعلم أن أحداً من هؤلاء اتهم بالرفض من أجل أنه ذكر هذه الرواية.

وإن تعجب من رمى ابن جرير بالرفض أو التشيع بسبب هذه الروايات، فلا أعجب من اتهامه بذلك بناء على أنه نقل فى تفسيره شعر الكُمَيْت بن زيد، وهو شاعر معروف بالتشيع^(٣). ومما نقله عنه قوله فى معنى «حم» وأنها اسم:

(١) منهاج السنة (٧/ ٣٠٠-٣٠١).

(٢) انظر التفسير (١٩/ ١١٨-١٢٣) ط الفكر، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٩ وما بعدها)، وفتح البارى (٨/ ٣٦٠-٣٦٢). وانظر بيان بطلان هذه القصة وبطلان تعلق الرفض بها فى: منهاج السنة (٧/ ٣٠٢)، تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥١).

(٣) هو الكُمَيْت بن زيد بن حُنَيْس، شاعر مُقَدَّم، عالم بلغات العرب، كان معروفاً بالتشيع. (١٢٠هـ). انظر: الأغاني (١٧/ ٤٢).

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمَ آيَةً تَأْوَلُهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعَرِّبٌ^(١)
وهذا السبب من أغرب ما روى ابن جرير لأجله بالتشيع، لما هو معروف من
استشهاد العلماء قاطبةً بالأشعار في مصنفاتهم، لا يبالون بمذهب القائل أو
هواه، أو حتى دينه. وليت شعري، أيلتزم صاحب هذا الرأي طرد الباب في
هذه التهمة، فيفتح الباب لزاعم أن يتهم ابن جرير بالنصب حين يروى عن
شعراء أمويي الهوى، كعبيد الله بن قيس الرقيّات^(٢). أو لآخر فينسبه إلى
النصرانية إن روى شعر الأخطل^(٣)، و هلم جرا؟! وإلا فما الفرق^(٤)؟!

وبعد، فلسنا في حاجة إلى مسلك "الإلزام" مع من يتهم ابن جرير بذلك،
لأننا نقول: إن من دفع تهمة التشيع، بكل درجاتها، عن ابن جرير، وبنفس هذا
المنهج - أعني: استنباط مذهبه مما يرويه من الشعر - هو أسعد بالحجة من
مخالفه، وذلك أن ما استشهد به من شعر الكميت لا يعدو كونه شاهداً على معنى
لغوى، حتى إن البيت الذي ذكرناه نقل ابن جرير الاستشهاد به عن غيره.

في حين أنه قد تعرض لقضية الحكم على الشعر من حيث هو، وما ورد فيه من
أخبار بمدحه وأخرى بدمه^(٥)، واختار أن الشعر كسائر الكلام، حسنُه حسن،

(١) التفسير (٤٠/٢٤) ط الفكر، ونقل عنه أيضاً في تهذيب الآثار (٢/٨١٠، ٨٩٢ عمر) (١/٤٦٤ ابن عباس)، (٢٦٥ المفقود).

(٢) انظر: د. محمد آمحزون: موقف الصحابة. (١٩٧/١-١٩٨). وعبيد الله بن قيس
الرقيّات هو عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك، شاعر قرشي في العصر الأموي، توفي
نحو (٨٥هـ). انظر: الأغاني (٤/١٩٦) وحاشية المحقق.

(٣) هو غياث بن غوث بن الصلت، شاعر نصراني من أهل الجزيرة، غلب لقبه عليه. توفي
نحو (٩٠هـ). انظر: الأغاني (٨/٢٩٠) وحاشية المحقق.

(٤) يقول الجاحظ: .. «وَعَبَّئِي بِحِكَايَةِ قَوْلٍ؛ فَحَكَمْتُ عَلَيَّ بِالنَّصَبِ لِحِكَايَتِي قَوْلَ الْعُثْمَانِيَّةِ،
فَهَلَا حَكَمْتُ عَلَيَّ بِالتَّشْيِيعِ لِحِكَايَةِ قَوْلِ الرَّافِضَةِ. ١٢٠هـ من الحيوان (١/١١) وهذا

كالذي نحن فيه!!

(٥) انظر الحديث رقم (١٦) من مسند عمر (٢/٦١٦-٦٩١).

وقيحه قبيح^(١). ثم قال: «ذُكِرَ بعض ما حضرنا ذكره ممن روى، أو قال الشعر، من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين، ومنهم من كان يسمعه، ويأمر بروايته أو قيله»^(٢) ويَبَيَّن أنه إنما يريد أنهم كانوا يقولون الشعر (الحسن) لا القبيح الذي لا يرى ذكره ولا سماعه.. ثم كان من ذلك الشعر (الحسن) الذي قاله (السلف) أو سمعوه، ما رواه عن عمرو بن العاص، أنه لما انكشفت الحرب بصفتين، قال:

شَبَّتِ الحربُ فَأَعْدَدْتُ لَهَا مُفْرِعَ الحَارِكِ مَرْوِيَّ الشَّبَجِ^(٣)
.. وأنشأ عبد الله بن عمرو يقول:

لَوْ شَهِدْتُ جُمْلَ مُقَامِي وَمَشْهَدِي بِصِفَتَيْنِ يَوْمًا، شَابَ مِنْهَا الذَّوَائِبُ
عَشِيَّةَ جَا أَهْلَ الْعِرَاقِ كَأَنَّهُمْ سَحَابُ رَبِيعٍ، رَفَعَتْهُ الْجَنَائِبُ
فَقَالُوا لَنَا: إِنَّا نَرَى أَنْ تُبَايَعُوا عَلِيًّا، فَقُلْنَا: بَلْ نَرَى أَنْ تُضَارَبُ^(٤).

وليس تخفى دلالة هذين النصين على ما زعمنا؛ فالقائلان عمرو بن العاص وابنه عبد الله، ومقامهما بصفتين مع معاوية في مقابلة على - رضوان الله عليهم جميعا - مشهور^(٥).

ثم مع ذلك هما من (السلف) الذين احتج بروايتهم للشعر (الحسن) على مذهبه في قبول ما شاكل ذلك (من الشعر الحسن). ثم هذا الشعر الحسن كان في

(١) السابق (٢/ ٦٥٤ و ٦٦٥).

(٢) السابق (٢/ ٦٥٤ و ٦٥٥).

(٣) قال الشيخ محمود شاكر في شرحه (مُفْرِعَ الحَارِكِ) أى مشروع أعلى كاهله، وقوله (مرؤى الشبج) معظم الظهر و(مرؤى) من (روى الجبل ربا) فله ا. هـ السابق (٦٧٣ حاشية).

(٤) قال الشيخ محمود شاكر - رحمه الله: (أن تضارب) هكذا في المخطوطة وفي العقد الفريد (٥/ ٣٨٤)، وفي غيرهما: (أن تضاربوا). انظر السابق (٢/ ٦٧٢-٦٧٣).

(٥) انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٤/ ٢٤٦).

شأن (صفين) واختيارهم القتال على بيعة علي!!^(١).

وثم نص آخر، من ذلك الشعر (الحسن) أيضا، رواه الطبري عن مُسلم البَطِين^(٢)، من أبيات يقول فيها:

أَتَى تُعَاتِبُ لَا أَبَالَكَ عُصْبَةً عَلِقُوا الْفِرَى وَبَرَوْا مِنَ الصَّدِيقِ
سَفَهَا تَبَرَّوْا مِنْ وَزِيرِ نَبِيِّهِمْ تَبَّا لِمَنْ يَبْرَأَ مِنَ الْفَارُوقِ
إِنِّي عَلَى رَغَمِ الْعُدَاةِ لِقَائِلٌ دَنَا بِدَيْنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ^(٣)

وهذه الأبيات، واستحسان ابن جرير -تبعاً للسلف- معانيها، من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى تعليق حول دلالتها على موقف ابن جرير من مذهب الرافضة وموقفهم من الصحابة^(٤).

بيد أنها تُسلمنا إلى نص آخر يشير فيه ابن جرير إلى بعض أنواع الغلو الرافضي في شأن علي عليه السلام ويقرّنه بغلو النصارى في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام!! فقد روى عن الحسن البصري أنه قال: «أَحِبُّوا هَوْنًا وَأَبْغِضُوا هَوْنًا، فَقَدْ أَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي حُبِّ أَقْوَامٍ فَهَلَكُوا، وَأَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي بَغْضِ أَقْوَامٍ فَهَلَكُوا. لَا تُفْرَطُ فِي حُبِّكَ، وَلَا تُفْرَطُ فِي بَغْضِكَ»^(٥).

(١) وانظر ما ذكره ابن الأثير عن عبد الله بن عمرو في ذلك، وندمه عليه، في: أسد الغابة (٣/٣٥٠).

(٢) هو مسلم بن عمران البطين، ويقال: ابن أبي عمران، أبو عبد الله الكوفي، ثقة روى له الجماعة انظر: الكاشف للذهبي (٣/١٤١)، تهذيب التهذيب (٥/٤٣١).

(٣) تهذيب الآثار - مسند عمر - (٢/٦٨١)، وروى ابن أبي عاصم هذه الأبيات أيضا في كتاب السنة له رقم (١٠٠٦، ١٠٠٧)، وقال الألباني في تخريجه لكتاب السنة (ظلال الجنة): إسناده صحيح اهـ (٢/٤٧١).

(٤) يأتي ذكر موقف ابن جرير من الصحابة في الباب الثالث، إن شاء الله.

(٥) تهذيب الآثار - مسند علي - رقم (٤٤٧).

ثم قال بعده: «وأما قول الحسن . . فإنه كما قال -رحمة الله عليه: أفرطت النصرارى فى حب عيسى ابن مريم حتى قالوا: هو ابن الله، جل الله عما قالوا وعز. وأفرطت الغالية من الرافضة فى حب على رحمة الله عليه، حتى قال بعضهم: هو إلههم، وقال بعضهم: هو نبى مبعوث، وقال آخرون فيه أقوالاً عجيبة . .»^(١).

على أنا نعود لنُغلق باب هذه التهمة -تهمة الرفض- عن ابن جرير، بِمَرَّةٍ، ونزعم أن ابن جرير يُكفر الرافضة (!!).

ودلينا على ذلك ما رواه بإسناده فى ترجمة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب -فى كتابه ذيل المذيل- قال: حدثنى . . عن سليمان بن قرم، قال: «قلت لعبد الله بن الحسن: أفى قِبلتنا كفار؟! قال: نعم، الرافضة»^(٢).

ونعم، لا تصلح هذه الرواية دليلاً على ما زعمنا، اللهم إلا على مذهب من استدل بما رواه من شعر الكُميت على تشيعه (!!)، لكن عَصِدَ ذلك ما رواه عن ابن جرير تلميذه: عبد العزيز بن محمد الطبرى^(٣)، قال: « . . وكان يُكفر من خالفه فى كل مذهب، إذ كانت أدلة العقول تُدفع^(٤)، كالقول فى القدر، وقول من كفر أصحاب رسول الله ﷺ من الروافض والخوارج، ولا يقبل أخبارهم ولا شهاداتهم. وذكر ذلك فى أول كتابه فى الشهادات، وفى الرسالة وفى أول ذيل المذيل . .»^(٥).

(١) السابق ص (٢٨٧-٢٨٨).

(٢) المنتخب من كتاب ذيل المذيل للطبرى، مطبوع مع تاريخه (١١/٦٥١).

(٣) هو محمد بن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق، أبو الحسن الطبرى. قرأ على أبى الحسن الأشعري، وسمع من ابن جرير الطبرى تفسيره للقرآن. توفي بعد عام (١٣٠ هـ). ترجم له

ابن عساكر فى تاريخه (١٠/٣٨٥)، نقلاً عن د. محمد آمحزون (١/١٥٤).

(٤) تُدفعُ: كذا، ولم أستبناها، ولعله سقط «لا» قبلها؛ «أدلة المعقول» لا تدفع . .

(٥) نقل ذلك ياقوت فى معجم الأدباء (١٨/٨٣).

ولسنا بعدُ في حاجة إلى مقارنة رأى ابن جرير في كل مسألة من مسائل الأصول (أصول الدين) بمذهب الرافضة، لأن هذا تطويل لم نر له فائدة^(١)، إلا أننا إذا عرفنا بوجه عام أن الرافضة كانت في بدء أمرها أميلَ إلى التجسيم، ثم لما اختلطت بالمعتزلة صارت أميل إلى التعطيل^(٢)، وعرفنا - فيما بعد إن شاء الله - مذهب ابن جرير في ذلك، تبينا جلياً بُعدَ ما بينهما. ومع ذلك فسوف نشير في (مسألة الإمامة) إلى مخالفة ابن جرير لما عليه الروافض فيها، بل رده عليهم، وهى من أكبر الأصول الفارقة بين أهل السنة والرافضة، الذين سموا - لغلوهم في شأنها - بالإمامية.



(١) وقد عقد د. محمد آمحزون في كتابه: موقف الصحابة من الفتنة.. فصلاً لهذه المقارنة.

انظر (١/٢٠١-٢٠٧).

(٢) انظر ذلك التطور في مذهب الرافضة عند الأشعري، في المقالات (١/١٠٦-١٠٩)،

وابن تيمية في: منهاج السنة (٢/١٠٣، ٢٢٠).

الفصل الثاني

أصول المعرفة عند الطبري

تمهيد:

تعد أصول المعرفة (مدارك العلوم) من المعالم الرئيسة للفكر في شتى ميادينها، يقوم عليها، ويتأثر بها في توجهاته ومشكلاته^(١). ولقد كان الخلاف حول هذه الأصول، ومنهج البحث فيها، من أهم أسباب الخلاف وتوسيع دائرة الجدل بين الفرق الكلامية، الأمر الذي عبر عنه أحد المحققين المصنفين في علم الكلام، وهو ابن الوزير اليماني (٨٤٠ هـ)، بقوله: «الذي وسع دائرة المراء والضلال، هو البحث عما لا يُعلم، والسعى فيما لا يدرك، وطول السير والسعى في الطريق التي لا توصل إلى المطلوب...».

ثم قال -بعده بصفحات-: «فلو استطاع أهل الكلام أن يضعوا موازين حق، تميز الحق من الباطل، على وجه يقطع الخلاف، ويشفي الصدور، مثل موازين أهل الدنيا، ما كرهوا ذلك. وهم لا يَتَّهِمون بالتقصير في ذلك، وإنما أتوا من أنهم تركوا الاعتماد على الحق من الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...»^(٢).

ولهذه الأهمية، عُنِيَ المصنفون في علم الكلام بالبحث في مدارك العلوم،

(١) انظر: عبد الرحمن الزيندي: مصادر المعرفة بين الفكر الديني والفلسفي ص (١٧) وما بعدها، وأيضاً ص (٩٤-٩٦)، وانظر أيضاً: المدخل إلى دراسة علم الكلام، لأستاذنا د. حسن الشافعي: ص (١٣٣-١٣٥).

(٢) ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق ص (٤، ١٣)، وقارن مقدمة ابن خلدون (٤٢٣-٤٢٥).

كمقدمة ضرورية بين يدى العلم^(١)، ثم انتقل ذلك عنهم -فيما يبدو- إلى الأصوليين في مصنفاتهم^(٢).

وأما ابن جرير: فقد درج في رسالته التبصير، على ما درج عليه المتكلمون، من تقديم القول في مدارك العلوم فكان أول فصل في رسالته تلك -بعد مقدمتها- هو: «القول في المعاني التي [بها] تدرك حقائق المعلومات من أمور الدين...»^(٣).

وفي هذا الفصل يذكر «أن كل معلوم للخلق من أمر الدين والدنيا لن يخرج من أحد معنيين: من أن يكون إما معلوما لهم بإدراك حواسهم إياه، وإما معلوما لهم بالاستدلال عليه بما أدركته حواسهم»^(٤).

وإذا كان الذى يعنيه -ويعني هنا- هو ما يعرف به (الدين) فإنه يقول: «ثم لن يعدو جميع أمور الدين الذى امتحن الله به عباده، معنيين: أحدهما توحيد الله وعدله. والآخر شرائعه التى شرعها لخلقه من حلال وحرام وأقضية وأحكام»، قال:

«فأما توحيد عدله فمدركة حقيقة علمه استدلالا بما أدركته الحواس. وأما شرائعه فمدركة حقيقة علم بعضها حسا بالسمع، وعلم بعضها استدلالا بما أدركته حاسة السمع...»^(٥).

(١) انظر -مثلا- التوحيد للماتريدى (ص ٤ وما بعدها)، أصول الدين للبغدادى (١٤-٢٠)، (٢٨-٢٤).

(٢) انظر البرهان للجوينى (١/١٠٢) وما بعدها، البحر المحيط للزركشى (١/٣٦) وما بعدها.

(٣) التبصير ص (١١٢)، ولفظة [بها] سقطت من المطبوع، فاستدركتها من المخطوط (ق٣ب).

(٤) السابق، نفس الصفحة.

(٥) السابق ص (١١٣).

وأول ما يقفنا عليه هذا النص^(١) أن المعرفة الحسية «عند ابن جرير، ليست قسماً للمعرفة الخبرية والمعرفة العقلية، كما هو المعروف، وإنما نراه يُعد المعرفة (الخبرية) أحد أقسام المعارف الحسية، لأن طريقها (وهو السمع) أحد الحواس الخمس، التي هي أدوات هذه المعرفة الحسية.

وفي ضوء ذلك يمكننا أن نفهم كون الشرائع مدركة حقيقة علم بعضها (حساً بالسمع)؛ وهذا (البعض) هو ما دل عليه نص من النصوص. وفي هذا المعنى يقول: «... وأما ما أدركت حقيقة علمه منه حساً، فغير لازم فرضه أحدًا إلا بعد وقوعه تحت حسه...، وذلك أنه من لم يتته إليه الخبر بأن الله - تعالى ذكره - بعث رسولا يأمر الناس بإقامة خمس صلوات كل يوم وليلة، لم يجز أن يكون معذبا على تركه إقامة الصلوات الخمس، لأن ذلك من الأمر الذي لا يدرك إلا بالسمع، ومن لم يسمع ذلك ولم يبلغه، فلم تلزمه الحجة به، وإنما يلزم فرضه من ثبتت عليه به الحجة...»^(٢).

وأما ما لم يرد فيه خبر (خاص) من أحكام الشرائع، فإنه يدرك «استدلالاً بما أدركته حاسة السمع». ومراده بالاستدلال هنا: القياس الشرعى على ما ورد فيه النص، فيُستدل بالمحسوس من أحكام الشرائع - بعد وقوعه تحت الحس - على نظائره التي لم تقع تحت الحس، ويحكم له بنظيره»^(٣).

وإذا كان هذا هو حكم الشرائع، فإن التوحيد والعدل إنما تدرك «حقيقة علمه استدلالاً بما أدركته الحواس»^(٤) عموماً، ولم يخص هنا حاسة دون أخرى.

(١) على ما يثيره استخدامه لمصطلحات (الحس) و(الاستدلال) فى غير معناها المتداول، من إشكال وغموض.

(٢) التبصير: ص (١١٥-١١٦).

(٣) السابق ص (١٢٠).

(٤) السابق ص (١١٣).

وليس من المحتمل أن يكون مراد ابن جرير بـ (الاستدلال) هنا، هو نفس مراده به في أحكام الشرائع، والذي ذكرنا أن معناه عنده هناك: القياس. فإن الله تعالى لا مثل له، فيقاس به قياس تمثيل، ولا يجتمع هو وغيره تحت كُلِّ مستوى أفراده، فيدرك بقياس الشمول^(١)، وإنما مراده بذلك: الاعتبار بما تدركه الحواس (وحاسة البصر خصوصاً) في الآفاق والأنفس، مما يدل على وجود الخالق تعالى ووحدانيته^(٢). يقول:

«الأدلة على وحدانية الله - جل جلاله - وأسمائه وصفاته وعدله كلها مؤتلفة غير مختلفة، ليس منها شيء إلا وهو في ذلك دال على مثل الذي دلت عليه الأشياء كلها؛ ألا ترى أن السماء ليست بأبين في الدلالة من الأرض، ولا الأرض من الجبال، ولا الجبال من البهائم، ولا شيء من المحسوسات، وإن كبر وعظم، بأدل على ذلك من شيء فيها، وإن صغر ولطف...»^(٣).

وإذا كان ذلك يدل على اعتداد ابن جرير بالنظر العقلي طريقاً للمعرفة الاعتقادية، فإن قوله الذي ذكرنا آنفاً: «فأما توحيده فمدركة حقيقة علمه استدلالاً بما أدركته الحواس» ليس يعني عزل الدليل السمعي عن المدارك الكلامية، أو الحجية في (عدل الله وتوحيده)، بل يعني أن النظر العقلي طريق كافٍ في الوصول إلى وحدانية الله وعدله، بحيث تقوم الحجة به. ويبقى (الدليل السمعي) طريقاً آخر لإدراك الحق، وثبوت الحجة. سيما و(السمع) الذي هو طريق الدليل السمعي، أحد (الحواس) التي يستدل بها أدركته على توحيد الله

(١) انظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية ص (١٥٠).

(٢) وهذه مشكلة أخرى فيما يخص جانب (المصطلح) عند ابن جرير، أعنى: استعماله للمصطلح الواحد في أكثر من مدلول.

(٣) التبصير: (١١٢) وانظر: قواعد المنهج السلفي، لأستاذنا د. مصطفى حلمي، ص

وعدله .

وهذا المعنى الذى ذكرناه يبدو واضحاً فى تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ هُوَ الَّذِى يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَوتُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ ﴾ [الحديد: ٨، ٩]، يقول: «وما شأنكم أيها الناس لا تقرون بوحدانية الله، ورسوله محمد ﷺ يدعوكم إلى الإقرار بوحدانيته، وقد أتاكم من الحجج على حقيقة ذلك ما قطع عذرکم، وأزال الشك من قلوبكم. . إن كنتم تريدون أن تؤمنوا بالله يوماً من الأيام، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لتتابع الحجج عليكم بالرسول وأعلامه، ودعائه إياكم إلى ما قد تقررت صحته عندكم بالأعلام، والأدلة، والميثاق المأخوذ عليكم»^(١).

وعلى الرغم من أن الجمع بين الدليلين السمعى والعقلى، مع اعتبار الأول هو الأصل، كان هو فريضة البحث الكلامى الذى نشأ أصلاً - كما يقوله علماءه ومؤرخوه - لدراسة العقائد الإيمانية، بعد فرضها صحيحة من الشرع^(٢)، فلقد انحسر سلطان الدليل النقلى فى البحث الكلامى، شيئاً فشيئاً، لحساب الدليل العقلى، ليثول الأمر فى نهايته على يد متأخري المتكلمين إلى عزله تماماً عن الحجية فى قضايا التوحيد والعدل، والاعتماد على الدليل العقلى فحسب^(٣).

وفيما يلى - إن شاء الله تعالى - محاولة لعرض موقف ابن جرير من كل من

(١) التفسير (٢٧/٢١٨) ط دار الفكر.

(٢) انظر: شرح المقاصد للتفتازانى (١/١٧٤)، مقدمة ابن خلدون (٤٣٠)، د. الشافعى: المدخل (١٣٧).

(٣) انظر: ابن أبى الخير: الانتصار فى الرد على المعتزلة (١/١١٦)، ابن تيمية: نقض المنطق (٧٥-٧٦).

الدليلين، السمعى والعقلى، مع الإشارة إلى الموقف الكلامى، خاصة لدى المعتزلة الذين هم أشهر مَنْ يُعْنَى ابن جرير برد مقالاتهم.



المبحث الأول

موقف الطبرى من الدليل السمعى

أولاً: الكتاب والسنة:

على حين يقرر المتكلمون أنفسهم أن أدلة القرآن المستقيمة على عدل الله - تعالى - وتوحيده، هي مما اختص به القرآن، ومن أدلة كونه من عند الله تعالى^(١)، وأن مراد الله - تعالى - هو ما تقتضيه هذه الأدلة من حيث لا يجوز عليه اللبس^(٢)، حتى قال القاضى عبد الجبار المعتزلى «فى إعجاز القرآن»: «واتفق أيضاً استنباط الأدلة التى توافق العقول، وموافقة ما تضمنه لأحكام العقل على وجه يبهر ذوى العقول ويحيرهم؛ فإن الله سبحانه يُنبّه على المعانى التى يستخرجها المتكلمون بمعاونة وجهدٍ بالفاظ سهلة قليلة، تحتوى على معانٍ كثيرة، كما ذكره عز وجل فى نقض مذاهب الطوائعين فى قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ﴾ الآية [الرعد: ٤]. وفى الآيات التى ذكرها فى نفى الثانى، وفى غير ذلك من الأبواب التى لا تكاد تحصى»^(٣).

فإن هذه الأدلة لم تبق لها مكانتها الطبيعية أمام الدليل العقلى، على ما ألحنا إليه من قبل. يقول القاضى عبد الجبار: «الدلالة أربعة: حجة العقل، والكتاب

(١) المغنى للقاضى عبد الجبار (٣٤٢/١٦)، وانظر قريباً من ذلك عند الباقلانى فى: إعجاز القرآن ص (٤٢).

(٢) المغنى (٣٥٣/١٦).

(٣) نقله ابن الوزير عن المجلد الرابع من «المحيط فى النبوات»، انظر: العواصم والقواصم (٤٣٩/٣)، وانظر أيضاً: ابن تيمية: بيان تلبس الجهمية (٢٤٦/١)، درء التعارض (١/٢٨).

والسنة والإجماع.

ومعرفة الله تعالى لا تُنال إلا بحجة العقل^(١). فقدم (حجة العقل)، على (الدلالة السمعية) ثم سلب السمع حجتيه في معرفة الله تعالى. وغاية ما للسمع في ذلك أن يكون مُؤكِّدًا لما يقرره الدليل العقلي. يقول الجبائي: «إن سائر ما ورد به القرآن في التوحيد والعدل، ورد مُؤكِّدًا لما في العقول. فأما أن يكون دليلاً بنفسه ابتداءً، فمحال»^(٢).

وأما السنة، فقد كان من الممكن دائماً رد كل ما يخالف المذهب منها بدعوى أنه (خبر آحاد) فلا يقبل فيما طريقه العلم. وهذا نجد عليه مثلاً واضحاً في موقف القاضي عبد الجبار من الأحاديث المثبتة لرؤية الله -تعالى- خلافاً لمذهب المعتزلة، فقال: «إن جميع ما رَوَوْهُ وذكروه أخبار آحاد، ولا يجوز قبول ذلك فيما طريقه العلم؛ لأن كل واحد من المُخْبِرِينَ يجوز عليه الغلط فيما يخبر به، ويصح كونه كاذباً فيه. ولا يجوز أن ندين ونقطع على الشيء من وجه يجوز الغلط فيه؛ لأننا لا نأمن بالإقدام على اعتقاده من أن يكون جهلاً، ولا نأمن أن تكون أخبارنا عنه كذباً، وإنما يُعمل بأخبار الآحاد في فروع الدين، وما يصح أن يتبع العمل به غالب الظن، فأما ما عداه فإن قبوله فيه لا يصح، ولذلك لا يُرجع إليه في معرفة التوحيد والعدل وسائر أصول الدين...»^(٣).

ويتلخص هذا الموقف المنهجى إزاء الدليل السمعي بعامته في أمرين:
الأول: دفع الاستدلال بالدليل السمعي على محل النزاع، إما لأن هذا المحل

(١) شرح الأصول الخمسة ص(٨٨)، وانظر: رسائل العدل والتوحيد (٩٦/١).

(٢) المغنى (٤/١٧٤-١٧٥) وهذا هو المفهوم من نص عبد الجبار في «المحيط» السابق، فائدة القرآن «توافق العقول»!!.

(٣) القاضي عبد الجبار: المغنى (٤/٢٢٥)، وانظر شرح الأصول الخمسة له (٦٩٠)، والمعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري (١٠٢/١).

-وفق أصولهم- لا يقبل فيه الدليل السمعى من حيث الأصل^(١)، وإما لأن هذا الدليل (المعين) خبر آحاد لا تقوم به الحجة.

والثانى: تأويل الدليل المعين بما يوافق المذهب^(٢).

وقد تسرب هذا الموقف عن المعتزلة إلى غيرهم من الفرق، لا سيما متأخرى الأشاعرة (والرازى خصوصا) الذين بلغ هذا الموقف أوجَهه على أيديهم^(٣).

وأما أهل الحديث (السنة) فقد جعلوا هذا الموقف فارقا بين منهجهم ومنهج المتكلمين. يقول ابن السمعاني^(٤): «اعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعا للمعقول، وأما أهل السنة فقالوا: الأصل فى الدين الاتباع، والمعقول تبعٌ...»^(٥).

وهذا النص وأمثاله كثير فى هذا المعنى، يُبرز لنا المنهج العام لأهل السنة؛ من حيث احتجاجهم بالنصوص (الدليل السمعى) فى المقام الأول، فى موارد

(١) انظر على سبيل المثال: شرح الأصول الخمسة (٢١٢، ٣٨١)، وانظر أيضا د. الشافعى: المدخل، ص (١٥١-١٥٢).

(٢) يأتى الكلام على قضية التأويل، وموقف ابن جرير منها فى الفصل القادم، إن شاء الله تعالى.

(٣) انظر د. الشافعى: المدخل (١٥٣)، وما بعدها.

(٤) هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد، أبو المظفر بن السمعاني، قال فيه ابن السبكي: «الرفيع القدر، العظيم المحل، المشهور الذكر، أحد من طبق الأرض ذكره، وعقب الكون نثره»، ت ٤٨٩ هـ. انظر طبقات الشافعية (٥ / ٣٣٥-٣٤٦).

(٥) روى ذلك عن ابن السمعاني تلميذه: قوام السنة الأصبهاني فى كتابه المحجة فى بيان الحجة (١/ ٣٢٠) ونقله السيوطى فى (صون المنطق) ص (١٨٢) عن كتاب الانتصار لأهل الحديث لابن السمعاني - وهو من كتبه المفقودة. وانظر قريبا من ذلك المعنى عند ابن أبى الخير فى: الانتصار (١/ ١١٦).

النزاع.

وسوف نحاول فيما يلي، إن شاء الله تعالى، تلخيص أهم الأصول التي يدور عليها تقريرهم لحجية خبر الآحاد، على وجه الخصوص، في مجال العقائد، كما هو كذلك في الأحكام؛ أولاً: لكثرة الخوض والخلاف حوله، لاسيما لدى المتأخرين. وثانياً: لأنه إذا ثبتت حجية خبر الواحد في ذلك، فلأن ثبتت حجية المتواتر - بله القرآن - أولى وأولى.

ويمكننا تلخيص ذلك الموقف - من تقرير حجية خبر الواحد والرد على المخالف في أربعة أصول رئيسية:

الأصل الأول: أن قبول خبر الواحد في الدين - بعامة - من غير تفريق بين العقائد والأحكام، هو منهج سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، والذين عنهم أخذ الدين، وإنما اخترع ذلك الإنكار المعتزلة:

«قال عباد بن العوام^(١): قدم علينا شريك بن عبد الله^(٢)، فقلنا: إن عندنا قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث؛ أن الله عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا، وأن أهل الجنة يرون ربهم. فحدثني شريك بنحو عشرة أحاديث في هذا، وقال: أما نحن فأخذنا ديننا عن أبناء التابعين، عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم عمّن أخذوا»^(٣).

(١) هو عباد بن العوام بن عمر الكلابي، مولاهم، أبو سهل، ثقة، روى له الجماعة، ت (١٨٥ هـ ٩). تقريب التهذيب (٤٨٢).

(٢) هو شريك بن عبد الله النخعي الكوفي، أبو عبد الله، القاضي بواسط، صدوق يخطئ كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلاً عابداً فاضلاً، شديداً على أهل البدع، ت (١٧٧ هـ) أو (١٧٨ هـ). انظر ميزان الاعتدال (٢/ ٤٦٠-٤٦٤)، تقريب التهذيب (٤٣٦).

(٣) رواه عن شريك: الدار قطنى فى كتاب الصفات (٧٣)، والبيهقى فى الأسماء والصفات

الأصل الثانى: أن من فرقوا بين العقائد والأحكام، فضلا عن مخالفتهم لمنهاج السلف، متناقضون مع أنفسهم، لأن نَقْلَةَ الأخبار فى هذه هم نقلتها فى تلك، فإما أن يطرّدوا الأصل فيردّوا السنة بأسرها، وإلا تناقضوا. يقول الإمام البخارى: «وَحَرَّمَ اللَّهُ - عز وجل - أهل الأهواء كلهم أن يجدوا عن أشياءهم، أو بأسانيدهم، حكما من أحكام الرسول، أو فرضا أو سنة من سنن المرسلين، إلّا ما يعتلون بأهل الحديث إذ»^(١) بدا لهم، كالذين جعلوا القرآن عضين، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض. فمن رد بعض السنن، مما نقله أهل العلم، فيلزمه أن يرد باقى السنن، حتى يتخلّى من السنن والكتاب، وأمر الإسلام أجمع. والبيان فى هذا كثير»^(٢).

الأصل الثالث: أنه «لا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلّا بصدق المخبر، إلّا فى الخاص القليل من الحديث»^(٣). وإذا «كان موجودا فى العامة وفى أهل الكذب الحالات التى يصدقون فيها الصدق الذى تطيب به نفس المحدثين، كان أهل التقوى والصدق فى كل حالاتهم أولى أن يتحفظوا عند أولى الأمور بهم أن يتحفظوا عندها..»^(٤).

= (٣٧٤ / ١) وغيرهما، وصحح الألبانى إسناده فى مختصر العلو (١٤٩). وبقي على منهج السلف فى هذا أهل الحديث، وجمهور الفقهاء - المتقدمين - والمتكلمين، وحكى ابن عبد البر وغيره إجماع السلف عليه. انظر التمهيد لابن عبد البر (٧/ ٨-٧)، المسودة لآل تيمية (٢٤٥ - ٢٤٦)، مختصر الصواعق (٥٨٢)، وانظر ما نقله السيوطى فى صون المنطق (١٦١) عن ابن السمعانى.

- (١) إذ: كذا فى مصر والكويت، ولعلها: إذا.
- (٢) خلق أفعال العباد ص (٩٠)، وقد روى البيهقى هذا المعنى أيضا عن إسحاق بن راهويه: الأسماء والصفات (٣٧٥ / ٢)، وانظر أيضا رسالة السجزي إلى أهل زيد ص (١٨٦).
- (٣) الرسالة للإمام الشافعى: فقرة رقم (١٠٩٩).
- (٤) السابق: فقرة (١٠٨٩)، وانظر: الإحكام لابن حزم (١/ ١١٧)، وأيضا: كلام ابن السمعانى فى: صون المنطق ص (١٦٤).

ولا يجوز أن يُتهم حديث الثقة بحجة إمكان الوهم والنسيان عليه، بلَّه الكذب؛ إذ «المسلمون العدوُّ عدوُّ أصحاب الأمر في أنفسهم، وقولهم عن خبر أنفسهم وتسميتهم على الصحة والسلامة حتى نستدل من فعلهم بما يخالف ذلك، فنحترس منهم في الموضع الذي خالف فعلهم فيه ما يجب عليهم»^(١).

وهذا الأصل الثالث، وإن كان من تقرير الإمام الشافعي -رحمه الله- في كتبه، فإنه، بعد ما قرر قبول الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم خبر الواحد، ورد على بعض مخالفيه، قال: «فحكيت عامة معاني ما كتبت في صدر كتابي هذا لعدد من المتقدمين في العلم بالكتاب والسنة واختلاف الناس والقياس والمعقول، فما خالف منهم واحدًا واحدًا، وقالوا: هذا مذهب أهل العلم من أصحاب رسول الله والتابعين، وتابعي التابعين، ومذهبنا، فمن فارق هذا المذهب كان عندنا مفارق سبيل أصحاب رسول الله وأهل العلم بعدهم إلى اليوم، وكان من أهل الجهالة، وقالوا معًا: لا نرى إلا إجماع أهل العلم في البلدان على تجهيل من خالف هذا السبيل...»^(٢).

الأصل الرابع: أن دعواهم عدم إفادة خبر الواحد العلم، هو نفس محل النزاع، فالاحتجاج به مصادرة. ولخالفهم أن يقول: إن تقسيم الأدلة إلى ما يفيد العلم وما لا يفيد، لا يرجع إلى صفات ذاتية في نفس الأدلة، وإنما يرجع إلى المستدلين بها، وما يعتقدونه في هذه الأدلة؛ فقد يكون قطعياً عند هذا ما ليس قطعياً عند ذاك وبالعكس^(٣).

ثم له أن يقول أيضاً: إنه إذا كان المطلوب من التواتر سكون النفس،

(١) الرسالة فقرة (١٠٢٩-١٠٣٠).

(٢) اختلاف الحديث للإمام الشافعي، بهامش الأم (٧/٢٥-٢٦)، وانظر قريباً من ذلك في

الرسالة فقرة (١٢٣٦-١٢٤٩).

(٣) انظر: المسودة لآل تيمية (٢٤٥-٢٤٦).

وحصول العلم بصدق مُخْبَرَه - وهو كذلك - فإن ذلك لا يشترط لحصوله عدد معين؛ حتى إنه ليحصل بخبر الواحد إذا اخْتَفَتْ به قرائن صدقه، ويتخلف مع خبر الجماعة^(١). «ولا يتشكك من له أدنى ممارسة بالعلم وأخبار الناس أن مالكا - مثلا لو شافهه بخبر، أنه صادق فيه. فإذا انضاف إليه من هو في تلك الدرجة، ازداد قوة، وبعد عما كان يخشى عليه من السهو...»^(٢).

ثم هذه القرائن التي تحتف بخبر الواحد فيفيد - لمكانها - العلم، لا تختص بشيء معين، بل منها ما يرجع إلى صفات الرواة، ومنها ما يرجع إلى عددهم، ومنها ما يرجع إلى غير ذلك، فلا يبعد حينئذ القطع بصدق الخبر^(٣).

رأى الطبري:

لعل فيما ندرسه - إن شاء الله تعالى - في البابين التاليين، من القضايا الكلامية وموقف ابن جرير منها، غنّى عن نقل أمثلة من كتب ابن جرير على اعتماده الدليل السمعى في قضايا العدل والتوحيد خاصة، ثم في سائر القضايا الكلامية (العلمية) بصفة عامة. بيد أننا نورد فيما هنا تقريره (النظري) لذلك المنهج العام الذى درج عليه، شأن غيره من علماء الحديث والسنة. يقول:

«لله - تعالى ذكره - أسماء وصفات، جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحدا من خلق الله قامت عليه الحجة بأن القرآن نزل به، وصح عنده قول الرسول ﷺ فيما روى عنه به الخبر منه، خلافا»^(٤).

(١) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زييد (١٨٧-١٨٨)، البرهان فى أصول الفقه للجوينى (١/

٣٧٦-٣٧٢). ولذلك صحح جمهور الأصوليين أن التواتر لا يشترط لحصوله عدد معين،

لا يحصل بأقل منه. وكل عدد اشترط لحصوله، فإنما هو تحكم محض.

(٢) ابن حجر: نزهة النظر ص (٧٧).

(٣) السابق: ص (٧٨).

(٤) التبصير (١٣٢).

ويقال لمن خالف شيئا من هذه الأخبار^(١): «هل أنت مصدق بهذه الأخبار أم أنت مكذب بها؟ فإن زعم أنه بها مكذب، سقطت المناظرة بيننا وبينه من هذا الوجه»^(٢)، يعنى، فيما يبدو: وجه الاحتجاج عليه بالخبر؛ لأن ذلك فرع على تثبيت الخبر وتصديقه، فيحتاج إلى أن يُدل على ثبوت الخبر، أو أن يناظر في أصل اعتقاده، إن كان الخبر الذى رده قرآنا.

وأما عن موقفه هو من الأخبار جملة، فإنه يقول: «... لا خبر فيما ذكرت أو لم أذكر، يصح سنده بنقل الثقات العدول عن رسول الله ﷺ إلا وهو عندنا حق، والدينونة به للأمة لازمة...»^(٣).

وإذا كان ذلك يشمل كل خبر صح سنده، متواترا كان أو آحادا فإنه يصرح في موطن آخر بأن خبر الواحد وخبر الجماعة موجب مجيئهما قطع العذر^(٤) وفي سياق الجمع بين ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره حتى يأتي أمر الله»^(٥)، وبين ما يظهر معارضته له، كقوله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله»^(٦)، يورد على نفسه سؤالا:

(١) حديثه في هذا الموطن جاء بعدما ذكر أمثلة من أخبار القرآن التى ذكر فيها بعض الصفات.

(٢) السابق (١٤٢-١٤٣)، وقارن ذلك (بالحيدة) لعبد العزيز المكي، ص (١٤).

(٣) تهذيب الآثار - مسند عمر (٧١٣/٢)، وانظر التبصير (١٤٦).

(٤) التفسير (٨٥/٨) ط شاكر، وانظر أيضا (١٥/٣) نفس الطبعة.

(٥) وهو الحديث رقم (٣٥) فى مسند عمر من تهذيب الآثار، وأصل الحديث ثابت فى الصحيحين وغيرهما، وانظر دراسات موسعة حوله فى السلسلة الصحيحة للألبانى، المجلد الأول رقم (٢٧٠)، والمجلد الرابع، الأرقام (١٩٥٥-١٩٦٢) وأيضا: سلمان بن فهد العودة: صفة الغرياء ص (١٣٧) وما بعدها.

(٦) روى ذلك الحديث ابن جرير أثناء شرحه للحديث السابق (٨٢٧/٢)، وهو حديث صحيح، رواه مسلم - كتاب الإيمان ح (١٤٨) وغيره.

«إن سألنا سائل: ما معنى هذه الأخبار؟ وما وجهها؟ وما الصحيح منها؟ أم كل ذلك باطل غير صحيح شيء منه؟.. وإن قلت: كل ذلك باطل لا يصح شيء منه، دخلت فيما أنت عائبه من قول مبطل أخبار العدول عن رسول الله ﷺ وليس ذلك من مذهبك!!»^(١).

إلا أننا، ومع ذلك كله، نقف له على نص في كتابه (تهذيب الآثار) يثير إشكالا حول موقفه من (خبر الواحد) في القضايا الكلامية، وهل يفيد العلم أولا؟ فيذكر أن الأمة تنقل بيان رسول ﷺ على وجهين:

«فمنه ما ينقله الواحد العدل، أو الجماعة التي لا يوجب مجيئها العلم، ولا يقطع ورودها العذر، وإن لزم الوارد ذلك عليه بوروده التصديق به. ومنه ما ينقله من يوجب وروده - لمن ورد عليه - العلم بما ورد به، ويقطع مجيئه العذر، وذلك نقل الجماعة التي يتنفي عنها السهو والخطأ، ويمنع^(٢) من نقلها - فيما نقلت - الكذب»^(٣).

وإذا كان هذا النص مخالفا لما ذكره في تفسيره - كما أشرنا - من أن خبر الواحد - كخبر الجماعة - موجب مجيئه قطع العذر، فهل يعني ذلك أن له رأيين متقابلين في هذه المسألة؟!

لئن كان ذلك محتملا، فلعل الأقرب في تفسير ذلك أن يكون مراد ابن جرير بالعلم الذي ينفي حصوله عن خبر الواحد: العلم الضروري الذي يقوم مقام

(١) تهذيب الآثار - مسند عمر (٨٣٣/٢)، وانظر نفس المعنى (٥١٨/٢)، وأيضا التفسير

(٤١/١٧) ط الفكر، حيث ينمى على من لا يصدق بالآثار، ولا يقبل من الأخبار إلا ما

استفاض به نقل العوام.

(٢) ويمنع: كذا في الأصل، ولعلها: ويمتنع.

(٣) تهذيب الآثار - مسند طلحة والزبير - ص (٤٣٩)، وانظر نفس المغنى في مسند ابن

عباس (٧٧١/٢).

المشاهدة والسماع^(١).

وقد يساعد على ذلك أنه في رسالة (التبصير) عقد فصلاً للخلاف فيما تقوم به الحجة (فيما لا يدرك إلا سماعاً)، فذكر فيه بعض المقالات الشاذة وردّها، ثم ذكر قول من قال إن الحجة إنما تقوم في ذلك بالخبر المستفيض الذي لم تزل العادات بالسكون إليه جارية، وبالطمأنينة إليه ماضية، مُضِيَّهَا بأن النيران محرقة، والثلج مبرد.. وذكر هؤلاء أن من ادعى غير ذلك، فقد ادعى «غير الذي جرت به العادات وغير المعروف في الفطرة» ثم قال الطبري: «وهذا أولى الأقوال عندنا بالصحة»^(٢).

ولا شك أن خبر الواحد ليس بمنزلة الخبر المستفيض في ذلك^(٣)، بل نفس المستفيض - عند ابن جرير - يتفاوت؛ فبعضه دون بعض، مع قيام الحجة بالجميع^(٤). فكَذَلِكَ خبر الواحد، وإن لم يكن كالمستفيض (المتواتر) فإنه يلزم على من سمعه مِمَّن يُحَدِّثُهُ به «أن يقبله منه، إن كان من أهل الصدق، على التصديق له»^(٥). ولذلك لما ذكر اختياره السابق دفع- في عبارة مبهمة (!؟)- ظنَّ أنه لا يقبل خبر الواحد، بقوله: «فأما خبر الواحد فإنه معنيّ مخالفٌ هذا النوع، وقد بيناه في موضعه»^(٦). ويوشك أن يكون ذلك الموضع في رسالته الأصولية: «لطيف القول في البيان عن أصول الأحكام» فإنه ذكر في «تهذيب الآثار» أنه بين

(١) انظر: التبصير (١٣٩).

(٢) السابق (١٦٣-١٦٦).

(٣) الذي يظهر من استعمال ابن جرير لمصطلح (المستفيض) أنه مرادف عنده للمتواتر فانظر لذلك: التبصير ص (١٥٦، ١٦١-١٦٢).

(٤) انظر: تهذيب الآثار - مسند عمر (٢٣٦).

(٥) التهذيب (مسند ابن عباس ٧٧١/٢)، وانظر مسند طلحة والزبير (٤٣٩).

(٦) التبصير (١٦٦).

فيها «قيام الحجة بوجوب العمل بخبر الواحد العدل في الدين»^(١).

وعلى العَلَّات، وأياً ما كان تفسير ذلك التفاوت الذي أشرنا إليه، فالذى يعيننا منه أن خبر الواحد حجة مقبولة في العقائد، كما هو في الأحكام حجة. وهذا أمر يقرره ابن جرير واضحاً من الناحية المنهجية، ثم هو كذلك أمر مطرّد من الناحية التطبيقية فيما يعرض له من أبحاث^(٢). يقول ابن جرير، بعد ما ذكر بعض الصفات الخبرية التي لا تدرك بالعقل، عنده: «فإن كان الخبر الوارد بذلك خبراً تقوم به الحجة مقام المشاهدة والسماع، وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته، في الشهادة عليه بأن ذلك كما جاء به الخبر، نحو شهادته على حقيقة ما عاين وسمع. وإن كان الخبر الوارد بذلك لا يقطع مجيئه العذر ولا يزيل الشك، غير أن ناقله من أهل الصدق والعدالة، وجب على سامعه تصديقه في خبره: في الشهادة عليه بأن ما أخبره به كما أخبره، كقولنا في أخبار العدول، وقد بينا ذلك في غير هذا الموضع بما أغنى عن إعادته»^(٣).

بل إننا نراه في رسالته (صريح السنة) يروى حديث جرير بن عبد الله في (الرؤية)^(٤)، ثم يذكر عقبه قول يزيد بن هارون^(٥): «من كذّب بهذا الحديث فهو

(١) التهذيب - مسند ابن عباس (٧٧٠ / ٢) وقد فُقدت هذه الرسالة، ضمن ما فُقد من تراثه!!
 (٢) وربما كان موقفه من ذلك نحو ما اختاره ابن عبد البر، وحكاها أيضاً عن جماعة أهل السنة، من أن خبر الواحد يوجب العمل دون العلم، وأن كلهم -مع ذلك- يدين به في الاعتقادات. انظر: التمهيد لابن عبد البر (١/ ٧-٨)، وانظر نفس الفكرة عند ابن القيم في: مختصر الصواعق، ص (٦١٣) وما بعدها. وقارن ذلك بكلام شيخ الإسلام في المسودة (٢٤٤-٢٤٥).

(٣) التبصير (١٣٩-١٤٠).

(٤) انظر الكلام على الرؤية في الباب الثاني من هذا البحث، ص (١٨٦) وما بعدها.

(٥) هو يزيد بن هارون بن ثابت السلمي مولا هم، أبو خالد الواسطي، أحد الأئمة المشهورين بالحديث والفقه والصلاح، روى له الجماعة. ت (٢٠٦هـ). انظر: تهذيب الأسماء

برىء من الله ورسوله، حلف غير مرة». ثم قال ابن جرير: «وأقول أنا: صدق رسول الله، وصدق يزيد وقال الحق»^(١). في حين أننا نجد نفاة الرؤية يردون هذا الحديث لكونه خبراً من أخبار الآحاد..»^(٢).

وتبقى هنا مسألة لها أهميتها فيما يتعلق بدلالة النصوص على ما تضمنته من المسائل؛ «فإنه وإن كان يظن طوائف من المتكلمين أو المتفلسفة أن الشرع إنما يدل بطريق الخبر الصادق، فدلالته موقوفة على صدق الخبر، ويجعلون ما يبنى عليه صدق الخبر معقولات محضة، فقد غلطوا في ذلك غلطا عظيما، بل ضلوا ضللا مبينا في ظنهم أن دلالة الكتاب والسنة بطريق الخبر المجرد. بل الأمر ما عليه سلف الأمة، أهل العلم والإيمان، من أن الله سبحانه وتعالى يبين من الأدلة العقلية التي يُحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه، جاء به القرآن على أحسن وجه»^(٣). وقد حكى ابن الوزير إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف على أن في القرآن أدلة التوحيد، من غير ظن ولا تقليد»^(٤).

ونحن نلمس هذه الوجهة في فهم دلالات النصوص واضحة في تناول ابن جرير لكثير من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ذكره، واستحقاقه أن يفرد

= واللغات للنوي (١٦٣/٢-١٦٤).

(١) صريح السنة ص (٢٠).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ص (٢٦٩).

(٣) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل (٢٨/١)، وانظر أيضا (٩٨/١ وما بعدها)، وهي فكرة يُلحَق عليها ابن تيمية في كثير من كتبه - انظر مثلا: الفتاوى (٧١/٦)، (٤٧٠/١٦)، بيان تلبس الجهمية (٢٤٦/١).

(٤) انظر: ابن الوزير: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ص (١٥) وما بعدها. وراجع ما نقلناه أول المبحث، (ص ٤٠) عن القاضي عبد الجبار، وقارن: حاشية الشيخ عبد الرزاق عفيفي على الإحكام للآمدي (٢٨٣/١).

بالعبادة دون سواه^(١).

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، يقول ابن جرير: «يقول تعالى ذكره، لنبية محمد ﷺ قل،

يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك الذين عجبوا أن أوحيت إليك: إن كنتم في شك، أيها الناس، من ديني الذي أدعوكم إليه، فلم تعلموا أنه حق من عند الله، فإني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، من الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنى شيئاً فتشكوا في صحته.

وهذا تعريض ولحن من الكلام لطيف، وإنما معنى الكلام: إن كنتم في شك من ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، وإنما ينبغي لكم أن تشكوا في الذي أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل شيئاً ولا تضر ولا تنفع؛ فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكوا فيه، لأنى أعبد الله الذي يقبض الخلق فيميتهم إذا شاء، وينفعهم ويضرهم إن شاء. وذلك أن عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة وأما عبادة الأوثان فينكرها كل ذى لب وعقل صحيح»^(٢).



(١) انظر: استدلال ابن جرير على الوجود والوحدانية في الباب الثانى من هذا البحث.

(٢) التفسير (٢١٧/١٥) ط شاكر.

ثانيا: الإجماع:

لم يخالف في حجية الإجماع، بصفة عامة، إلا النظام والإمامية. فأما النظام فقد حُكي عنه أنه يسوى بين جميع الأمة وبين آحادها، في تجويزه الخطأ على الجميع، وأنه لا حجة في الإجماع، وإنما الحجة في مستنده إذا ظهر لنا^(١). وأما الإمامية فالمعتبر عندهم قول الإمام دون سائر الأمة^(٢).

وأما أصول الدين (القضايا الكلامية) فالاحتجاج فيها بالإجماع هو من أصول أهل السنة والجماعة: «... وثُمَّوا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الإجماع، وضدها الفرقة والإجماع هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، وهم يَزِنون بهذه الأصول الثلاثة [يعنى: الكتاب والسنة والإجماع] جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة، مما له تعلق بالدين...»^(٣).

إلا أن المعتزلة ومن تأثر بهم، وقد صدتهم فكرة الدور عن الاستدلال بالدليل السمعى عامة في قضايا العدل والتوحيد، قد طبقوا نفس الفكرة على الاستدلال بالإجماع^(٤).

وتم مشكلة أخرى كانت تعترض من يحتج بالإجماع على مسألة ما؛ إذ كان يمكن خصمه، على فرض تسليمه بحجية الإجماع من حيث الجملة، أن يعترض

(١) انظر: البحر المحيط للزركشى (٤/٤٤٠)، أصول الدين للبغدادي (١٩).

(٢) انظر المصدرين السابقين، وأيضا: الانتصار للخياط (٢٣٢-٢٣٣).

(٣) ابن تيمية: العقيدة الواسطية: ص (١٢٦ - شرح الهراس) وانظر: الانتصار في الرد على المعتزلة، لابن أبي الخير، (١/١١٤-١١٥) د. الشافعي: المدخل (١٦٣).

(٤) انظر: الإحكام للآمدي (١/٢٨٣) ومع أنه يرد الاستدلال بالإجماع على وجود الرب تعالى، وصحة الرسالة، من أجل هذه الفكرة، فإنه يقبل الاحتجاج به على العقلية،

بخلافه هو، فلا يُسَلَّم لخصمه انعقاد الإجماع^(١).

وفي موطن واحد يجمع القاضي عبد الجبار هذين الطريقتين في الاعتراض على من احتج عليه بالإجماع؛ إذ يرد احتجاج من يثبت أن كل ما وقع في العالم من الكفر والمعاصي فبمشيئة الله، بإجماع الأمة على قول: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، يرد ذلك الاحتجاج بقوله: «الأصل في الجواب عن ذلك، أن دعوى الإجماع فيها غير ممكن لأننا نختلف فيه، وإنما هو من إطلاقات المجبرة. على أن الاستدلال بالإجماع على هذه المسألة غير ممكن، لأن كون الإجماع حجة إما أن يستند إلى الكتاب أو إلى السنة، وكلاهما إنما يثبت حجة إذا ثبت عدل الله وحكمته، وأنه لا يفعل القبيح ولا يختاره ولا يشاؤه، فكيف يصح هذا الإجماع»^(٢).

رأى الطبري:

يقرر ابن جرير أن الإجماع حجة لا يجوز الخروج عنها، في أمر الدين والقرآن^(٣)، ويكفي لتثبيت صحة أمر ما، حكاية الإجماع عليه؛ «فإن فيه كفاية كافية من ذكر غيره» ومن احتاج مع الإجماع إلى دليل آخر فقد «عظمت غباوته، واشتدت حيرته، وكان مَعْقَلَةً في دينه»^(٤).

والإجماع عند ابن جرير، على ما في رسالته الأصولية وغيرها من كتبه، «هو

= كروية الرب، ونفى الشريك. وانظر (٢١١/١) من نفس المصدر، وأيضاً: المدخل ص (١٦٣).

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢/٣٣٤، ٣٣٧).

(٢) شرح الأصول الخمسة (٤٦٩).

(٣) انظر: التفسير (٣٦/٧) (١١/١٢) ط شاكر.

(٤) انظر: التفسير (٣٠/١٦٣) ط الفكر، التهذيب - مسند عمر (٢/٧٥٣، ٧٧٥).

نقل المتواترين لما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ من الآثار، دون أن يكون ذلك رأيا، مأخوذا من جهة القياس..»^(١).

ولا شك أن الإجماع الذى ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشر فى الأمة^(٢)، وبهذا يمكن دفع من يشغب على الإجماع من المتأخرين أو الفرق المختلفة، بخلاف نفسه، على نحو ما رأينا من صنيع القاضى عبد الجبار^(٣).

ومن المسائل التى احتج فيها ابن جرير بالإجماع على مُحَالِفِهِ ما يتعلق بعدل الله تعالى، والرد على القائلين بالتفويض من أهل القدر. قال:

«وفى إجماع أهل الإسلام جميعا على تصويب القائل: اللهم إنا نستعينك، وتخطئتهم قول القائل اللهم لا تُجِرْ علينا، دليل واضح على خطأ ما قال الذين وصفت قولهم؛ إذ كان تأويل قول القائل عندهم: «اللهم إنا نستعينك»: اللهم لا تترك معونتنا التى ترككها جور منك»^(٤).

وفى مسألة الإمامة، احتج على عدم جواز عقد الإمامة لغير قرشى، بإجماع الصحابة على تسليم الإمرة لقريش عن رضا منهم^(٥).

(١) انظر ما نقله ياقوت عن أبى الحسن عبد الله بن أحمد بن المغلس، الفقيه، فى معجم الأدباء (٧٢/١٨).

(٢) ابن تيمية: الواسطية (١٦٣- شرح الهراس).

(٣) والغريب أن المعتزلة يدفعون عن أنفسهم خرق الإجماع فى قولهم بالمنزلة بين المنزلتين وقولهم فى أحكام الفاسق، بأنهم «لم يخالفوا الإجماع، بل عملوا بالمُجْمَع عليه فى الصدر الأول، ورفضوا المحدثات المبتدعة!!»!! المنية والأمل ص(٤)، وانظر الانتصار للخياط ص(٢٣٧) وما بعدها، وأيضا: شرح الأصول الخمسة ص(٧١٦-٧١٧).

(٤) التفسير (١/١٦٣)، ويأتى الكلام على هذه المسألة فى فصل القضاء والقدر من الباب الثانى إن شاء الله.

(٥) التبصير (١٥٦-١٥٧).

إلا أن تأويل النصوص وفهمها، كان أهم ما عنى ابن جرير بالاحتجاج فيه
بإجماع السلف وأهل التأويل وتخطئة من خرج عن ذلك الإجماع^(١).



(١) انظر الفصل الثالث من هذا الباب.

المبحث الثاني

موقف الطبري من الدليل العقلي

إذا كانت مكانة الدليل النقلى (السمعى) قد تراجعت بصفة عامة، لدى المعتزلة ومن تحذاهم، لصالح الدليل العقلى، فلقد حُكى هنا موقف مقابل عَمَّن يُسَمَّون بالحشوية، حيث قيل: إن هؤلاء يعتمدون على النص وحده طريقاً إلى المعرفة الاعتقادية خاصة، والدينية بصفة عامة، ويرفضون العقل وأدلته^(١). يقول ابن رشد: «وأما الفرقة التى تُدعى بالحشوية، فإنهم قالوا: إن طريق معرفة وجود الله تعالى هو السمع لا العقل... يُتلقى من صاحب الشرع، ويؤمن به إيماناً، كما يُتلقى منه أحوال المعاد وغير ذلك مما لا مدخل فيه للعقل»^(٢).

والواقع أن هؤلاء المُسمَّين ليسوا فرقة متميزة بمقالة لها، أو رئيس تتبعه، شأن سائر الفرق...^(٣). بل لا يُدرى فى واقع الأمر مَنْ هؤلاء^(٤).

وأول من عرف عنه النبز بهذا اللقب فى الإسلام عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة؛ فإنه ذُكر له عن ابن عمر -رضى الله عنهما- شىء يخالف قوله، فقال: «كان ابن عمر حشويًا»^(٥)!!!

(١) انظر: الشافعى: المدخل إلى دراسة علم الكلام: ص (٧٦).

(٢) مناهج الأدلة (١٣٥)، وقد نقل ابن تيمية كلامه وانتقده فى غير موطن من كتبه. انظر مثلاً: درء التعارض (٣٤٧/٧) وما بعدها.

(٣) انظر: ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية (٢٤٢/١)، الشافعى: المدخل (٧٥) وقارن: النشار: نشأة الفكر (٢٨٦/١).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة (٥٢٠/٢)، وانظر الخلاف فى «الحشوية» ومن هم: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى (٣٩٦-٣٩٧)، ونشأة الفكر، للنشار (٢٨٥/١) وما بعدها.

(٥) ابن تيمية: بيان تلبيس (٢٤٤/١)، النشار: (٣٧٤/١)، وهى كلمة من القِحة بحيث لا =

ثم تقلدت ذلك المعتزلة، ومن وافقهم عليه، ينبزون به أهل السنة، حتى قال أبو حاتم الرازي من أئمة المحدثين، وعبد القادر الجيلاني، من أئمة الصوفية: علامة الزنادقة تسمية أهل الحديث حشوية^(١)، وإنما مرادهم بذلك: كل من قال بالصفات، وأثبت القدر^(٢).

ثم أخذ متأخرو الرافضة ذلك ضمن ما أخذوا عن المعتزلة، فلَقَّبوا أهل السنة بالجمهور أخذًا من هذا الاسم، وأخذ ذلك عنهم القرامطة... ثم الفلاسفة أيضًا تسمى من أقر بالمعاد الجسمي والنعيم الحسي حشويًا. ثم تبع الأشاعرة المعتزلة في ذلك، فَسَمَّوْا من أقر بما ينكرون من الصفات، ومن يذم ما دخلوا فيه من بدع أهل الكلام والإرجاء، حشويًا، وعن (الأشاعرة) تلقى ذلك ابن رشد وغيره.

وهذا الذي نقله ابن رشد عن (الحشوية) لا يعرف عالم معروف في الإسلام قال به، ولا طائفة تقلدته وإنما نقلته المعتزلة ومن تبعهم بطريق اللزوم، لا أنهم سمعوه منهم، أو وجدوه مأثورًا عنهم^(٣).

= تحتاج إلى تعليق، هذا إن صحت عن عمرو. وانظر موقفين مختلفين للدكتور النشار إزاءها في: نشأة الفكر (١/٢٤٤)، (١/٢٨٥) وما بعدها.

(١) مقالة أبي حاتم رواها عنه الصابوني في: اعتقاد السلف (١/١٣٢ منيرية)، وكلام الجيلاني في كتابه الغنية (١/٨٠) وانظر دفع تلك التهمة عن أهل الحديث عند ابن تيمية في المصادر السابقة، وفي نقض المنطق (٢٢-٢٣، ٧٣-٧٤)، وأيضًا: ابن الوزير: الروض الباسم (١/١٢٠-١٢٤)، الألوسی: شرح مسائل الجاهلية (١٠٠-١٠٥).

(٢) انظر: ابن تيمية: بيان تلبیس (١/٢٤٤-٢٤٥)، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٥٢٧)، ومقدمة رسائل العدل والتوحيد (١/١٦)، والإرشاد للجويني (١٥٠، ١٥٢)، وتعليقات الكوثري على: التنبيه للملطي (٧٠، ٩٧، ١٠٧، ...)، والتبصير (٧٣، ١٠٠)، وغيرها من كتبه.

(٣) ابن تيمية: بيان تلبیس (١/٢٤٤-٢٤٥).

رأى الطبري:

إذا كنا قد تبينا اعتداد ابن جرير بالدليلين السمعي والعقلي، معا، في إثبات العدل والتوحيد، فإن قوله بعد ما ذكر ما يدركه العقل من الصفات^(١): «ولله تعالى ذكره أسماء وصفات، جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ﷺ»، وتقريره أن «علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكرة..»^(٢)، يدل على أن العقل لا يدرك كل ما يتعلق بـ (التوحيد والعدل)؛ وإنما يدرك ما يدرك من ذلك على وجه الجملة، وأما الذي يدل على تفصيل ذلك، كما يدل على جملة أيضا، فليس إلا السمع.

وهذا يدلنا على أن الدليل السمعي عند ابن جرير - كما هو عند أهل السنة - هو الأصل في معرفة الله تعالى وتوحيده وعدله، كما هو الأصل في «شرائع التي شرعها خلقه..»، وهو ما يبدو أكثر وضوحا في الفصول التطبيقية على آرائه، في بعض القضايا الكلامية التي دار الخلاف حولها.

وبناء على ذلك المنهج، ينعى ابن جرير على نفاة (الرؤية) بناءهم موقفهم ذلك على (عقولهم) حتى أنكروا ما ثبتت به الأخبار: «وتأول بعضهم في الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ بتصحيح القول برؤية أهل الجنة ربهم يوم القيامة تأويلات، وأنكر بعضهم مجيئها، ودافعوا أن يكون ذلك من قول رسول الله ﷺ، وردوا القول فيه إلى عقولهم؛ فزعموا أن عقولهم تحيل جواز الرؤية على الله عز وجل، بالأبصار، وأتوا في ذلك بضروب من التموهيات، وأكثروا القول فيه من جهة الاستخراجات..»^(٣).

(١) انظر ما يأتي - إن شاء الله - في الباب الثاني حول ذلك. ص (١٣٤) وما بعدها.

(٢) التبصير (١٣٣) وأيضا (١٣٩).

(٣) التفسير (١٧/١٢) ط شاكر.

وبعد أن يذكر الخلاف حول هذه المسألة، وما يختاره فيها، يعود ليحكم على هؤلاء النفاة بأنهم: «لا يرجعون من قولهم إلا إلى ما لبس عليهم الشيطان، مما يسهل على أهل الحق البيان عن فسادهم، وأنهم لا يرجعون في قولهم إلى آية من التنزيل محكمة، ولا رواية عن رسول الله ﷺ صحيحة ولا سقيمة، فهم في الظلمات يخبطون، وفي العمياء يترددون، نعوذ بالله من الحيرة والضلالة»^(١).

وحيث يدلنا ذلك منه على موقفه ممن يعارضون (النص) أو الدليل السمعي بالأقيسة العقلية، وأن الأصل الحاكم على غيره هو الدليل السمعي، فإنه في موطن آخر يقرر أن التعارض بين (السمع) و (العقل) غير وارد أصلاً، وأن العقل لا يحيل ما أتى به (النص) وإن كنا لم نعين مثله.

وفي ذلك يورد على مخالفيه، نفاة عذاب القبر، سؤالاً - على وجه المعارضة - حول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، ينبني على أنهم إن أقروا بأن ذلك كائن:

«قيل لهم: فَصَدَّقْتُمْ بخبر الله - جل ثناؤه - بما هو ممكن في العقول كونه، أو بما هو غير ممكن فيها كونه؟

فإن زعموا أنهم أجازوا ما هو غير ممكن في العقول كونه، زعموا أن خبر الله - عز وجل - بذلك تُكذَّب به العقول وتدفع^(٢) صحته، وذلك بالله كفر عندنا وعندهم، ولا إخالهم يقولون ذلك»^(٣).

وحيث كان السمع هو الأصل، وحيث لا يأتى السمع بما يحيله العقل، فلا تعارض بينهما، إذ الفرع (العقل) لا يعارض الأصل (السمع) ولا يبطله، وما

(١) السابق (٣٢٧/١٢) ط شاكر.

(٢) في المطبوع: ترفع - بالراء - والصواب من المخطوط.

(٣) التبصير (٢١١)، وانظر الكلام على عذاب القبر في الباب الثالث ص

يتوهم معارضته للسمع، فإنما هى (تمويهات). يقول: «القياس عند أهله: إلحاق الفروع الحادثة بالأصول المحكمة، فأما إبطال الأصول بالفروع، فذلك هو الجهل الأكبر»^(١).

ويبقى حول مكانة الدليل العقلى عند ابن جرير، واعتداده بالنظر طريقاً لمعرفة الله وتوحيده، مسألتان ندرسهما فيما يلى، إن شاء الله تعالى:

أولاً: وجوب النظر والاستدلال:

يقول ابن جرير: «كل من بلغ حد التكليف من الذكور والإناث، وذلك قبل أن يحتلم الغلام أو يبلغ حد الاحتلام، وأن تحيض الجارية أو تبلغ حد الحيض، فلم يعرف صانعه بأسمائه وصفاته التى تدرك بالأدلة، بعد بلوغه الحد الذى حددت، فهو كافر حلال الدم والمال إلا أن يكون من أهل العهد...»^(٢).

ونحن إذا تدبرنا نص ابن جرير وجدناه يشير إلى أن أول واجب على المكلف هو أن (يعرف صانعه...)، ولم يعين أن تكون تلك المعرفة من طريق الاستدلال. وبناءً على أن ما يعرف استدلالاً، قد يعلم كذلك - ضرورة، فيعلم تارة بهذا وتارة بهذا^(٣)، فربما كان مراد ابن جرير هنا أن يكون كل مكلف بالغ هذا الحد الذى حده، عارفاً بربه، بأسمائه وصفاته...، وسواء أكانت تلك المعرفة بأصل الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهى الإسلام^(٤)، وإخلاص

(١) تهذيب الآثار - مسند ابن عباس - (٧٣/١)، وهذا النقل وإن كان تعليقاً على خلاف فقهى، فإنه فى ضوء ما بدا لنا من صنيع ابن جرير، منهج عام فى موقفه من الأدلة، وانظر نموذجاً طريقاً لذلك فى تحليله لموقف إبليس وتكبره عن السجود لآدم. (٣٢٧/١٢) ط شاكر، وقارن بالكشاف وحاشيته (١٠٦-١٠٧).

(٢) التبصير (١٢٣).

(٣) انظر: أصول الدين للبغدادى (١٥).

(٤) انظر تفسير ابن جرير لآية الروم (٣٠): (٢١/٤٠-٤١) ط الفكر.

الطاعة لله، أم كانت بالنظر والاستدلال.

لا سيما ونحن نجد بعد ما يشير إلى الصفات العقلية -عنده- يقول: «الذى ذكرنا قبل من صفاته لا يعذر بالجهل به أحد بلغ حد التكليف، كان ممن أتاه من الله تعالى ذكره رسول أو لم يأته رسول، عاين من الخلق غيره أو لم يعاين أحدا سوى نفسه»^(١).

إلا أن قول ابن جرير، قبل هذا النص الذى نقلناه بصفحات: «فأما الذى لا يجوز الجهل به من دين الله لمن كان من أهل التكليف، لوجوده»^(٢) الأدلة متفقة فى الدلالة عليه غير مختلفة، ظاهرة للحس غير خفية، فتوحيد الله...»^(٣)، ثم قوله: «ألا ترى أن السماء ليست بأبين فى الدلالة من الأرض، ولا الأرض من الجبال، ولا الجبال من البهائم، ولا شيء من المحسوسات وإن كبر وعظم، بأدل على ذلك من شيء فيها، وإن صغر ولطف...»^(٤). أقول: إن هذا الكلام من ابن جرير قد يؤيد ما ذكره ابن حزم عنه من إيجابه أن تكون المعرفة من طريق الاستدلال، وأنه لا يكون مسلما إلا من استدل^(٥)، لا سيما وهو لم يشر هنا إلى المعرفة الفطرية، مع أنها كانت تكون أقوى لحجته على ما ذهب إليه من عدم جواز الجهل بتوحيد الله. ولعل ذلك -أيضا- هو ما يشير إليه تعليله عدم قبول الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها، ممن لم يكن آمنا من قبل، بأن «تلك حال لا يمتنع الخلق من الإقرار بوحدانية الله، لمعاينتهم من أهوال ذلك اليوم ما ترتفع

(١) التبصير (١٣٢).

(٢) فى التبصير (١١٦) - المطبوع - لوجود، والتصويب من المخطوط. وفيه أيضا: لمن كان فى قلبه من أهل...، وقوله (فى قلبه) مضروب عليه فى المخطوط.

(٣) التبصير (١١٦-١١٧).

(٤) السابق (١٢٢)، وقد تعرض أيضا ص (١٢٣) إلى الوقت الذى يلزم فيه المكلف (فرض النظر والفكر فى مدبره وصانعه)، وانظر: التفسير (٧/٤٧٦) ط شاكر.

(٥) انظر: الفصل (٤/٢٨)، وقد نسب ذلك إلى الأشاعرة أيضا.

معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلال والبحث والاعتبار»^(١).

إننا - في تأريخنا لأراء ابن جرير - نجد نفس الفكرة التي أشرنا إليها هنا: فكرة أن السماء والأرض، والجبال والبهايم...، وكل دقيق أو جليل من الخلق، متفق الدلالة على الله تعالى، وأن الذي يجهل موضع ذلك من الدلالة، مفرط في النظر، هذه الفكرة، وبعبارة قريبة جداً، نجدها عند الجاحظ، حيث يقول:

«ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل من الحصاة، ولا الفلّك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان. وأنّ صغير ذلك ودقيقه، كعظيمه وجليله، ولم تفرق الأمور في حقائقها، وإنما افرق المفكرون فيها.

ومنّ أهمل النظر، وأغفل مواضع الفرق، وفُصول الحدود؛ فمنّ قبل ترك النظر، ومنّ قبل قطع النظر، ومنّ قبل النظر من غير وجهة النظر، واستتمام النظر، مع انتظام المقدمات - اختلفوا»^(٢).

وعلى حالة، فإنجاب النظر والاستدلال هو في الأصل قول المعتزلة: «إن سأل سائل فقال: ما أول ما أوجب الله عليك؟ فقل: النظر المؤدى إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه تعالى لا يُعرف ضرورة ولا بالمشاهدة، فيجب أن نعرفه بالتفكر والنظر»^(٣).

ثم انتقلت عنهم هذه الفكرة إلى الأشاعرة، حيث قال بها أكثرهم، على خلاف بينهم في أول الواجبات^(٤).

(١) التفسير: (٢٦٦/١٢) ط شاكر.

(٢) الحيوان: (٣: ٢٩٩) ت عبد السلام هارون.

(٣) شرح الأصول الخمسة (٣٩)، وقد حكى ص (٥٢) خلاف البلخي وأصحاب المعارف - من المعتزلة - لسائر المعتزلة في ذلك.

(٤) انظر: الإنصاف للباقلاني (٢٢)، أصول الدين للبغدادى (٢١٠)، وقارن: درء تعارض

والصواب ما عليه جمهور طوائف المسلمين من أن معرفة الله - تعالى - يمكن أن تقع ضرورة، ويمكن أن تقع نظراً، وليس فى الكتاب ولا السنة إيجاب النظر على كل أحد، ولا أنه أول الواجبات، وإنما فى القرآن الأمر بالنظر لبعض الناس، وهذا هو الموافق لقول من يقول: إنه واجب على من لم يحصل له الإيمان إلّا به. والذى كان النبى ﷺ يدعو الناس إليه، ويأمرهم به، أول ما يأمرهم، إنما هو الشهادتان، وبذلك أمر أصحابه أن يفعلوا مع الناس، كما فى حديث بعث معاذ إلى اليمن: «إنك تقدّم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله»^(١).

وفى رواية: «فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلّا الله...»^(٢) وهكذا سائر الأحاديث، وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين^(٣).

وأما عن وقت التكليف بهذا النظر، فقد ذكر ابن جرير أن الصبى يكون، «مع بلوغه حد التمييز بين ماله فيه الحظ، وعليه فيه البخس...» وذلك قد يكون فى حال بلوغ الصبى سبع سنين أو ثمان سنين...»، قد تأهل للنظر والفكر فى (مدبره وصانعه). ثم هو بعد ذلك مُمهّل - لهذا الاستدلال - مدة من الوقت، ست سنين أو أكثر. «وفى قدر ذلك من المهل، وفى أقل منه ما يتذكر من هو متذكر، ويعتبر من هو معتبر...»^(٤).

وما ذكره ابن جرير، من عدم اشتراط البلوغ لوجوب المعرفة والنظر، قد قال

= العقل والنقل (٧/ ٤٦٠-٤٦١).

(١) انظر: صحيح البخارى - كتاب التوحيد ح (٧٣٧٢).

(٢) البخارى - كتاب الزكاة، ح (١٤٦٩) مسلم - كتاب الإيمان، ح (١٩).

(٣) انظر: درء التعارض (٧/ ٣٥٤ وما بعدها) و (٨/ ٦ وما بعدها)، وانظر أيضاً: الفصل،

لابن حزم (٤/ ٣٠ - ٣١، ٣٥) فتح البارى (١٣/ ٣٦١) وما بعدها، شرح الفقه الأكبر

للملا على القارى ص (١٤٤).

(٤) انظر: التبصير (١٢٣-١٢٤).

به المعتزلة أيضا، وجمهور الماتريدية^(١)، حتى قال أبو منصور الماتريدي في صبي عاقل: إنه يجب عليه معرفة الله وإن لم يبلغ الحنث^(٢). إلا أن المعتزلة قالوا: إن وقت وجوب الإيمان هو وقت صحته، فكل من صح منه الإيمان وجب عليه^(٣). وأما المهلة التي أشار إليها ابن جرير بين الوقت الذي يتمكن فيه من النظر والمعرفة، والوقت الذي يجب عليه فيه معرفة الخالق بأسمائه وصفاته، والحكم عليه بالكفر إن لم يعرفه، هذه المهلة إنما يقول بها - مع ابن جرير - جمهور الماتريدية الذين لا يشترطون البلوغ في صحة المعرفة. وهذه المدة عندهم ليست معينة.

واستدلوا على ذلك بأن لفظة (ما) في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ﴾ [فاطر: ٣٧] «عبارة عن مدة الاستدلال، وإبهاؤها بلا بيان دليل على عدم تقديرها بمقدار معلوم للعباد، فقدر مدة التذكر مَفُوضٌ إلى الله تعالى»^(٤).

وهذا هو الذي يظهر من صنع ابن جرير، أيضا. إلا أنه حاول أن يذكرها على وجه التقريب: «وربما كان ذلك قدر عشر سنين، وربما كان ثمانيا، وربما كان أقل وأكثر. وأقل ما يكون: ست سنين...»^(٥).

على أننا لا نجد في تفسير ابن جرير لآية «فاطر» السابقة، والتي يستند إليها

(١) انظر أصول الدين للبغدادى (٢٥٦)، إشارات المرام للبياضى (٧٥ وما بعدها)، شرح الفقه الأكبر (١٣٧-١٣٨)، وانظر أيضًا: درء التعارض (٥٩/٩).

(٢) ذكره طائفة من مصنفى الماتريدية وغيرهم، انظر: شرح التلويح على التوضيح - للتفتازانى - (٣٢٠/٢)، شرح الفقه الأكبر (١٣٧)، درء تعارض (٦٢/٩).

(٣) أصول الدين (٢٥٦).

(٤) إشارات المرام (٧٧)، وانظر: شرح التلويح (٣٢١/٢)، نظم الفرائد لشيخ زاده (٤٩).

(٥) التبصير (١٢٤).

الماتريديّة، إشارة من قريب أو بعيد لهذه الفكرة، وإنما ذكر اختلاف «أهل التأويل فى مبلغ ذلك» هل هو أربعون سنة، أو ستون؟ واختار «قول من قال: ذلك أربعون سنة؛ لأن فى الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده متتقص عن كماله فى حال الأربعين»^(١).

وإذا كان ابن جرير يقول بمدة (المهلة) خلافا للمعتزلة، فإنه بنى هذه الفكرة على أن من بلغ حد التمييز، فإنه يتمتع «أن يُخْلِيَهُ داعى الرحمن وداعى الشيطان من الدعاء، هذا إلى معرفة الرحمن وطاعته، وهذا إلى اتباع الشيطان وخطواته، كما قال الله تعالى ذكره: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]^(٢).

وهذا الذى أشار إليه ابن جرير، واعتمد عليه فى تصحيح النظر قبل البلوغ - فى مدة (المهلة) - هو نفس فكرة الخاطر التى اعتمد عليها المعتزلة فى إيجاب الاستدلال والنظر من طريق العقل قبل الشرع: «قلب العاقل لا يخلو من خاطرين؛ أحدهما من قبل الله تعالى، يدعوه به إلى معرفته والاستدلال عليه، والثانى من قبل الشيطان الداعى له إلى الكفر...»^(٣).

على أننا نعود لنشير مرة أخرى إلى أنه لا أثر لهذه الفكرة فى تفسير ابن جرير لآية البقرة السابقة التى أوردها هنا، رغم أنه روى فيها بعض الأحاديث التى قد تبدو مؤيدة لها، إلا أنه لم يبين عليها هذه الفكرة التى ذكرها هنا - فى التبصير - بل ولم يشر إليها من قريب ولا من بعيد^(٤)!!

(١) انظر: التفسير (٢٢/١٤١-١٤٢) ط الفكر.

(٢) التبصير (١٢٤).

(٣) أصول الدين للبغدادى (٢٠٣)، (٢٦-٢٨، ١٥٥-١٥٦) من نفس المصدر. وأيضا:

مقالات الأشعري (٢/١١٣-١١٤)، نهاية الإقدام (٤٦٠-٤٦١).

(٤) انظر: التفسير (٥/٥٧١-٥٧٥) ط شاكر.

والصواب في ذلك أيضا أنه لا يجب شيء على الصبي قبل البلوغ، وأن ذلك هو الحد الذي يُفَرَّق فيه بين المؤمن والكافر، لعموم قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: .. وعن الصبي حتى يحتلم..»^(١)، وهو قول أكثر العلماء، وإليه ذهب الأشاعرة، وكثير من محققي الأحناف (الماتريدية)^(٢).



(١) حديث صحيح، رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم. انظر تخريجه ودراسة أسانيده

في: إرواء الغليل للألباني (٢/٤-٧) برقم (٢٩٧).

(٢) انظر: الفصل (٤/٣٣)، أصول الدين (٢٥٦)، درء تعارض (٩/٦٢)، شرح التلويح (٢/

ثانياً: حكم الجاهل والمخطئ فى التوحيد:

يرى ابن جرير «أن كل محسوس أدركته حاسة خلق فى الدنيا، فدلّيل لكل مستدل على وحدانية الله عز وجل وأسمائه وصفاته وعدله، وكل دال على ذلك فهو فى الدلالة عليه متفق غير مفترق، ومؤتلف غير مختلف»^(١). ومن ثمّ، فهو يقرر «أن كل من بلغ حد التكليف، من أهل الصحة والسلامة، فلن يعدم دليلاً وبرهاناً واضحاً يدلّه على وحدانية ربه، جل ثناؤه، ويوضح له حقيقة صحة ذلك. ولذلك لم يعذر الله، جل ذكره، أحداً كان بالصفة التى وصفت، بالجهل [به]^(٢) وبأسمائه، وألحقه، إن مات على الجهل به، بمنازل أهل العناد فيه تعالى ذكره، والخلاف عليه، بعد العلم به وبربوبيته، فى أحكام الدنيا وعذاب الآخرة؛ فقال - جل ثناؤه -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ^{١٠٣} ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ^{١٠٤} ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ^{١٠٥}﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥] فسوى، جل ثناؤه، بين هذا العامل فى غير ما يرضيه على حسابانه أنه فى عمله عامل بما يرضيه، فى تسميته فى الدنيا بأسماء أعدائه المعاندين له، الجاحدين ربوبيته، مع علمهم بأنه ربهم، وألحقه بهم فى الآخرة فى العقاب والعذاب، وذلك لما وصفنا من استواء حال المجتهد المخطئ فى وحدانيته وأسمائه وصفاته وعدله، وحال المعاند فى ذلك...»^(٣).

وفى تفسيره لآية (الكهف) التى ذكرها، يكرر ابن جرير قريباً من ذلك المعنى، ويجعلها - فى عدة آيات نظائر لها - «من أدل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه

(١) التبصير ص (١٢٠). وابن جرير يكرر هذه الفكرة فى رسالته التبصير انظر ص (١١٦) وما بعدها) وانظر كذلك استدلاله على الوجود والوحدانية فى الباب الثانى من هذا البحث.

(٢) به: سقطت من المطبوع، وأثبتها من المخطوط.

(٣) التبصير (١١٧).

لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحديته . . .»^(١).
 وفى نص آخر، ربما يكون أكثر إشكالاً، يُلَمَح ابن جرير إلى عدم اشتراط العلم وقيام الحجة فى مؤاخذه من ضيع فرائض الله وحدوده. ففى تفسيره لقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(١٢) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٣﴾. يقول:

«والإفساد فى الأرض العمل فيها بما نهى الله جل ثناؤه عنه، وتضييع ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد، كما قال جل ثناؤه فى كتابه مخبراً عن قيل ملائكته: قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، يعنون بذلك: أتجعل فى الأرض من يعصيك ويخالف أمرك؛ فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دين الله الذى لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

فذلك إفساد المنافقين فى أرض الله، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها.

فلم يُسْقَط الله - جل ثناؤه - عنهم عقوبته، ولا خفف عنهم أليم ما أعد من عقابه لأهل معصيته بحسبانهم أنهم فيها أتوا من معاصى الله مصلحون، بل أوجب لهم الدرك الأسفل من ناره، والأليم من عذابه، والعار العاجل بسبب الله إياهم وشتمه لهم، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا

(١) انظر التفسير (١٦/٣٢-٣٥)، وانظر نصوصاً أخرى فى نفس المعنى فى التفسير (١١/

يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ - وذلك من حكم الله جل ثناؤه فيهم - أدلُّ الدليل على تكذيبه تعالى قول القائلين: إن عقوبات الله لا يستحقها إلا المعاند ربه فيما لزمه من حقوقه وفروضه بعد علمه وثبوت الحجة عليه بمعرفته بلزوم ذلك إياه^(١). اهـ. ولعل هذه النقطة من منهج ابن جرير كانت هى دافعه إلى (إكفار أهل الأهواء) والشدة على مخالفه^(٢).

وما يقرره ابن جرير هنا من أن الأدلة الظاهرة للحس.. حجة تقطع عذر الجاهل والمخالف، رُوِيَ نحوه عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله: «لا عذر لأحد فى الجهل بخالقه، لما يَرَى من خلق السموات والأرض وخلق نفسه..»^(٣).

وعلى الرغم من أن الذى يظهر من عبارة الإمام أنه يعنى أصل المعرفة الجُمْلِيَّة بالله (الخالق)، وكما تشير إليه عبارة أخرى رُوِيَتْ عنه: «لو لم يبعث الله رسولا لوجب على الخلق معرفته بعقولهم»^(٤)، فقد توسع أصحابه (من الماتريدية) من بعده فى فهم مدلول هاتين العبارتين -إن صحتا عنه- لتشمل «معرفة وجوده تعالى ووحدته، واتصافه بما يليق: من الحياة والعلم والقدرة وغيرها، وكونه محدثا للعالم»^(٥) وهذا الذى قرره شراح عبارة الإمام، وذهب إليه جمهور الماتريدية، هو نفس ما نجده عند ابن جرير^(٦).

(١) التفسير (٢٨٩/١ - ٢٩٠) ط شاكر.

(٢) انظر: ما نقله ياقوت عن أبى بكر بن كامل، تلميذ الطبرى، فى ذلك: معجم الأدباء (٨٤/١٨)، وما نقله أيضا (٨٣/١٨)، وانظر نموذجا لهذا فى موقفه من القائلين بخلق القرآن فى الباب الثانى.

(٣) إشارات المرام ص (٨٢)، شرح الفقه الأكبر ص (١٠٦).

(٤) الإشارات ص (٧٥)، شرح الفقه، نفس الصفحة.

(٥) نظم الفرائد، لشيخ زاده ص (٤٦) وانظر: إشارات المرام ص (٧٥).

(٦) انظر الكلام على الصفات العقلية عند ابن جرير فى الباب الثانى من هذا البحث.

وما يشير إليه أيضا من تكفير المخطئ، وعدم عذره، ربما ألحت إليه عبارات بعض الأئمة، كالمأثور عن الإمام الشافعي في ذمه للكلام ونهيه عنه: «... تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال لكم: أخطأتم. ولا تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال: كفرتكم»^(١).

إلا أن هذه الطريقة صارت أصلا أصيلا على يد المعتزلة ومن تبعهم: يقسمون الدين إلى أصول وفروع؛ أصول تدرك بالعقل، من غير تقدم الشرع، ويكفر المخالف فيها، وفروع تدرك بالشرع ولا يكفر المخالف فيها^(٢). وعن هؤلاء تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم^(٣).

وهذا الفرق ليس له أصل - في الواقع - لا عن الصحابة ولا عن التابعين لهم بإحسان، ولا عن أئمة الإسلام. وليس له كذلك ضابط يبين لسلم لقائله طردا وعكسا. وصار توكأة لكل من يبتدع قولاً ليس في كتاب ولا سنة، ثم يكفر من خالفه أو يبدعه^(٤).

ثم التكفير حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة؛ فالكافر من كفره الله ورسوله، «وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسول، وبما جاءوا به؛ فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة»^(٥)، سواء كان ذلك في المسائل العلمية (الخبرية) أم في المسائل العملية (الطلبية). وأما العقل، فإنه وإن

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي: (٤٥٩/١)، وانظر رواية أخرى (٤٦٠/١) وانظر أيضا: شرح الفقه الأكبر ص (١١١).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٢٤٢-٢٤٣)، مختصر الصواعق المرسلة ص (٦١٨-٦٢١)، وانظر أيضا الفصل (٣/١٣٧، ١٤٣).

(٣) انظر: المسائل الماردينية لابن تيمية: ص (٧٢).

(٤) انظر المصادر في الحاشيتين السابقتين، وأيضا: مجموع الفتاوى (٢٠٤/٦) وقارن: شرح الأصول الخمسة (١٢٥-١٢٦)، (٢٧٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٨٦/١١).

كان قد يعلم به صواب القول وخطؤه، فليس كل ما كان خطأ فى العقل يكون كفرا فى الشرع، كما أنه ليس كل ما كان صوابا فى العقل تجب فى الشرع معرفته^(١). قال ابن حزم، بعد بحث خلاف الناس فيمن يكفر ومن لا يكفر:

«ونحن نختصرها ههنا، إن شاء الله تعالى، ونوضح كل ما أطلنا فيه. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿لَا نَذِرُكُمْ بِهِءَ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، فهذه الآيات فيها بيان جميع هذا الباب؛ فصح أنه لا يكفر أحد حتى يبلغه أمر النبي ﷺ، فإن بلغه فلم يؤمن به فهو كافر، فإن آمن به ثم اعتقد ما شاء الله أن يعتقه فى نَحْلَةٍ أو قُتْيَا، أو عمل ما شاء الله تعالى أن يعمل، دون أن يبلغه فى ذلك عن النبي ﷺ حكم بخلاف ما اعتقد أو قال أو عمل، فلا شيء عليه أصلا حتى يبلغه.

فإن بلغه وصح عنده؛ فإن خالفه مجتهدا فيما لم يَنْهَ له وجه الحق فى ذلك فهو مخطئ معذور مأجور مرة واحدة، كما قال عليه السلام: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر»^(٢). وكل معتقد أو قائل أو عامل فهو حاكم فى ذلك الشيء.

وإن خالفه بعمله معاندا للحق^(٣)، معتقدا بخلاف ما عمل به، فهو مؤمن

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٢٤٢-٢٤٣)، مختصر الصواعق ص (٦٢٠)، وانظر أيضا: الفصل (٣/ ١٣٨)، الاقتصاد فى الاعتقاد للغزالي ص (١٥٥).

(٢) الحديث رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦). من حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه.

(٣) يعني: تاركًا له، مخالفاً بعمله، وليس مراده: محادة الحق، وجحوده. وفى «المصباح المنير»: و«عَنْدَ الْعِرْقِ (عُتُوْدًا)، من باب نزل، إذا كثر ما يخرج منه... ومنه قيل: (عاند) فلانٌ (عِنَادًا) من باب قاتل، إذا ركب الخلاف والعصيان» اهـ المصباح المنير للفيومي، (عند) (ص ٤٣١).

فاسق^(١). وإن خالفه معاندًا بقوله أو قلبه، فهو كافر مشرك، سواء ذلك في المعتقدات والفتيا، للنصوص التي أوردناها، وهو قول إسحاق بن راهويه وغيره، وبه نقول^(٢).

ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حول هذه المسألة نصوص كثيرة، وبحوث مفيدة في تأصيلها، فمن ذلك قوله:

«ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك، فالله يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه الله لنيه وللمؤمنين، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٣). وقال أيضًا - في نص آخر -:

«وأما التكفير، فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد ﷺ وقصد الحق

ويوضح ذلك من كلام ابن حزم قوله قبل هذه العبارة بأسطر: وإن كان قد قامت الحجة عليه، وتبين له الحق، فعند عن الحق، غير معارض له تعالى، ولا لرسوله ﷺ، فهو فاسق، لجرواته على الله تعالى، بإصراره على الأمر الحرام؛ فإن عند عن الحق معارضا لله تعالى ولرسوله ﷺ، فهو كافر مرتد..

(١) مراده بذلك ما كان من الذنوب العملية دون الشرك كالكبائر التي هي محل الخلاف بين أهل السنة من جانب والخوارج والمعتزلة من جانب آخر كما سيأتى، وليس مراده أن أعمال الجوارح ليس فيها كفر البتة؛ ولذلك يقول في موطن آخر: «وليس الكفر إلا ما سماه الله عز وجل كفرًا، فقط... بل الجحد لشيء مما صح البرهان أنه لا إيمان إلا بتصديق كفر، والنطق بشيء من كل ما قام البرهان أن النطق به كفر، كفر والعمل بشيء مما قام البرهان بأنه كفر، كفر» الفصل (٣/١١٩) وانظر حو تفاوت الناس في ترك الواجب الشرعى «مجموع الفتاوى» (٧/٦١٠ - ٦١١) وبحثًا مطولاً (٢٢/١٠ - ٢٢).

(٢) درء التعارض (٢/١٠٣) وانظر أيضًا (٢/٣١٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٢/١٨٠) وانظر الرد على البكري (١/٢٧٨ - ٢٧٩)، وأيضًا (١٢/٤٩٠) وما بعدها خاصة (٤٩٣ - ٤٩٦). وانظر أيضًا: الاعتصام للشاطبي (٢/١٨٤) وما بعدها (٢/١٩٤ - ١٩٧) من نفس المصدر، طريق الهجرتين لابن القيم (٤١١ - ٤١٤).

فأخطأ؛ لم يكفر، بل يُغفر خطؤه.

ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين، فهو كافر.

ومن اتبع هواه، وقصر فى طلب الحق، وتكلم بلا علم، فهو عاص مذنّب، ثم قد يكون فاسقاً، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته.

فالتكفير يختلف بحسب اختلاف حال الشخص، فليس كل مخطئ، ولا مبتدع، ولا جاهل، ولا ضال، يكون كافراً، بل ولا فاسقاً، بل ولا عاصياً...»^(١).

على أنا نعود على بدئنا لنذكر أن ما عرضناه من موقف ابن جرير من هذه القضية ليس هو الصورة الكاملة لها عنده. وإنما يبدو لنا وجه آخر منها، ربما كان مقابلاً لذلك الوجه الذى عرضناه.

ففى شرحه لصحيح البخارى عرض ابن بطل^(٢) لإشكال حول حديث الرجل الذى قال لبنيه -لما حضره الموت-: «إذا أنا مت فأحرقونى، ثم اطحنوني، ثم ذروني فى الريح، فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. فلما مات فُعل به ذلك. فأمر الله الأرض، فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك فغفر له»^(٣) قال:

(١) الفصل (٣/١٤٤)، وقد نسب هذا المذهب أيضاً قبل ذلك (٣/١٣٨) إلى ابن أبى ليلى وأبى حنيفة والشافعى وسفيان الثورى وداود بن على قال: وهو قول كل من عرفنا له قولاً فى هذه المسألة من الصحابة.

(٢) هو أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل، القرطبي المالكي، عالم بالحديث من أهل قرطبة، ت (٤٤٩هـ). انظر: الصلة لابن بشكوال (٢/٤١٤).

(٣) البخارى كتاب: أحاديث الأنبياء (٣٤٨١) ومواطن أخرى، مسلم، كتاب التوبة

«فإن قال قائل: كيف غفر الله لهذا الذي أوصى أهله بإحراقه، وقد جهل قدرة الله على إحيائه.؟!». «

ثم إنه للجواب عن ذلك نقل نصا مطولا للطبري، ذكر فيه اختلاف الناس في تأويل هذا الحديث على أربعة أقوال:

أولها: «أن ما كان من عفو الله تعالى عما كان منه في أيام صحته من المعاصي [وقد جاء في بعض روايات البخاري: أنه كان نبأشا] فلندمه وتوبته منها، ويُعزى هذا التأويل إلى المعتزلة^(١) وأما قوله (لئن قدر الله عليه) فحملوه على أن معناه: لئن ضيق الله عليه^(٢)...»

وأما سائر الأقوال فتدور على أن قوله «لئن قدر الله عليّ...» على ظاهره ثم قال بعضهم: إن الرجل جهل قدرة الله على ذلك، وقال آخرون: إنه قال ذلك على جهل منه بخطئه (؟!) وقال آخرون: أنه قاله وهو لا يعقل ما يقول، يعني أنه سبق لسانه بها^(٣).

وإذا كان هذا الحديث من الحجج البينة على عذر الجاهل والمخطئ، حتى قال ابن الوزير: وهذا أرجى حديث لأهل الخطأ في التأويل^(٤)، فلقد ضنّ علينا ابن جرير بالتصريح بما يختاره من هذا الخلاف، أختار قول المعتزلة، وهو يرد مقالاتهم عادة، خاصة وفيما حكاه هنا إشارة إلى مذهبهم في (الفاسق) وأنه لا

= (٢٧٥٦).

(١) انظر: فتح الباري (١١/٣٢٢).

(٢) انظر شرح مسلم (١٧/١١١)، ولسان العرب (قدر) (ج/٣٥٤٧) وقارن فتاوى ابن تيمية (١١/٤١٠) حيث يمنع تأويلها في الحديث بذلك بل يمنع وجود قدر بمعنى ضيق في اللغة.

(٣) انظر: شرح ابن بطلال لصحيح البخاري (٤/١٨٣ب-١٨٤) -مخطوط.

(٤) إيشار الحق على الخلق (٤٣٦) وانظر حول ذلك الحديث: الفصل (٣/١٤٠) مجموع

الفتاوى (١١/٤٠٨-٤١١).

يغفر له إلا بالتوبة وهذا ما يخالف مذهبه فى أحكام الفاسق^(١)؟! أم يختار أحد الثلاثة الأقوال الأخر، وثلاثتها تخالف أصله فى عدم عذر الجاهل والمخطئ، وإلحاقه بالمعاندين!!

فإذا نحن تخطينا عن ذلك لنرى موقفه من الآيات الكثيرة التى تدل على أن حجة الله تعالى، إنما تمت على خلقه بإرساله رسله، وأنه تعالى ما كان ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، وما كان ليهلكهم وهم غافلون، مما احتج بها وبأمثالها من احتج، كابن حزم وغيره، على عذر الجاهل والمخطئ، فلقد يبدو لنا ذلك الوجه المقابل أكثر وضوحا.

فمن ذلك ما جاء فى تفسيره لقول الله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]: «يعنى جل ثناؤه بذلك أرسلت رسلى إلى عبادى مبشرين ومنذرين، لئلا يحتج من كفر بى وعبد الأنداد من دونى، أو ضل عن سبيلى، بأن يقول، إن أردت عقابه: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَى﴾ [طه: ١٣٤] فقطع حجة كل مبطل أُلْحِدَ فى توحيدهِ وخالف أمره، بجميع معانى الحجج القاطعة عذره، إغذاراً منه بذلك إليهم، لتكون لله الحجة البالغة عليهم وعلى جميع خلقه»^(٢).

وإذا كان هذا النص وأمثاله كثير من الوضوح بمكان فى أن (كل مبطل أُلْحِدَ فى توحيدهِ) - لا فى شرائعه وأحكامه فقط - إنما انقطع عذره، ودحضت حجته وحق عقابه بإرسال الرسل لا بما تدركه العقول، فثم آية فى نفس المعنى تشير إلى

(١) فى الباب الثالث من هذا البحث، إشارة لمذهب المعتزلة فى ذلك، ورد ابن جرير له.

(٢) التفسير (٤٠٨-٤٠٩) ط شاكر، وانظر نصوصاً أخرى بهذا المعنى فى التفسير: (١٠) /

١٥٧، (١٥٨)، (١٢/١٢٤-١٢٥) ط شاكر، (٢٠/٨٢-٨٣) ط دار الفكر، ومواطن

أخرى.

تحسر أهل النار على ما ضيعوا من الاعتبار بحجج الله عليهم، وهى قوله - تعالى - عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٠: الملك: ١٠] ورغم ما قد يفهم من هذه الآية من الإشارة إلى الدليلين: السمعى من الرسل (نسمع)، والعقلى (نعقل)^(١)، خاصة إذا استصحبنا الوجه الأول لموقف ابن جرير، فإن ابن جرير يقصر ذلك التحسر من أهل النار على ما ضيعوا من الانتفاع بحجة الرسل: «وقال الفوج الذى ألقى فى النار للخزنة (لو كنا) فى الدنيا (نسمع) أو (نعقل) من النذر ما جاءونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه، ما كنا اليوم فى أصحاب السعير يعنى: أهل النار»^(٢).

ويؤيد ابن جرير تأويله لهذه الآيات بالمعنى السابق بحديث عن النبى ﷺ فيه أن أهل الفترة الذين ماتوا ولم تبلغهم دعوة رسول، يحتجون على الله - تعالى - يوم القيامة بذلك، فلا يعذبهم - سبحانه - إلا بعد أن يُعذَرَ إليهم^(٣).

يقول فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [١٣٤: طه: ١٣٤]: «يقول - تعالى - ذكره -: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، لقالوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يدعونا إلى طاعتك.. فنسمع حججك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن نذل بتعذيبك إيانا ونخزى به.

(١) قال الزمخشري: «وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل» الكشف (٥٧٩/٤)، وانظر: درء التعارض لابن تيمية (١٠٠/١).

(٢) التفسير: (٥/٢٩) ط الفكر.

(٣) انظر حول الخلاف فى حكمهم: الاعتصام للشاطبي (١٦١-١٦٢).

كما حدثنى . . عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: يحتج على الله يوم القيامة ثلاثة: الهالك فى الفترة والمغلوب على عقله، والصبى الصغير فيقول المغلوب على عقله: لم تجعل لى عقلا أنتفع به، ويقول الهالك فى الفترة، لم يأتى رسول ولا نبى، ولو أتانى لك رسول لكنت أطوع خلقك لك وقرأ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾.

ويقول الصبى الصغير: كنت صغيرا لا أعقل. قال: فيرفع لهم نار ويقال لهم: ردوها. قال: فيردها من كان فى علم الله أنه سعيد، ويتلأأ عنها من كان فى علم الله أنه شقى. فيقول: إياى عصيتم، فكيف برسلى لو أتتكم^(١). ولعل من توابع ذلك الوجه الأخير للمسألة، أننا على حين رأيناه -أولاً- يكفر (أهل الأهواء)، نراه هنا -تبعاً لعل بن أبى طالب رضى الله عنه - يُمسك عن تكفير الخوارج، بل ينقل الإجماع على عدم تكفيرهم^(٢).

وحيث عرضنا ذينك الوجهين المتقابلين -فيما بدا لى- لصورة تلك المسألة فى فكر ابن جرير، فلست أجد إزاءهما -وقد وجدناهما جميعاً فى مؤلف واحد هو تفسيره- إلا الوقوف عند ذلك العرض، والتأريخ لهما، دون أن يبدو لى فى الجمع، أو الترجيح بينهما، من خلال منهج ابن جرير، وجه مناسب مقبول.



(١) السابق: (٢٣٨/١٦) وروى الحديث -بنحوه- لذات المعنى فى (٥٤/١٥) ط الفكر، وأكثر روايات الحديث (أربعة يحتجون) وفيها بدل الصبى: الأصم، والهرم. وقد روى البيهقى هذا الحديث وصحح إسناده فى كتاب (الاعتقاد) ص(٩٤). وذكره ابن القيم فى طريق الهجرتين (٣٩٦-٤٠١) وابن كثير فى التفسير (٣/٢٨-٣١) وصحاحه، وردا على من ضعفه. وانظر السلسلة الصحيحة للألبانى (٤١٨/٣).

(٢) نقل ذلك ابن الوزير فى: إيثار الحق (٤٢٩) ونسبه لشرح ابن بطلال للبخارى، ولم أتمكن من الوقوف عليه فيه.

الفصل الثالث

منهج الطبري في تأويل النصوص

تمهيد:

ليس بدعا أن يُعنى ابن جرير بـ (تأويل) النصوص، وبيان ضوابطه؛ فلقد كان لقضية التأويل خصوصية لا تنكر في الفكر الكلامي، بل وفي التاريخ الإسلامي كله، ثم لها خصوصية - كذلك - بفكر ابن جرير وتراثه:

أما خصوصيتها في الفكر الكلامي، فيكفي -لكي ندرك طرفا منها- أن نذكر أن أول فرقة شقت عصا الطاعة، وخرجت عن الجماعة، بين ظهرائي الصحابة، وهؤلاء الخوارج، فأشروعوا رماحهم: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»، إنما أتوا من عدم فقههم تأويل القرآن: «يقراءون القرآن لا يجاوز حناجرهم»^(١)، «يحسبون أنه لهم وهو عليهم»^(٢).

يقول عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- حين جادل بعضهم: «فأخبروني عن عبد الله بن وهب الراسبي»^(٣) حين خرج هو وأصحابه يريدون أصحابكم بالكوفة، فمرؤوا بعبد الله بن خباب^(٤)، فقتلوه وبقرؤا بطن جاريته، ثم غدّوا

(١) انظر: صحيح البخاري - أحاديث الأنبياء - (٣٣٤٤)، والتوحيد - (٧٤٣٢)، صحيح مسلم: الزكاة - (١٠٦٤).

(٢) صحيح مسلم - الزكاة - (١٥٦) (١٠٦٦).

(٣) من رءوس الخوارج، وكان أميرهم يوم النهروان، وفيها قتل عام (٣٨هـ). انظر قصة تأمره على الخوارج في: تاريخ الطبري (٧٤/٥ وما بعدها). وانظر ترجمته في: الأعلام (٤/١٤٣).

(٤) عبد الله بن خباب بن الارت، ثقة من كبار التابعين، وأبوه خباب الصحابي المشهور رضي الله عنه.

على قوم من بنى قطيعة، فقتلوا الرجال، وأخذوا الأموال، وغلوا الأطفال فى المراحل، وتأولوا قول الله - عز وجل - ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]. «^(١) هكذا كان أمرهم؛ وحسبك من شر سماعه!!

قال قتادة فى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]: «إن لم يكونوا الحرورية - يعنى الخوارج - والسبائية، فلا أدرى من هم...»، ثم قال أيضا: «طلب القوم التأويل فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، فاتَّبِعُوا ما تشابه منه فهلكوا من ذلك»^(٢).

وحيث كان التأويل الفاسد سبب انحرافهم، فقد كان تصحيح (التأويل) وردهم فيه إلى أهله، نقطة بدء السلف فى جدالهم؛ فابن عباس -رضى الله عنهما- حين ذهب لجدالهم قال: «جئكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد،... وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله»^(٣).

ثم لم يزل الأمر بعد ذلك فى ازدياد، حين توسعت كل فرقة فى صرف النصوص التى تخالف مذهبها عن ظاهرها، وإنزالها على مذاهبها، كل ذلك بحجة التأويل، «وصارت عادةً غالبية على الناس، فى جعل المذاهب مركزاً،

= انظر قصة قتل الخوارج لعبد الله هذا، ومسير على بن أبى طالب رضي الله عنه لهم فى ذلك، فى: تاريخ الطبرى (٨١/٥-٨٢)، الكامل للمبرد (٢١٢-٢١٣).

(١) روى ذلك ابن عبد البر فى: جامع بيان العلم وفضله (١٠٦/٢)، وانظر: الكامل للمبرد (٢٨٨-٢٨٤/٣).

(٢) تفسير الطبرى: (١٨٧/٦، ١٨٩) ط شاكر، وانظر: الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/٦١٨) وقال محقق الخصائص: إسناده صحيح.

(٣) مناظرة ابن عباس للخوارج مشهورة، وموطن الشاهد - الذى ذكرناه - رواه النسائى فى خصائص على، رقم (١٨٢)، وابن عبد البر فى: الجامع (١٠٤/٢).

وتنزيل الكتاب والسنة عليها، وإذا قلت لهم في ذلك، قالوا: قاد إليه الدليل الذي دل على صحة المذهب، وإذا نظرت إلى ذلك المذهب ودليله، وجدت بينه وبين ما عطفوه عليه، ما بين السماء والأرض^(١).

وصار كل من هؤلاء يتأول النص من النصوص، وهو يقر على ظاهره ما هو نظيره أو أشد قبولا للتأويل منه، لأنه ليس ثم ضابط كلي، مطرد منعكس، للباب، يفرق بين ما يمكن تأوله وما لا يمكن، وهؤلاء لا يمكن لأحدهم أن يحتج على مبطل بحجة سمعية أبداً، لأنه يسلك في تأويلها نظير ما سلك هذا المؤول الأول^(٢).

وأما خصوصية تلك القضية بالنسبة لفكر ابن جرير وتراثه، فلقد كان أهم ما تبقى لنا من تراثه تفسيره العظيم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

ومراده بتأويل القرآن: تفسيره. يقول: «وأما معنى التأويل في كلام العرب فإنه التفسير والمرجع والمصير»^(٣).

فتأويل النص - على ذلك - هو بيان «ما يؤول إليه معنى ما أنزل الله تعالى ذكره على نبيه ﷺ من التنزيل وآي الفرقان، وهو مصدر من: أَوَّلْتُ هذا القول تأويلاً...»^(٤).

وقد أشار ابن جرير إلى أن مأخذ أهل الزيغ من النصوص هو اتباعهم «ما

(١) العلم الشامخ للمقبلي (٧٦)، وانظر: الصواعق المرسله لابن القيم (١/٢٣٠)، وتفسير المنار (٥/٨٧، ٩٢).

(٢) انظر: ابن القيم: الصواعق المرسله (١/٢٣٣)، وانظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣/٦٧).

(٣) التفسير (٦/٢٠٤-٢٠٥) ط شاكر.

(٤) تهذيب الآثار - مسند ابن عباس - (١/١٨٣)، وانظر: الصاحبى لابن فارس (١٩٨ - ٢٠٠).

تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات فى ذلك، ما هم عليه من الضلالة والزيف عن محجة الحق، تليسا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريه معانيه...»^(١).

ثم لا يخص ذلك المسلك صنفاً من أصناف أهل البدع دون غيره، بل هو مأخذ «كل مبتدع فى دين الله بدعة فمال قلبه إليها، تأويلا منه لبعض متشابه آى القرآن، ثم حاج وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آيه المحكمات كائناً من كان، ومن أى أصناف المبتدعة كان: من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية، أو كان سبئياً، أو حرورياً، أو قدرياً، أو جهمياً، كالذى قال ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يجادلون به، فهم الذين عنى الله، فاحذروهم»^(٢). فلا جرم - من ثم - أن يصرف ابن جرير جلّ عنايته إلى بيان الصحيح من تأويل آى القرآن، وتقرير الأصول التى تعصم من ذلك (الزيف). يقول: «أحق ما صُرِفَ إلى علمه العناية، وبُلِغَتْ فى معرفته الغاية... كتاب الله الذى لا ريب فيه... ونحن فى شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانيه، منشئون كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك بأوجز ما يمكن من الإيجاز...»^(٣).

وإذا كان القرآن هو الهادى للناس إلى سبيل الرشاد، ومرضاة الله تعالى، «فغير جائز أن يكون به مهتدياً، من كان بما يُهْدَى إليه جاهلاً»^(٤).

(١) التفسير (١٨٥/٦) ط شاكر.

(٢) السابق (١٩٨/٦)، والحديث الذى ذكره رواه قبل ذلك بأسانيد كثيرة (١٨٩ وما بعدها) رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٢٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) السابق (٦/١ - ٧) ط شاكر.

(٤) التفسير (١١/١) ط شاكر.

وقد دلل ابن جرير على صحة ما قاله في ذلك، بأن في «حث الله - عز وجل - عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيان، بقوله - جل ثناؤه - لَنَبِيٍّ مِّنْهُ: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّدَّبَرُواْ ءَايَاتِهِ وَلِيَسْتَدَكِّرَ أَوَّلُواْ أَلَّا يَكُنْ﴾ [يس: ٢٩]. وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجَّب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له، ولا يُعقَل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة، من القيل والبيان، إلَّا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به...»^(١).

وقد تأيد ذلك المعنى بالأخبار التي رويت في الحض على العلم بتفسير القرآن، وأن ذلك كان منهج الصحابة - رضوان الله عليهم - في تلقى القرآن من النبي ﷺ وتلقيه من بعدهم^(٢).

وأما ما روى عن بعض السلف من تخرجهم أن يتكلموا في تفسير القرآن، وإحجامهم عنه، «فإن فعل من فعل ذلك منهم، كفعل من أحجم عن الفتيا في النوازل والحوادث، مع إقراره بأن الله - جل ثناؤه - لم يقبض نبيه ﷺ إليه، إلَّا بعد إكمال الدين لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حكما موجودا، بنص أو دلالة. فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجام جاحد أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهر عباده، ولكن إحجام خائف ألا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه.

فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السلف^(٣)، إنما كان إحجامه عنه جذارا أن لا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب

(١) السابق: (١/ ٨٢).

(٢) انظر السابق (١/ ٨٠ - ٨٣).

(٣) كذا في طبعتي شاكر، والفكر، ولعلها: من علماء السلف.

القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم»^(١).

وهذا التقرير الواضح من ابن جرير أصل مهم فى معرفة موقفه من «المتشابه» فى القرآن، وموقفه من تفسير نصوص الصفات، ومراد السلف بإمرارها كما جاءت، كما سيأتى فى محله إن شاء الله.

ولقد بين ابن جرير «أن تأويل جميع القرآن على أوجه ثلاثة:

أحدها: لا سبيل إلى الوصول إليه، وهو الذى استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن جميع خلقه، وهو أوقات ما كان من آجال الأمور الحادثة، التى أخبر الله فى كتابه أنها كائنة، مثل: وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، والنفخ فى الصور، وما أشبه ذلك.

والوجه الثانى: ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ لهم تأويله.

والثالث منها: ما كان علمه عند أهل اللسان الذى نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عريته وإعرابه، لا يُوصَلُ إلى عِلْمِ ذلك إلا من قِبَلِهِمْ»^(٢).

وسوف نحاول فيما يلى رصد أهم القواعد المتعلقة بكل وجه من هذه الأوجه الثلاثة لمعرفة أصول التأويل عند ابن جرير.



(١) التفسير (٨٩/١) ط شاكر. وانظر: (٧٧/١ - ٧٩، ٨٤ - ٨٩)، ومقدمة تفسير ابن كثير

(١/١٣١ ط السعودية)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/٣٧٤).

(٢) تفسير الطبرى: (٩٢/١ - ٩٣) ط شاكر.

المبحث الأول

التأويل الذى لا يعلمه إلا الله

ذكر ابن جرير أن ذلك الوجه الذى لا يعلمه إلا الله - تعالى - هو ما فى القرآن من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية . . . وما أشبه ذلك مما لا يعلم أحد حدودها، ولا يعرف أحد من تأويلها، إلا الخبر بأشراطها^(١).

وإذا كانت تلك الآجال والأوقات مما استأثر الله - تعالى - بعلمه دون خلقه، فهل هذا فقط، هو كل ما حجب الله علمه عن خلقه من آى كتابه؟ أم إن فيه ما حجب علمه عنهم سوى ذلك؟

ولمعرفة رأى ابن جرير فى ذلك ينبغى أن نتعرف أصل هذه المسألة، أعنى: (الحكم والمتشابه) فى القرآن، وتفسير ابن جرير له^(٢).

بين الله تعالى أنه أحكم كتابه؛ يعنى من (الدخل والخلل والباطل) فليس فيه عيب: ﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١] فالقرآن كله محكم بهذا المعنى. وبين أيضًا أنه (متشابه) يعنى: يشبه بعضه بعضًا فى الحسن، فلا اختلاف فيه ولا تضاد: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهو كله متشابه بهذا المعنى^(٣).

لكنه جعله أيضًا قسمين: محكما، ومتشابهًا، ووصفه بذلك فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ

(١) انظر الساق (١/٧٣ - ٧٦ و ٩٢ - ٩٣).

(٢) بسط الطوفى القول فى عرض المحكم والمتشابه والخلاف فيه، فانظر: شرح مختصر الروضة له (٢/ ٤٣ - ٥٩) وانظر أيضًا: مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٤ - ٢٨٤).

(٣) انظر: تفسير الطبرى: (١٥/ ٢٢٧) ط شاكر و (٢٣/ ٢١٠) ط الفكر.

مُتَشَبِّهَةٌ ﴿[آل عمران: ٧]﴾. فاختلف المفسرون فى ذلك على أقوال، حكاها ابن جرير فى تفسيره، ثم اختار منها القول بأن (المحكم) من آى القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم... وإنما سُمى الله من آى الكتاب (المتشابه) الحروف المقطعة التى فى أوائل السور^(١)... لأنهن متشابهات فى الألفاظ، وموافقات حروف حساب الجُمَّل.

وكان قوم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ طمعوا أن يدركوا من قِبَلِها معرفة مدة الإسلام وأهله... فأكذب الله أحدوشتهم بذلك، وأعلمهم أن ما ابتغوا من ذلك من قِبَلِ هذه الحروف المتشابهة، لا يدركونه، ولا من قِبَلِ غيرها، وأن ذلك لا يعلمه إلا الله^(٢).

وبغض النظر عن ضعف الرواية التى استند إليها ابن جرير فى جعل معانى الحروف المقطعة موافقاً لمعانى حروف الجمل^(٣)، فإن ابن جرير لم يُرد أن هذه الحروف لا معنى لها إلا ذلك، بل اختار أن الله عز ذكره دل بكل حرف منها على معان كثيرة، مثُلها فى ذلك مثل كلمة (أُمَّة)... ونحوها من (المشترك اللفظي). ومن ثم فقد أنكر على من تأول شيئاً من ذلك على وجه دون الآخر...^(٤).

(١) هذا يومهم أن تسمية هذه الحروف بالمتشابه منصوص عليها، وليس كذلك الأمر.

(٢) انظر: تفسير الطبرى (١٧٩/٦-١٨١) ط شاكر، وقارن بتفسيره للمحكم والمتشابه ص (١٧٠، ١٧٣) من نفس الجزء.

(٣) انظر ما ساقه ابن جرير فى ذلك من الروايات فى تفسيره (٢٠٥/١ - ٢٢٤) ط شاكر، وتعليق مُخَرَّجه (٢١٩/١ - ٢٢٠) ط شاكر وانظر: ابن تيمية: مجموع الفتاوى (١٧/٣٩٨).

(٤) انظر: التفسير (٢٢٠-٢٢٣) ط شاكر.

ثم إن ذلك على كلا التقديرين ، لا يناقض -فيما يظهر لى- ما يُفهم من القول الذى ارتضاه ابن جرير ، من أن هذه الحروف من قبيل المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ؛ وذلك أن كونها دالة على معانٍ كثيرة ، لا يترجح أحدها على غيره ، هو فى حد ذاته (تشابه) ، على بعض الأقوال فى بيان المتشابه^(١) .

وأما على القول بأنها توافق حروف حساب الجمل ، فإنها تكون من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، باعتبار ما طلبه القوم من معرفة الوقت الذى هو جاء ، قبل مجيئه ، المحجوب علمه عنهم وعن غيرهم . وهذا موافق لما اختاره ابن جرير فى معنى المتشابه على ما مر^(٢) .

فعاد الأمر فى المتشابه إلى أنه (الآجال الحادثة والأوقات الآتية) التى استأثر الله -تعالى- بعلمها دون خلقه . . . على ما ذكرناه عنه أولاً .

وأما القول بأن فى القرآن شيئاً لا يفهم معناه ، أو أن معناه يخالف الظاهر المفهوم من لغة العرب ، فهذا قد بين ابن جرير خطأه من وجوه:

أولها: أنه «لو كان معدولاً به عن سبيل لغاتهم ومنطقهم ، بكان خارجاً عن معنى الإبانة ، التى وصف الله : عز وجل بها القرآن وأتى يكون مبيناً ما لا يعقله أحد من العالمين ، فى قول قائل هذه المقالة ، ولا يعرف فى منطق أحد من المخلوقين ، فى قوله؟! وفى إخبار الله جل ثناؤه ، عنه أنه عربى مبين ، ما يكذب هذه المقالة ، وينبئ عنه أن العرب كانوا به عالمين ، وهو لها مستبين . فذلك أحد أوجه خطئه .

والوجه الثانى من خطئه فى ذلك : إضافته إلى الله جل ثناؤه ، أنه خاطب عباده بما لا فائدة لهم فيه ، ولا معنى له ، من الكلام الذى سواء الخطاب فيه به ،

(١) انظر : التفسير (١٧٧/٦) ط شاكر ، وقارن البحر المحيط للزركشى (١/٤٥٠) .

(٢) التفسير (١٧٩/٦-١٨٠) ط شاكر .

وترك الخطاب به. وذلك إضافة العبث -الذى هو منفى، فى قول جميع الموحدين، عن الله- إلى الله تعالى ذكره^(١).

والغريب فى موقف ابن جرير هنا أنه على حين يرى أن العلم بالآجال الحادثة والأوقات الآتية: «هو التأويل الذى لا يعلمه إلا الله»^(٢). ويؤيس اليهود -بحق- من أن يدركوا مدة الإسلام وأهله من قبل ذلك: «وأعلمهم أن ما ابتغوا من ذلك لا يدركونه.. وأن ذلك لا يعلمه إلا الله»، على حين يقرر ذلك كله، نراه فى مقدمة تاريخه يقع فيما نعاه على اليهود هنا وآيسهم منه، ويعقد هناك فصلًا فى «القول فى: كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره»، ينفصل فيه إلى أن قَدَّرَ جميع ذلك سبعة آلاف سنة، وأن عمر هذه الأمة منها قدر خمسمائة سنة»^(٣). وكأنه نسى ما قرره فى تفسيره.

ولئن كان ابن جرير قد اغتر، فيما ذهب إليه فى تاريخه، ببعض الروايات الواهية المخالفة لصريح القرآن^(٤)، أو تأول بعض الأحاديث الصحيحة على غير وجهها^(٥)، فإن أغرب ما وقع للخائضين فى هذه المسألة أن يعتمد السهيلي (ت

(١) التفسير (١/ ٢٢٣ - ٢٢٤) ط شاكر، وانظر ما يتعلق بهذه المسألة فى المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) التفسير: (٦/ ١٨١ - ١٨٢) ط شاكر.

(٣) انظر التاريخ (١ / ١٠ - ١٩)، وللسيطوى رسالة: الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف - ضمن الحاوى (٢ / ٢٤٨ - ٢٥٦) تنحو هذا المنحى، وإن كانت مدة الأمة عنده أزيد منها عند ابن جرير؛ تربو على الألف، ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة!!

(٤) مثل ما رواه عن ابن عباس: «الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة...»، وانظر المنار المنيف لابن القيم ص (١٤٠ وما بعدها)، ضعيف الجامع الصغير للالبانى، رقم (٣٠١٣، ٣٠١٤).

(٥) كالأحاديث التى تدل على اقتراب الساعة، مع أنه ليس فى شىء منها تحديد لوقت الساعة. ولذلك قال ابن تيمية: ليس عن النبى ﷺ فى تحديد وقت الساعة نص أصلاً. اه مجموع الفتاوى (٤/ ٣٤١)، وانظر: مقدمة ابن خلدون (٢٩٨-٣٠٠)

هـ) على طريقة حساب الجُمْل في تقدير مدة الإسلام بثلاث وسبعمئة سنة، وليس له عمدة في ذلك إلا ما روى عن اليهود^(١)!

ومثل هذا الذى فى التاريخ يذكر - فقط - لِيُتَعَجَّبَ منه، ومن أثر الإسرائيليات والروايات الباطلة فى مثل هذه الأمور، والله الموفق.



(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (٢٩٩)، وأيضا: مجموع الفتاوى (٣٤٢/٤).

المبحث الثانى

التأويل الذى يعلم من قبل النبى ﷺ

كان بيان النبى ﷺ للقرآن من مقتضيات رسالته، ووظائف نبوته، التى أمره بها ربه، تبارك وتعالى، فى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وأشباه ذلك من الآيات.

فإذا عرفنا مع ذلك أن النبى ﷺ هو أعلم الخلق بربه -تعالى- ومراده من عباده، وتأويل كلامه، عرفنا ما لذلك البيان من قيمة، وما بنا إليه من حاجة، لا سيما عند التنازع والاشتجار الذى يكون فصل القضاء فيه إلى ذلك البيان النبوى؛ قال جل ذكره: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١) [النحل: ٦٤].

ولذلك، فقد تلقى الصحابة من النبى ﷺ بيان القرآن وفهمه، كما تلقوا منه ألفاظه وحروفه، بل قد كان حرصهم، لا جرم، على الأول أشد. قال أبو عبد الرحمن السلمى (٢) «حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً» (٣).

(١) انظر: رسالة الشافعى ص (٣١-٣٣)، تفسير الطبرى (١٤/١٣٠) ط الفكر، مقدمة تفسير ابن كثير (١/١١١، ١١٣) ط السعودية.

(٢) هو: عبد الله بن حبيب بن ربيعة -بضم أوله وفتح الموحدة وتشديد الياء- الكوفى المقرئ، مشهور بكنتيته، من كبار التابعين، مات بعد السبعين. انظر: تقريب التهذيب ص (٤٩٩).

(٣) الأثر رواه ابن جرير فى تفسيره رقم (٨٢)، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده، وانظر: مجموع الفتاوى (١٣/٣٠٧-٣٠٨).

وأما ضابط ذلك الوجه من التأويل، على ما يقرره ابن جرير، فهو: تفصيل
جل ما في آيات الله من أمره ونهيه وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وسائر
معاني شرائع دينه، الذي هو مجمل في ظاهر التنزيل، وبالعباد إلى تفسيره
الحاجة^(١).

القواعد المتعلقة بذلك الوجه عند ابن جرير:

القاعدة الأولى:

لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان من رسول الله ﷺ إما بنص عليه، وإما بدلالة
قد نصبها، دالة أمته على تأويله^(٢).

وذلك أن هذا الوجه لا سبيل لأحد إلى علمه إلا من قبل الرسول ﷺ وما
كان كذلك فلا بد لمن تصدى لتأويله أن يكون عنده في ذلك نص، أو دلالة من
قياس ونحوه، على ما نص عليه الرسول ﷺ^(٣).

وقد ذكر ابن جرير بعض الأخبار التي رويت في النهي عن القول في تأويل
القرآن بالرأى^(٤). ثم قال: «وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا: من أن
ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ أو
بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة
موقن أنه محق، وإنما هو إصابة خارص وظان؛ والقائل في دين الله بالظن، قائل
على الله ما لم يعلم. وقد حرّم الله، جل ثناؤه، ذلك في كتابه على

(١) التفسير (١/٨٧)، وانظر أيضًا (١/٧٤، ٩٢) ط شاكر.

(٢) السابق: نفس المواضع.

(٣) انظر التبصير: ص (١١٢، ١٢٠ - ١٢٢).

(٤) انظر: الأرقام (٧٣ - ٧٩) من تفسيره، وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر عليها.

عباده...»^(١).

ومن الأمثلة على هذه القاعدة ما حكاه من اختلاف «أهل العلم فى وقت كون الزلزلة التى وصفها الله بالشدة [فى سورة الحج : ١، ٢] فقال بعضهم: هى كائنة قبل يوم القيامة ورواه عن علقمة والشعبى ثم قال: «وهذا القول الذى ذكرناه عن علقمة والشعبى ومن ذكرنا ذلك عنه، قولٌ، لولا مجيء الصحاح من الأخبار عن رسول الله ﷺ بخلافه، ورسول الله ﷺ أعلم بمعانى وحى الله وتنزيله. والصواب من القول فى ذلك ما صح به الخبر عنه»^(٢) ثم روى ما جاءت به الأخبار أن ذلك كائن يوم القيامة.



القاعدة الثانية:

الأمر الذى لا يدرك إلّا خبراً، إذا لم يرد فيه خبر، فليس فى العلم به لله طاعة، ولا يضرنا الجهل به، كما لا ينفعنا العلم به^(٣).

وذلك من تمام البيان والنصح للعباد، والإعذار إليهم: أن الله -تعالى- لا يتعبد لهم بما لا سبيل لهم إلى العلم به، ولا يحرمهم علم ما يحتاجون إليه^(٤).

(١) التفسير (٧٨/١ - ٧٩)، وليس النهى عن القول بالرأى خاصاً بالقرآن عند السلف، بل قال معتمر بن سليمان عن أبيه: «كانوا يكرهون تفسير حديث رسول الله ﷺ بأرائهم، كما يكرهون تفسير القرآن برأيهم» اهـ رواه ابن أبى حاتم فى علل الحديث، كما فى حاشية الإبانة لابن بطة (٣/٣٤١).

(٢) التفسير (١١١/١٧) ط شاكر، وانظر نماذج أخرى: (٣٧٤/٦) ط شاكر، (٢٢٩/٣٠) ط الفكر.

(٣) وليس فى العلم به أداء فرض، ولا فى الجهل به تضييع واجب (١١٤/٢٥) ط الفكر.

(٤) انظر: التوحيد لابن خزيمة (١٢٥)، ذم التأويل لابن قدامة ص (١٩)، شرح الطحاوية (١/٢٣٣).

ومن الأمثلة التى توضح لنا منهج ابن جرير فى ذلك: ما حكاه من اختلاف أهل التأويل فى عين الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها . . . ثم أتبع ذلك كله بقوله: «إن الله - جل ثناؤه - نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن، ولا فى السنة الصحيحة، فأئى يأتى ذلك . . . وذلك عِلْمٌ إذا عُلِمَ لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به»^(١).

وهاتان القاعدتان مما يكشف لنا عن موقف ابن جرير من الروايات الإسرائيلية، التى كانت من أهم مشكلات (التفسير بالمأثور) والتى لم يكد يخلو من التأثير بها كتاب من التفاسير المتقدمة^(٢).

وقد ذكر ابن جرير الأصل العام فى تلقى أخبار بنى إسرائيل، وما ورد من إباحة التحديث عنهم، وما ورد فى النهى عن تصديقهم أو تكذيبهم، وجمع بين ذلك بأن النبى ﷺ إنما نهى أمته عن تصديق أهل الكتاب وتكذيبهم، فيما لم يعلموهم فيه صادقين أو كاذبين، مما يمكن أن يكون صدقاً، ويمكن أن يكون كذباً. قال:

«فأما ما علموهم فيه صادقين أو كاذبين، فلم ينههم عن تصديقهم أو تكذيبهم، بل الواجب على كل أحد تصديقهم فيما كانوا فيه من الأخبار صادقين، وتكذيبهم فيما كانوا فيه منها كاذبين، إذا علم صدقهم فى ذلك أو كذبهم فيه.

فإن قال [قائل] فهذا هو الواجب على كل سامعٍ خبرٍ من كلِّ مُخْبِرٍ، فما الذى

(١) التفسير (١/ ٥٢٠ - ٥٢) ط شاكر، وانظر أيضاً: (٢/ ٢٣١ و ٥١٧) (٤/ ٢٨٠) (١٦/ ١٥ - ١٦ - ٤٩) ط شاكر.

(٢) انظر: د. محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص (٨٥)، (١١٣، ١٢٣).

خُصَّ به أهل الكتاب فى إخبارهم عما أخبروا؟

قيل: ليس الأمر فى ذلك كذلك؛ وذلك أن معروفا بالصدق فىنا من أهل ملتنا، لو حدثنا بحديث عن رسول الله ﷺ أو عن كتاب الله، لكان علينا تصديقه فى خبره، وإن كان من الأخبار الممكنة غير الواجبة.

ولو أن معروفا بالصدق فىنا من أهل الكتاب أخبرنا عن نبينا ﷺ أو نبينهم، أو كتابنا أو كتابهم، مما لا نعلم حقيقته، لم يكن لنا تصديقه، فذلك المعنى الذى فرق بين حكم خبر الكتابى وخبر غيره من أهل الإسلام^(١).

فصارت أقسام الأحاديث الإسرائيلية ثلاثة: ما علمنا صدقه من غير طريقهم، فيجب تصديقه، وما علمنا كذبه، فيجب تكذيبهم فيه، وهذا هو الواجب على كل سامعٍ خبرٍ، من كل مخبر، إذا كان خبره داخلًا فى هذين القسمين.

ويبقى القسم الثالث، وهو ما لم نعلم صدقهم فيه ولا كذبهم، «فلا نؤمن به، ولا نكذبه، ويجوز حكايته.. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني»^(٢).

وقد صار هذا القسم ثكافة لكثير من المفسرين فى ذكر ذلك النوع من الأخبار الإسرائيلية فى تفاسيرهم، مع ما تضمنه من تفصيلات لأمر غيبية، لا دليل عندنا على صحتها. بل إن الأمر لم يقف عند ذلك القسم المسكوت عنه، والذى أمرنا نحن بالسكوت عن الحكم عليه، وإنما تجاوز ذلك إلى رواية ما يجب تكذيبه، فى كثير من الأحيان.

ثم «إن إباحة التحديث عنهم، فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شئ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن، وجعله رواية فى معنى الآيات، أو فى تعيين ما لم يُعَيَّن فيها أو تفصيل ما أجهل فيها شئ آخر؛ لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار

(١) تهذيب الآثار: «الجزء المفقود» ص (٥٤٦ - ٥٤٧).

(٢) ابن كثير: مقدمة تفسيره (٤/١)، مجموع الفتاوى (٣٦٦/١٣).

كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه، مُبَيَّنٌّ لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك»^(١).

ومع أن ابن جرير قد روى كثيراً من هذه الآثار، إلا أن مثل هذه القواعد التي نثرها في كتابه، كانت تدل القارئ على أن تلك الآثار لا ترقى إلى أن تكون حجة يعتمد عليها في بيان ما أجمله القرآن، أو تفسير مشكل فيه^(٢). وهو إنما رواها جمعا لما قيل، أو لأهم ما قيل.

بيد أن ذلك المنهج لم يطرد في سائر المواطن التي أورد فيها ابن جرير هذه الأخبار، وكان ذلك الخلل المنهجي من غوائل الإكثار من روايتها. ولم تكن نتظر منه أن يصرح في كل موطن بمنهجه في رد تلك الأخبار، لكن تكمن المشكلة في تأثيره بها في توجيهه لمعنى آية، أو اختياره الراجح من التأويل فيها عنده، ثم الشأن، كل الشأن، فيما تنطوى عليه بعض هذه الأخبار من مساس بقضايا أصول الدين، لا سيما «النبوات» و«السمعيات».

ومن الأمثلة على ذلك: قوله في قصة «داود» - عليه السلام - في سورة «ص»: «وهذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه له؛ وذلك أن داود كانت له - فيما قيل - تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغراه حتى قُتل امرأة واحدة، فلما قتل نكح - فيما ذكر - داودُ امرأته، فقال له أحدهما: إن هذا أخى...»^(٣)، ثم ذكر الروايات التي تذكر ذلك، والتي كان أولها مسلسلا

(١) أحمد شاكر: عمدة التفسير (١/ ١٥).

(٢) وقد علق الشيخ المحقق محمود شاكر على بعض هذه المواضع بأن «هذا من موازين أبى جعفر، التي فرق ذكرها في كتابه، ولم يذكرها عند كل موضع، وهى الحَكْمُ بينه وبين من يزعمونه ذهب في تفسيره مذهب الاعتقاد لكثير مما أورده، مما لم تأت به بينه صحيحة من خبر عن رسول الله ﷺ أو حجة عقل يجب التسليم لها» ١. هـ (١٦/ ١٦) هـ (١)، وانظر (٣/ ٢٥٨ هـ ٥). وانظر نقده لابن جرير حين يخالف هذا المنهج: (٣/ ٢٥٩ هـ ٢).

(٣) التفسير (٢٣ / ١٤٣). ط الفكر.

بالضعفاء العَوْفِيِّين: محمد بن سعد عن أبيه . .^(١)، والغريب أنه ذكر فى بعض هذه الروايات أن ذلك من مزاعم أهل الكتاب^(٢).



القاعدة الثالثة:

الخبر المحتج به فى التأويل هو الصحيح دون غيره.

يقول: و«أحق المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن - الذى إلى علم تأويله للعباد السبيلُ - أوضحهم حجة- فيما تأول أو فسر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ -دون سائر أمته- من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه: إما من جهة النقل المستفيض، فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، أو من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته . .»^(٣).

ومن الأمثلة على ذلك: قوله - بعد أن حكى الخلاف فى تأويل قوله - تعالى - ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]: «والصواب من القول فى ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ فى ذلك، وهو أن معناه: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا، وذلك تثبيته إياهم بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بمثل ما

(١) انظر فى شرح ذلك الإسناد وبيان حاله: حاشية الشيخ شاكِر على تفسير الطبرى (١/٢٦٣ هـ (١) ط شاكِر.

(٢) السابق (١٤٩/٢٣، ١٥٠). وانظر أمثلة أخرى لهذه الإسرائيليات فى التفسير: (٢/٤٠٣ - ٤٣٦)، وتعليق الشيخ أحمد شاكِر ص (٤٣٤)، وانظر (١١/ ٤٨٠) (١٣/٣٠٩ وما بعدها) ط شاكِر.

(٣) (١/٩٣)، وانظر: (١/٧٤) ط شاكِر.

يشتبه به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسألون عن الذي هم عليه من التوحيد، والإيمان برسوله ﷺ^(١).

ولأنه لا فرق عنده بين الخبر المستفيض، وما ثبت من خبر الواحد العدل^(٢)، فلقد نعى على من لم يرجع إلى خبر "العدل" في تأويله ما تأول من القرآن، وأشار إلى أن ذلك خارج من مذاهب أهل العلم.

ومن ذلك قوله - في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِثَالِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]: «وقد زعم بعض من لا يصدق بالآثار، ولا يقبل من الأخبار إلا ما استفاض به النقل، من العوام، أن معنى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ إنما هو: .. إن كانوا ينطقون فاسألوهم. أى: إن كانت الآلهة المكسورة تنطق، فإن كبيرهم هو الذي كسرهم .. وهذا قول خلاف ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، كلها في الله...»^(٣).

غير أن ابن جرير، وإن جهد في تطبيق ما أصله، وتنقية كتابه من الرواية عن المتهمين، حتى صار تفسيره من أحسن التفاسير وأصحها^(٤)، فإن ذلك المنهج في التحرر لم يسلم له دائماً خلال رحلته الطويلة مع التفسير، بل كان يختل تطبيقه في بعض المواطن.

(١) التفسير: (٦٠٢/١٦) ط شاكر، وانظر: (٢٨/٢) (٣٠٨/١١ - ٣٠٩، ٥٠٣ - ٥٠٤) ط شاكر و(١١١/١٧) و(٩٢/٢٢) و(٦٠/٢٤) و(١١٤/٢٥) ط الفكر، ومواضع أخرى كثيرة. وانظر أيضاً: قواعد الترجيح لحسين الحري (١/١٩٦ وما بعدها).

(٢) انظر: مبحث حجية السنة فيما مضى.

(٣) التفسير (٤١/٢٧) ط الفكر. والحديث رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٨٥/١٣ - ٣٨٨). ومع ذلك فقد ذكر بعض الروايات من طريق الكلبي. انظر مثلاً: (٢١٤/١) و(٤٨٤/١٦ - ٤٨٥)، وعلق الشيخ =

ويكفى لتصور ذلك الخلل أن نعلم أن واحداً من أكثر الأسانيد دوراناً فى تفسيره، وهو: محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمى الحسين بن الحسن عن أبيه عن جده.. عبارة عن سلسلة من الضعفاء^(١).

وعلى حين يرد خبراً عن ابن عباس، لأنه من رواية الكلبي، وهو «ممن لا يجوز الاحتجاج بنقله»، فإننا نجد يروى حديثاً مرفوعاً من طريق الكلبي وفيه أن أحد الأوجه فى تفسير «الم» أنها من حروف حساب الجمل...، ثم ارتضى ذلك الوجه، ضمن ما ارتضاه من أوجه تفسيرها^(٢).

ويبدو أن من أهم أسباب وقوع مثل هذه الروايات الضعيفة أن ابن جرير كان فيه شيء من التساهل فى تصحيح الأحاديث، حتى وجدناه يصحح مثل حديث «أنا دار الحكمة وعليُّ بابها»^(٣). ويروى عن غير واحد من المتهمين، كجابر الجعفى^(٤)، وثوير بن أبي فاختة^(٥)، وأضرابهما، بل إن واحداً من أكثر مَنْ روى عنهم ابن جرير من الشيوخ، وهو محمد بن حميد الرازى، على سعة روايته، ضعيف، حتى اتهمه بعض الأئمة بالكذب^(٦).

= محمود شاكر على الأخير بأنه من المواضع القليلة التى روى فيها عن الكلبي.

(١) مرت الإشارة إلى ذلك الإسناد. وقد ذكر د. فؤاد سزكين أنه تكرر ذكر ذلك الإسناد فى التفسير (١٥٦٠) مرة. انظر: تاريخ التراث العربى (٢/ ١٦١ هـ) (٢).

(٢) التفسير: (١/ ٢١٦-٢٢٢) ط شاكر.

(٣) تهذيب الآثار (مسند على رقم ٨). وانظر حول ذلك الحديث: الشوكانى: الفوائد المجموعة (٣٤٨-٣٤٩)، وقد فصل محققه الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى رحمه الله، القول فى بيان ضعف الحديث.

(٤) انظر ترجمته وعذر من روى عنه من الأئمة فى: المجروحين، لابن حبان (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٥) انظر فى ترجمته والأقوال فيه: تهذيب التهذيب لابن حجر (١/ ١٤٦). وانظر: تهذيب الآثار مسند ابن عباس (١/ ٥٤٤)، مسند على (٢٠٧).

(٦) انظر ترجمته والأقوال فيه فى: ميزان الاعتدال (٤/ ٤٥٠ - ٤٥١).

المبحث الثالث

التأويل الذي يعلمه أهل اللغة

إذا كانت حاجة الناس إلى الهداية، وُحِّلَتْهم إلى البيان عن الله - تعالى - لا يسدها إلا رسول يفهمون لسانه، وكتاب يُعَوِّنُ بيانه، فلا غرو كانت رسالة كل رسول بلسان قومه ليبين لهم؛ يقول ابن جرير: «لأن المخاطب والمرسل إليه، إن لم يفهم ما خوطب به، وأرسل إليه، فحالته قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه، وبعده سواء؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل جاهلاً. والله - جل ذكره - يتعالى أن يخاطب خطاباً، أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب به أو أرسلت إليه؛ لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال...، فالواجب أن تكون معاني كتاب الله لمعاني كلام العرب موافقة، وظاهره لظاهر كلامها ملائماً، وإن باينه كتاب الله بالفضيلة التي فضل بها سائر الكلام والبيان...»^(١).

ففهم معاني المفردات والجمل، ووجوه إعراب القرآن، وما يتعلق بعربيته، كل ذلك يدرك من أهل اللسان ويرجع إليهم فيه، ولا شك أن معنى قوله «قضيئنا، فعلنا، قد علم تأويله كثير من أهل الشرك، فضلاً عن أهل الإيمان والرسوخ في العلم منهم»^(٢).

ولو أن سامعاً من العرب سمع تالياً يتلو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ١١ آلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا

(١) التفسير (١/ ١١-١٢) ط شاكر، وانظر (١/ ٢٢٢-٢٢٤) من نفس الطبعة. وانظر:

التفسير.

(٢) السابق (٦/ ٢٠١) ط شاكر.

يَسْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، لم يجهل أن معنى الإفساد هو: ما ينبغى تركه، مما هو مضر، وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله، مما فعله منفعة، وإن جهل المعانى التى جعلها الله إفسادا، والمعانى التى جعلها الله إصلاحا. فالذى يعلمه ذو اللسان، الذى بلسانه نزل القرآن، من تأويل القرآن هو: «معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة، غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهياتها، التى خص الله بعلمها نبيه ﷺ فلا يدرك علمه إلا ببيانه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه»^(١).

القواعد المتعلقة بهذا الوجه:

القاعدة الأولى:

«يجب» توجيه معانى ما فى كتاب الله إلى ما كان موجودا مثله فى كلام العرب، دون ما لم يكن موجودا»^(٢).

ووجه ذلك أن القرآن كتاب عربى، فواجب أن يكون جاريا على سَنَنِ العرب فى منطقها وكلامها.

وهى فكرة نجدها - كذلك - عند سيبويه فى (الكتاب): «... العباد إنما كُلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون»^(٣).

(١) السابق (٧٥/١) وانظر (٩٢/١ - ٩٣) ط شاكر، وتأكيدا لهذه القاعدة نفى ابن جرير أن يكون فى القرآن كلام ليس عربيا، وما قيل فيه ذلك فهو مما اتفقت فيه اللغات، وليست واحدة منها بأولى به من غيرها. انظر التفسير (١٣/١ - ٢٠).

(٢) التفسير: (١٦١/٣) ط شاكر، وانظر نحو من ذلك: (٤١٨/١) ط شاكر، و (٦٧/١٢) (١٧٨/١٧) ط الفكر.

(٣) الكتاب: (٣٣١/١، ٣٣٢)، وانظر هذه القاعدة أيضًا عند الأشعرى فى الإبانة (٤٥ و ١٢٦ =

فعلى من أراد أن يتأوله التأول الصحيح أن يكون قد أعد لذلك عدته من العلم بلسان العرب: «وأحق المفسرين بإصابة الحق - في تأويل القرآن الذى إلى علم تأويله للعباد السبيل - أوضحهم حجة فيما تأول أو فسر . . مما كان مدركا علمه من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المعروفة»^(١).

ومن أجل ذلك، وجدنا ابن جرير قد شحن كتابه بالشواهد من كلام العرب عند بيانه لمعانى ألفاظه، لا سيما الغريب منها.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله في تفسير قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك يا ربنا بالربوبية، لا لغيرك . . .» قال:

«وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع ونذل نستكين، دون البيان عنه بأنه بمعنى نرجو ونخاف، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلك، لأن العبودية عند جميع العرب، أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق الذى قد وطئته الأقدام، وذلته السابلة: مُعَبِّدًا، ومن ذلك قول طرفة بن العبد^(٢):

تُبَارَى عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ، وَأَتَبَعْتُ وَظِيفًا وَظِيفًا، فَوْقَ مَوْرِ مُعَبِّدٍ
يعنى بالمَّوْر: الطريق، وبالمُعَبِّد: المذلل الموطوء . . . والشواهد على ذلك من أشعار العرب وكلامها أكثر من أن تحصى، وفيما ذكرناه كفاية لمن وفق لفهمه، إن شاء الله»^(٣).

= وما بعدها)، وابن بطة فى الإبانة - أيضًا - له (٣/٣/٣١٧).

(١) التفسير: (٩٣/١) ط شاكر.

(٢) ديوانه (٢٢)، وشرح المعلقات للزوزني (٥٠).

(٣) التفسير: (١/١٦١) ط شاكر، والأمثلة على ذلك فى كتابه أبين من أن يُدَلَّ عليها، وانظر فى الجزء الأول وحده (١/١٠٣ - ١٠٦، ١٢٣، ١٣١، ١٤٠، ١٥٥، ١٦٧) ط شاكر، ومواطن أخرى كثيرة.

القاعدة الثانية:

«لا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل فى لسان العرب، دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى... طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى»^(١).

وهذه القاعدة أخص من الأولى؛ فإذا كان قد اشترط فى الأولى ألا يؤوّل الكلام إلا على وجه تعرفه العرب ويوجد فى استعمالاتها، فإن هذه القاعدة توجب ألا يكون ذلك الوجه خفيا فى كلام العرب، أو قليل الاستعمال، بل ظاهرا فاشيا فى لسان العرب. «والقاعدة فى ذلك أن يحمل القرآن على أصح المعانى، وأفصح الأقوال، فلا يحمل على معنى ضعيف، ولا على لفظ ركيك»^(٢). والغفلة عن هذه القاعدة هى أحد الأوجه التى يدخل منها الفساد إلى التأويل^(٣).

ومن الأمثلة على هذه القاعدة: ما حكاه من اختلاف أهل التأويل فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]، ثم قال: «وأولى التأويلات التى ذكرناها فى هذه الآية بالصواب، تأويل من قال: يخرج الإنسان الحى، والأنعام والبهائم الأحياء من النطفة الميتة؛ وذلك إخراج الحى من الميت. ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحى والأنعام والبهائم الأحياء، وذلك إخراج الميت من الحى. وذلك أن كل حى فارقه شيء

(١) التفسير (٣٦٥/٦) ط شاكر، وانظر التاريخ (٥٨/١)، وانظر هذه القاعدة أيضًا عند الدارمى فى النقض على بشر ص (٥٢)، وابن عبد البر فى التمهيد (٩/٢ - فتح البر).

(٢) العز ابن عبد السلام: الإشارة إلى الإيجاز ص (٢٢٠)، وانظر: ابن الوزير: إيثار الحق (١٦٥).

(٣) انظر: مختصر الصواعق لابن القيم ص (١٤)، وأيضًا: حسين الحربى: قواعد الترجيح (٣٨٦ - ٣٦٩/٢).

من جسده، فذلك الذى فارقه منه ميت، فالنطفة ميتة لمفارقتها جسد من خرجت منه، ثم ينشئ الله منها إنسانا حيا، وبهائم وأنعاما أحياء... وأما تأويل من تأوله بمعنى: الحبة من السنبل، والسنبل من الحبة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، فإن ذلك وإن كان له وجه مفهوم، فليس ذلك الأغلب الظاهر فى استعمال الناس فى الكلام، وتوجيه معانى كتاب الله عز وجل إلى الظاهر المستعمل فى الناس، أولى من توجيهها إلى الخفى القليل فى الاستعمال»^(١).



القاعدة الثالثة:

يجب تأويل القرآن على وجه يفيد السامع فائدة لم يكن استفادها من قبل. وذلك أنه إذا كان متقررًا أن إعمال الكلام أولى من إهماله، فلا شك أن ذلك يكون أولى وأولى فى تأويل كلام الله تعالى، وسواء كان ذلك الإهمال عدًّا حرف من أحرف القرآن زائداً، أو مؤكداً، أو كان غير ذلك^(٢). ومن الأمثلة على تطبيق هذه القاعدة عند ابن جرير، ما حكاه من اختلاف أهل العلم فى (ابن آدم) اللذين قربا قربانا: هل هما ابناه لصلبه، أو رجلان من بنى إسرائيل، لا من ولد آدم لصلبه... ثم قال بعد ذلك:

(١) التفسير (٣٠٩/٦) ط شاكر، وانظر أمثلة أخرى فيه، منها (٣١٦/٦ - ٣١٧، ٣٦٥) (٧/

٥٠٨-٥٠٩) (١٧٣/٢) (٤١٨/١١) ط شاكر.

وانظر نموذجا للخلل فى تطبيقها فى تفسير: ﴿وَأَفْجُرُونَهُ﴾ (٣١٢-٣٠٢/٨) وتعليق ابن العربى

فى: أحكام القرآن (٤١٨-٤١٩).

(٢) انظر: ابن النجار: شرح الكوكب المنير (٢٩٥-٢٩٧)، حسين الحربى: قواعد

الترجيح (٤٧٣/٢) وما بعدها.

«وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب أن اللذين قربا القربان كانا ابنى آدم لصلبه، لا من ذريته من بنى إسرائيل؛ وذلك أن الله - عز وجل - يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن مقرب القربان لم يكن إلّا فى ولد آدم دون الملائكة والشياطين، وسائر الخلق غيرهم. فإذا كان معلوما ذلك عندهم، فمعقول أنه لو لم يكن معنيا بابنى آدم... ابنه لصلبه، لم يفدهم بذكره - جل جلاله - إياهما فائدة لم تكن عندهم»^(١).



القاعدة الرابعة:

يجب تأويل القرآن على وجه يلائم السياق الذى ورد فيه الكلام، إلّا أن يدل على انصرافه عنه دليل صحيح^(٢).

فسياق الكلام «يرشد إلى تبين الجملات، وتوضيح الاحتمالات وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال»^(٣). قال الزركشى: «أنكرها بعضهم»^(٤)، ومن جهل شيئاً أنكره، وقال بعضهم إنها متفق عليها فى مجارى كلام الله تعالى»^(٥).

(١) التفسير: (٢٠٨-٢٠٩) ط شاكر وانظر ص (٢١٩) من نفس المصدر والجزء حيث يؤيد اختياره بالأثر، وانظر أيضاً: تفسير آية (٣٧) من سورة النحل (١٠٤/١٤) ط الفكر.

(٢) انظر: التفسير (٥٢٥/١٥) ط شاكر، (١٧/٢٥) ط الفكر، وقواعد الترجيح: (١/١٢٥ وما بعدها).

(٣) الزركشى: البحر المحيط (٥٢/٦) نقلا عن العز ابن عبد السلام فى (الإمام).

(٤) يعنى: دلالة السياق.

(٥) الزركشى: نفس المصدر والصفحة. وقد ذكر الشافعى فى أنواع البيان فى كتاب الله وكيفيته، : الصنف الذى يبين سياقه معناه، انظر الرسالة، ص (٦٢ وما بعدها).

ولا شك أن «من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبت بعضه ببعض، لئلا يكون مقطعا مبعثراً، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد، فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر»^(١).

ومن الأمثلة التي بنى فيها ابن جرير اختياره للقول الراجح على هذه القاعدة: ما ساقه من الخلاف في المعنى بقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]: هل كان رجلاً من اليهود... أم جماعة منهم... أم هو خبر عن مشركي قريش...، ثم قال:

«وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: مشركو قريش؛ وذلك أن ذلك في سياق الخبر عنهم أولاً، فأن يكون ذلك أيضاً خبراً عنهم، أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود ولما يجرب لهم ذكر يكون هذا به متصلاً»^(٢).

لقد كانت دلالة السياق من أهم ما عني به ابن جرير عند ذكره لتأويل النص الشرعي أو بيان الراجح من أقوال المختلفين فيه، لكنه ربما أطلق على ذلك «دليل ظاهر الكلام»، وربما أغفل ذكر ذلك في مواطن أخرى، لئلا يكرر ما قد قرره قبل، مما يخالف ما رسمه لكتابه من إنشائه «بأوجز ما يكون من الإيجاز، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه»^(٣).

(١) العز ابن عبد السلام: الإشارة إلى الإيجاز: ص (٢٢١).

(٢) التفسير (١٢/ ٥٢٤- ٥٢٥) وانظر في بقية النص وجوهاً أخرى في تقوية ما اختاره. وانظر في تفسيره نماذج أخرى كثيرة لذلك، منها: (٣/ ٥٥، ١٢٤-١٢٦) (٧/ ٤٨٣- ٤٨٥) (١٢/ ٣٨٥، ٤١٤) ط شاكر (١٧/ ٨٦، ١٣٣، ٢٠١) (١٨/ ١٣٥) (١٩/ ٦٤، ١٤٤) (٢٥/ ١٧) (٢٧/ ٢٢٣) (٣٠/ ٥٥) ط الفكر.

(٣) التفسير (١/ ٧) وانظر تسميته بظاهر الكلام (٣/ ٥٥) وانظر تعليق الشيخ محمود شاكر على الموضع السابق ه/ رقم (٣)، وأيضاً (٣/ ٧٤- ٧٥) ه (٣).

ومن لطيف استخراج ابن جرير للدلائل السياقية، ربطه بين معانى هذه الآيات، وما ختمت به من أسماء الله تعالى وصفاته، ومناسبة كل صفة وما دلت عليه من معنى، لسياقها الذى وردت فيه، ومن ثم يستنبط منها معنى تربويا، أو يرجح قولاً فى مسألة فقهية تضمنتها الآيات.

ومن أمثلة ذلك النوع من الاستنباط عند ابن جرير قوله: «وأشبه: الأقوال بما دل عليه ظاهر كتاب الله تعالى ذكره، أن قوله: ﴿فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧] إنما معناه: فإن فاءوا بعد وقف الإمام إياهم من بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فرجعوا إلى أداء حق الله عليهم لنسائهم اللاتى آوا منهم، فإن الله لهم غفور رحيم، ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فطلقوهن فإن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم إذا طلقوا ﴿عَلِيمٌ﴾ بما أتوا إليهن.

وإنما قلنا: ذلك أشبه بتأويل الآية، لأن الله -تعالى ذكره- حين قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) ومعلوم أن انقضاء الأشهر الأربعة غير مسموع، وإنما هو معلوم. فلو كان عزم ﴿الطَّلَاقَ﴾ انقضاء الأشهر الأربعة، لم تكن الآية مختومة بذكر الله الخبر عن الله تعالى ذكره، أنه (سميع عليم) كما أنه لم يختم الآية التى فيها الفىء إلى طاعته بذكر الخبر عن أنه شديد العقاب، إذ لم يكن موضع وعيد على معصية، ولكنه ختم ذلك بذكر الخبر عن وصفه نفسه تعالى ذكره بأنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ إذ كان موضع وعد المنيب على إنابته إلى طاعته. فكذا ختم الآية التى فيها ذكر القول والكلام بصفة نفسه بأنه للكلام ﴿سَمِيعٌ﴾ وبالفعل ﴿عَلِيمٌ﴾^(٢).

(١) قال الشيخ محمود شاكر فى تعليقه على ذلك الموضع: فصلنا بين شطرى الآية، لأن ذلك مراد الطبرى. يعنى أن الله حين قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ١. قلت: ولعله سقط كلمة [قال] بين شطرى الآية. والله أعلم.

(٢) التفسير: (٤/٤٩٨-٤٩٩) ط شاكر. وانظر مثلاً آخر لما استخرجه من دلالة السياق من =

القاعدة الخامسة:

يحمل الكلام على ظاهره فلا يحال عنه إلى الباطن إلاً بدليل، فى موضع يحتاجه الكلام فإن تعارض معنيان، فأظهرهما أولاًهما، وما لا يحتاج إلى تحويل معناه عن الظاهر أولى مما يحتاج.

والظاهر عند ابن جرير هو الظاهر فى التلاوة^(١)، المفهوم من الكلام^(٢). وهو ما عبر عنه ابن تيمية بأنه «يسبق إلى العقل السليم لمن يفهم بتلك اللغة»^(٣). وأما الباطن فهو ما بطن من تأويله^(٤)، الذى يعلمه العلماء بالاستنباط والفقه. ولم يرد ما تفعله طائفة [من] الصوفية وأشباههم فى التلعب بكتاب الله وسنة رسوله، والعبث بدلالات ألفاظ القرآن^(٥).

فالذى عناه ابن جرير بالظاهر هنا هو «الظاهر فى عرف سلف الأمة: لا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يلحد فى أسماء الله تعالى، ولا يقرأ القرآن والحديث بما يخالف تفسير سلف الأمة وأهل السنة، بل يجرى ذلك على ما

= معانى تربوية من باب الحث والزجر. (٥٠٦/٢) ط شاكر، وانظر أيضاً: (٣٧٦/٢) ط شاكر (٦٠/١٦) (٢٨/١٨) ط الفكر. لكنه ربما اختار قولاً فى تفسير الآية، يبدو مخالفاً لسياقها. فانظر تفسيره للنور فى الآية (١٢) من سورة الحديد، وانظر الآية بعدها وتأويله لها، لترى مثلاً للخروج عن مقتضى السياق (٢٧/٢٢٢ وما بعدها) ط الفكر. وانظر مثلاً آخر (٣١٥/١٣) ط شاكر.

(١) التفسير: (٧٢/١) ط شاكر.

(٢) السابق: (١٥/٢).

(٣) الرسالة المدنية: ص (٣١).

(٤) التفسير (٧٢/١).

(٥) انظر تعليق الشيخ / محمود شاكر على الموطن السابق فى التفسير، وانظر: د / محمد أديب صالح: تفسير النصوص (١/٣٧٣ هـ (٢).

اقتضته النصوص، وتطابق عليه دلائل الكتاب والسنة، وأجمع عليه سلف الأمة^(١).

ويكفى لمعرفة أثر اتباع الظاهر والأخذ به، أو عدم ذلك، فى قضية «التأويل» أن نعلم أنه على حين حكى غير واحد من الأصوليين أن اتباع الظاهر والعمل به، والكف عن تغييره واجب بالإجماع^(٢)، حتى ذهب الغزالى إلى أنه يجب تكفير من يغير الظواهر المتعلقة بأصول العقائد بغير برهان قاطع^(٣)، فلقد وجد، على النقيض من ذلك، من تهجم على حرمة النصوص، فزعم أن الذين فى قلوبهم زيغ.. المراد بهم نصارى نجران ومن هذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن. قال: «فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة»^(٤). وهذا من القول الذى تغنى حكايته عن رده، ويغنى سقوطه بنفسه عن تكلف إسقاطه وتزييفه.

ولخطر ذلك الباب قال ابن برهان^(٥) عن بحث الظاهر والمؤول: «وهو أنفع

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٣/ ٣٨٠). وانظر: قواعد الترجيح للحربى (١٣٧/ ١) وما بعدها). وانظر فى هذا المعنى: الإبانة للأشعرى (١٣٨، ١٤٠)، الفصل (١/ ٢٨٨)، البحر المحيط (٣/ ١٨-١٩).

(٢) الزركشى: البحر المحيط.. (٤/ ٤٦٣)، وانظر: قواعد الترجيح: الموضع السابق.

(٣) انظر: فيصل التفرقة ص (١٤٢).

(٤) قائل ذلك هو: أحمد الصاوى المالكى فى حاشيته على تفسير الجلالين (١/ ١٤٠)، وانظر أيضًا (٣/ ١٠) منها، وانظر رد العلامة الشنقيطي على كلام الصاوي فى أضواء البيان (٧/ ٤٣٧) وما بعدها)، وقد قال شيخ الإسلام: «فأما أن يقال إن فى كلام الله ورسوله ما ظاهره كفر وإلحاد، من غير بيان من الله ورسوله لما يزيل الفساد، ويبين المراد، فهذا هو الذى تقول أعداء الرسل الذين كفروا، من المشركين وأهل الكتاب، وهو الذى لا يوجد فى كلام الله أبدا. اهدره تعارض العقل والنقل.. (٥/ ٢٣٣)، وانظر ما بعده إلى ص (٢٤٢).

(٥) هو أحمد بن علي بن محمد بن برهان، الأصولي. وبرهان بفتح الباء الموحدة، الشيخ =

كتب الأصول وأجلها، ولم يزل الزالُّ إلَّا بالتأويل الفاسد»^(١).

ومن الأمثلة التي يظهر فيها تخريج ابن جرير اختياره على هذه القاعدة، ما ذكره في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] قال: «وروي عن مجاهد قال: مُسَخَّتْ قُلُوبُهُمْ، ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم.

قال أبو جعفر: «وهذا القول الذي قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف، وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وأن الله - تعالى ذكره - أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربهم...»

فابن جرير لا يقر مثل ذلك العدول عن المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ؛ لأنه أولاً: لا حاجة إليه^(٢). وثانياً: لأنه لا يُقبل إلَّا بحجة يجب التسليم لها، فيسلم حينئذ لها^(٣).

= الإمام أبو الفتح، كان أولاً حنبلي المذهب، ثم انتقل إلى الشافعي، كان حاذق الذهن، عجيب الفطرة، لا يكاد يسمع شيئاً إلا حفظه وتعلق بذهنه. طبقات الشافعية (٦/ ٣٠-٣١).

(١) نقله عنه الزركشي في: البحر (٤/ ٤٦٣).

(٢) انظر التفسير: (١٨/ ٣٤) ط الفكر، وانظر نموذجاً لذلك مهما في باب (الأسماء والصفات) في: التبصير... (١٤٢-١٤٧).

(٣) انظر التفسير (١٥ / ٢٦٦، ٢٦٧) ط شاكر، ومن أجل ذلك قرر ابن جرير في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] أن ذلك خطاب للمؤمنين (يعنى من هذه الأمة)، وأنه لا وجه لمن زعم أنه أمر للذين خرجوا من ديارهم... لأن الأمر على ذلك التأويل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة...، فذكر الأولين وأبطلهما، ثم قال: أو يكون معناه: ثم أحياهم، وقال لهم: قاتلوا في سبيل الله، فأسقط القول، كما قال - تعالى ذكره - ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُتَجَرِّثُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا

وراء ذلك كله: أن ابن جرير يعارض من يتأول بعض النصوص دون بعض، بأن قوله يمكن أن يعكس عليه؛ بأن يقر غيره ما أنكره هو وتأوله، أو ينكر غيره ما أقره هو:

«فسواء قائل قال هم لم يمسخوا قردة، وقد أخبر الله جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير، وآخر قال: لم يكن شيء مما أخبر الله عن بنى إسرائيل أنه كان منهم.

ومن أنكر شيئاً من ذلك وأقر بآخر، سئل البرهان على قوله، وعورض فيما أنكر من ذلك -بما أقرَّ به. ثم يُسأل الفرقَ من خبر مستفيض، أو أثر صحيح»^(١).

ثم يقرر أنه لا فرق بين من فعل ذلك فى شيء من الخبر، أو فى نص واحد، ومن فعل ذلك فى سائر الأخبار. قال: «وغير جائز أن يضاف خبره عن شيء إلى أنه خبر عن غيره، بغير برهان؛ لأن ذلك لو جاز، جاز فى كل أخباره. وإذا جاز ذلك فى أخباره، جاز فى أخبار غيره أن يضاف إليه أنها أخباره، وذلك قلب أعيان الحقائق، وما لا يُخيل من الفساد»^(٢).

ثم لا فرق أيضاً بين كون ذلك الخبر عن أسماء الله تعالى وصفاته، أو عن غير

= وَسَمِعْنَا بِمعنى: يقولون: ربنا... وذلك أيضاً إنما يجوز فى الموضع الذى يدل ظاهر الكلام على حاجته إليه، ويفهم السامع أنه مراد بالكلام، وإن لم يذكر. فأما فى الأماكن التى لا دلالة على حاجة الكلام إليه، فلا وجه لدعوى مدح أنه مراد فيها» التفسير: (٥/ ٢٨١ - ٢٨٢) ط شاكر.

(١) التفسير: (١٧٣/٢) ط شاكر، ثم رد قول مجاهد من وجه آخر، وهو مخالفته «قول جميع الحجة... فيما نقلته مجمعة عليه» اهـ.

(٢) التفسير (٢٣٢/١٥) ط الفكر. وقوله: «لا يُخيل» يعنى: لا يشتبه ويلتبس. يقال: هذا الأمر لا يُخيل على أحد. انظر اللسان (١٣٠٤/٢).

ذلك من أصول الدين وفروعه، بل الواجب فى ذلك كله اتباع «ما دل عليه ظاهر الخبر، وليس عندنا للخبر إلا التسليم والإذعان»^(١).

ولا يقال: إن انفراد الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وتنزهه عن مشابهة الخلق فيها مما يوجب ذلك التأويل، لأن ذلك: «لا يُحيل الكلام الجارى بين الناس فى استعمالهم إياه عن وجوهه، ولا يغيره عن معانيه» اهـ. التفسير: (٦٠/٢) ط شاكر.

والفساد الذى أشار ابن جرير إلى أن التأويل يحره ويفتح منه بابًا لا يغلق، سببه أن المتأولة «لما لم يكن لهم قانون قويم وصراط مستقيم فى النصوص، لم يوجد أحد منهم يمكنه التفريق بين النصوص التى تحتاج إلى تأويل، والتى لا تحتاج إليه، إلا بما يرجع إلى نفس المتأول المستمع للخطاب، لا بما يرجع إلى نفس المتكلم بالخطاب»^(٢).



(١) التبصير ص (١٤٦).

(٢) ابن تيمية: درء التعارض (٢٤٠/٥)، وانظر: (٣٤٣/٥) منه، وانظر أيضا: الصواعق المرسله لابن القيم (٢٢٠/١) وما بعدها، (٢٣٣/١)، وانظر أمثلة أخرى لتطبيق هذه القاعدة فى التفسير: (٢٧/٢، ٣١، ٦٠، ٦١، ٨٥، ١٧١، ١٧٣، ١٨٠ موضع مهم)، (٣/٣٧)، (٢٦٠/١٣) ط شاكر، (١٢٣/٢٢) (١٠٦/٢٤)، (٢٩٥-٢٩٦/٣٠) ط الفكر. ومن الحجج التى يترك الظاهر من أجلها: صحة الخبر بخلافه، انظر تقرير ذلك (١٣/٢٥٠) ط شاكر، وتطبيقه (٣٩٩/٥ - ٤٠٣) ط شاكر. وانظر مثالا آخر لخروجه عن الظاهر، لمقتضى دليل آخر - عنده - فى التفسير (١٥٨/٣ - ١٦٢) ط شاكر.

القاعدة السادسة:

لا يجوز الخروج عن أقوال السلف فى تأويل النصوص، ولو كان لما خرج عن أقوالهم وجه، من حيث اللغة، لأنهم أعلم بمعانى كتاب الله، وكفى بذلك الخروج دليلاً على خطأ صاحبه وذلك أن الناس كلما كان عهدهم بالنبوة أقرب، كان العلم والسنة بينهم أظهر، والجدل والخلاف والبدع أقل وأستر، لا سيما القرون المفضلة التى نصَّ النبي ﷺ على تقدمها من بعدها فى الخير^(١).

ومن دلائل اعتماد السلف ذلك المعنى قول عبد الله بن الزبير: «لقيني ناس من أهل العراق، فخاصمونى فى القرآن، فوالله ما استطعت بعض الرد عليهم، وهبْتُ المراجعة فى القرآن، فشكوت ذلك إلى أبى، الزبير. فقال الزبير: إن القرآن قد قرأه كل قوم فتأولوه على أهوائهم، وأخطأوا مواضعه. فإن رجعوا إليك فخاصمهم بسنن أبى بكر وعمر، رحمهما الله، فإنهم لا يجحدون أنهما أعلم بالقرآن منهم.

فلما رجعوا إليّ، فخاصمتهم بسنن أبى بكر وعمر، فوالله ما قاموا معى ولا قعدوا»^(٢).

ومن الأمثلة على رد ابن جرير بعض الأقوال فى «التأويل» بناءً على هذه القاعدة، ما ذكره فى تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]، قال: وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر الكلام برأيه على مذهب كلام العرب^(٣)، يوجه معنى قوله (وفيه يعرضون) إلى: وفيه ينجون من الجذب

(١) وقد حكى شيخ الإسلام إجماع الطوائف على ذلك. انظر: مجموع الفتاوى (٤ / ١٥٧ -

١٥٨)، وانظر أيضاً: عثمان حسن: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد (٢ / ٥١٨).

(٢) نقله ابن بطة العكبرى فى: الإبانة الكبرى (٢ / ٦٢٠) رقم (٨١١).

(٣) قال الشيخ محمود شاكر: يعنى أبا عبيدة معمر بن المثنى، فهو قائل ذلك فى كتابه مجاز =

والقحط، بالغيث. ويزعم أنه من (العَصْر) و(العُصْرَة) التي بمعنى المنجاة..
وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه، خلافة قول جميع أهل العلم من
الصحابة والتابعين^(١).

ولا عبرة بكون القول الخارج عن أقوال السلف جاريًا على مذاهب العرب،
لأن الفقهاء - لا شك - أعلم بالتأويل، وعنهم يؤخذ ذلك^(٢).



= القرآن (١/٣١٣، ٣١٤) هـ.

(١) التفسير: (١٦/١٣١-١٣٢) ط شاكر.

(٢) السابق (١٦/٧١). وانظر نماذج أخرى لتطبيق هذه القاعدة فى التفسير: (٢/٢٧٦) (٢/٢)

(١٧٣) (١٦/٣٨-٣٩) (١٦/٢٨٢-٢٨٤) ط شاكر (٣٠/١٦٣) ط الفكر.

ابواب الشافي

آراء الطبري في ابدلهيات

الباب الثاني

آراء الطبري في الإلهيات

الفصل الأول

وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته

المبحث الأول

وجود الله، جل جلاله

على الرغم من النقد الذي وجه إلى البحث في مسألة وجود الله، واعتبار أنها لم تكن قط قضية جدية، بل زائفة دخيلة على الفكر الكلامي في الإسلام، ينبغي إسقاطها بمرّة^(١)، على الرغم من ذلك، فلقد شغل البحث في هذه المشكلة حينًا كبيرًا من الفكر الفلسفي والكلامي؛ بحيث كانت هذه المسألة أولى المسائل التي تتصل اتصالًا مباشرًا بذات الله تعالى، وينعكس صداها على الفرد والمجتمع^(٢).

ولم يكن بدعًا - من ثم - أن تعددت مناهج البحث في هذه المشكلة، وتنوعت طرق الاستدلال عليها، ما بين عقلية، ونقلية، وصوفية، وفطرية...^(٣).

ومع أن الفلاسفة والمتكلمين، قد سلكوا المنهج العقلي، بل غلّوا فيه^(٤)، فإن

(١) انظر: سيد قطب: مقومات التصور (١٠٠، ١٠٩). عبد الحليم محمود: التوحيد الخالص (١٤٤ وما بعدها).

(٢) انظر: محمد البهي: الجانب الإلهي (٣٦٦).

(٣) انظر: الزركان: فخر الدين الرازي وآراؤه (١٧٤)، حسن الشافعي: لمحات (٧).

(٤) قارن: محمود قاسم: مقدمة مناهج الأدلة، ص (١٠).

نقطة البدء في ذلك الاستدلال صارت مفترقا للطريق بينهما، فالتكلمون «يستدلون بحدوث الأجسام والأعراض على وجود الخالق، وبالنظر في أحوال الخليقة على صفاته، واحدة فواحدة»^(١).

والحكماء الطبيعيون أيضًا يستدلون بوجود الحركة على محرك، وبامتناع اتصال المحركات، لا إلى نهاية، على وجود مبدأ أول.

وأما الإلهيون فيستدلون بالنظر في الوجود، وأنه واجب أو ممكن، على إثبات واجب،.. ثم بالنظر فيما يلزم الوجوب والإمكان، على صفاته، ثم يستدلون بصفاته على كيفية صدور أفعاله عنه، واحدًا بعد واحد»^(٢).

وأما الاتجاه النقلي، فعمدته أن في القرآن أدلة التوحيد، من غير ظن ولا تقليد، وهو أمرٌ حكى ابنُ الوزير إجماع علماء الإسلام من جميع الطوائف عليه^(٣). بيد أن المتكلمين إنما أثّروا من انصرافهم عن تدبر الأدلة القرآنية، وعدم قدرها حق قدرها، واستبدلهم بها أدلة أخرى، هي - لو صحت - دون مستوى تلك الأدلة القرآنية بكثير^(٤).

(١) انظر مثلاً لذلك عند القاضي عبد الجبار: شرح الأصول (٩٢، ٩٥ وما بعدها)، الباقلاني: التمهيد (٤٤ وما بعدها).

(٢) الطوسي: شرح الإشارات (٣/ ٥٤ - ٥٥)، وانظر كلام ابن سينا في «متنه». على أن ابن تيمية يرى أن مسلك الفلاسفة قبل ابن سينا هو ما نسبته الطوسي هنا إلى الحكماء الطبيعيين، وأن أرسطو وأتباعه لم يكونوا يقسمون الوجود إلى ممكن وواجب... وابن سينا ركب مذهبه من مذهب أولئك - أرسطو وأتباعه - مع مذهب المعتزلة. انظر: منهاج السنة (٢/ ١٣٢)، الرد على المنطقيين (٣٠٤).

(٣) انظر: ترجيح أساليب القرآن ص (١٥) وما بعدها، وانظر أيضًا درء التعارض (٧/ ٣٥١ - ٣٥٢). وقد ذكر المقدسي أن كل كتب الله المنزل مملوءة بدلائل الإثبات والتوحيد!! انظر: البدء والتاريخ (١/ ٧٢).

(٤) انظر: ابن الوزير: «إيثار الحق» (١٤)، مقدمة مناهج الأدلة للدكتور / محمود قاسم (١١-١٢). ومن عنى بسد هذه الثغرة عند المتكلمين: ابن رشد في دليلي (العناية =

ومن أهم ما أرشد إليه القرآن في هذا الصدد، لفت أنظار الناس إلى عجائب الصنع في السموات والأرض وما بينهما؛ حتى وجدنا واحدا من المؤرخين، وهو المقدسي، يؤكد على ذلك الأمر - بقوة - في قوله: «واعلم أنه لو جاز أن يوجد شيء من الأجسام، لا من خلق الله، لجاز أن يوجد عاريا من دلالة عليه، فإذا لم يوجد إلا من خلقه، لم يخلُ من دلالة عليه»^(١).

وثم طريق أخرى أرشد إليها القرآن، وهي الاستدلال بالآيات المعجزة على صدق المدعى، وهو استدلال معلوم بالتواتر، استدلت به الرسل على أشد الخلق عنادا^(٢)، وعنه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسل صلوات الله عليهم^(٣).

وأما الاتجاه الصوفي: فعمدة أصحابه هو القلب المؤمن، لا العقل المفكر^(٤) وليس مرادهم أن العقل لا دور له ألبتة، كما قد يفهم من كلام ابن رشد^(٥)، وإنما مرادهم أن العقل لا يستقل بنفسه.

قال الكلاباذي: «وأجمعوا [يعني: الصوفية] أنه لا يعرفه إلا ذو عقل؛ لأن

= والاختراع)، انظر: مناهج الأدلة (١٥٠-١٥٤) ومقدمته (٢٤-٢٧).

(١) البدء والتاريخ (١/ ٧١)، وانظر لابن تيمية في هذا المعنى: درء التعارض (٣/ ١٢٤)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٧٤)، وهذا الاستدلال هو معرفة التعريف للعامة عند الجنيد وابن عطاء، كما في التعرف (٧٩-٨٠) وانظر. ترجيح أساليب (٧٠ وما بعدها)، الزركان: الرازي وآراؤه (١٧٨-١٧٩).

(٢) ابن الوزير: ترجيح أساليب (٦١-٦٢). وهذا هو الذي ارتضاه الأشعري، وقدمه على الاستدلال بالأعراض، كما في رسالة أهل الثغر (٥٤-٥٧)، وعزاها الخطابي في «شعار الدين» إلى مشايخه - كما نقله عنه ابن تيمية في: بيان التلبيس (١/ ٢٥١)، وعزاها البيهقي إلى بعض مشايخه، انظر: الاعتقاد (١٢).

(٣) الاعتقاد للبيهقي (١٢).

(٤) انظر: الزركان: فخر الدين (١٨١-١٨٣)، الشافعي «لمحات» (١١-١٢).

(٥) انظر: مناهج الأدلة (١٥٠)، وانتقد ابن تيمية هذا الفهم عند ابن رشد. انظر: بيان تلبيس (١/ ٢٦٠ وما بعدها).

العقل آلة للعبد، ويعرف به ما عرف، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى...»^(١).
وأما الاتجاه الفطري: فيراد به «أن الإحساس بوجود الخالق أمر مغروز في فطرة البشر، وأعماق ضمائرهم، يشعر به كل عاقل، ولو لم يستخدم طرق البرهنة المختلفة، وإن كان يحتاج إلى أن يلتفت إلى نفسه ويجردها من الغفلة، ليحس به قويا واضحا»^(٢).

وهذه المعرفة الفطرية نفاها المعتزلة، وأوجبوا النظر العقلي طريقاً لذلك، بل جعلوا النظر أول الواجبات^(٣) وعنهم أخذ الأشاعرة ذلك، حتى قال أحد أئمتهم، ومُقدِّمُهم في زمانه، وهو أبو جعفر السمناني^(٤): «القول بإيجاب النظر بقية بقيت في المذهب من أقوال المعتزلة»^(٥).

وهذا وإن كان قاله جمهور الأشاعرة؛ فإن منهم من أثبت هذه المعرفة الفطرية^(٦)، حتى حُكي عن الأشعرى نفسه أنه يجوز وقوعها ضرورة^(٧)، كما

(١) انظر: الكلاباذي: التعرف (٧٨ وما بعدها، خاصة ص ٨١).

(٢) «الشافعي»: لمحات (١٢٠). وحقيقة النظر على هذا القول هي: تجريد القلب عن الغفلات، كما ذكره ابن الوزير في: ترجيح أساليب ص - (٨٣).

(٣) انظر في ذلك: القاضي عبد الجبار: المختصر في أصول الدين - ضمن رسائل العدل والتوحيد - (١/ ١٧٠-١٧١)، عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين (١/ ١٣٦) وما بعدها، وراجع ما سبق في الباب الأول حول النظر العقلي.

(٤) محمد بن أحمد بن محمود، القاضي أبو جعفر، حنفي المذهب (ت ٤٤٤هـ) انظر في ترجمته: التبيين لابن عساكر (٢٥٩)، البداية لابن كثير (١٢/ ٦٨ - ٦٩).

(٥) نقل ذلك عنه ابن تيمية في «الدرة» (٧/ ٤٠٧)، ونقل نحوه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٣٦٨).

(٦) لم يحك ابن حزم ذلك إلا عن السمناني، من الأشاعرة، لكن قال به - بعد ابن حزم - الغزالي في بعض كتبه، والشهرستاني. انظر: الفصل (٤/ ٢٨)، نهاية الأقدام (١٢٥-١٢٦)، اللمحات (١٢).

(٧) انظر: درء التعارض (٧/ ٣٥٤).

هو قول جمهور الطوائف من المسلمين الذين يرون أنها تقع تارة ضرورة، وتارة بالنظر^(١).

منهج ابن جرير في الاستدلال على «الوجود»:

اعتمد ابن جرير - في أوائل «تاريخه» - على النظر في الأجسام المشاهدة في العالم، للاستدلال بها على وجود الله تعالى. لكن بعد أن يمر ذلك الاستدلال عنده - كما مر أيضًا عند المتكلمين - بمراحل ثلاث: إثبات أن الأجسام في هذا العالم لا تخلو من الحوادث، ثم إثبات أن ما لم يخل من الحوادث فهو محدث، ثم إثبات أن باري الأشياء ومحدثها قبل كل شيء.

فأما استدلاله على أن الأجسام لا تخلو من الحوادث، فبتقرير «أنه لا شيء في العالم مشاهد، إلا جسم، أو قائم بجسم، وأنه لا جسم إلا مفترق أو مجتمع، وأنه لا مفترق منه إلا وهو موهوم فيه الالتلاف إلى غيره من أشكاله، ولا مجتمع منه إلا وهو موهوم فيه الافتراق، وأنه متى عُدِم أحدهما عُدِم الآخر. وأنه إذا اجتمع الجزآن منه بعد الافتراق، فمعلوم أن اجتماعهما حادث فيهما بعد أن لم يكن، وأن الافتراق إذا حدث فيهما بعد الاجتماع، فمعلوم أن الافتراق فيهما حادث بعد أن لم يكن»^(٢).

فابن جرير - إذ لم يعتبر حدوث الأجسام قضية مسلمة - استدل عليها بأن الجسم لا يخلو من جنس الأعراض [قائم بجسم]، واعتمد - لإثبات ذلك - على طريقة الأكوان، وبالتحديد على عدم خلو الجسم من «الاجتماع أو الافتراق» ولم يعرض لباقي الأكوان الأربعة: «الحركة» و«السكون» بذكر.

(١) انظر: السابق نفسه، والمقدسى: البدء والتاريخ (١/٥٩، ٧١-٧٢)، ابن الوزير: إشار الحق (٩ وما بعدها، ٤٢).

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) (١/٢٨).

ولا ندرى هل ترك ابن جرير ذكر الحركة والسكون اختصاراً، واكتفاءً بما ذكر في «الاجتماع والافتراق»، أو لأنه لم يثبت عنده، في هذا المسلك، إلا ما ذكر^(١).

وعلى حالة، فهذا النص يدل على تأثر ابن جرير بفكرة «الجوهر الفرد» الذي يشير إليه - فيما يبدو - بقوله «وأنه إذ اجتمع الجزآن منه...»^(٢).

وإذا كان أبو الهذيل العلاف^(٣) هو شيخ المثبتين للجزء الذي لا يتجزأ «الجوهر الفرد» على حد تعبير ابن حزم^(٤)، فليس من اليسير هنا أن ندعى أن ما ذهب إليه ابن جرير هنا هو مذهب العلاف نفسه، لكن غاية ما يمكن قوله: إن الفكرة في أصلها فكرة العلاف، ثم وجدت أصدائها عند الطبري، كما وجدت، بل غلبت على جمهرة المتكلمين من المعتزلة وغيرهم^(٥).

وهل انتقلت إلى ابن جرير الطبري انتقالاً مباشراً من خلال مصادر اعتزالية، أو انتقلت إليه عبر مصادر أخرى؟ هذا ما لا تسمح لنا النصوص المتبقية من كلامه أو كلام «مترجميه» بالقول فيه بشيء؛ وإن كان من المفهوم جداً أن يكون له اطلاعه على المصادر الاعتزالية في زمانه، خاصة وأن عهده كان قريباً بصولة

(١) انظر الخلاف في هذه الأكوام عند ابن تيمية في: بيان التلييس (١/ ٢٨١).

(٢) وثم إشارة عابرة في تفسيره، نقلها عن «بعضهم» في أن من معاني «الواحد» أن يكون غير متفرق، كالجزء الذي لا ينقسم» (٣/ ٢٦٥) ط شاكر.

(٣) (ت ٢٢٦هـ) أو بعدها. انظر ترجمته ومذهبه في ذلك في مقالات الإسلاميين (٢/ ٥)، وما بعدها، والنشار: نشأة الفكر (١/ ٤٧١) وما بعدها، عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين (١/ ١٨٢ وما بعدها).

(٤) الفصل (٥/ ٦٠). ومراده بذلك أنه أول الإسلاميين استدلالاً بذلك، وإثباتاً له، لا أنه أول من أثبته مطلقاً.

(٥) انظر الباقلاني: التمهيد (٤١-٤٢)، ابن حزم: الفصل (٥/ ٨)، فتاوى ابن تيمية (١٣/ ١٤٧)، النشار: نشأة الفكر (١/ ٤٧٥).

المعتزلة، ودولتهم في زمان المأمون^(١).

وقول ابن جرير: إنه «متى عدم أحدهما عدم الآخر معه...» يشبه إلى حد كبير، قول أولئك «الآخرين» الذين حكى النظام عنهم - حسبما نقله الأشعري - أنهم قالوا: «تتجزأ الأجزاء حتى تنتهي إلى جزأين، فإذا هُتَّتْ لقطعهما أفناهما القطع...»، ومتى فرقت بينهما بالوهم وغير ذلك، لم تجد إلَّا فناءهما^(٢).

وإذ أثبت ابن جرير - بذلك - حدوث ما نراه في «العالم»، فإن ما لم نره من العالم هو كالذي رأيناه: «وإذا كان الأمر فيما في العالم من شيء كذلك، وكان حكم ما لم يشاهد - وما هو من جنس ما شاهدنا - في معنى جسم أو قائم بجسم...»^(٣).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الخطوة الثالثة من استدلاله، بعد أن قرر أن كل ما في العالم لا يخلو من الحدث، ليقرر أن «ما لم يخل من الحدث، لا شك أنه محدث». ولا يُعْنَى ابن جرير، عند هذه النقطة، بالتدليل على أن ما لم يخل من الحوادث أو يسبقها فإنه محدث، شأن من يُعْنَى بهذا الدليل، وإنما غاية ما نجده ثم أن يُقرر أنه محال أن يكون شيءٌ يُحْدِثُ شيئًا إلَّا ومحدثه قبله^(٤).

ثم يرتقى ابن جرير باستدلاله بعد ذلك، ليقرر أن المحدث إنما حدث «بتأليف مؤلف له، إن كان مجتمعًا، وتفريق مفرق له إن كان مفترقًا». ثم يقرر أن محدث ذلك لابد أن يفارقه في صفة الحدوث: «وكان معلوماً بذلك أن جامع ذلك، إن كان مجتمعًا، ومفرقه، إن كان مفترقًا، مَنْ لا يُشْبِهُهُ، ومن لا يجوز عليه

(١) سبق أن أشرنا إلى دلالة الخلق على الخالق عند ابن جرير، وعلاقتها بفكر المعتزلة، خاصة الجاحظ.

(٢) المقالات (١٦/٢).

(٣) التاريخ (٢٨/١)، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٩٥-٩٦).

(٤) التاريخ: السابق. وانظر: شرح الأصول (١١٣-١١٥)، التمهيد للباقلاني (٤٤).

الاجتماع والافتراق، وهو الواحد القادر الجامع بين المختلفات الذي لا يشبهه شيء، وهو على كل شيء قدير.

فبيّن بما وصفنا أن باري الأشياء ومحدثها، كان قبل كل شيء، وأن الليل والنهار والساعات مُحَدَّثَات، وأن محدثها الذي يدبرها ويصرفها، كان قبلها؛ إذ كان من المحال أن يكون شيء يحدث شيئاً، إلا ومحدثه قبله.

ثم يستدل، لتأكيد أن هذه المُحَدَّثَات لم يُحَدِّثْها من يشابهها في «الحدث والعجز»^(١)، وتقرير أنها لم تحدث نفسها، بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]؛ حيث يقرر أن فيها «أبلغ الحجج وأدلّ الدلائل، لمن فكر بعقل، واعتبر بفهم، على قدم بارئها، وحدث كل ما جانسها، وأن لها خالقاً لا يشبهها؛ وذلك أن كل ما ذكر ربنا - تبارك وتعالى - في هذه الآية من الجبال والأرض والإبل، فإن ابن آدم يعالجه ويدبره بتحويل وتصريف وحفر ونحت وهدم، غير ممتنع عليه شيء من ذلك، ثم إن ابن آدم مع ذلك غير قادر على إيجاد شيء من ذلك من غير أصل؛ فمعلوم أن العاجز عن إيجاد ذلك لم يحدث نفسه، وأن الذي هو غير ممتنع ممن أراد تصريفه وتقليبه، لم يُوجَد من هو مثله، ولا هو أوجد نفسه، وأن الذي أنشأه وأوجد عينه هو الذي لا يعجزه شيء أراده، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه، وهو الله الواحد القهار»^(٢).

والواقع أنه رغم ما كُتِبَ للدليل «الجوهر والعرض» - بمقدماته ونتائجه - من مجد عريض؛ انتظم لأجله - بعد بدايته على يد المعتزلة^(٣) - سائر المدارس

(١) قارن: التمهيد للباقلائي (٤٥-٤٦)، شرح الأصول الخمسة (١١٩).

(٢) التاريخ (٢٨/١-٢٩).

(٣) يذكر القاضي عبد الجبار أن أبا الهذيل هو أول من استدل بهذه الطريقة، وتابعه باقي

الكلامية^(١)، لم يسلم من اعتراضات كثيرة وُجِّهَتْ إليه شكلاً ومضموناً، ليس من خصوم المتكلمين من السلفيين أو من الفلاسفة فحسب، بل من داخل الأوساط الكلامية نفسها، الأمر الذي حدا بالكثير من محققهم إلى الإعراض عنه، وتَلَمَّس أدلةً أخرى لتحقيق ذلك المطلوب.

ولقد بدأ هذا النقد داخل الوسط الكلامي مبكراً على يد الأشعرى نفسه، حيث يراها طريقاً مبتدعة في دين الله «اعتمد على الاستدلال بها الفلاسفة ومن اتبعها من القدرية وأهل البدع المنحرفين عن الرسل، عليهم السلام». ثم يقرر أنه إذا كان العلم قد حصل لنا بصحة نبوة الأنبياء، «لم يسع من عرف من ذلك ما عرفه أن يعدل عن طرقهم إلى طرق من دفعهم وأحال مجيئهم»^(٢).

كل ذلك، فضلاً عما في مقدماتها من خفاء، بل واضطراب شديد، لم تسلم منه مقدمة واحدة من مقدماتها^(٣). ثم لوازم هذه المقدمات، التي عبر ابن تيمية عن إحداها - وهي نفى حلول الحوادث.. بأنها: «ينبوع البدع»^(٤)، ورأى أن

= الشيوخ، في حين يرى شيخ الإسلام ابن تيمية أنها بدأت من قبله على يد الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، ثم صارت إلى أصحاب عمرو بن عبيد، كالعلاف وغيره. انظر: شرح الأصول الخمسة (٩٥). وقارن: منهاج السنة (٣٠٩/١)، (٣١٠)، (٥/٨).

(١) حتى صارت عند كثير من المتأخرين هي دين الإسلام، على حد تعبير ابن تيمية في: منهاج السنة (٣١٥/١)، وانظر مقدمة مناهج الأدلة (١٢٠ وما بعدها).

(٢) انظر رسالة أهل الثغر ص (٥٥) وما بعدها، خاصة (٥٨). وهذا المأخذ في النقد نجده أيضاً عند الخطابي في رسالته «الغنية» عن الكلام.. كما نقله عنه السيوطي في: صون المنطق.. (٩١-١٠١)، ونقله أيضاً ابن تيمية وعلق عليه في: درء التعارض (٧/٢٧٨-٣٠٣).

(٣) انظر، الفصل (٥/٥٨-٦٨)، مناهج الأدلة (١٣٦-١٤٥)، ومقدمته (١٢-١٥)،

المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/٩٨٤-٩٩٥).

(٤) منهاج السنة (٣١٢/١).

سلوك المتكلمين لمثل هذه الطرق كان من أهم أسباب ذم السلف للكلام وأهله^(١).

ولهذا كانت الخطوة الأخيرة فى استنباط ابن جرير الدلالة على ما ذكر، من الآية القرآنية، أكثر توفيقاً من المقدمات التى ذكرها، وأسلم من عوارض النقد عليها^(٢)، ثم هى بعد ذلك أقرب إلى الاتجاه العام لفكر ابن جرير ومنهجه. فإننا، وفيما عدا ذلك الموضوع من تاريخه، لا نكاد نلمس للاستدلال على وجود الله تعالى حضوراً ذا بال فى تراث ابن جرير المتبقى لنا. فأما فى رسالته «صريح السنة» - وهى مختصرة - فلم يعرض لهذه القضية ألبتة، وأما فى رسالته «التبصير» فإنه يقرر أنه لن يستحق أحد أن يقال له: إنه بالله [عارف]. . . إلا أن يعلم بأن ربه صانع كل شىء ومديره^(٣)، ثم لا شىء وراء ذلك من تقرير أو ذكر دليل.

وإذا أمكن لنا القول بأن حظ هذه القضية من رسالتيه المخصصتين «لأصول الدين» متأثر بحجمهما^(٤)، فإن جُماع ما وصلنا من علم ابن جرير، وهو تفسيره، لم يكن أوفر حظاً من هاتين الرسالتين بالبحث والجدل حول هذه القضية، والاستدلال عليها.

وليس بدعا أن يرتبط عرض ابن جرير لهذه المسألة فى تفسيره بالأدلة القرآنية، ويدور فى فلكها، لكن - كذلك - لا يخلو من دلالة أن الآية التى ذكرها فى

(١) انظر: درء التعارض (١/٤٤-٤٥، ٣٠٩-٣١٠).

(٢) انظر: السابق (٣/٨٣، ٨٧).

(٣) التبصير (١٢٦-١٢٧).

(٤) على أنه يُعَكَّر على ذلك أنه توسع - نوعاً ما - فى بحث قضايا أخرى، كالروية وعذاب القبر، وذكر الخلاف فيها، وأدلة ما يراه، وهى أقل أهمية من هذه القضية عند من يُعْنَى بالاستدلال عليها.

تاريخه، في سياق استدلاله على هذه القضية، يجعلها في «تفسيره» حُجَّةً على من ينكر المعاد، أو يتشكك في القدرة عليه^(١)، ولا يعرض لما ذكره في التاريخ بشيء.



(١) انظر: التفسير (١٦٥/٣٠) ط الفكر، وقارن: الكشف (٧٤٥/٤)، ابن كثير (٥٠٤/٤).

وثم نقطتان منهجيتان أثرتا - فيما نرى - فى تناول ابن جرير لهذه القضية فى تفسيره:

أما الأولى فهى فهم ما فى القرآن من دلالات، باعتبار أن القرآن إنما يخاطب قوما يُقَرُّون - ابتداءً - بالخالق، ويشبتون وجوده^(١)؛ كما حكى القرآن عنهم ذلك فى غير ما آية: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

يقول ابن جرير - فى تأويل قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿[الشعراء: ١٣٧، ١٣٨]: «لو كانوا لا يقرون بأن لهم رباً يقدر على تعذيبهم ما قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٣)، بل كانوا يقولون وما لنا من معذب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون: إنها تقربنا إلى الله زلفى»^(٤).

وأما النقطة الثانية فهى النظر إلى مسألة «وجود الله تعالى» باعتبارها قضية ضرورية، لا تحتاج إلى أن يبدئ القول فيها ويعيده، وإنما يكفى فيها الإحالة على ما حول الإنسان فى العالم من شىء، ليجد «الأدلة متفقة فى الدلالة عليه غير مفترقة، ظاهرة للحس غير خفية»^(٥)، «ليس منها شىء إلا وهو فى ذلك دال على مثل الذى دلت عليه الأشياء كلها؛ ألا ترى أن السماء ليست بأبين فى الدلالة من الأرض، ولا الأرض من الجبال، ولا الجبال من البهائم، ولا شىء من

(١) بل يرى ابن أبى العز أن هذه حال أمثالهم من مشركى الأمم، من الهند والترك والبربر وغيرهم، وأنه لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بنى آدم. انظر شرح الطحاوية (٢٥-٣٢).

(٢) التفسير (٩٨/١٩) ط الفكر، وانظر (٣/٧٧-٧٨، ١٥/٨٤) شاكر، و(٢١/١١)، و(٢٣/١٩١) ط الفكر.

(٣) الطبرى: التبصير (١١٦-١١٧).

المحسوسات، وإن كبر وعظم، بأدل على ذلك من شيء، وإن صغر ولطف»^(١). ولا عبرة - فيما يراه ابن جرير - بإنكار من أنكر ذلك؛ لأن إنكاره سفسطة، غير دافع أن يكون جميع ما ذكر الله تعالى - من آيات الأنفس والآفاق - دليلاً على خالقه وصانعه، وأن له مدبراً لا يشبهه شيء، وبارئاً لا مثل له^(٢).

وبناءً على هاتين النقطتين، بدا مقبولاً أن يُعرض ابن جرير عن الإطالة في الاستدلال لهذه القضية، أو التماس دلائل لها من آيات القرآن، وأن يجعل وكّده في مثل هذه الآيات بياناً لدالتها على وحدانية الله تعالى، التي زل فيها المشركون، لا مجرد إثبات الوجود، الذي لم يخالفوا فيه^(٣).

ومع ذلك لم نعدم مواضع، وإن قلت، فلم تكد تعدو ثلاثة، عرض فيها لقضية الوجود، أو استدل عليها، لكن ليس على النسق الكلامي الذي حاوله في «تاريخه»، وإنما باستخراج دلائل القرآن الكريم، وما أرشد إليه من آيات الأنفس والآفاق.

ومن ذلك قوله - في تأويل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي أُخْلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٦﴾ [يونس: ٦] - : «يقول - تعالى ذكره - منبهاً عباده على موضع الدلالة على ربوبيته، وأنه خالق كل ما دونه: إن في اعتقاب الليل والنهار، واعتقاب النهار الليل، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، وفيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم، وفي الأرض من عجائب الخلق الدالة على أن لها صانعا ليس كمثله شيء... لأدلة وحججا وأعلاما واضحة، لقوم يتقون الله فيخافون وعيده، ويخشون عقابه على إخلاص العبادة لربهم.

(١) السابق: (١٢٢).

(٢) انظر: التفسير (٢٧٧/٣) ط شاكر.

(٣) انظر: التفسير (١١/٤٦٥، ١٣/٢٢ وما بعدها) ط شاكر و(٢٧/٢١٨) ط الفكر.

فإن قال قائل: أَوَلَا دلالة فيما خلق الله في السموات والأرض على صانعه،
إِلَّا لمن اتقى الله؟!

قيل: في ذلك الدلالة الواضحة على صانعه، لكل من صحت فطرته، وبرئ
من العاهات قلبه، ولم يُقَصِّدْ بذلك الخبرُ عن أن فيه الدلالة لمن كان قد أشعر
نفسه تقوى الله، وإنما معناه: إن في ذلك لآيات لمن اتقى عقاب الله، فلم يحمله
هواه على خلاف ما وضع له من الحق؛ لأن ذلك يدل كل ذي فطرة صحيحة على
أن له مدبراً يستحق عليه الإذعان له بالعبودة، دون ما سواه من الآلهة
والأنداد^(١).



(١) السابق (١٥/٢٤-٢٥) ط شاكر.

المبحث الثاني

الوحدانية

لئن كان تعدد الآلهة والأنداد هو دينَ الجاهلية السائدة في حُباطها، حتى إن أهل الكتاب - الذين ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - لم يَحُلُّوا بِمَنْجَاةٍ من تلك الحمأة الوثنية^(١). ومُسِخَتْ الفطرة الحنيفية في تلك القلوب، حتى تعجبوا من داعى التوحيد، وهو الحق الذى لا يصح غيره، ولم يتعجبوا من الشرك، وهو الباطل الذى لا وجه لصحته: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]^(٢) - لئن كان هذا هو حال أهل الجاهلية فلقد كان من رحمة الله بعباده، وحكمته في خلقه، أن يرسل إليهم، بعد هذه الفترة، رسولاً منهم، يُصْلِحُ فيهم - بقدر الله وشرعه - ما أثأث يَدُ الغفلات.

ولم يكن بدعا أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته، أَوَّلَ ما يبدأ، بتقرير وحدانية الله - تعالى - في القلوب؛ إذ كان ذلك عِلْمَ دعوة الأنبياء طُرّاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وهو والأنبياء «إخوة لَعَلَّتْ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(٣).

ولسنا بعد في حاجة إلى أن نقرر أن الإيمان بوحدانية الله - تعالى - هو من بَدَهِيات هذا الدين، التى لا يتصور أن يُخْتَلَف فيها؛ ولذلك قال الذهبي - بعد ذكر حديث ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) - وأنها صفة الرحمن: «وإثبات هذه

(١) انظر العقاد: الله (١٤-١٧، ٤٣ وما بعدها)، سيد قطب: خصائص التصور (٢٢) وما بعدها)، الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص ٣٧) وما بعدها.

(٢) انظر: الزمخشري: الكشاف (٧٢/٤).

(٣) كما فى: صحيح البخارى (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥)، وانظر شرح النووى (١٥/١٧٤)، وانظر أيضاً: عمر الأشقر: الرسل والرسالات (٢٤٣) وما بعدها.

الصفة لم يخالف فيها^(١) أحد من أهل القبلة^(٢).

وإنما وقع الخلاف واستحَرَّ في معنى هذه الوجدانية، ثم في طريق إثباتها، تبعاً لذلك؛ حتى إن ما ادعاه البعض «توحيداً» عده غيره «إلحاداً»^(٣)!!! بل إن فرق المرجئة قد انقسمت على نفسها إلى طرفي النقيض؛ فقال قائلون منهم في التوحيد بقول المعتزلة الموغل في التنزيه، وقال آخرون منهم بالتشبيه^(٤)!!!

فأما الفلاسفة، وقد حاولوا التوفيق بين أصول الإسلام والفكر الفلسفي الذي تمثلوه،^(٥) فلقد ذهبوا بالتوحيد إلى إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة^(٦).

وأما المعتزلة فمرادهم بالوجدانية كونه واحداً في القدم، وسائر ما يختص به من الصفات النفسية^(٧). وبغض النظر عما بينهم من خلاف حول بعض الصفات، فلقد كان اتجاههم العام نحو نفى الصفات، واعتبار ذلك النفي من «مفهوم الوجدانية» قاسماً مشتركاً بينهم؛ بحيث رأوا أنها لا تثبت إلاً بذلك النفي. وأن من خالفهم، فأثبت لله - تعالى - علماً وقدرة... فلا سبيل له إلى

(١) كذا، ولعلها: فيه.

(٢) الذهبي: الأربعين في صفات رب العالمين (٣٣)، وانظر: الفصل (٢/٩٥)، فتح الباري (٣٦٩/١٣).

(٣) انظر: الخطيب البغدادي: شرف أصحاب الحديث (ص ٤)، ابن القيم: مدارج السالكين (٣/٤٦٦-٤٦٧)، الحجة لقوام السنة الأصفهاني (١/٩٦)، صون المنطق (٧٥).

(٤) انظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين (١/٢٣٣).

(٥) انظر: محمد البهي، الجانب الإلهي (٣٧٩ وما بعدها)، وقارن: مقدمة رسائل الكندي لأبي ريدة (٨٠) (٤-٥).

(٦) ابن القيم: مدارج السالكين (٣/٤٦٦)، وانظر: الإشارات والتشبيهات (٣/٤٥٦-٤٨٣)، وقارن: التهافت (٤٩٣ وما بعدها).

(٧) انظر: القاضي عبد الجبار: المغني (٤/٢٤٥).

أن ينفي أن مع الله عز وجل قديما في الأزل^(١).

ثم الأشاعرة على الأثر، رأوا أن مفهوم التوحيد هو: أن الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في صفاته لا شبيه له، واحد في أفعاله لا شريك له^(٢).
وأما عن استدلال كل فريق على الوجدانية التي أثبتها، فقد بنى الفلاسفة استدلالهم على تأمل الوجود نفسه؛ إذ إن نفس مفهوم وجوب الوجود، يمنع وقوع الشركة فيه؛ لأنه إن كان ثبت لواجب الوجود لذاته، فلا يكون إلا له، وإن كان لعله فهو إذن معلول، وليس بواجب الوجود^(٣).

وأما المتكلمون فقد اعتمدوا، على اختلاف مدارسهم، على «دليل التمانع»^(٤) وحاصل هذا الدليل أن الاثنين يصح أن يختلفا ويوجد أحدهما

(١) انظر: السابق: (٤/٣٤١)، مقالات الإسلاميين (١/٢٣٥)، شرح الأصفهانية لابن تيمية (٢٢)، وانظر أيضًا: قضية التوحيد بين الدين والفلسفة، لأستاذنا د/ محمد الجلند، ص (١٠٧).

(٢) انظر: الجويني: الإرشاد (٦٩)، الشهرستاني: نهاية الأقدام (٩٠). وانظر حول تأثيرهم بالمعتزلة في مفهوم الوجدانية، ابن تيمية: بيان التلبيس (١/٤٦٣)، ملاً على القارى: شرح الفقه الأكبر (١٥)، عبد الرحمن المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/٩٤٩) وما بعدها.

(٣) انظر: الإشارات والتنبيهات (٣/٤٦٤)، وما بعدها، (٤٨٢)، تهافت الفلاسفة (١٦٠). ويرى ابن رشد أن هذا المسلك مما انفرد به ابن سينا. انظر: تهافت التهافت (٢/٤٦٣) وما بعدها. وانظر أيضًا: البهي: الجانب الإلهي (٣٨٢) وما بعدها. ولهم مسلك آخر في إثبات ذلك، يقوم على نفي التركيب عن واجب الوجود. انظر: تهافت الفلاسفة (١٦١-١٦٢)، تهافت التهافت (٢/٤٧٠) وما بعدها.

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة (٢٧٨)، التوحيد للماتريدي (٢٠، ٢١، ٩٠)، رسالة أهل الشجر للأشعري (٤١-٤٢) التمهيد للباقلاني (٤٦)، وقارن: شرح الطحاوية (٢٨) والأرواح النوافخ للمقبلي بهامش العَلَم الشامخ - (٣٠٢)، بل يغلو الجويني في ذلك فيرى أنها هي «المنصوصة» في «نص» آية الأنبياء!! انظر: الإرشاد (٧١).

ضدَّ مراد الآخر، فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، لوجب أن يلحقهما العجز، أو واحدا منهما؛ لاستحالة أن يتم مرادهما جميعاً، للتضاد بينهما، فوجب ألا يتم مراد أيٍّ منهما، فيلحقهما العجز، أو يتم مراد أحدهما، فيلحق من لم يتم مراده العجز، والقديم لا يكون عاجزاً، إذ العجز من سمات الحدوث. ويرون أن هذا الدليل هو المشار إليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وإذا كان قد كتب لهذا الدليل في إثبات الوجدانية - عند المتكلمين - ما كتب لدليل الجوهر والعرض في إثبات الوجود، من المجد والشهرة، فإنه - كذلك - لم يكن بأحسن حظاً، ولا أسلم من النقد من سابقه^(١).

وكما عني ابن رشد بانتقاد أدلة المتكلمين على «الوجود» فلقد انتقد استدلالهم بـ«التمانع» هنا على الوجدانية، حيث وصفه بأنه ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية «البرهان»، ولا مجرى الأدلة الشرعية، ويرى أن وجه ضعفه «من حيث البرهان» أنه كما يجوز في العقل أن يختلفا، قياساً على المريدين في الشاهد، يجوز أن يتفقا، وهو أليق بالآلهة من الخلاف^(٢).

على أن هذا الاعتراض لم يغفله المتكلمون، كما قد يفهم من كلام ابن رشد، بل هو اعتراض مشهور، على حد تعبير ابن تيمية، وقد تعرض الماتريدي والجويني وغيرهما للجواب عنه^(٣).

ومع أن ابن تيمية يخالف ابن رشد في نظريته لهذا الدليل، ويصفه بأنه برهان تام على مقصودهم^(٤)؛ ويرى أن ما ذكره ابن رشد ليس طعناً في الدليل، فإنه

(١) انظر: د. الشافعي: لمحات (١٤٢-١٤٧) حيث عرض أهم الاتجاهات في نقده.

(٢) مناهج الأدلة: (١٥٨-١٥٩)، وانظر: شرح النسفية (٢٩).

(٣) انظر: التوحيد للماتريدي (٢١)، الإرشاد للجويني (٧٠-٧١)، درء التعارض (٣٥٤/٩).

وما بعدها.

(٤) ابن تيمية: درء التعارض (٣٥٤/٩).

يتفق معه في انتقاد دعواهم أن هذا هو المشار إليه في آيات القرآن، لا سيما آية سورة الأنبياء^(١).

إلا أن النقطة الأساسية في نقد ابن تيمية وتلامذته لهذا الدليل هي غلط المتكلمين في فهم «الإله» في الآية على أنه «الرب»، وجعلهم «توحيد الربوبية» هو غايتهم في الإثبات، في حين يرى هو - بحق - أن مشركى العرب، بل سائر الأمم، مقرّون بذلك، وأن التوحيد الذى به أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، هو توحيد الألوهية، المستلزم لتوحيد الربوبية، وهذا هو ما أغفله عامة المتكلمين في كتبهم، ولم يُعَنُوا ببيانه^(٢).

استدلال ابن جرير على الوجدانية:

ذكر ابن جرير في تفسيره الخلاف في وحدانيته - تعالى ذكره - هل تعنى أن الله تعالى لا مثل له ولا نظير، كما يقال: فلان واحد الناس...، أو تعنى: أن الله تعالى منفردٌ وحده؛ غير داخل في شيء، ولا داخل فيه شيء؟^(٣)

نعم، لم يصرح ابن جرير هنا بما يختاره هو من هذا الخلاف، ولم يرجح أحد القولين، كما كان ينتظر منه، لكن تقريره لمعنى الوجدانية في الآية، قبل سَوِّق

(١) السابق (٣٧٨/٩) فى حين نرى التفتازانى - وقد توهم أن هذا الدليل هو المراد بالآية - يزعم أن الحجة فيها إقناعية على ما هو اللائق بالخطابيات!! ثم شرع يدلل على عدم برهانيته (١!) انظر: شرح النسفية (٢٩-٣٠). وسبق إلى قريب من ذلك - على حذر - العز ابن عبد السلام. انظر الفوائد فى مُشكل القرآن (١٢٤) وملحقه (١٩٦)، وبسبب ذلك حمل القارى على التفتازانى بأن المحققين جعلوها قطعية!! ثم قال: «بل قيل: يكفر قائلها». انظر: شرح الفقه الأكبر (١٤-١٥)، وانظر أيضًا: صون المنطق (٢٠) و(٦٣).

(٢) انظر: درء التعارض (٣٣٧/٩ وما بعدها، ٣٧٨)، شرح الطحاوية (٥٣، ٢٨) الهراس: ابن تيمية السلفى (٨٢)، سفر الحوالى: منهج الأشاعرة فى العقيدة: ص (٢١).

(٣) انظر التفسير: (٣/ ٢٦٥-٢٦٦) ط شاكر.

الخلاف فيها، بقوله: «والحكم إله واحد، لا مثل له ولا نظير» ربما يشعر باختياره القول الأول.

على أننا إذا تجاوزنا ذلك الموضع الذى أجمل فيه ابن جرير معنى الوحدانية «فى نفى المثل أو النظير»، وذلك يشمل نفى المثل والنظير له فى أسمائه وصفاته وأفعاله، ونفى النظير له فى ألوهيته لخلقه^(١)، إذا تجاوزنا ذلك، وتتبعنا مفهومه لهذه الصفة واستدلالة عليها، فسوف نجد فى رسالته «التبصير» يقرر أن صفة الإيمان لا تثبت لشخص «إلا أن يعلم بأن ربه صانع كل شيء ومدبره، منفردًا بذلك، دون شريك ولا ظهير»^(٢). ثم يشير فى غير ما موطن إلى ما فى الأنفس والأفاق من علامات ودلالات على انفراد الله - تعالى - بخلق «ما فى هذه الدنيا وتديرها، وتصريف ما فيها»^(٣).

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. قال: «يعنى - تعالى ذكره - بذلك: هذا الذى فعلت من إيلاجى الليل فى النهار، وإيلاجى النهار فى الليل، لأنى أنا الحق الذى لا مثل لى ولا شريك ولا ند، وأن الذى يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه، هو الباطل الذى لا يقدر على صناعة شيء، بل هو المصنوع»^(٤).

(١) انظر فى تفسيرها بنفى النظير والشريك فى الألوهية: التفسير (٤٨٢/١٠) (١٩/١١) (٢١٣/١٤) ط شاكر، (١٤/٩٤ و ١١٨) (٢٩/١٦)، وفى نفى الشريك فى الملك والسلطان (الربوبية) (١٦/١٠٤) ط شاكر (١٣/٢٥٤، ٢٣/١٨٢ و ١٩٢) ط الفكر.

(٢) التبصير (١٢٦-١٢٧)، وانظر التفسير (١٦/١٠٤)، (١٠/٤٨٢) ط شاكر، (٢٣/١٨٢) ط الفكر، مقدمة التاريخ (٣/١).

(٣) مع مراعاة أن القضيتين مرتبطتان فى منهجه، بحيث يعسر التمييز بينهما. وانظر: التفسير (٣/٢٦٧) ط شاكر (١٤/١٤١ و ١٥/٧٨ و ١٢٨ - ١٢٩ و ٢٤/٨٨) ط الفكر وغيرها.

(٤) التفسير (١٧/١٩٦) ط الفكر.

وإذا كان قد أشار فى هذا النص، وفى نصوص أخرى مماثلة إلى عجز آلهتهم المزعومة عن خلق شيء، واستدل بذلك على بطلان ألوهيتها، فإنه يقرن إلى ذلك عجزها عن ملك شيء! فإذا كانت عاجزة، محتاجة، فكيف تُدعى ألوهيتها.

ومن النصوص التى تبين ذلك، قوله - فى تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]:

«ادعوا أيها القوم، الذين زعتم أنهم لله شريك من دونه، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بالذين وصفنا أمرهم، من إنعام أو إيباس^(١) فإن لم يقدروا على ذلك، فاعلموا أنكم مبطلون؛ لأن الشركة فى الربوبية لا تصلح ولا تجوز...»

وآلهتهم التى يدعون من دون الله لا يملكون وزن ذرة فى السموات ولا فى الأرض، لا مشاعا ولا مقسوما، فكيف يكون من كان هكذا شريكاً لمن له ملك جميع ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يقول: وما لله من الآلهة التى يدعون من دونه من معين على خلق شيء من ذلك، ولا على حفظه، إذ لم يكن لها ملك شيء منه مشاعا ولا مقسوما، فيقال: هو لله شريك، من أجل أنه أعان، وإن لم يكن له ملك شيء منه^(٢).

وفى تفسيره لقول الله - تعالى - ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]. وهى

(١) فى الأصل: إيباس.

(٢) التفسير (٢٢/٨٨-٨٩) ط الفكر، وانظر (١٧/٢٠٢-٢٠٣) من نفس الطبعة، (١٥/٢١٤-

٢١٥، ٢١٧) ط شاكر.

إحدى الآيات التي قرنت بدليل التمانع^(١) - يقول: «... ما لله من ولد، ولا كان معه في القديم^(٢) ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم، أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته... إذن لا اعتزل كل إله منهم بما خلق من شيء، فانفرد به، ولتغالبا، فلعلنا بعضهم على بعض، وغلب القوى منهم الضعيف، لأن القوى لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهًا، فسبحان الله، ما أبلغها من حجة، وأوجزها لمن عقل وتدبر...»^(٣).

وإذا كان قد أشار في هذا النص الأخير إلى ما عساه ينتج من فساد في الكون، لو افترض وجود آلهة أخرى، فإنه يفسر «الإله» هنا - متمشياً مع تفسيره العام له - بـ «من تصلح عبادته» لا بـ «من يقدر على الاختراع»، كما نراه عند المتكلمين، وخاصة الأشاعرة الذي يُعنون بقضية الخلق، وإفراد الله تعالى به، حتى إن الأشعرى، ومن وافقه من أصحابه، يرون أن القدرة على الاختراع هي «أخص وصف لله»، ويحتجون بهذه الآية^(٤).

بيد أننا نراه في «تاريخه» ينصرف عن هذا المنهج العام في تفسيره، ليصل استدلاله هناك على الوجود - والذي أشرنا إلى الأثر الكلامي فيه - باستدلاله على الوحدانية بنفس الدليل الدائر بين المتكلمين، دليل التمانع. يقول: «فإن

(١) انظر: شرح النسفية (٢٩)، مقدمة مناهج الأدلة (٢١)، تفسير ابن كثير (٣/٢٥٤)، وقارن بالتسهيل لابن جزى (٤٤٦) حيث يقول: «وليس هذا البرهان بدليل التمانع، كما فهم ابن عطية وغيره، بل هو دليل آخر».

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: القَدَم.

(٣) التفسير (٤٩/١٨) ط الفكر.

(٤) انظر: الآمدى وارؤه الكلامية، لأستاذنا حسن الشافعي (٢٠٤)، وانظر أيضاً: بغية المرتاد لابن تيمية (٢٦١) حيث يشير إلى موقف الأشعرى، ويرى أن أحسن ما امتاز به عن غيره ومن المتكلمين عنايته بتقرير أن الله خالق شيء.

قال قائل: فما تنكر أن تكون الأشياء التي ذكرت من فعل قديمين؟

قيل: أنكرنا ذلك لوجودنا اتصال التدبير وتمام الخلق. فقلنا: لو كان المدبر اثنين، لم يخلوا من اتفاق أو اختلاف. فإن كانا متفقين فمعناهما واحد، وإنما جعل الواحد اثنين من قال بالاثنيين.

وإن كانا مختلفين، كان محالا وجود الخلق على التمام، والتدبير على الاتصال؛ لأن المختلفين فعل كل واحد منهما خلاف فعل صاحبه؛ بأن أحدهما إذا أحيا أمات الآخر، وإذا أوجد أحدهما أفنى الآخر، فكان محالا وجود شيء من الخلق على ما وجد عليه من التمام والاتصال. وفي قول الله - عز وجل ذكره -: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقوله عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [٩١] عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢] أبلغ حجة، وأوجز بيان، وأدل دليل على بطلان ما قاله المبطلون من أهل الشرك بالله». ثم أعاد نفس الدليل بصياغة أخرى.

قال: «وأخرى، أن ذلك لو كان كما قاله المشركون بالله لم يخل كل واحد من الاثنين اللذين أثبتوهما قديمين من أن يكونا قويين أو عاجزين، فإن كانا عاجزين فالعاجز مقهور وغير كائن إلها. وإن كانا قويين فإن كل واحد منهما بعجزه عن صاحبه عاجز، والعاجز لا يكون إلها. وإن كان كل واحد منهما قويا على صاحبه، فهو بقوة صاحبه عليه عاجز، تعالى ذكره عما يشرك المشركون!!

فتبين إذا أن القديم باري الأشياء وصانعها، هو الله الواحد الذي كان قبل كل شيء، وهو الكائن بعد كل شيء، والأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، وأنه كان ولا وقت ولا زمان، ولا ليل ولا نهار، ولا ظلمة ولا نور، إلا نور وجهه الكريم، ولا سماء ولا أرض، ولا شمس ولا قمر ولا نجوم. وأن كل

شيء سواه مُخَدَّتْ مُدَبَّرَ مصنوع، انفراد بخلق جميعه بغير شريك ولا مُعين، ولا ظهير، سبحانه من قادر قاهر!«^(١).

وإذا كنا قد وقفنا من هذا النقل - على طوله - على دليل التمانع عند ابن جرير، فإنه لا يخفى أنه تنبه - مبكرا - إلى أحد أوجه استضعاف الصياغة الكلامية له، وهو احتمال «الاتفاق بينهما»، إلا أنه أجاب عن ذلك بأنهما إذا كانا متفقين فمعناهما واحد.. وفيه «فساد القول بالثنوية»؛ فبنى جوابه على أن القول باتفاقهما لا يَعْني أنهما متفقان في الإرادة فحسب، بل في كل شيء، وإنما الفرق أن المُوَحَّد عرف ذلك إلها واحدا، والثَنَوِيُّ - ونحوه - عرف ذلك إلهين متماثلين، وأطلق عليه ذلك. فَفَرَّقَ ما بَيْنَهُما - فيما يبدو لي من كلام ابن جرير - فسادُ «تسمية» الثنوي، وصحة تسمية الموحد!!

ولا يخفى أن في مثل ذلك الجواب - إن كان هو مراده فعلا - تسطيحا بالغاً لقضية كهذه، باعتبارها مسألة لفظية فقط!!

ثم إن مراد مَنْ فَرَضَ «اتفاقهما» ليس هو ما أشار إليه ابن جرير، مما يشبه أن يكون تطابقاً بينهما، بل المراد به: اتفاقهما في إرادة الشيء، وربما عبروا عن ذلك بـ «اصطلاحهما».

على أنه يبقى وارداً هنا - وعلى التسليم بصحة جواب ابن جرير - أن ذلك إنما يدل على امتناع وجود إلهين متساويين من كل الوجوه، وأما وجود آلهة مترتبة، يقدر العالی منها على الأدنى، دون عكس، كما هو مذهب أكثر المشركين، فلم يعرض هذا الاستدلال لإبطاله بشيء.

وثمة أمر آخر تنبه له ابن جرير في صياغته لهذا الاستدلال، وهو تفسيره للفساد الناشئ عن فرض وجود إلهين مختلفين، بعدم «وجود الخلق على التمام، والتدبير على الاتصال». فالفساد عند ابن جرير - كما هو في واقع الأمر -

نقيضُ الصلاح، وليس نقيضاً للوجود، كما فهمه المتكلمون، وبنوا عليه استدلالهم^(١).

على أن شيخ الإسلام ابن تيمية - وقد بين أن الآية سيقّت لبيان وحدانية الله تعالى في ألوهيته، وليس لمجرد إثبات الوحدانية في الربوبية، كما ظنه المتكلمون، وكما يدل عليه كلام ابن جرير في هذا الموضع - يرى شيخ الإسلام أن الفساد المراد هنا هو الناشئ عن صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، وأن يُجعل لله شريك في ألوهيته، فكل عبادة وإرادة لا يكون الله - تعالى - هو مقصود العبد بها، فهي ضارة لصاحبها مفسدة له، غير نافعة ولا مصلحة؛ إذ الخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله هو معبودهم، الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم، وأن يكون ذلك غاية الغايات، ونهاية النهايات^(٢).

وليس هذا المعنى الذي أشار إليه شيخ الإسلام، ونعى على المتكلمين إغفالهم إيّاه، هملاً عند ابن جرير، بل لعلنا لا نجد اختلافاً ذا بال، في نظرة ابن جرير إلى ذلك المقصد الذي هو بيان وحدانية الله تعالى في ألوهيته. . . عما أشار إليه ابن تيمية، من أن ذلك هو المقصود الأعظم من دعوة الرسل. وآية ذلك أنا لا نجد ابن جرير يُعَرِّجُ على قضية انفراد الله تعالى بالملك والخلق والتدبير، إلاّ ريثما يَدْلِفُ منها إلى تقرير انفراده تعالى في ألوهيته، وأنه لا يستحق العبادة على الخلق أحد سواه، وذلك - في تقرير ابن جرير - هو الحق الذي من أجله خلقت السموات والأرض^(٣)، وبه أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب^(٤).

(١) انظر: المفردات للراغب (٣٧٩-٣٨٠)، لسان العرب (٣٤١٢/٥)، وقارن بكشاف الاصطلاحات، للتهانوي، (١٢٧٤/٣)، المبين للآمدی ص (١٠١)، التعريفات للجرجاني (١٤٥).

(٢) انظر: درء التعارض (٣٧٢/٩) وما بعدها.

(٣) انظر: التفسير (٩/١٧) ط شاكر.

(٤) السابق (١٠٣/١٤، ١٣٠/٢٩) نفس الطبعة.

ونحن إذا تدبرنا كلام ابن جرير في أكثر المواطن التي عرض فيها لذكر
الوحدانية، فسوف نجده يشرحها بهذا المعنى الأخير^(١).

ومن أمثلة ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤]. قال:

«عَرَّفَهُمْ - تعالى ذكره - موضعَ استدلال ذوى الألباب منهم^(٢)، على حقيقة
ما نبههم عليه من توحيده، وحججه القاطعة عُذْرَهُمْ، فقال، تعالى ذكره: أيها
المشركون، إن جهلتم، أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر، من أن إلهكم
واحد، دون ما تَدْعُونَ ألوهيته من الأنداد والأوثان، فتدبروا حُجْجِي وفكروا
فيها، فإن من حُجْجِي خلق السموات، واختلاف الليل والنهار... فإن كان ما
تعبدونه من الأوثان والآله والأنداد، وسائر ما تشركون به، إذا اجتمع جميعه
فتظاهر، أو انفرد بعضه دون بعض، يقدر على أن يخلق نظير شيء من خلقى
الذى سميت لكم، فلکم بعبادتکم ما تعبدون من دوني حينئذ عذر، وإلا فلا عذر
لكم في اتخاذ إله سواي، ولا إله لكم ولما تعبدون غيري.

فليتدبر أولو الألباب إيجاز الله احتجاجه على جميع أهل الكفر به، والمملحين
في توحيده، في هذه الآية وفي التي بعدها، بأوجز كلام، وأبلغ حجة، وألطف
معنى يُشرف بهم على معرفة فضل حكمة الله وبيانه^(٣).

لقد سبق لنا أن بينا تنبؤ ابن جرير - ولا غَرَوَ - إلى ما قرره القرآن في غير ما
موطن، من أن المشركين لم يكونوا يدعون مع الله خالقا، ولا مالكا، ولا مُدَبِّرًا

(١) انظر: (٤٨٢/١٠) (١٩/١١) (١٠٤/١٦) ط شاكر، (٢٥٨، ٢٥٤/١٣) (١٤/٩٤، ١١٨)

(١٧/١٦١) (٢٣/٣٤، ١٨٢، ١٩٢) ط الفكر.

(٢) يقول ابن جرير في ذلك: «وخص به أهل الفكر؛ لأنهم أهل التمييز بين الأمور، والفحص
عن حقائق ما يعرض من الشبه في الصدور» التفسير: (٥٦-٥٧) ط شاكر، وانظر

(٣/٢٧٧) نفس الطبعة.

(٣) التفسير (٣/٢٦٧) ط شاكر.

لأمر السماء والأرض . . ، وإنما كانوا يدعون شركاء لله فى ألوهيته ، وأنداداً له فى العبادة ؛ ومن ثم فهو يقرر هنا أن احتجاج الله عز وجل على المشركين بهذه الآيات ، إنما كان لبيان بطلان ما يعبدون من دونه ، وأنه لا إله لهم ولما يعبدون غيره . وهذا النص يشير إلى منهج ابن جرير فى استنباط استدلال القرآن على هذه القضية ؛ فهو يشير إلى أن ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ ﴾ حجة بذلك ، ثابتة على المشركين^(١) ، ثم تصريفه شئون خلقه ، وآياته فيهم ، حجة كذلك على وحدانيته^(٢) .

ثم يعقب ذلك كله ببيان أن ما ذُكرَ فى هذه الآيات هو من إنعام الله - تعالى - على خلقه ، وأن ذلك الإنعام ، أيضاً ، من حججه على خلقه ، على وجوب إفراده بالوحدانية ، وبطلان ألوهية ما يدعون من دونه^(٣) .

فالقضية التى يُدعى ابن جرير ويعيد فى تقريرها ، هى أن الألوهية لا تصلح إلا لله - تعالى^(٤) - وأما آلهتهم التى يدعون من دون الله فلا يصلح لها شىء من الألوهية^(٥) ، لأنها - أولاً - لم تشارك الله فى شىء من الخلق فى القدم^(٦) ، ومن ثم فهى لم تشاركه فى شىء من ملكه^(٧) ، بل فوق ذلك أنها هى نفسها مخلوقة مملوكة^(٨) ، ثم هى بعد

(١) انظر (١٤/٨١) (١٥/١٩٧) حيث يكرر هناك فكرة أن خلق السموات والأرض من أدلة الوحدانية ، وأن الحجة قائمة بذلك على المشركين .

(٢) انظر كذلك (١٤/١٣٠ ، ١٤١ ، ١٥٣) ط الفكر ، حيث يستدل بنفس الدليل .

(٣) انظر : التفسير (٣/٢٧٧-٢٧٨) ط شاكر ، وانظر أيضاً : (١٥/١٢٣) ، (٢٤/٧٩-٨٠) ط الفكر ، حيث يستدل بنفس الدليل دليل الإنعام على الوحدانية .

(٤) التفسير (١٦/١٤١ ، ١٤٧) (٢٤/٧٩-٨٠) ط الفكر

(٥) التفسير (١٥/٧٨) (١٨/٤٩) ط الفكر .

(٦) التفسير (١٥/٧٨) (١٨/٤٩) ط الفكر .

(٧) التفسير (٢٢/٨٨-٨٩) ط الفكر .

(٨) التفسير (٣/٢٦٥-٢٦٦) ط شاكر ، (١٧/١٩٦) ط الفكر .

عاجزة عن أن تخلق شيئا ولو حقيرا^(١)، أو تملك ضرا أو نفعًا، ولو لأنفسها^(٢)، فكيف يكون إلهًا، من لا يخلق، ولا يملك، ولا ينفع، ولا يضر، بل لا يسمع ولا يبصر، ولا يعقل ولا ينطق^{(٣)؟!!}

إننا لا نحتاج إلى كبير عناء لكي نلمس ذلك التفاوت المنهجي بين «التفسير» و«التاريخ» في تناول قضية الوجدانية، كما لمسناه في تناول قضية «الوجود» وليس أدل على ذلك من أنه يفسر آية الأنبياء - التي ربطها في «التاريخ» بدلالة التمانع - بقوله :

«لو كان في السموات والأرض آلهة تصالح لهم العبادة سوى الله الذي هو خالق الأشياء، وله العبادة والألوهة التي لا تصالح إلا له ﴿لَفَسَدَتَا﴾ يقول: لفسد أهل السموات والأرض»^(٤)، وليس يحتاج ذلك إلى تعليق!!

وإذا كان ثمة ما يمكن أن يُفسَّر به ذلك التفاوت المنهجي بين الكتابين، فليس من اليسير أن ندعى أن تطورا فكريا قد حدث لابن جرير بعد تأليفه للتفسير، وأنه يكون قد اطلع على مقالات وأبحاث كلامية لم يكن طالعها من قبل، وعلى إثرها كتب ما كتب في مقدمة تاريخه، بحيث يمثل كل من التفسير والتاريخ مرحلة مستقلة في فكر ابن جرير ومنهجه، ليس من اليسير أن ندعى ذلك، لأنه وإن كان من المرجح أن تأليفه للتاريخ متأخر عن تأليف التفسير^(٥)، فإنه قد عاد إلى إقراء التفسير مرة أخرى بعد الانتهاء من تاريخه كاملا!! وهذا ما يدل عليه ما جاء في

(١) التفسير (١٧/٢٠٢-٢٠٣) الفكر.

(٢) التفسير (٢٢/٨٩) الفكر، (١٧/٩٥ و٩٣) ط الفكر.

(٣) التفسير (١٥/٢١٧) ط شاكر.

(٤) التفسير (١٧/١٣) ط الفكر، ويتفق الزمخشري أيضا معه في الإعراض عن ذكر «التمانع»

هنا، فقال بعد تفسيرها: «وأما طريق التمانع، فللمتكلمين فيها تجاؤل وطراد» أ. هـ.

الكشاف (٣/١١٠)، وانظر: التسهيل لابن جزي (٤٤٦).

(٥) أحال في تاريخه (١/٨٩) على تفسيره، وانظر مقدمة محقق التاريخ (١/٢٢-٢٣).

أول تفسيره: «قرئ على أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى سنة ست وثلاثمائة، قال»^(١)، فى حين أنه انتهى من إملاء التاريخ - على ما ذكره ياقوت - «فى يوم الأربعاء، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثمائة»^(٢).

ومما يوهن احتمال التطور الفكرى هنا أن تناوله لهذه المسائل فى «تاريخه» مجمل - غايةً - حتى ليكاد يوحى بأنه «تكميل» لفصول «مقدمة التاريخ»!! أو أن طبيعة الكتابين أثرت فى هذا التناول، لا سيما فى التفسير، مع أنه قد حكى خلاف أهل «البحث» و«الجدل» فى غير قضية، مما يدل على أنه أغفل ما أغفله عمداً، لا جهلاً به.



(١) التفسير (٣/١) ط شاكر.

(٢) معجم الأدباء (٤٤/١٨)، وانظر مقدمة محقق تاريخ الطبرى (١/٢٣).

الفصل الثاني

مباحث عامة فى الأسماء والصفات

المبحث الأول

اسم الله الأعظم

يتعلق البحث فى اسم الله - تعالى الأعظم «بقضية من قضايا التَّخُوم المشتركة بين علمى أصول الدين وأصول الفقه، وهى قضية التفاضل فى كلام الله تعالى»^(١). وقد منع وقوع ذلك التفاضل الأشعري وجماعة معه، كابن حبان والباقلاني^(٢)، وقبلهم الحارث المحاسبي^(٣)، بل نسب ذلك إلى أبى حنيفة رحمه الله، كما فى «الفقه الأكبر» المنسوب إليه: «وآيات القرآن كلها مستوية فى الفضيلة والعظمة»^(٤)، كما نسب إلى مالك أيضا^(٥).

وعلة من منع ذلك التفاضل أن «المفضول ناقص عن درجة الأفضل، وأسماء الله وصفاته وكلامه لا نقص فيها»^(٦)، ولأجل ذلك، صار من يعتقده يحكيه

(١) عبد الله القُصْن: أسماء الله الحسنى ص (٨٥)، و(٨٨ هامش ٢).

(٢) انظر: الزركشى: البرهان فى علوم القرآن (١/٤٣٨)، وهو اختيار ابن عبد البر، كما فى التمهيد (١/٧١-٧٢، ٨٤فتح البر) وابن حزم، كما فى الإحكام (١/٤٦٧)، والبيهقى فى: الأسماء والصفات (١/٥٦٢).

(٣) فهم القرآن للمحاسبي (٣٦٨-٣٦٩).

(٤) الفقه الأكبر، مع شرح القارى (١٠٥).

(٥) البرهان للزركشى (١/٤٣٨)، الدر المنظم فى الاسم الأعظم، للسيوطى - ضمن الحاوى للفتاوى - (٢/١٣٥).

(٦) ابن حجر: فتح البارى بشرح صحيح البخارى (٨/٨)، وانظر فتاوى شيخ الإسلام (١٧/٦٩، ٧٢ وما بعدها).

إجماعاً لأهل السنة؛ «وهذا النقل للإجماع إنما هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة؛ فلما علم أنهم يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وظن هو أن المفاضلة، إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات، قال ما قال»^(١).

وقد رد ابن تيمية ذلك التلازم، ونقل أن «سلف الأمة وجمهورها يقولون: إن كلام الله غير مخلوق...»، ويقولون مع ذلك: إن كلام الله بعضه أفضل من بعض، كما نطق بذلك الكتاب والسنة وآثار الصحابة والتابعين، من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم»^(٢)، وذكر أن هذا الإنكار إنما حدث لما ظهرت بدع الجهمية، ثم اشتهر بعد المائتين^(٣)، وقد نُقِلَ إثباتُ التفاضل عن إسحاق بن راهويه، والغزالي، وأبي بكر بن العربي، وقال القرطبي: إنه الحق، ونقله عن جماعة من العلماء والمتكلمين^(٤).

رأى الطبرى:

ذهب ابن جرير إلى عدم وقوع التفاضل في آيات القرآن وسوره؛ فقال:

«فإن قال قائل: ومن القرآن شيء هو أحسن من شيء؟

قيل له: القرآن كله حسن، وليس معنى ذلك ما توهمت، وإنما معناه: اتبعوا ما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهى والخبر، والمثل والقصص والجدل والوعيد والوعيد أحسنه»^(٥)، وأحسنه أن تأمروا لأمره، وتنتهوا عما نهى عنه؛ لأن النهى

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٣/١٧).

(٢) السابق (٥٤/١٧)، وانظر ص (١٣، ٥٢) من نفس الجزء؛ حيث يقرر أنه قول جماهير المسلمين من أهل السنة وأهل البدعة، وانظر استدلاله على ذلك (١٧/١٠ وما بعدها).

(٣) المصدر السابق (٤٦/١٧، ٥٣).

(٤) البرهان (٤٣٩/١)، وانظر: الإتيان، للسيوطي: (١١٧/٤).

(٥) كذا في الأصل، ولعل كلمة أحسنه زائدة.

مما أنزل في الكتاب، فلو عملوا بما نُهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه، فذلك وجهه»^(١).

فالتفاضل عند ابن جرير إنما هو باعتبار عمل العامل، لا باعتبار فضل بعض القول على بعض؛ ولذلك فهو يفسر قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] بأنها خير في الحكم للمخاطبين^(٢)، بل يعتبر ذلك من القرائن السياقية التي تدل، لوضوحها، على ما حذف من الكلام. يقول:

«وإنما عني، جل ثناؤه، بقوله ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾: ما ننسخ من حكم آية أو ننسها، غير أن المخاطبين بالآية، لما كان مفهوما عندهم معناها، اكتفى بدلالة ذكر الآية من ذكر حكمها، وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره، فيما مضى من كتابنا هذا، كقوله:

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] بمعنى: حب العجل، ونحو ذلك، فتأويل الآية إذا: ما نغير من حكم آية فنبدله، أو نتركه فلا نبدله، نأت بخير لكم -أيها المؤمنون- حكما منه، أو مثل حكمها في الخفة والثقل والأجر والثواب^(٣).

فإن قال قائل: فإننا قد علمنا أن العجل لا يُشرب في القلوب، وأنه لا يلتبس

(١) التفسير (١٨/٢٤) ط الفكر، وانظر نفس المعنى (١٣/١١٠) ط شاكر، وقارن: الآجري: أخلاق حملة القرآن ص (٧).

(٢) وهذا التأويل للآية نجده، قبل ابن جرير، عند سفيان بن عيينة، كما حكاه عنه المروزي في كتاب «السنة» ص (٧٠) وبعده عند ابن عبد البر (٧١/٢) -فتح البر-، وابن حزم في: الإحكام (٤٦٧/١) وغيرهم.

(٣) انظر في الجواب عن ذلك المحمل كلام ابن تيمية وما حكاه عن ابن عقيل الحنبلي في الفتاوى (٤٧/١٧) وما بعدها.

على من سمع قوله: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ﴾ أن معناه: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، فما الذي يدل على أن قوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لذلك نظير؟!

قيل: الذي دل على أن ذلك كذلك قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾، وغير جائز أن يكون في القرآن شيء خير من شيء؛ لأن جميعه كلام الله، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره، أن يقال: بعضها أفضل من بعض، وبعضها خير من بعض^(١).

وأما الأسماء والصفات، فمن منع التفاضل في القرآن - أو في كلام الله تعالى، عامة - طرد الباب هنا أيضا؛ فمنع أن تكون بعض أسماء الله - تعالى - وصفاته أفضل من بعض أو أعظم من بعض^(٢).

ولم يشذ عن طرد ذلك الأصل ابن جرير، بطبيعة الحال. ولم يُختلف في نقل رأيه ومذهبه في هذه المسألة: أن الأسماء كلها سواء في العظمة، وإنما يتفاضل حال الناس حين الدعاء، فيكون الأعظم بحسب حال الداعي، لا أنه في نفسه أعظم^(٣). على ما يشير إليه النص السابق. فابن جرير لم يرد الآثار التي أشارت إلى ثبوت الاسم الأعظم، أو تعيينه، وكذا لم يرجح بعضها على بعض^(٤)، وإنما

(١) التفسير (٤٨٣/٢) ط شاكر، ونقله عنه ابن تيمية (٦٨/١٧-٦٩) إلا أنه - أعنى ابن تيمية - عارض هذا الاختيار بأن من قال به ليس معه دليل من الكتاب ولا السنة ولا قول أحد من السلف، وإنما معه رأى يزعم أن عقله دله عليه، وأما المثبتة فمعهم من أدلة الكتاب والسنة والآثار، والمعقولات الصريحة التي تبين فساد قول منازعيهم، ما لا يتوجه إليه طعن صحيح، انظر الفتاوى (٨٠/١٧، ٩٠ وما بعدها).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦٩/١٧)، فتح الباري (٢٢٧/١١).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) انظر الخلاف حول تعيينه، وما ورد فيه من آثار في: سنن أبي داود (٤/٣٦٢-٣٦٤) عون المعبود، مختصر المنذرى لسنن أبي داود (٢/١٤٤-١٤٥)، فتح الباري (٢٢٧/١١)- (٢٢٨)، والدر المنظم في الاسم الأعظم للسيوطي - ضمن الحاوي (٢/١٣٥-١٣٩)،

رد المعنى إلى تفاوت الحال من داعٍ إلى داعٍ. يقول:

«والصواب في كل ما رُوينا في ذلك عن النبي ﷺ وعن السلف أنه صحيح.

فإن قيل: وكيف يكون ذلك صحيحًا مع اختلاف ألفاظه ومعانيه؟

فالجواب: أنه لم يُروَ عن أحد منهم أنه قال في شيء من ذلك: لقد دعا باسم^(١) الأعظم الذي لا اسم له أعظم منه، فيكون ذلك من روايتهم اختلافًا. وأسماء الله تعالى، كلها عندنا عظيمة جليلة، ليس منها صغير، وليس منها اسم أعظم من اسم. ومعنى قوله -عليه السلام- لقد دعا باسم الأعظم: لقد دعا باسم العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وكما قال ابن أوس:

لعمرك ما أدري وإني لأوجل^(٢)

بمعنى: إني لوجل.

ويبين صحة ما قلناه حديث حفص^(٣) ابن أخي أنس بن مالك، عن أنس بن مالك عن النبي -عليه السلام- أنه قال: «لقد دعا باسم العظيم الذي إذا دعى به أجاب»^(٤)؛ فقال: باسم العظيم؛ إذ كان معنى ذلك ومعنى الأعظم

= تحفة الأحوذى للمباركفوري (٩/٤٤٥-٤٤٨)، السلسلة الصحيحة للألباني (٢/٣٧١-

٣٧٢)، محمد الحمود: النهج الأسمى في أسماء الله الحسنى (١/٦٣-٦٦)، الغصن:

أسماء الله الحسنى (٩٠-٩١).

(١) «باسم العظيم»: كذا في الأصل، وهو من باب إضافة الشيء إلى صفته، كقولهم: «مسجد الجامع»، و«صلاة الأولى»، وفي القرآن: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

(٢) هذا صدر بيت لمعن بن أوس المزني، وعجزه: على أيّنا تعدو المنية أول.

والبيت في: النوادر للقالبي (٣/٢١٨ - الأملاني)، واللسان (وجل) وغيرهما.

(٣) في الأصل: جعفر، والتصويب من مصادر التخريج، وكتب الرجال.

(٤) الحديث رواه أحمد (٣/١٥٨، ٢٤٥)، وأبو داود (١٤٨١-عون)، والنسائي (٣/٥٢)،

وإسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم (١٢٣٣).

واحدًا . .

ولا يلزم من ذلك - عند ابن جرير - أن يكون كل من دعا باسم من أسماء الله تعالى، مجابًا دعاؤه، كما يجاب دعاء من دعا بالاسم الأعظم، عند القائل به؛ فإن «أحوال الداعين تختلف، فمن داع ربه تعالى لا تُردّ دعوته، ومن داع محله محل من غضب الله عليه، وعرضه للبلاء والفتنة، فلا يرد كثيرا من دعائه ليتليه ويبتلى به غيره»^(١)، ومن داع يوافق دعاؤه محتوم قضائه ويوم قدره، وقد قال - عليه السلام - : «ما من مسلم يدعو إلا استجاب له، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم؛ إما أن يُعجلَ له في الدنيا، وإما أن يُدخرَ له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من الشر بقدر ما دعا»^(٢).



(١) يعني أنه: مع غضب الله عليه، يستجيب دعاءه، فتنة له ولغيره.

(٢) انظر: شرح ابن بطلال لصحيح البخاري - مخطوط - (٤/ق ١٧٥)، والحديث رواه

بنحوه - أحمد في المسند (١٨/٣) من حديث أبي سعيد، والترمذي (٣٦٤٤ - تحفة) من

حديث عبادة. وقال: حديث حسن غريب صحيح.

المبحث الثاني

الاسم والمسمى

كانت قضية الاسم والمسمى، وما دار من جدل حولها، إحدى القضايا العقيمة التي نشأت في الوسط الكلامي، و«كثُر خَبْطُ الناس فيها»^(١).

ولقد كبر شأن تلك القضية حتى صار «الفرق بين الاسم والمسمى، يتوصل به إلى كثير من الكلام في اختصاص الناس في القدر، وفي خلق القرآن، وإثبات الفعل ونفيه»^(٢).

وكان أخطر ما جره الخوض في تلك القضية أن تَقَحَّمَتْ أوهام العامة، ولاكتهم ألسنتهم، ليلغوا منه المنتهى في التَّزْقِ، والغاية في الخُباط. يقول ابن جرير حول سؤال أهل بلده له أن يصنف لهم مصنفًا في أصول الدين:

«وإن مسألتكم إياي صادفت مني فيكم تَحَرُّيًا، ووافقت مني فيكم احتسابًا، لما صح عندي وتقرر لدى من خصوص عظيم البلاء ببلدكم دون بلاد الناس سواكم؛ من ترؤس الرُّوَيْبِضَةِ فيكم...»^(٣).

لقد بلغني عن جماعة منهم أن الأمانة^(٤) بينكم، والجرأة عليكم، حملتهم على إظهار نوع من الكفر لا يعلم أنه دانه يهودى ولا نصرانى، ولا مجوسى ولا وثنى،

(١) الزركشى: البحر المحيط (٢ / ٦٨).

(٢) أبو حاتم الرازى (الإسماعيلي): الزينة (١ / ١١٢)، وأشار محققه إلى أن فى إحدى النسخ

الخطية زيادة: «وفى التوحيد»!!

(٣) يشير إلى حديث: «سيأتى على الناس سنوات خداعات، يُصَدَّقُ فيها الكاذب ويُكَذَّبُ فيها

الصادق ويؤمن فيها الخائن ويُخَوَّنُ فيها الأمين وينطق فيها الرويبضة». قيل: وما

الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلم فى أمر العامة». رواه ابن ماجه (٤٠٣٦) من حديث

أبى هريرة مرفوعا، وهو فى صحيح الجامع رقم (٣٦٥٠).

(٤) الأمانة: كذا.

ولا زنديق ولا ثنوي، ولا جنس من أجناس أهل الكفر سواهم؛ وهو أن أحدهم - فيما ذكر لي - يخط بيده في التراب اسم الله، ويكتب ذلك على اللوح، أو ينطق بلسانه، ثم يقول: قولي هذا الذي قلته ربى الذى أعبد، وكتابتى هذا الذى كتبته خالقى الذى خلقتى^(١)؟! ويزعم أن علقته فى صحة القول بذلك أن أبا زرعة وأبا حاتم الرازيين^(٢) قالوا: الاسم هو المسمى^(٣)، فلا هو يعقل الاسم، ولا هو يعرف المسمى، ولا يدري ما مراد القائل: الاسم هو المسمى، ولا مراد القائل: لا هو المسمى ولا غير المسمى، بلادة وعمى^(٤).

لكن هذا البلاء الذى ضج منه ابن جرير لم يكن خاصاً ببلاده كما ظن، أو لعله - مع الوقت - عمت بلواه حتى اتصلت إلى بلاد الأندلس فى زمان ابن حزم؛ قال: «وأخبرنى أبو عبد الله السائح القطان أنه شاهد بعضهم قد كتب «الله» فى سحاة^(٥)، وجعل يصلى إليها، قال: فقلت له: ما هذا؟! قال: معبودى. قال: فنفخت فيها فطارت. فقلت له: قد طار معبودك. قال: فضربنى!!!^(٦). والناس كأسراب طير، يتبع بعضهم بعضاً!!!

الخلاف حول القضية:

حكى الأشعرى فى المقالات اختلاف الناس فى هذه المسألة على أربع

- (١) انظر بيان ابن تيمية لمراد هؤلاء فى «الفتاوى» (١٦٩/١٢).
- (٢) أما أبو زرعة الرازى فهو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ إمام حافظ ثقة مشهور (٢٠٠-٢٦٤هـ) وأما أبو حاتم الرازى فهو محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي، أحد الحفاظ (ت ٢٧٧هـ). انظر التقریب رقم: (٤٣٤٥)، (٥٧٥٥).
- (٣) انظر: الفصل لابن حزم (٢٣/٥-٢٤)، فقد عزاه إليهما ووهما فيه.
- (٤) التبصير (١٠٥-١٠٨).
- (٥) يعنى: ورقة.
- (٦) الفصل (٥ / ٢٣)، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٥٤٤).

مقالات.

فقال قائلون، أسماءه هي هو^(١)، وإلى هذا القول يذهب أكثر أصحاب الحديث^(٢).

وقال قائلون، من أصحاب ابن كُلاب: إن أسماء الباري لا هي هو ولا هي غيره.

وقال قائلون من أصحابه - يعني أصحاب ابن كلاب - لا يقال: هي الباري، ولا يقال: هي غيره، وامتنعوا من أن يقولوا: لا هي الباري ولا غيره^(٣).

وقال قائلون: أسماء الباري هي غيره، وكذلك صفاته. وهذا قول المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة، وكثير من الزيدية^(٤).

ويبدو أن القول الأخير من هذه الأقوال، كان هو السبب في اتساع دائرة

(١) يعني: أن الاسم هو المسمى. وليس مراد هؤلاء أن لفظ «اسم» هو «ذات المسمى» كما قد يظن، بل مرادهم أنه يدل عليه... انظر: مجموع الفتاوى (٦ / ١٨٨ وما بعدها).

(٢) انظر: شرح أصول أهل السنة، للالكائي (١ / ٢٠٤) وما بعدها. وهو أحد قولي الأشعري، وذكر البغدادي في أصول الدين (١١٠) أنه نص عليه. لكن ذكر شيخ الإسلام أن هذا القول لم يعرف عن أحد من السلف، بل قاله كثير من المنتسبين إلى السنة بعد الأئمة، وأنكره عليهم أكثر أهل السنة... انظر مجموع الفتاوى (٦ / ١٨٧-١٨٨).

(٣) نقله الخلال عن إبراهيم الحربي وغيره، كما في الفتاوى (٦ / ١٨٧)، وانظر: اعتقاد الإمام أحمد، للتميمي (ق ٥٥٥).

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة (٢ / ٢٣٤)، الخصائص لابن جني (٣ / ٢٦-٣٤). وقارن: الاعتصام للشاطبي (٢ / ٢٣٤) - حيث يُلَمَح إلى رأى الخوارج، وهو اختيار ابن حزم، كما في الفصل (٥ / ٢١)، وغيره. وانظر: عبد الله الغصن: أسماء الله الحسنى (٣٢-٣٣). ولم يشر الأشعري هنا إلى القول الثاني المشهور عنه. بالتفصيل في هذه الأسماء... فانظره في: الاعتقاد للبيهقي (٢٦-٢٧)، أصول الدين (١١٥).

الخلاف حول هذه المسألة، وهو الذى قادَ متكلمةَ أهل السنة إلى أن يقولوا: الاسم هو المسمى^(١) يقول ابن تيمية، مؤرخا ذلك: «النزاع اشتهر فى ذلك بعد الأئمة، أحمد ومن قبله^(٢): والذى كان معروفا عند أئمة السنة، أحمد وغيره، الإنكار على الجهمية الذين يقولون: أسماء الله مخلوقة؛ فيقول الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق. وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف، وغلظوا عليهم القول؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، بل هو المتكلم به، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء»^(٣).

ولما كان هذا المعنى فاسداً، فلقد شدد علماء السنة النكير على القول به، وعلى ما يؤدى إليه^(٤)، حتى قال الشافعى والأصمعى وغيرهما: إذا سمعت: الرجل يقول: الاسم غير المسمى، فاشهد عليه بالزندقة^(٥).

رأى الطبرى:

تناول ابن جرير طرفا من اتصال هذه القضية باختصاص الناس فى القدر

(١) انظر بدائع الفوائد لابن القيم (١٧/١).

(٢) وأما نسبة القول بأن الاسم هو المسمى إلى الإمام أحمد - كما ذكر ابن حزم (٥/٢٣-

٢٤) ففيه نظر، يدل على ذلك قول أبى الفضل التيمى فى رسالته فى اعتقاد الإمام أحمد (ق/٥٥/ب): «وعظم عليه الكلام فى الاسم والمسمى، وتكلم أصحابه فى ذلك...».

(٣) مجموع الفتاوى (٦/١٨٥-١٨٦)، وقارن: الرد على الزنادقة للإمام أحمد (٥٣-٥٤)، الرد على بشر، للدرايمى (٧) وما بعدها، الإبانة للأشعرى (٧٣، ٧٥)، اللالكائى (٢/٢٠٦-٢٠٧).

(٤) راجع: الفصل (٥/٢٠)، مجموع الفتاوى (١٢/١٧٠).

(٥) الاعتقاد (٢٧)، مناقب الشافعى (١/٤٠٥) كلاهما لليبهقى، وأيضا: اللالكائى (٢/٢٠٧، ٢١٢).

وأفعال العباد^(١). قال: «فإن قال لنا قائل: ... فكيف قيل: «بسم الله» بمعنى: أقرأ باسم الله، أو أقوم وأقعد باسم الله؟ وقد علمت أن كل قارئ كتاب الله فبعون الله وتوفيقه قراءته، وأن كل قائم أو قاعد أو فاعل فعلاً، فبالله قيامه وقعوده وفعله. وهلا، إذا كان ذلك كذلك، قيل: بالله الرحمن الرحيم، ولم يُقَل: بسم الله؟! فإن قول القائل: أقوم وأقعد بالله الرحمن الرحيم، أو أقرأ بالله، أوضح معنى لسامعه من قول «بسم الله»؛ إذ كان قوله: أقوم، أو أقعد، باسم الله، يوهّم سامعه أن قيامه وقعوده بمعنى غير الله». ولا يخفى أن هذا الإشكال إنما هو مبنيٌّ على أن الاسم هو المسمى، ولذلك يسوق ابن جرير احتجاج من ذهب إلى ذلك بيت لبيد:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ^(٢).

وانفصل ابن جرير عن هذا الإشكال بأن معنى قوله: «بسم الله»: أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء...، لا أن معناه بالله...، فجعل الاسم مكان التسمية، كما جعل الكلام مكان التكليم. وليس معنى كلام ابن جرير أنه يرى أن «الاسم» هو «التسمية» - كما قالت المعتزلة^(٣) - وإنما هو يقرر أن الاسم «اسم» - يعنى «نحوًا»، الذي هو قسيم الفعل والحرف - وأن «التسمية» مصدر من قولك: «سميت»... وقد أورد هو بعض شواهد ذلك من كلام العرب. وإذا كان قد احتج لهذا الفهم بتخريجه على سَنَنِ العرب في كلامها، فإنه يعضد ذلك بملحظ معنوى؛ حيث يرى أن ذلك هو الأنسب هنا؛ لأن العباد إنما أمروا أن يبتدئوا عند فواتح أمورهم بتسمية الله، لا بالخبر عن عظمته وصفاته... ولا

(١) راجع ما نقلناه أول المبحث عن أبي حاتم الإسماعيلي.

(٢) والشاهد في البيت قوله «ثم اسم السلام»، يعنى: ثم السلام، بناء على أن الاسم هو المسمى.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (٥٤٣)، الفصل (٥/٢٢).

خلاف بين الجميع من علماء الأمة أن قائلًا لو قال، عند تذكّيته بهيمة الأنعام: بالله، ولم يقل: باسم الله، أنه مخالف ما سُئِنَ عند التذكّية من القول... وفى ذلك دليل واضح على فساد ما أُدْعِيَ من التأويل فى قول القائل «باسم الله» أنه مراد به: «بالله»، وأن اسم الله هو الله. ثم أخذ ابن جرير فى إبطال تعلّقهم ببیت لبید وذكر التخریج الصحیح له عنده، لِيُبْطَلَ تعلّق مخالفیه به^(١) ثم يعتذر عن الإطالة فى هذه المسألة وتقتضى الأقوال فى الإبانة عن «الاسم أهو المسمى، أم غيره، أم هو صفة له؟ لأن غرضه - فى هذا الموضع - إنما هو الإبانة عن [لفظة] «اسم المضاف إلى «الله» - فى قولنا: باسم الله - أهو اسم - يعنى: نحوا - أم مصدر بمعنى التسمية»^(٢). فابن جرير يخوض هنا بنظر النحوى الذى يعنيه الألفاظ، لا المتكلم الذى يعنيه المعانى^(٣).

وإذا كان هذا الموضع لم يُسَعَفْنَا بمعرفة موقف ابن جرير - الكلامى - من هذه المسألة، فإنه يعرضها - من الوجهة الكلامية - فى رسالته «صريح السنة» على أنها واحدة مما حدث فى دهره من «حماقات، خاض فيها أهل الجهل والغباء، ونَوَكَّى الأمة والرعاع...» وهى نفس النظرة التى نقلناها عن «التبصير» فى مستهل المبحث. ولهذه النظرة ذكر أن القول فى ذلك، من الحماقات الحادثة التى لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع^(٤)، فالخوض فيه شينٌ، والصمتُ عنه زين. وحسب امرئٍ من العلم به والقول فيه، أن ينتهى إلى قول الله - عز وجل ثناؤه - الصادق، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا إِلَى قول الله - عز وجل ثناؤه - الصادق، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا

(١) انظر حول هذا البيت: الزينة لأبى حاتم (١ / ١١٠-١١٢)، الفصل (٥ / ٢٠-٢١)، شرح الأصول (٥٤٣)، بدائع الفوائد (١ / ٢٠-٢٢).

(٢) انظر التفسير (١ / ١١٥-١٢٢).

(٣) انظر فى الفرق بين النظرين كتاب: معنى «لا إله إلا الله» للزركشى (١٣٧ - ١٣٩).

(٤) وهذا مما يرجح ما ذكرناه من عدم صحة نسبة القول بأن الاسم هو المسمى للإمام أحمد، وإلا كان «إمامًا فيستمع» قوله كما فعل فى قضية اللفظ.

الرَّحْمَنُ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويعلم أن ربه هو الذى على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فمن تجاوز ذلك فقد خاب وخسر، وضل وهلك»^(٢).

وقد تنازعت مقالة ابن جرير هذه وجهتان، وكل يرى مذهب ابن جرير سوى ما يراه الآخر؛ فحكى اللالكائى أن ابن جرير - فى آخرين من الأئمة - يرى أن الاسم هو المسمى^(٣)، لكنه لم يُسند إليه رواية تعزز صحة ما نخله إياه.

والوجهة الأخرى ما ذكره شيخ الإسلام تعليقاً على مقالة ابن جرير بأن «هذا هو القول بأن الاسم للمسمى»، وذكر أن هذا اختيار أكثر المنتسبين إلى السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره^(٤).

بيد أن هذا القول - هو الآخر - لا يُساعد عليه كلام ابن جرير، وأظهر ما يدل عليه أنه أمسك عن القول فى هذه القضية الحادثة، وحيث لا أثر - عنده - فيها فيتبع، ولا إمام - له - فيُستمع، فالصمت عنها زين، والخوض فيها شين....



(١) يقول ابن جرير فى تفسير هذه الآية «بأى أسمائه - جل جلاله - تدعون ربكم، فإنما تدعون إليها واحدًا، وله الأسماء الحسنى» أ. هـ (١٨٢/١٥) ط الفكر.

(٢) صريح السنة (٢٦-٢٧ ط الكويت)، (ق ١٦٧ - مخطوط دار الكتب - ضمن مجموع).

(٣) شرح أصول أهل السنة (٢/ ٢٠٨).

(٤) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٦/ ١٨٧، ٢٠٦-٢٠٧).

المبحث الثالث

الصفات؛ أقسامها وأحكامها

أهمية القضية والخلاف حولها:

كانت قضية «الصفات الإلهية» وما دار من جدل بين الفرق حولها، من أهم مسائل علم الكلام، وأخطر قضاياها؛ وذلك أنه كان من ضروريات الخطاب فى القرآن والسنة أن تذكر أسماء الله تعالى وصفاته الحسنى فى السياقات المختلفة؛ ليعرفنا الله تعالى، بذاته التى هى أشرف مقصود^(١)، وليبين أنه المستحق للعبادة دون سواه. وهذان هما الأصلان اللذان بهما يتم التوحيد: إثبات صفات الكمال ردًا على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة، لا إله إلا هو، رداً على المشركين^(٢).

فأما أهل الحديث والسنة فكان مرجعهم فى ذلك كله الوحي الذى إليه يؤولون، وعنه يصدر. قال ابن عبد البر: «الله عز وجل، لا يوصف عند الجماعة أهل السنة إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه»^(٣).

ثم إنهم يتردون ذلك فى الباب كله، ويسوقون الكلام فى الصفات مساقاً واحداً، لا يفرقون بين صفة ذات أو صفة فعل^(٤) ولا يفرقون - كذلك - بين ما

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (٤٣١).

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٦ / ١٨٣).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٩٢/٢). وانظر التوحيد لابن خزيمة (٩٥، ٢١)، رسالة السجى إلى أهل زبيد (٢١ و ١٦١ و ١٦٧)، والخطط المقرئية (٣٥٦/٢).

(٤) الملل والنحل، للشهرستانى (٩٢/١)، الخطط (٣٥٦/٢).

ثبت بالقرآن أو جاء به الخبر الصحيح عن النبي ﷺ، متواترا كان ذلك الخبر أو آحادا^(١).

ثم العقل، إن أمكنه أن يُدرك ما أثبتته النص من ذلك، أو بعضه، فذاك، وإلا فلا مُعَوَّل على عجزه، ولا يعارضُ به صرائح النصوص؛ إذ عالم الغيب خارج عن طوقه، والله - تعالى - «ليس كمثله شيء فيدرك بقياس أو إمعان نظر»^(٢) فالعقل - عندهم - ما يؤدي إلى قبول السُّنة، فأما ما يؤدي إلى إبطالها فهو جهل^(٣)، والأصول التي جاء بها الوحي هي غاياتُ العقول، تدور في فلكها، وتنتهي إليها وليست العقول غايات تلك الأصول^(٤) قال أبو الزناد^(٥): «إن السُّنن لا تخاصم، ولا ينبغي لها أن تُتَّبَعَ بالرأى،... ولكن ينبغي للسُّنن أن تُلْزَمَ وَيُتَمَسَّكَ بها، على ما وافق الرأى أو خالفه...».

ثم قال، بعد كلام طويل له: «وايم الله إن كنا لنتلقت^(٦) - يعني السنة - من أهل الفقه والثقة، ونتعلمها شبيها بتعلمنا آي القرآن، وما بَرَحَ مَنْ أدركنا من أهل الفضل والفقه من خيار أَوْلِيَّةِ^(٧) الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب...»^(٨).

(١) راجع ما مضى في الباب الأول حول حجية السنة.

(٢) جامع بيان العلم (٩٢/٢).

(٣) انظر: الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٥٠٩/١).

(٤) انظر ما نقله السيوطي في صون المنطق، ص (٦٩) عن أبي عبد الله البُوشَنجِي، من أئمة أهل الحديث (ت ٢٩١هـ).

(٥) هو عبد الله بن ذَكْوَانَ القرشي، أبو عبد الرحمن المدني المعروف بأبي الزناد، ثقة فقيه روى له الجماعة. مات: سنة ثلاثين ومائة، وقيل بعدها. انظر التقريب (٥٠٤).

(٦) كذا، ولعلها: نلتقطها، أو سقط من الكلام شيء. ثم وجدتها في الاعتصام للشاطبي (٢/٣٣٣): «لَنَلْتَقِطَ السنن».

(٧) كذا هنا وفي الاعتصام.

(٨) الحجة في بيان المحجة (٢٨١-٢٨٥)، وانظر (٢/٤٣٥) من نفس المصدر، وانظر =

ولقد كان من أقوى ما تأيد به أهل السنة لتصحيح مذهبهم أنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة، الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف، حرف واحد يؤيد مذهب النفاة، ويخالف مذهب أهل الإثبات. بخلاف مذهب المثبتة؛ فإن القرآن والحديث والآثار عن الصحابة مملوءة به^(١). قال الأصبهاني: «إن الأخبار عن صفات الله - عز وجل - جاءت متواترة عن النبي ﷺ موافقة لكتاب الله، عز وجل، فنقلها الخلف عن السلف قرناً بعد قرن، من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا، على سبيل إثبات الصفات لله والمعرفة والإيمان به، والتسليم لما أخبر به في تنزيله، وبينه الرسول عن كتابه، مع اجتناب التأويل والجحود، وترك التمثيل والتكييف»^(٢).

ولم يزل ذلك منهاج الناس، الكلمة مجمعة، والجماعة متوافرة على عهد الصحابة الأول، ومن بعدهم من السلف الصالحين، حتى نبغت نابغة بصوت غير معروف، وكلام غير مألوف^(٣)، فنفت ما جاءت به النصوص من الصفات، ثم أدرجوا ذلك النفي في مسمى التوحيد^(٤). وكان أول من ظهر عنه قول النفاة الجعد بن درهم والجهم بن صفوان، في أوائل المائة الثانية^(٥).

= درء التعارض (١٤٩/٢)، لوامع الأنوار للسفاريني (٢٧/١-٢٨).

(١) انظر الفتوى الحموية - ضمن فتاوى شيخ الإسلام (٥ / ١٥)، ودرء التعارض (٦/ ٢٦٦)، وانظر أيضاً النقض على بشر الميرسي (٣٨).

(٢) الحجة (١/ ٩١-٩٢)، وانظر رسالة السجزي (١٩٠-١٩١)، وذم التأويل لابن قدامة: ص (١٦، ٢١).

(٣) العبارة لللكائي في شرح أصول أهل السنة (١/ ١٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٩٩).

(٥) درء التعارض (٦/ ٢٦٦)، وانظر الرد على الجهمية للدارمي (٢١)، والتنبيه والرد للملطي، ص (٩٦) وما بعدها، والمعتزلة لزهدى جار الله (٦٢).

وفى أثناء ذلك حدث مذهب الاعتزال، منذ زمن الحسن البصري - رحمه الله - (ت ١١٠ هـ)، وتقلدوا مذهب النفي عن الجهمية، وبالغوا في نصرته حتى عرف بهم، ولا سيما بعد انقراض الجهمية المحضة^(١).

ثم طالع شيوخ المعتزلة بعد ذلك كتب الفلاسفة حين انتشرت أيام المأمون، وخلطت مناهجها بمناهج الكلام^(٢). وكانت هذه المقالة - مقالة النفي عند المعتزلة - في بدئها غير نضيجة - على حد تعبير الشهرستاني - وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين. قال: ومن أثبت معنى صفة قديمة فقد أثبت إلهين. وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة، وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالما قادراً.

ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة، كما قال الجبائي، أو حالان كما قال أبو هاشم^(٣).

(١) انظر الخطط (٢/٣٥٧)، والمعتزلة (ص ٦٣).

(٢) الملل والنحل (١/٢٩)، والخطط (٢/٣٥٧)، مقدمة ابن خلدون (٤٣٣-٤٣٤)، المعتزلة (٦٣ وما بعدها).

(٣) الملل والنحل (١/٤٦)، وانظر: قضية التوحيد بين الدين والفلسفة، لأستاذنا د. محمد الجليلند، ص (١٠٥-١١٠). وينقل ابن الوزير رصدًا آخر لتطور موقف المعتزلة من الصفات عن الشيخ مختار، صاحب «المجتبى» أحد علمائهم المتأخرين: «اعلم أن شيوخ المعتزلة إلى زمن الشيخ أبي هاشم لم ينصوا على إثبات الصفات ولا نفيها، إلى أن صرح بإثباتها أبو هاشم، وصرح بنفيها أبو على، وأبو القاسم البلخي، والإخشيد، وأبو الحسين» اهـ إشار الحق: (١٠٦)، أما ابن تيمية فيرى أن المعتزلة أولاً، الذين كانوا في زمن عمرو بن عبيد وأمثاله، لم يكونوا جهمية، وإنما كانوا يتكلمون في الوعيد وإنكار القدر، وإنما حدث فيهم نفي الصفات بعد هذا. انظر شرح الأصفهانية (٦٤-٦٥).

على أن مقالة الصفات لم تكن وحدها هي التي تطورت داخل المذهب، بل تطور كذلك

وإذ ظهرت مقالة النفاة وذاعت، فقد صار الناس صنفين: فأهل السنة والجماعة يثبتون لله تعالى ما يقوم به من صفاته وأفعاله التي يشاؤها ويقدر عليها، والجهمية والمعتزلة تنكر هذا وهذا^(١).

فلما ظهر أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب^(٢)، أثبت قيام الصفات اللازمة به - تعالى - ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال^(٣)، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري وغيرهما^(٤).

ثم صار متأخرو الأشاعرة - أصحاب هؤلاء - إنما يسلكون في ذلك مسلك المعتزلة ونحوهم؛ وبعد ما كان أئمتهم يثبتون الصفات بالشرع تارة وبالعقل أخرى، ويقولون: إنهم يحتجون بالعقل لما عرف ثبوته بالسمع، والشرع هو المعتمد عليه في أصول الدين والعقل عاضد له ومعاون^(٥)، صار هؤلاء يقولون: إن الشرع لا يعتمد عليه فيما يوصف به الله وما لا يوصف به، وإنما عمدتهم في

= موقفهم من الصحابة، وموقفهم من تكفير المخالف والخروج بالسيف. انظر ما نقله البيهقي عن الخطابي في: الأسماء والصفات: (١/٦٢٣).

(١) وهو ما عبر عنه المرتضى بقوله «أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لِمَعَانٍ». المنية والأمل ص (٦) فالمعاني التي نفاها هي الصفات التي أثبتها غيرهم. وانظر: شرح الأصول الخمسة، ص (١٨٣ وما بعدها)، مقالات الأشعري (١/٢٤٤-٢٤٩، ٢٦٣ وما بعدها).

(٢) شيخ المتكلمين من أهل الإثبات، توفي بعد (٢٤٠هـ) بقليل. انظر ترجمته وآراءه في: مقالات الأشعري (٢/٢٥٥) طبقات الشافعية (٢/٢٩٩-٣٠٠)، عبد الرحمن المحمود: موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/٤٣٨-٤٥٢).

(٣) كالنزول والضحك والغضب...

(٤) انظر: درء التعارض (٢/٦، ١٨)، جامع الرسائل (٢/٣-٤) - كلاهما لابن تيمية - وانظر الملل والنحل (١/٩٣).

(٥) انظر: درء التعارض (٢/١٢-١٣).

ذلك العقل، ثم ما لم يثبت العقل إما أن ينفوه وإما أن يقفوا فيه^(١).

رأى الطبري:

قسم ابن جرير الصفات إلى ما يدرك استدلالاً بالعقل والرؤية، والفكرة في الأدلة الظاهرة للحس، المتفقة في الدلالة عليه، وما يدرك خبراً لا استدلالاً^(٢). وليس مراد ابن جرير بذلك التقسيم أن يقبل أحد القسمين دون الآخر؛ ولا أن يجعل أحدهما صفةً لله تعالى دون الآخر؛ إذ إنه يرى أن الإيمان بهذه الصفات جميعاً، ما أدرك منها خبراً، وما أدرك استدلالاً، لازم جميعه لصحة الإيمان. وإنما الفرق الوحيد عنده - فيما نحسب - أن القسم الأول الذي مُدْرَكُهُ العقل لا يعذر بالجهل به، بل ولا بالخطأ فيه أحد، وأما القسم الثاني فلا يكفر مخالفه إلا بعد إقامة الحجة عليه^(٣). يقول: «أمّا ما لا يصح عندنا عقد الإيمان لأحد، ولا يزول حكم الكفر عنه إلا معرفته^(٤)، فهو ما قدمنا ذكره^(٥)، وذلك أن الذي ذكرنا قبل من صفاته لا يعذر بالجهل به أحد بلغ حد التكليف، كان ممن أتاه من الله - تعالى ذكره - رسول أو لم يأتِه، عاين من الخلق غيره، أو لم يعاين أحداً سوى نفسه.

ولله تعالى ذكره أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة بأن القرآن نزل به، وصح عنده قول رسول الله ﷺ فيما رُوي عنه به الخبر منه خلافه.

(١) السابق نفسه، وانظر: الملل والنحل (١/٩٢ وما بعدها).

(٢) انظر: التبصير، ص (١١٦-١١٧، ١٣٢ وما بعدها).

(٣) راجع ما مر حول موقف ابن جرير من عذر الجاهل والمخطئ في التوحيد.

(٤) كذا، ولعلها: بمعرفته.

(٥) يعني ما ذكره من الصفات العقلية، وتأتى، إن شاء الله.

ثم قال، بعد أن ذكر بعضها: «فإن هذه المعاني التي وصفت، ونظائرها - مما وصف الله عز وجل بها نفسه، أو وصفه بها رسول الله ﷺ مما لا تدرك حقيقة علمه بالفكر والروية، ولا نكفر بالجهل بها أحداً إلا بعد انتهائها إليه»^(١).

وبغض النظر عما يحاوله ابن جرير هنا من ربط قضية التكفير بأصول عقلية، والتسوية بين المعاند والمخطئ والجاهل، فإن ما ذكره في شأن الصفات الخبرية هنا، يشبه إلى حد كبير مقالة للشافعي في ذلك، مع اعتبار أن الشافعي لم يذكر ذلك التقسيم للصفات، بل ربما لم تكن منقسمة عنده تلك القسمة أصلاً؛ وإنما الباب واحد، مرد القبول والرد فيه إلى ورود الخبر من عدمه. قال يونس بن عبد الأعلى^(٢): «سمعت الشافعي يقول، وقد سئل عن صفات الله تعالى، وما يؤمن به، فقال: «الله تعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ﷺ، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردّها؛ لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله ﷺ القول بها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر بالله تعالى، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر، فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالروية والفكر، ونثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه، كما نفى التشبيه عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى ١١]»^(٣).

(١) انظر التبصير (١٣٢، ١٣٩).

(٢) فقيه كبير من أصحاب الشافعي، انتهت إليه رئاسة العلم في مصر، (١٧٠ - ٢٦٤).

انظر: طبقات الشافعية (١٧٠/٢ - ١٨٠)، تهذيب التهذيب (٢٧٨/٦).

(٣) ذم التأويل لابن قدامه: ص (٢١)، ورواها ابن أبي حاتم عن يونس عن الشافعي، كما في اجتماع الجيوش (٥٨) وذكرها الذهبي أيضاً في العلو ص (١٧٧) وقال: رواه الهكاري وغيره بإسناد كلهم ثقات. هـ وانظر قريباً من ذلك المعنى لأبي العباس السراج عند الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٩٦-٣٩٧).

وثُمَّ أمور، حول هذه النقطة من منهج ابن جرير، حقيقة بالتنبيه عليها:
 أولاً: أن ابن جرير لم يذكر المصحح العقلي لكل واحدة من صفات الذات
 «العقلية» - على نحو ما يصنع من يعنون بهذا التقسيم من أهل الإثبات - اللهم
 إلا أن تكون إشارة مقتضبة جداً لثلاثة منها، هي «الرؤية» و«القدم»،
 و«الحياة»؛ قال: «... جائرة رؤيته؛ إذ كان موصوفاً، ... حتى قديم؛ إذ كان لا
 مُدبر فعِلٍ إلا حيٌّ، ولا محدث إلا مصنوع»^(١).

ثانياً: أن استدلاله العقلي الرئيس على هذه الصفات، والقائم على دلالة
 الأسماء عليها، عام لجميعها، فلا يمكن اعتباره مصححاً عقلياً لكل واحدة، ثم
 إنه طبقه على الصفات الخبرية التي لا تُدرك بالعقل، فاستدل به على إثباتها، على
 نحو ما يأتي، إن شاء الله، فلا يمكن اعتباره من ثَمَّ مصححاً عقلياً.

ثالثاً: أن ابن جرير، وحيث لم يذكر لكل واحدة من هذه الصفات مصححاً
 يخصها، أو حدّاً تدرج الصفات العقلية جميعها تحته، لم يُعدها - كذلك - عدّاً
 يحصيها، وإنما ذكر بعضها، ثم قال «وسائر صفاته التي هي صفات ذاته»^(٢) ولم
 يُن لنا: ما هي صفات ذاته عنده؟!

ولسنا نقدر - حينئذٍ - على أن نطبق على هذه القسمة عنده، تقسيم غيره
 للصفات؛ لنعرف هذه الصفات العقلية عنده على وجه التحديد؛ إذ إنها - فيما
 يبدو من صنيعه - أكثر بكثير مما حصرها فيه مثبتة الصفاتية، ثم إننا نجد بعد
 صفتي «السمع والبصر» من الصفات الخبرية^(٣) مع أنها عند عامتهم من الصفات
 العقلية^(٤)!!!

(١) التبصير (١٤٧)، وانظر الحديث عن الرؤية فيما يأتي، إن شاء الله.

(٢) السابق (١٣٠).

(٣) السابق (١٣٣).

(٤) انظر: مناهج الأدلة (١٦٦)، المحصل للرازي (١٧١)، شرح الأصفهانية لابن تيمية (٧٣).

رابعاً: أن ابن جرير، وحيث لم يلتزم بعد الصفات العقلية (صفات الذات)، فلم يكن يلتزم - من باب أولى - بمحصر الصفات الخبرية؛ إذ بابها أوسع من الأولى، إلا أنه مثلاً لها: «وذلك نحو إخبار الله تعالى، إيانا أنه سميع بصير، وأن له يدين...» ثم ألحق بها: «نظائرها، مما وصف الله عز وجل، بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ مما لا تدرك حقيقة علمه بالفكر والروية...»^(١)، وهو ضابط يمكننا من خلاله أن نعرف إثباته - على وجه العموم - لكل ما جاءت به النصوص من الصفات، وإن لم ينص عليه بعينه.

خامساً: أننا لا نرى لهذا التقسيم أثراً في تفسيره الذى هو ينبوع آرائه، ولا في سائر ما وصلنا من ترائه، سوى رسالة التبصير هذه، بل لم يشر إلى ذلك الاعتبار في التقسيم من قريب ولا من بعيد، وإنما يسوق الكلام في الصفات بحسب ما يعرض له من الآيات التى يفسرها.

وسوف نذكر في الصفحات التالية، إن شاء الله تعالى، قضيتين ذوات أثر كبير في منهج ابن جرير وموقفه من الصفات، وهما «دلالة الأسماء على الصفات» و«إثبات الصفات على ظاهرها...».



(١) التبصير (١٣٣، ١٣٩).

المبحث الرابع

دلالة الأسماء على الصفات

تبنى هذه المسألة على كون الأسماء الحسنى مشتقة، وأن شرط صدق المشتق صدق المشتق منه، وهذا - بطبيعة الحال - مع تسليم وقوع الاشتقاق في اللغة من حيث الأصل، وهو أمر لم يخالف فيه إلا القليل الشاذ، قال ابن فارس: «أجمع أهل اللغة - إلا من شذ عنهم - أن للغة العربية قياسا، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض»^(١).

أما اشتقاق الأسماء الحسنى فقد أثبتته من أثبت الاشتقاق في اللغة، بل ذكر القاضي عبد الجبار أن الألقاب المحضة لا يحسن - عقلاً - إجراؤها على الله تعالى^(٢).

لكن شذ ابن حزم فأنكر اشتقاق الأسماء، بناءً على إنكاره الاشتقاق في اللغة من حيث الأصل^(٣)، وجعل المفهوم منها هو مجرد الدلالة على الذات. قال: «لا نفهم من قولنا: قدير وعالم، إذا أردنا بذلك الله تعالى، إلا ما نفهم من قولنا: الله فقط، لأن كل ذلك أسماءٌ أعلامٌ، لا مشتقة من صفة أصلاً...»^(٤) وهذا الغلو منه هو الذي أحفظ ابن تيمية عليه، فوصف مقالته بأنها «سفسطة في العقلية، وقرمطة في السمعية»^(٥).

(١) الصاحبى فى فقه اللغة (٥٧)، وانظر البحر المحيط للزركشى (٧٢/٢).

(٢) انظر: المغنى (١٩٨/٥) وما بعدها. ومراده باللقب المحض ما لا يفيد معنى - جنساً أو صفة - فى المسمى به، وإنما يقوم مقام الإشارة فى التعريف بالمسمى.

(٣) انظر الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (٤٠٠/١) (١١٢٣/٢).

(٤) الفصل (٣ / ١٠٠)، وانظر: (١٢٧، ١١٦/٣).

(٥) شرح العقيدة الأصفهانية (٧٦، ٧٧)، وانظر مجموع الفتاوى (٢٠٦/ ٥).

وأما أن شرطَ صدق المشتق صدقُ المشتق منه، فنبني على أنا وجدنا في اللغة ارتباطاً بين قيام معنى، كالعلم، بذات من الذوات واتصافها به، واشتقاق اسم (عالم) لهذه الذات من ذلك المعنى؛ فمتى امتنع قيام المعنى بالذات، امتنع أن يُصاغ لها المشتق أصلاً، ومتى صيغ المشتق، علمنا أن المعنى قائم بهذه الذات^(١). وقد حُكي في ذلك خلاف للمعتزلة^(٢)، لكن ذكر بعض المحققين أن هذه الحكاية إنما هي من باب الإلزام، لا أنهم صرحوا بذلك، وهذا الإلزام مبني على إثباتهم الأسماء - المشتقة - ونفيهم قيام الصفات بالذات^(٣).

ويبقى أن من نفى اشتقاق الأسماء ظن أن كل مشتق مأخوذ مما اشتق منه، وكل مأخوذ فقد كان قبل أن يؤخذ غير موجود، فيلزم منه أن الأسماء لم تكن موجودة^(٤). . . . وليس هذا مراد من أثبتوا الاشتقاق، ولا ألم بقلوبهم، وإنما مرادهم أن الأسماء ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة عنها تولد الفرع من الأصل^(٥).

رأى الطبري:

بني ابن جرير على هذه الدلالة منهجا عاما في إثبات الصفات، العقلية

- (١) انظر: أصول الفقه للشيخ الخضري (١٤٣). وانظر حول التلازم بين صدق المشتق وصدق ما اشتق منه: شرح النسفية (٣٦)، النبوات لابن تيمية (٤٢).
- (٢) انظر: الإحكام للآمدي (٥٤/١)، وانظر: الإيهام شرح المنهاج للسبكي (٢٢٧/١).
- (٣) انظر: البحر المحيط للزركشي (٢/٨٩، ٨٦-٩١). وقارن المغني (٥/٢٠٤ وما بعدها)، شرح الأصول الخمسة (٢٠٧-٢٠٨، ٥٣٥ وما بعدها).
- (٤) انظر: الإحكام لابن حزم (٣٩٩/١)، وهو نفس السبب عند من جعل لفظ الجلالة «الله» علماً غير مشتق. انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢٢/١).
- (٥) بدائع الفوائد، الموضوع السابق، وانظر: الخصائص لابن جني (٢/١٣٤).

والخبرية، والرد على نفاتها، باعتبار أن مخالفه لا ينازعون في إثبات هذه الأسماء ابتداءً، والتي يستدل هو بثبوتها على ثبوت ما تضمنته من الصفات. يقول:

«إن «سميعاً» اسم مبنى من «سمع»، و«بصير» من «أبصر»^(١). فإن يكن جائزاً أن يقال: سمع وأبصر من لا سمع له ولا بصر، إنه لجائز أن يقال: تكلم من لا كلام له، ورحم من لا رحمة له، وعاقب من لا عقاب له. وفي إحالة جميع الموافقين والمخالفين أن يقال: يتكلم من لا كلام له، أو يرحم من لا رحمة له، أو يعاقب من لا عقاب له، أدل دليل على خطأ قول القائل: يسمع من لا سمع له، ويبصر من لا بصر له»^(٢).

وابن جرير يعبر عن ذلك الاشتقاق ودلالته على الصفة - عادةً - بأنه «ذو كذا»^(٣). كما في «الرحمن الرحيم» لما كانا «اسمين مشتقين من الرحمة»^(٤) فإنه يفسرهما بذى الرحمة^(٥) «ولا شك أن ذا الرحمة هو الذي ثبت أنه له الرحمة، وصح أنها له صفة»^(٦).

(١) هذا على مذهب الكوفيين في أن الفعل هو أصل المشتقات.

(٢) التبصير (١٤١).

(٣) قال الرازي: «المفهوم من اسم المشتق ليس إلا أنه «ذو» ذلك المشتق منه». اهـ نقله عنه السبكي في الإبهاج (١/٢٣٥).

(٤) التفسير (١/١٢٦) ط شاكر.

(٥) السابق (١/١٣٢)، وانظر (٣/١٧١) شاكر (١٩/٦٤ ط الفكر). وانظر كذلك تفسير «الغفور» بأنه «ذو ستر لذنوب عباده...» و«الحليم» بأنه «ذو أناة لا يعجل على عباده بعقوبتهم» (٥/١١٧ شاكر) و«العزیز» بأنه «ذو العزة» (١٤/١٢٥ ط الفكر).

(٦) التفسير (١/١٣٢، ١٣٣) وشبيه بذلك، ومؤكد لهذا الموضع من منهجه ما ذكره في تأويل قوله - تعالى - «ذو القوة المتين» من الخلاف بين القراء في رفع كلمة «المتين» - على أنها صفة لله تعالى، أو جرها على أنه صفة «القوة» ثم قال «والصواب من القراءة في ذلك عندنا» ذو القوة المتين - رفعاً - على أنه من صفة الله «جل ثناؤه» (٢٧/١٢-١٣ فكر).

وإذا كان إثبات ابن جرير لصفة «العلم» - على ما سيأتى فى موضعه من هذا البحث - إن شاء الله - أبرز تطبيق لهذا الاستدلال عنده، فيما وقفنا عليه من كتبه، فإن فهم هذه القضية فى منهجه يبدو أكثر أهمية حينما يذكر ابن جرير خلاف المتكلمين، أو كما يسميهم هو: «أهل البحث» أو «أهل الجدل»، حول صفة من صفات الله تعالى، وما المراد بها؟ ثم لا يرجع هو بين هذه الأقوال، كما كان ينبغى عليه، وفقا لمنهجه العام فى الترجيح بين ما يورده من أقوال المختلفين، فيمكن، تخريجا على هذه القاعدة، أن نتبين ما يمكن أن يكون اختياره من هذه الأقوال.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جاء فى تفسير اسم الله تعالى «الحى» فى آية الكرسي. قال: «وأما قوله: «الحى» فإنه يعنى: الذى له الحياة الدائمة، والبقاء الذى لا أول له بجد، ولا آخر له بأمد، إذ كان ما سواه فإنه، وإن كان حيا، فلحياته أول محدود، وآخر ممدود، ينقطع بانقطاع أمرها، وينقضى بانقضاء غايتها...» ثم قال:

فقال بعضهم: إنما سمي الله نفسه «حيا» لصرفه الأمور مصارفها. وتقديره الأشياء مقاديرها، فهو حى بالتدبير، لا بحياة. وقال آخرون: بل هو حى بحياة هى له صفة.

وقال آخرون: بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به، فقلنا تسليما لأمره^(١).

وإذا كان القول الأول هو طريقة نفاة الصفات بالتأويل، والقول الأخير هو طريقة ابن حزم فى نفى الاشتقاق مع إثبات الأسماء^(٢)، فإن القول الثانى هو أوسط الأقوال وأعدلها، وهو طريقة أهل الإثبات. والذى يعيننا هنا أنه وفقا لهذه الطريقة فى الاستدلال عند ابن جرير، يكون القول الثانى هو اختياره، وإن

(١) التفسير (٣٨٦-٣٨٧/٥)، ط شاكر).

(٢) انظر الفصل (٣/١٢١، ١٢٤).

لم يصرح به عقب ذكر الخلاف؛ فإنه يغنى عن ذلك التصريح شرحه لمعنى اسم «الحى»، قبل ذكر الخلاف فيه، بأنه «الذى له الحياة الدائمة..»^(١).



(١) وفى ضوء هذه القاعدة، أو الطريقة فى الاستدلال يمكن معرفة ما يختاره من الخلاف فى معنى «العلّي» كما سيأتى إن شاء الله فى مبحث العلو، وفى معنى «العظيم». انظر التفسير (٥/٤٠٦-٤٠٧)، والتبصير ص (١٣٠) حيث ذكر العظمة من «صفات ذاته».

المبحث الخامس

تَثَبَّتْ الصِّفَاتُ عَلَى مَا يُعْرَفُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي اللُّغَةِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَكْيِيفٍ

والأصل في إثبات الصفات على ظاهر معناها المعروف في اللغة، أن الله - تعالى - إنما خاطب بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وسواء في ذلك ألفاظها الخاصة أو أساليب معانيها، فطلب فهمه إنما يكون من جهة ما وضعت العرب اللفظ له، واستعملته فيه، لأن الله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١) [يوسف: ٣].

والمراد - هنا - بظاهر الصفات، أنه لا تأويل لها غير دلالة الخطاب^(٢)، كما قال السلف: الاستواء معلوم^(٣)، وقالوا: قراءتها تفسيرها، يعنى أنها بيّنة واضحة في اللغة، لا يطلب لها مضايق التأويل والتحريف^(٤).

بيد أن هذا الظاهر قد انحرف به عن جادته فرق، وتفرقوا فيه صنوفاً؛ فالمشبهة والمجسمة ظنوا أن ذلك الظاهر يستلزم أن تكون صفات الله تعالى كصفات خلقه، أو أن تكون بهيئة كذا وكذا، فالتزموا ذلك الذى ظنوه لازماً...

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعى، ص (٥١-٥٢)، والموافقات للشاطبي (٢/ ٦٤-٦٥).

(٢) وهى التى تسبق إلى العقل السليم لمن يفهم بتلك اللغة. انظر: الرسالة المدنية لابن تيمية (٣١).

(٣) ثبت ذلك عن مالك، وصح عن أبى جعفر الترمذى فى معنى «النزول». انظر: الفصل الرابع.

(٤) انظر: «العلو» للذهبي (٢٧٠)، وانظر الرسالة المدنية (٣١-٣٢).

والمعطلة النفاة ظنت لزوم ذلك، وعلمت بالعقل والشرع بطلانه فتأولت، لأجل ذلك، الصفات عن معانيها المعروفة في اللغة، إلى ما توهموا سلامته من تلك اللوازم الفاسدة، إن كانت نصوصاً قرآنية أو متواترة، وردت ما أمكنها من الأخبار.

وطائفة توسطت، فرامت الجمع بين الضب والنون^(١)، وأتت بمقالة مؤلدة لم تسبق إليها، فقالت: هذه الصفات تمر كما جاءت ولا تؤول، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد^(٢).

وهدى الله أهل السنة - أتباع السلف - لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. قال الإمام أبو عيسى الترمذي - صاحب السنن (٢٠٩-٢٧٩هـ) بعد روايته حديث النزول في سنته: «وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات من^(٣) الصفات، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا، ويُؤمَّن بها ولا يتوهم، ولا يقال كيف. هكذا روى عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذه الأحاديث: أمروها بلا كيف. وهذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.

وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات، وقالوا هذا تشبيه. وقد ذكر الله - تبارك وتعالى - في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر، فتأولت الجهمية هذه الآيات، وفسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده، وقالوا: إنما معنى اليد القوة.

(١) العبارة للشوكانى فى «التحفة فى مذاهب السلف» - ضمن الرسائل المنيرية (١/٨٦).

(٢) «العلو» الذهبى (٢٧٠)، وقارن: العواصم، لابن العربى، ص (٢٢٠).

(٣) كذا فى نسختي: فؤاد عبد الباقي وتحفة الأحوذى، ولعلها: فى.

وقال إسحاق بن إبراهيم^(١): إنما يكون التشبيه إذا قال: يد كيد، أو مثل يد، أو سمع كسمع أو مثل سمع، فإذا قال: سمع كسمع أو مثل سمع فهذا تشبيه. وأما إذا قال: لله يد وسمع وبصر، ولا يقول: كيف، ولا يقول: مثل سمع ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيهاً، وهو كما قال الله - تبارك وتعالى - في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢).

وقد جعل ابن جرير هذه القاعدة أصلاً عاماً فيما يثبت من الصفات. يقول: «فإن قال لنا قائل: فما الصواب من القول في معاني هذه الصفات التي ذكرت، وجاء ببعضها كتاب الله - عز وجل - ووحيه، وجاء ببعضها رسول الله ﷺ؟

قيل: الصواب من هذا القول عندنا، أن نثبت حقائقها على ما نعرف من جهة الإثبات، ونفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه، جل ثناؤه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فيقال: الله سميع بصير، له سمع وبصر، إذ لا يعقل مسمى سميعاً بصيراً في

(١) هو: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي، الإمام أبو يعقوب المروزي، المعروف بابن راهويه، عالم خراسان المشهور، ثقة حافظ مجتهد (١٦١-٢٣٨هـ). انظر: الكاشف للذهبي (١٠٦/١)، التقريب، لابن حجر، رقم (٣٣٤).

(٢) سنن الترمذي، ط فؤاد عبد الباقي (٣/ ٥٠-٥١)، وشرح المباركفوري - تحفة الأحوذى - (٣/ ٣٣١-٣٣٢)، ويلاحظ أن لعلماء السنة بحثاً وفصولاً مطولة حول هذه القضية، وبيان انتفاء توهم التشبيه، وبيان أن المعطلة أولى بالتشبيه ممن يثبت الصفات على طريقة السلف: انظر مثلاً النقض على بشر - للدارمي (٤١، ٤٣)، ومواضع أخرى كثيرة منه، التوحيد لابن خزيمة، ص (٢٢ وما بعدها) الحجة للأصبهاني (١/ ٩١، ٩٢، ١٦٩، ١٨٠، ١٨٧). ومواضع كثيرة من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، كالذهبي وابن القيم، ومن تأثر بهم كابن أبي العز في شرح الطحاوية.

لغة، ولا عُقِلَ في النشوء^(١) والعادة والمتعارف، إلّا من له سمع وبصر...
فثبت كل هذه المعاني التي ذكرنا أنها جاءت بها الأخبار والكتاب والتنزيل،
على ما يعقل من جهة الإثبات، ونفى عنه التشبيه؛ فنقول:

يسمع، جل ثناؤه، الأصوات، لا يَحْرِقُ في أذن، ولا جارحة كجوارح بني
آدم، وكذلك يبصر الأشخاص ببصر لا يشبه أبصار بني آدم التي هي جوارح
لهم. وله يَدَانِ ويمين وأصابع، وليست جارحة، ولكن يَدَانِ مبسوطتان بالنعم
على الخلق، لا مقبوضتان عن الخير. ووجه لا كجوارح الخلق التي من لحم
ودم. ونقول: يضحك إلى من شاء من خلقه، ولا نقول: إن ذلك كشر عن
أسنان. ويهبط كل ليلة إلى السماء الدنيا...^(٢)

وتظهر قيمة هذه القاعدة في منهج ابن جرير، حينما نقف له على موطن يسوق
فيه الخلاف حول صفة من الصفات، من غير أن يشير إلى ما يختاره هو من ذلك
الخلاف، فنُخْرِجُ على هذه القاعدة ما يمكن أن يكون اختياره.

وثم مثالان على ذلك وجدناهما في تفسيره، أولهما يتعلق بصفة من صفات
الذات، التي هي الصفات العقلية عند ابن جرير، وهي صفة «العظمة»،
والآخر يتعلق بفعل من الأفعال الاختيارية، وهو غضبه سبحانه على من عصاه.
قال ابن جرير: «اختلفوا في معنى قوله «العظيم»:

فقال بعضهم: معنى العظيم في هذا الموضع^(٣): المعظم، صُرِفَ «المُفْعَل» إلى

(١) النشوء: كذا في المطبوعة والمخطوطة، وتأتى أحياناً النشو، ولم أقف لها على معنى مناسب للسياق.

(٢) التبصير: (١٤٠ ١٤٢). وفي ص (١٤٧) يقول: «وكالذي قلنا في هذه المعاني من القول، الصواب من القيل في كل ما ورد به الخبر في صفات الله عز وجل، وأسمائه تعالى ذكره».

(٣) يعني في قوله تعالى - في آية الكرسي «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

«فعيل» . . . فقول «العظيم» معناه: المعظم الذي يُعظمه خلقه ويهابونه ويتقونه. قالوا: وإنما يحتمل قول القائل: «هو عظيم»، أحد معنيين: أحدهما ما وصفنا، من أنه معظم، والآخر أنه عظيم في المساحة والوزن. قالوا: وفي بُطول القول بأن يكون معنى ذلك أنه عظيم في المساحة والوزن، صحة القول بما قلنا.

وقال آخرون: بل تأويل قوله: «العظيم» هو أن له عظمة هي له صفة، وقالوا: لا نصف عظمته بكيفية، ولكننا نضيف ذلك إليه من جهة الإثبات، وننفى عنه أن يكون ذلك على معنى مشابهة العِظَم المعروف من العباد؛ لأن ذلك تشبيه له بخلق، وليس كذلك. وأنكر هؤلاء ما قاله أهل المقالة التي قدمنا ذكرها، وقالوا: لو كان معنى ذلك أنه معظم، لوجب أن يكون قد كان غير عظيم قبل أن يخلق الخلق، وأن يبطل معنى ذلك عند فناء الخلق، لأنه لا معظم له في هذه الأحوال.

وقال آخرون: بل قوله إنه «العظيم» وصف منه نفسه بالعِظَم. وقالوا كل ما دونه من خلقه فبمعنى الصَّغَر، لصغرهم عن عظمته^(١).

ووفق هذه القاعدة التي نبه ابن جرير على التزامها في سائر ما وردت به النصوص من صفات، يكون القول الثاني هو اختياره. ويطرح ما قلنا في ذلك بأمرين، سوى هذه القاعدة:

الأول: أنه عند شرح معنى الاسم، وقبل سوق الخلاف فيه، ذكر أن «العظيم» ذو العظمة، الذي كل شيء دونه، فلا شيء أعظم منه^(٢)، وهذا يدل على أنه يعتبر «العظمة» صفة ثابتة لله تعالى وفق قاعدة دلالة الأسماء على الصفات، والتي قدمنا ذكرها.

والثاني: أنه ذكر العظمة فيما ذكر من صفات الذات التي أشار إليها في

(١) التفسير (٤٠٦/٥-٤٠٧) ط شاكر.

(٢) السابق (٤٠٥/٥).

«التبصير»^(١).

وأما المثال الثاني فقد ذكره في تفسير قوله تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال:
«واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره.

فقال بعضهم: غَضِبُ الله على من غضب عليه من خلقه، إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه وإما في آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره في كتابه، فقال: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكما قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْهَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال بعضهم: غضبُ الله على من غضبَ عليه من عباده، ذم منه لهم ولأفعالهم، وشتم لهم منه بالقول.

فقال بعضهم: الغضب منه معنى مفهوم كالذى يعرف من معاني الغضب، غير أنه، وإن كان كذلك من جهة الإثبات، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يُزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم^(٢)؛ لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة، كما العلم له صفة، والقدرة له صفة، على ما يعقل من جهة الإثبات، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد، التي هي معارف القلوب، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال، وتعدم مع عدمها^(٣).

(١) التبصير، ص (١٣٠). وانظر حول هذه الصفة: الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصهباني (١/ ١٣٠)، صفات الله، لعلوى السقاف (١٨٢-١٨٣). وانظر أيضًا: لسان العرب (٤/ ٣٠٠٤).

(٢) مراده بالمعنى هنا كيفية الصفة وحقيقتها؛ بدليل قوله أولاً: «الغضب منه معنى مفهوم... إلخ».

(٣) التفسير (١/ ١٨٨-١٨٩)، وقد أحال في بيان معنى الغضب بعد ذلك على هذا الموضع =

وتخريجا على قاعدته العامة هنا يكون القول الأخير من هذه الأقوال - هو اختيار ابن جرير، ويترشح ذلك بما يلي:

أولاً: أنه فسر الغضب في بعض المواضع بمرادفه في اللغة وهو السخط، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]. قال: «ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله، قد صار عليهم غضب من الله، ووجب عليهم منه سخط»^(١).

ثانياً: وردت بعض الآيات ذكر فيها مرادف الغضب «الأسف - السخط» وفسرها بـ «الغضب»؛ فقال في الأولى - الأسف - في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] «يعنى بقوله: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا»^(٢).

وفي الأخرى: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٨]: «اتبعوا ما أسخط الله فأغضبه عليهم، من طاعة الشيطان...»^(٣).

وأما تفسيره للغضب في قوله تعالى: ﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] بقوله «يقول: فينزل عليكم عقوبتي»^(٤)، فهذا - فيما يبدو لنا - ليس تأويلاً لصفة غضبه - تعالى - على من خالف أمره، بما ينفىها من حيث الأصل، وإنما تأولها في هذا السياق بلازمها، وهو «العقوبة»؛ فإن عقابه - تعالى - لمن خالف أمره

= مما يدل على أن اختياره هو أحد هذه الأقوال. انظر: التفسير (١٣٨/٢، ٣٤٧)، (٧/

١١٦) ط شاكر.

(١) التفسير (١٣٨/٢)، وانظر (٤٣٧/١٠) ط شاكر.

(٢) السابق (٨٤/٢٥) ط الفكر.

(٣) السابق (٦٠/٢٦) ط الفكر.

(٤) التفسير (١٩٣/١٦) فكر.

هو لازم عن غضبه عليهم.

ويدل على ما ذكرنا هنا -فضلا عن أصله العام في إثبات ما جاءت به النصوص من الصفات على ظاهرها - أمران:

أولاً: أن هذا دلّ عليه تفسير ابن جرير لبعض الآيات التى تشير إلى ما قدمنا من أن العقاب - فى الدنيا أو الآخرة - إنما هو لازم عن غضبه - سبحانه - على من عصاه. ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال: «وغضب عليه، وجعل منهم المسوخ، القردة والخنازير، غضبا منه عليهم وسخطا، فجعل لهم الخزى والنكال فى الدنيا»^(١).

ثانياً: أن بعض الآيات ذكر فيها العقاب، الذى هو لازم الغضب، ولم يذكر فيها ملزومه، ففسرها ابن جرير بما يوضح ذلك التلازم. كمال فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قال ابن جرير:

«يقول حتى أسخطونا، فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسنا، فذاقوه، فعطبوا بذوقهم إياه»^(٢).

وبعد، فإن ما ذكره ابن جرير فى صفة «استهزاء» الله - عز وجل بالمنافقين - وسوف نورده بتمامه فيما بعد، إن شاء الله - يعد أهم تطبيق لهذه القاعدة وأبرزه، بل هو يكفى لبيان منهجه العام فى فهم الصفات، وخاصة الأفعال الاختيارية المتعلقة بمشيئته تعالى، والرد على متأوليها.

ويبقى أن منهج ابن جرير وقاعدته هذه، وإن كان يرد توهم التلازم بين

(١) السابق (٤٣٧/١٠) ط شاكر، وانظر (٨٤/٢٥) ط الفكر.

(٢) السابق (٢٠٩/١٢) ط شاكر.

الإثبات والتشبيه، فإنه يشير إلى معنى دقيق فى رده على من تأول الصفات هربا من ذلك التلازم الذى ظنوه، وهذا المعنى هو أن المتأولة قد عاذوا بغير معاذ، ووقعوا فيما فروا منه^(١).



(١) انظر فى هذا المعنى: الصواعق المرسله لابن القيم - الأصل - (١/ ٢٣٤ - ٢٣٧).

الفصل الثالث

الصفات العقلية عند الطبري

تمهيد:

أشار ابن جرير إلى مجمل الصفات العقلية عنده، ولزوم الإقرار بها على كل مكلف ليستحق وصف الإيمان. قال: «لن يستحق أحد أن يقال له: إنه بالله عارف المعرفة التي إذا قارنها الإقرار والعمل استوجب به اسم الإيمان، وأن يقال له: إنه مؤمن، إلا أن يعلم بأن ربه صانع كل شيء ومدبره، منفردًا بذلك دون شريك ولا ظهير، وأنه الصمد الذي ليس كمثله شيء، العالم الذي أحاط بكل شيء علمه، والقادر الذي لا يعجزه شيء أرادته، والمتكلم الذي لا يجوز عليه السكوت. وأن يعلم أن له علما لا يشبهه علوم خلقه، وقدرة لا تشبهها قدرة عبادته، وكلامًا لا يشبه كلام شيء سواه، وأنه لم يزل له العلم والقدرة والكلام»^(١) ثم إنه ألحق بذلك - في آخر الفصل - «الإرادة والعزة والعظمة، والكبرياء والجمال، وسائر صفاته التي هي صفات ذاته»^(٢).

وفي موطن آخر أشار إلى «جواز الرؤية» و«القدم» و«الحياة». فقال: «اللازم لكل من بلغ حد التكليف أن يكون عالما بأن صانعه إذا كان عالما قادرا له من الصفات ما ذكرنا، أنه لا يكون زائلا عنه أحكام الكفار إلا باعتقاده أن ذلك له، جائزة رؤيته؛ إذ كان موصوفا، كما يلزمه اعتقاده أنه حي قديم؛ إذ كان لا مدبر فعل إلا حي، ولا محدث إلا مصنوع»^(٣).

(١) التبصير (١٢٦-١٢٧).

(٢) السابق (١٢٩-١٣٠).

(٣) السابق (١٤٧)، وراجع ما سبق في مبحث: الصفات: أقسامها وأحكامها.

وسوف يقتصر عرضنا هنا - إن شاء الله - على ثلاث صفات فقط هى:
العلم والكلام والرؤية، وهى التى عني ابن جرير ببحثها والاستدلال عليها أكثر
من غيرها، فيما بين أيدينا من تراثه، ثم هى كذلك أهم ما دار حوله بحث
المتكلمين، خاصة صفتى العلم والكلام.



المبحث الأول

صفة العلم

تضافرت نصوص الوحي المنزل، كتابا وسنة، على إثبات أن الله - تعالى - ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] و﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، وأن العلم صفة من صفاته الحسنى، ومُدْحَةٌ من أعظم ما تَمَدَّحُ به ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةَ﴾ [الحشر: ٢٢] في سياق أسمائه الحسنى؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] مَدْحُهُ بها أنبيأؤه المرسلون: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [٩٨] [طه: ٩٨] وملائكته المقربون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

ولم يزل عقدُ الناس في ذلك على السداد، والأمة مجمعة على الإيمان بعلم الله تعالى الشامل لكل ما كان وما يكون^(١)، وما لم يكن لو كان، كيف كان يكون^(٢). «وأن الله - تبارك وتعالى - قَدَّرَ الأشياء في القِدَم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة، وعلى صفات مخصوصة عنده، فهي تقع على حسب ما قدرها، سبحانه وتعالى»^(٣).

ثم كان أول خروج عن سبيل المؤمنين في ذلك مقالة القدرية الغلاة، الذين نبغوا

(١) انظر: الرد على الجهمية للدرامي (١٣٤)، الإبانة للأشعري (١٤٥)، درء التعارض (٩/ ٣٩٦)، فتح الباري (١/ ١٤٥).

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨) ومثلها آيات كثيرة. وانظر: المحاسبي: فهم القرآن (٣٣٩)، ابن تيمية: الرد على المنطقيين (٤٦٦).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٢١٧).

فى زمان المتأخرين من الصحابة^(١)؛ فأذكروا علم الله - تعالى - السابق بالحدثات قبل وقوعها، وزعموا أن الأمر أنف، لم يسبق به قدر ولا علم من الله، تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه^(٢). ثم منهم من اقتصر على نفى العلم السابق بأفعال العباد، المأمور بها والمنهى عنها خاصة؛ وقال: إنه قدر الحوادث وعلمها إلا هذا؛ لأن الأمر والنهى - مع العلم بهذا - يتناقض عنده، بخلاف ما لا أمر فيه ولا نهى، ومنهم من قال ذلك فى عموم المقدّرات^(٣).

وكان أول من قال بهذه المقالة معبد الجهنى^(٤)، تقلّدها عن رجل من الأساورة^(٥)، يقال له أبو يونس سنسويه، ويعرف بالأسوارى^(٦).

ولقد شدد الصحابة - رضى الله عنهم - النكير على هؤلاء الغلاة، وتبرؤا منهم^(٧). ونص الأئمة: مالك، والشافعى وأحمد وغيرهم، على تكفيرهم^(٨).

(١) انظر: التبصير للإسفرائينى (١٢-١٩)، تاريخ الجهمية للقاسمى (٧٢-٧٤).
(٢) راجع فى ذلك: مقالات الأشعرى (١/٢٩١)، شرح صحيح مسلم (١/٢٢٠)، الخطط للمقرئى (٢/٣٥٦).

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية (١/١٧٨). وانظر: الرد على الجهمية للدارمى (١٣١-١٣٢).
(٤) انظر: المعارف لابن قتيبة (٤٨٤)، صحيح مسلم (حديث رقم ٨). وقد قتل معبد صبرا بعد عام ٨٠هـ، انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال (٥/٢٦٦)، نشأة الفكر (١/٣١٧) (٣٢٠).

(٥) قوم من المعجم نزلوا البصرة اه قاموس (١٥٢٧).
(٦) الخطط المقرئى (٢/٣٥٦)، والمصادر تختلف فى اسم ذاك الرجل، فبعضها يسميه كما هنا، وبعضها سيسويه.

(٧) انظر فيما روى عن الصحابة فى ذلك: السنة لعبد الله بن أحمد (١٠٧-١٠٨)، الفرق بين الفرق (١٨-٢١)، شرح صحيح مسلم (١/٢٢١).

(٨) انظر أقوال الأئمة فى ذلك فى: موطأ مالك - كتاب القدر ص (٥٦١)، والرد على الجهمية للإمام أحمد (٥١)، السنة للخلال (ص ٥٢٩ وما بعدها). مناقب الشافعى لليهقى (١/٤٢٣) و(٢/٣٥٤)، وغيرها كثير.

وعلى الرغم من أن هذه المقالة الشاذة قد انقرضت فيما بعد، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليها^(١)، فإن أثرها لم يمت بموتها، ولم يُرَأَب الصدعُ الذي أحدثته، ولم تعد الجماعة إلى قولها الأول الذي كانت متفقة عليه؛ وإنما أظهر الخوض في «علم الله» - تعالى - مقالاتٍ مختلفةً، ربما كان بعضها شرا من هذه المقالة الأولى للغلاة، وأشنع^(٢).

ثم ظهر بعد ذلك الجهم الذي قال: إن علم الله - تعالى - مُحدَثٌ لا في محل، أحدثه فعلم به، وهو غير الله، وقد يجوز عنده أن يكون الله عالما بالأشياء قبل وجودها، بعلم يحدثه قبلها، وحكى عنه أنه يقول: إن الله يعلم الشيء في حال حدوثه^(٣).

أما المعتزلة، وقد نُسِبَ إلى بعضهم مقالة القدرية الغلاة^(٤)، فإن جمهورهم أثبت العالمية دون العلمية^(٥)؛ فقالوا: إن الله تعالى، عالم بنفسه، لا بعلم هو صفة له قائمة^(٦). يقول الخياط: «لما فسد أن يكون القديم جل ثناؤه، عالما بعلم محدث،

(١) انظر شرح صحيح مسلم (٢١٨/١)، فتح الباري (١/١٤٥).

(٢) يقول ابن تيمية: «وأما قول من قال من الفلاسفة: إنه لا يعلم إلا الكليات، فهذا من أخبث الأقوال وشرها، ولهذا لم يقل به أحد من طوائف الملة، وهؤلاء شر من المنكرين للعلم القديم» ١. هـ درء التعارض (٣٩٧/٩) وانظر مقالات الأشعري (١١٢-١١٣) و(٢٣٨/١ وما بعدها).

(٣) انظر المقالات (١٨٤/٢ - ١٨٥)، الملل للشهرستاني (١/٨٧)، نشأة الفكر للنشار (١/٣٣٩-٣٣٧).

(٤) انظر: الرد على الجهمية للدارمي (١٣٩)، جامع الرسائل لابن تيمية (١/١٧٨).

(٥) الشافعي: لمحات (٧٧)، وانظر حول من أثبت العالمية - حالا من مثبتة الصفات: منهاج السنة لابن تيمية (٢/٤٨٦).

(٦) انظر: شرح الأصول الخمسة (١٩٩ وما بعده)، مقالات الأشعري (١/٢٤٤)، وقد نسب الأشعري إلى أكثر الخوارج، وكثير من المرجئة وبعض الزيدية موافقتهم على ذلك.

لما بينا^(١) وفسد أيضا أن يكون عالما بعلم قديم، لفساد قَدَم الاثنين^(٢)، صح وثبت أنه لم يزل عالما بالأمور: دقيقها وجليلها، على ما هى عليه من حقائقها، لنفسه، لا بعلم سواه^(٣)، وأما ما جاء من نسبة «العلم» لله تعالى - فى النصوص، - وكذا القدرة - فهى عندهم «أقوال وكلام» تعود إلى أنه عالم - وقادر - لا أن له صفة تسمى علما - أو صفة تسمى قدرة^(٤).

وأما الفلاسفة فقد حكى عنهم الشهرستانى ثلاث مقالات. قال:

«وذهب قدماء الفلاسفة إلى أنه عالم بذاته فقط، ثم من ضرورة علمه بذاته يلزم منه الموجودات، وهى غير معلومة عنده، أى لا صورة لها على الإجمال والتفصيل.

وذهب قوم منهم إلى أنه يعلم الكليات دون الجزئيات. وذهب قوم إلى أنه يعلم الكلى والجزئى جميعا، على وجه لا يتطرق إلى علمه تعالى نقص وقصور^(٥). والقول الثانى هو الذى نسبه الغزالى وأكثر الدارسين إلى ابن سينا^(٦)،

(١) بين ذلك فى رد قول هشام بن الحكم الرافضى بحدوث العلم. انظر الانتصار (١٧٠)، وقارن: نهاية الإقدام (٢١٥-٢١٦).

(٢) وهذا أصل المعتزلة فى عامة ما نفوه من الصفات، كما مر، وانظر شرح الأصول، ص (١٩٥) وما بعدها، وص (٢٠١) وما بعدها.

(٣) الانتصار ص (١٧١)، وانظر: ص (١٠٨، ١٢٨ منه). وانظر حول تفصيل مقالة المعتزلة فى «العلم»: مقالات الأشعرى (١/ ٢٤٤-٢٤٩)، (٢/ ١٧٧) وما بعدها.

(٤) انظر: مقالات الأشعرى (١/ ٢٦٤-٢٦٥، ٢٧٣)، مقدمة مناهج الأدلة (٥٠-٥١)، وقارن: شرح الأصول (١٨٢، ١٩٥، ١٩٩، ٢٠٢).

(٥) نهاية الإقدام (٢١٥)، وانظر: درء التعارض ٣٩٩/٩ وما بعدها. وحكى أيضا عن بعضهم إنكار العلم أصلا. وانظر: المقالات (٢/ ١٧٧)، العواصم لابن العربى (٩٧، ٩٨)، لمحات (٧٦) وقارن: الدرء (٩/ ٤٠٢).

(٦) انظر: تهافت الفلاسفة ص (٢٠٦) وما بعدها، (درء التعارض) (٣/ ١٠) وما بعدها،

وكفرهم به الغزالي وغيره^(١).

مع أننا نجد ما يشبه هذه المقالة عند الغزالي نفسه في بعض الكتب الفلسفية المنسوبة إليه^(٢)، وربما عند شيخه الجويني في مسألة «الاسترسال»^(٣) التي عبر عنها ابن العربي - وهو أشعري مثله، وتلميذ للغزالي الذي هو تلميذ الجويني - بأنها «فادحة؛ تحوم أو تشف عن أن علم الباري لا يتعلق بالمعلومات على التفصيل»^(٤).

رأى الطبري:

ذكر ابن جرير أنه لا يصح إيمان عبد «إلا أن يعلم بأن ربه... العالم الذي أحاط بكل شيء علمه... وأنه لم يزل له العلم والقدرة والكلام...»^(٥).

= الجانب الإلهي للبهى (٣٩٧) وما بعدها.

(١) انظر: التهافت (٣٠٧)، درء التعارض (٤٠٢/٩).

(٢) انظر الحقيقة في نظر الغزالي (١٨٣) وما بعدها. وانظر حول تأثير الغزالي بالفلاسفة:

مقارنة بين ابن تيمية والغزالي، د. محمد رشاد سالم (٧-١٨).

(٣) انظر: البرهان في أصول الفقه للجويني (١١٥-١١٦)، حيث يقرر أن تعلق علم الله

تعالى بما لا يتناهى من الأجناس، على التفصيل؛ محال، وإنما معنى تعلقه بها استرساله

عليها من غير تفصيل الأحاد. وقارن ذلك بقوله في نفس الكتاب - (٢/٨٤٧): «الرب

تعالى كان عالما في أزله تفاصيل ما يقع فيما لا يزل» أ. هـ.

(٤) انظر: العواصم (٩٨ وما بعدها)، ويرى الذهبي في السير (٤٧٢/١٨) أن هذه هفوة

اعتزال (!؟) تاب منها. وقارن طبقات الشافعية (١٨٧-٢٠٧) حيث دفع - بحق -

إيهاهم هذه العبارة بتقريراته المحكمة في كنهه الكلامية. وانظر أيضًا: لمحات (٨٢) موقف

ابن تيمية من الأشاعرة (٢/٦١٤-٦١٥).

(٥) التبصير (١٣٠)، وانظر ص (١٤٩) حيث يشير إلى أنه «لا يسع أحدا - بلغ حد التكليف

- الجهل بأن الله جل ذكره - عالم له علم...» أ. هـ.

وإذا لم يكن ثم اختلاف فى كون الله - تعالى - علما، إلا ما يحكى عن بعض شذاذ الفلاسفة، فإن هذا النص - على اختصاره - يشير إلى أن ابن جرير يثبت لله تعالى، علما هو به «عالم» كما هو مذهب أهل السنة قاطبة، خلافا للجهمية والمعتزلة ومن وافقهم؛ فمعنى «العالم» و«العليم» فى الأسماء الحسنى: أن له علما، هو صفة ثبوتية من صفات ذاته، تعالى. ولذلك فهو كثيرا ما يعبر عن ذلك - فى تفسيره - بأنه ذو علم.

يقول فى تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾. [لقمان: ٣٤]. «إن الذى يعلم ذلك كله هو الله، دون كل أحد سواه، إنه ذو علم بكل شىء، لا يخفى عليه شىء، خير بما هو كائن وما قد كان»^(١).

ومنهج ابن جرير هذا فى الإثبات وأثره فى تفسيره، يظهر أكثر وضوحا إذا قارنا موقفه من بعض الآيات بموقف المعتزلة - النفاة - من هذه الآيات نفسها. فمثلا فى قول الله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ٦٦] يقول ابن جرير: «أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه...»^(٢). فى حين نجد الزمخشري يقول: «معناه: أنزله ملتبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ وصاحب بيان» ثم أورد قولاً آخر - بعد هذا الذى ارتضاه: «وقيل أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنتك مبلغه»^(٣). ولا يخفى الأثر الاعتزالى فى ذكره لهذين القولين - فقط - فى الآية، وكلاهما يتحامى إثبات صفة «العلم» لله - تعالى - وهو ما عبر عنه ابن حجر فى انتقاده للقول الأول - الذى قدمه الزمخشري، بقوله «وَتُعْقَبَ بَأَن نَّظَمَ الْعِبَارَاتِ، لَيْسَ

(١) انظر: التفسير (٨٧/٢١) فكر، وانظر أيضا (٣٢٨/٦) شاكر، (١٠٦/٢٦) فكر.

(٢) التفسير (٤٠٩/٩) شاكر.

(٣) الكشف (٥٩٢/١)، وانظر شرح الأصول الخمسة (٢١٢).

هو نفس العلم القديم، بل دال عليه، ولا ضرورة تُحَوِّج إلى الحمل على غير الحقيقة التي هي الإخبار عن علم الله الحقيقي، وهو من صفات ذاته... وأما القول الثاني فتعقبه بقوله: «فَأَوَّلَ عِلْمَهُ» بـ «عالم» فرارا من إثبات العلم له، مع تصريح الآية به^(١). وهذا المسلك الأخير في التأويل هو نفس ما نعه ابن خزيمة من قبل، على الجهمية «الذين يقولون: إن الله هو العالم، وينكرون أن لله علما مضافا إليه، من صفات الذات»^(٢).

وعلم الله تعالى، ليس حادثا^(٣)، بل «لم يزل له العلم»... خلافا لمن قال بحدوثه من الرافضة والكرامية - وهذا معنى «وكان الله عليما...» وما أشبه ذلك من نصوص الصفات التي تقترن بالفعل «كان». يقول - في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]: «ولم يزل الله بكل شيء ذا علم، ولا يخفى عليه شيء هو كائن»^(٤).

وتفسير ابن جرير هذا مأخوذ - فيما يبدو - من جواب ابن عباس على مسائل نافع بن الأزرق^(٥)؛ إذ كان من جملة ما أن قال نافع «قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ - ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ - ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فكأنه كان ثم مضى... فأجابه ابن عباس بأن الله - تعالى - سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل

(١) فتح الباري (٣٧٤/١٣)، وانظر نماذج أخرى لهذه المسألة عند ابن جرير (٣٩٦/٥) شاكر، (١٢٢/٢٢) الفكر، ومقابلها في الكشف (٣٠١/١، ٣٠٦/٣).

(٢) التوحيد (٩ - ١٠).

(٣) بل يقرر كفر من قال بحدوث «العلم» - أو غيره من الصفات. يقول «فلا شك أن من زعم أن علم الله محدث، وأنه قد كان لا عالما، وأن كلامه مخلوق، وأنه قد كان ولا كلام له، فإنه أولى بالكفر، وبزوال اسم الإيمان عنه» اهـ التبصير (١٤٩).

(٤) التفسير (١٠٦/٢٦ ط الفكر)، وانظر (٥١/٨ ط شاكر)، والتبصير (١٣٠).

(٥) من رؤوس الخوارج وإليه تنسب الأزارقة. انظر: ميزان الاعتدال (٣٦٦/٥)، التبصير للإسفرائيني (٤٥).

كذلك»^(١).

وعلم الله - تعالى - محيط بأفعال العباد «بطاعة المطيع منهم، ومعصية العاصي، فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك»^(٢)، ما عملوا من عمل وما لم يعملوه. يقول - في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿وَأَخْفَى﴾: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد ولم يعلموه، مما هو كائن ولما يكن؛ لأن ما ظهر وكان فغير سر، وأن ما لم يكن وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السر؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم من أعلمه ذلك من عباده»^(٣). فالله «بكل ما كان، وما يكون، وما هو كائن وبما يكون ذو علم»^(٤).

ولا يخرج أحد عما سبق له في علم الله أن يكون»^(٥). يقول - في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ﴾ [الجن: ٢٣]: «.. وخذله عن محجة الطريق وسبيل الرشاد في سابق علمه، على علم منه بأنه لا يهتدى، ولو جاءته كل آية..»^(٦).



(١) انظر هذه المسائل في صحيح البخاري (٤١٧/٨ - ٤١٨)، وانظر شرح ابن حجر لها، وموطن الشاهد رواه ابن خزيمة أيضا في «التوحيد» ص (١٠٣)، وانظر المفردات للراغب (٤٤٤)، لسان العرب (٣٩٦٠/٥).

(٢) التفسير (٥٣٥/٣) ط شاكر.

(٣) السابق (١٣٩/١٦، ١٤١ فكر).

(٤) السابق (١٤٥/٢٦ فكر).

(٥) انظر رسالة أهل الثغر للأشعري (٨٤).

(٦) التفسير (٢٣ / ١٠٩ - ١١٠)، وانظر شفاء العليل لابن القيم (٦٤ - ٦٥، ٨٢ - ٨٤).

الاستدلال على العلم:

عامة من يثبت العلم يعتبرونه من الصفات العقلية، التي تثبت لله تعالى عقلا ولا يتوقف ثبوتها على ورود الشرع بها، ثم الدليل الذي ينتظم عامة الفرق المثبتة هو ما في هذا الكون من الإتقان وعجائب الخلق والتدبير، ضرورة أن ذلك لا يمكن صدوره عن جاهل، حتى قيل: «إن العالم من لا يتعذر عليه الفعل المحكم، إذا كان قادرا عليه»^(١).

وعلى الرغم مما وجه إلى هذا الدليل من نقد^(٢)، فلقد بقيت له مكانته في الفكر الكلامي، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو أحد كبار مؤرخيه - عن هذا الدليل إنه «مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم، والقرآن قد دل عليه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١٤: الملك] والمتفلسفة أيضا سلكوه»^(٣).

لكن ذلك لم يمنع وجود طرق أخرى في الاستدلال، لعل أشهرها ما يعرف بطريقة «الكمال» التي يؤثرها بعض محققي المتكلمين^(٤)، ويؤثرها كذلك ابن تيمية^(٥).

(١) انظر: فهم القرآن للمحاسبي (٣٣٨)، اللمع للأشعري (٢٤-٢٥، ٢٦) وما بعدها، التوحيد للماتريدي (٤٤)، شرح الطحاوية (١٢٥-١٢٦). وبنفس الدليل يثبت المعتزلة العالمية - حالاً - لله تعالى، انظر: المغنى للقاضي عبد الجبار (٢١٩/٥).

(٢) انظر المحصل للرازي (١٦٥-١٦٦)، لمحات للشافعي (٧٩-٧٠)، وقارن بجواب ابن عقيل عن الاعتراض على هذا الاستدلال: الفنون (١٧٦/١-١٧٧).

(٣) شرح الأصفهانية (٢٤٩)، وانظر مناهج الأدلة لابن رشد (١٦١)، ومقدمته (٥٣-٥٤)، وقارن باستدلال الفلاسفة الرئيس: تهافت الفلاسفة (١٩٨-١٩٩)، لمحات (٧٨).

(٤) انظر: لمحات (٧٩-٨١)، وأيضا: رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (٣٠).

(٥) شرح الأصفهانية (٢٤-٢٥).

استدلال الطبرى:

وأما ابن جرير، فمع اعتباره العلم من الصفات التى تثبت بمجرد العقل^(١)، شأن غيره من أهل الإثبات، فإنه لم يعرض لذلك الاستدلال الشائع، ولم يُعَنِّ بيان المصحح العقلى للعلم، وإنما بدأ استدلاله من حيث اتفق الناس على إثبات أن الله تعالى «عالم»، ليدل مستندا إلى ذلك - على أن «العالم» - حقيقة - هو من له العلم. يقول: «وأى أمر أبين، وطريق أوضح، ودليل أدل دلالة من قول القائل: الله عالم، على إثبات عالم له علم. ولئن كان لا دلالة فى قول القائل: هو عالم، على إثبات عالم له علم، إنه لا دلالة فى قول قائل: «إنه»^(٢) على إثباته، إذ كان المعلوم فى النشؤ والعادة أن كل شئ مسمى بعالم، فإنما هو مسمى به من أجل أن له علما.

فإن يك واجبا أن يكون المعلوم فى النشؤ، والعادة فى المنطق الجارى بينهم، والمتعارف فيهم فى بارئ الأشياء، خلافا لما جرت به العادة والتعارف بينهم، إنه لواجب أن يكون قول القائل: «إنه» دليلا على النفى لا على الإثبات، فيكون المقر بوجود الصانع مقرا بأنه غير عدم، لا مقرا بوجوده، كما كان المقر بأنه عالم مقرا - عند قائل هذه المقالة - بأنه ليس بجاهل، لا مقرا بأن له علما.

فإن كان المقر عندهم بـ «أنه» مقرا بإثباته ووجوده، لا نافية عدمه، فكذلك المقر بأنه عالم مقر بإثبات علم له، لا بنفى الجهل عنه»^(٣).

فابن جرير يحاول إثبات أن العالم، حقيقة، وكما يتعارف الناس، هو من له «العلم»، صفة ثبوتية من صفات الذات، وليس معناها «نفى الجهل»، كما يقوله

(١) انظر ما سبق فى أول موقف ابن جرير.

(٢) كذا فى المخطوط والمطبوع فى جميع المواضع، ولعل الصواب: «إنه موجود».

(٣) انظر التبصير ورقه (٨ أ) من المخطوط (المطبوع ص ١٢٨-١٢٩).

من يقوله من المعتزلة؛ وهذا فى الواقع هو موطن الخلاف الحقيقى بين المثبتة والنفاة، لا مجرد إطلاق التسمية بـ «عالم» - فإن هذا مما اتفق عليه الفريقان، ولا حتى إثبات أن له علما، فإن هذا قد جاءت به النصوص، فلا يمكن نفيه، وإنما الخلاف فى المراد بذلك العلم، والمراد بإطلاق اسم العالم عليه سبحانه^(١).

وهذا المأخذ - أعنى رد تأويل العلم بنفى الجهل - اعتمد عليه - قبل الطبرى - عبد العزيز الكنانى فى «الحيدة»؛ فإنه أورد على خصمه بشر المرسى بعض الآيات التى تثبت العلم لله تعالى، ثم قال: «أتقر يا بشر أن لله علما، كما أخبرنا، أو تخالف التنزيل؟! قال: فحاد بشر عن جوابي... فاجتلب كلاما لم أسأله عنه، وقال: الله لا يجهل، وهذا معنى العلم..»

قال [عبد العزيز]: فقلت صدق بشر يا أمير المؤمنين: إن الله لا يجهل، ولم تكن مسألتى له عن الجهل، إنما سألته عن العلم، فليقر أن لله علما، كما أخبرنا فى كتابه وأثبتته لنفسه، وليقل إن الله لا يجهل بعد إقراره بالعلم...
... إن نفى سوء لا تثبت به المدحة، وإن إثبات المدحة ينفى سوء، وكذلك نفى الجهل لا يثبت به العلم، وإثبات العلم ينفى الجهل^(٢).

وتقرير ابن جرير لهذه الفكرة مبنى على «أن صدق المشتق على الشيء يقتضى ثبوت مأخذ الاشتقاق له» وهى طريقة معروفة كذلك عند عصره الأشعرى فى الإبانة^(٣)؛ اعتمد فى إثباتها على ما ذكره من إجماع المسلمين على أن قولنا إن الله - تعالى - عالم مشتق لإفادة معنى، وليس مجرد تلقيب لا معنى له^(٤).

(١) انظر شرح النسفية للفتازانى (٣٦-٣٧)، شرح الأصفهانية لابن تيمية (٥٨).

(٢) انظر: ص (٢٥-٢٨).

(٣) دلتى على التشابه بين فكرتى الطبرى والأشعرى أستاذى الدكتور حسن الشافعى، فجزاه الله خيرا.

(٤) انظر: الإبانة (١٥١ ١٥٢)، وانظر أيضا: قريبا من هذه الفكرة عند: الأصبهاني فى: الحجة (١٣٦/٢ ١٣٧)، والجوينى فى: النظامية (٢٤ ٢٥)، وصرح بها الفتازانى فى =

ويبدو أن الأشعرى لم ينفرد بنقل الإجماع السابق، واعتماده، وإنما اعتمده غيره أيضا، ولهذا قال أبو الفضل التيمى - وهو من الحنابلة المتأثرين بطريقة الأشاعرة^(١)، بعد ما حكى اعتقاد أحمد - كما يراه - فى مسألة العلم: «ومن خالف ذلك جعل العلم لقباً لله عز وجل، ليس تحته معنى محقق، وهذا عند أحمد رضي الله عنه خروج عن الملة»^(٢).

على أن ابن جرير يعتمد كذلك، لإثبات صفة «العلم» لله تعالى أنه من لوازم الألوهية. فقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

يعنى تعالى ذكره، أنه العالم الذى لا يخفى عليه شىء، محيط بذلك كله محصٍ له، دون سائر من دونه، وأنه لا يعلم أحد سواه شيئاً إلا ما شاء هو أن يعلمه، فأراد فعله. وإنما يعنى بذلك: أن العبادة لا تنبغى لمن كان بالأشياء جاهلاً، فكيف يعبد من لا يعقل شيئاً ألبته، من وثن وصنم. يقول: فأخلصوا العبادة لمن هو محيط بالأشياء كلها، يعلمها، لا يخفى عليه صغيرها وكبيرها»^(٣).



= شرح النسفية (٣٦)، ونقلها عبد الجبار عن مخالفه عموماً، وانتقدها فى: شرح الأصول (٢٠٧ ٢٠٨).

(١) انظر ما قاله ابن تيمية عن ذلك وعن علاقة التيمى بالباقلانى: الفتاوى (٤/١٦٧)، وانظر أيضاً الرسائل والمسائل المروية عن الإمام أحمد فى العقيدة لعبد الإله الأحمدي (١/٥٣-٥٢).

(٢) انظر: اعتقاد الإمام المبجل أحمد بن حنبل، لأبى الفضل التيمى ورقة (٥٣)، وانظر ما قيل حول قيمة هذه الرسالة فى: الرسائل والمسائل المروية عن الإمام أحمد فى العقيدة، لعبد الإله الأحمدي (١/٥٣-٥٢).

(٣) التفسير (٥/٣٩٦-٣٩٧ ط شاكر).

مسألة: تجدد العلم:

ثم إشكال حول تعلق علم الله تعالى بالمستقبل؛ فإن الله تعالى، يعلم ما يكون قبل أن يكون؛ ثم إذا كان هذا الشيء، فهل يتجدد علم الله تعالى بوجوده، أم إن علمه به معدوماً، هو نفس علمه به موجوداً؟^(١).

لقد كان هذا الإشكال أحد ما بنى عليه الجهم مذهبه في حدوث العلم، الذي انتهى به إلى القول بأن علم الله - تعالى - محدث لا في محل، وكانت أهم مقدمات استدلاله على تلك القضية أن علم الله تعالى بأنه أوجد الشيء، غير علمه بأنه سيوجده، ضرورة^(٢).

ولقد منع طوائف من المعتزلة، والكَلَّابِيَّة والأشاعرة، ومن وافقهم تلك المغايرة بين العلم بأن الشيء سيوجد، والعلم به موجوداً، وصرحوا بأن «العلم بأن الشيء سيوجد، علم بوجوده إذا وجد»^(٣)، ومن أثبت العلم منهم قال: «إنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم»^(٤).

ورام ابن رشد حل ذلك الإشكال بدفع وروده أصلاً على العلم القديم الذي هو علة وسبب للموجود، وبه يعلم الموجود في حين حدوثه، على حين يَرُدُّ على

(١) انظر حول ذلك الإشكال: ابن رشد: ضميمة العلم - ملحق بفصل المقال - ص (٧٢) وما بعدها، درء التعارض (١/١٧١)، الفتاوى (١٦/٣٠٤).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/٨٧)، نشأة الفكر (١/٣٣٨). وحجة الجهم نهذه تشبه ما عزاه الخياط لهشام بن الحكم الرافضي. انظر الانتصار ص (١٦٨).

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة (١٩٣-١٩٤)، الانتصار للخياط (١٧١، ١٧٢).

(٤) انظر: فهم القرآن للمحاسبي (٣٣٩-٣٤٠، ٣٤٦)، الإرشاد للجويني (١٠٤-١٠٥)، أصول الدين للبغدادى (٩٥)، جامع الرسائل لابن تيمية (١/١٧٧)، فتح الباري (١٣/

٣٧٥). وقارن: ضميمة العلم لابن رشد (٧٢-٧٣).

العلم المحدث الذي هو معلول لوجود الموجود ومُسَبَّبٌ عنه، وإنما يأتي الغلط من قياس العلم القديم على المحدث^(١).

وحقق شيخ الإسلام ابن تيمية أن الذي دل عليه صحيح المنقول وصريح المعقول، وجاءت به الآثار عن السلف، هو أن الله تعالى «علم ما سيخلقه، علما مفصلا، وكتب ذلك، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون...»، ثم لما خلقه علمه كائنا، مع علمه الذي تقدم أنه سيكون، فهذا هو الكمال، وبهذا جاء القرآن في غير موضع^(٢).

رأى الطبري:

أشار ابن جرير إلى رأيه في هذه المشكلة عند تفسيره لكثير من الآيات التي تدل على أن لله تعالى علما يتجدد بتجدد المعلوم، سوى علمه القديم الذي علم به الأشياء قبل كونها، وفصل رأيه في ذلك عند تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. قال: «فإن قال لنا قائل: أو ما كان الله عالما بمن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه إلا بعد اتباع المتبع، وانقلاب المنقلب على عقبيه، حتى قال: ما فعلنا الذي فعلنا إلا لنعلم المتبع رسول الله ﷺ من المنقلب على عقبيه؟ قيل: إن الله جل ثناؤه هو العالم بالأشياء كلها قبل كونها، وليس قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَلْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾. بخبر عن أنه لم يعلم ذلك إلا بعد وجوده.

(١) ضميمة العلم (٧٥-٧٦) وقارن: درء التعارض (٩/٣٩٠ وما بعدها)، مقدمة مناهج الأدلة (٥٤-٥٥).

(٢) الرد على المنطقيين (٤٦٥)، وانظر جامع الرسائل ١/١٧٩ وما بعدها، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/١٠٥٤ وما بعدها).

فإن قال: فما معنى ذلك؟

قيل: أمّا معناه عندنا، فإنه: وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا ليعلم رسول وحزبي وأوليائي من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، فقال جل ثناؤه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ومعناه ليعلم رسول وأوليائي: إذ كان رسول الله ﷺ وأوليأؤه من حزبه، وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس إلى الرئيس، وما فُعلَ بهم إليه، نحو قولهم: «فتح عمر بن الخطاب سواد العراق، وجنى خراجها». وإنما فعل ذلك أصحابه، عن سبب كان منه في ذلك، وكالذي روى في نظيره عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله - جل ثناؤه - مرضتُ فلم يَعُدْنِي عَبْدِي، واستقرضته فلم يقرضني، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني ...»^(١) فأضاف تعالى الاستقراض والعيادة إلى نفسه، وقد كان ذلك بغيره، إذ كان بسببه.

وقد حُكي عن العرب سماعاً: «أجوعُ في غير بطني، وأغرى في غير ظهري» بمعنى: جوع أهله وعياله وغرى ظهورهم. فكذلك قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ بمعنى: يعلم أوليائي وحزبي.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

... قال ابن عباس: «لنميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة»^(٢).

وثم إشكالات يمكن أن تورّد على ما اختاره ابن جرير هنا، لعل أهمها: أولاً: أن في ذلك مخالفة لقاعدته التي أصلها، وكرر التخرّيج عليها مراراً،

(١) ثم روى ذلك المعنى مسنداً بسندين صحيحين - كما قال محققه.

(٢) ثم حكى ابن جرير ثلاثة أقوال أخرى في تفسير ذلك، سوى القول الذي اختاره وردها

جميعاً، وعاد فذكر أنه بين الذي هو أولى في ذلك بالحق. انظر: التفسير (٣/ ١٥٨)

(١٦٢) ط شاكر، وانظر: هذا التأويل في مواطن أخرى من التفسير: (٧/ ٣٢٥، ٣٧٧

(٣٧٨) ط شاكر (٢٦/ ٦١)، (٢٧/ ٢٣٧) ط الفكر.

وهى أن تأويل القرآن على ما كان موجودا فى ظاهر التلاوة - إذا لم تكن حجة تدل على باطن خاص - أولى من غيره، وإن أمكن توجيهه إلى غيره^(١). وما يورده - لتثبيت قاعدته هذه - من المناقضات على خصومه^(٢)، فهو وارد عليه هنا ولا فرق. لا سيما وقد اعترف هو بأن ظاهر الكلام أنه «مضاف إلى الله الوصف به»^(٣).

ثانياً: إذا كانت عمدته فى تأويله دفع توهم أن يكون الله تعالى: «لم يعلم ذلك إلا بعد وجوده» فهذا إنما يرد على نفاة العلم السابق؛ أمّا من يقول: إنه يعلمهم علم رؤية ومشاهدة، بعد أن كانوا معلومين فى غيبه، وذلك العلم الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار شاهداً واقعاً^(٤)...، فغير وارد عليه ذلك المحذور أصلاً.

ثالثاً: احتجاجه لقوله بما رواه عن ابن عباس أنه قال: «لنميز أهل اليقين من أهل الشك والريبة غريب جداً؛ فأين فيه أن ابن عباس قال: ليعلم حزبي وأوليائي... أو ما يشبه ذلك. ونظير ذلك أيضاً أنه فى بعض المواضع أيد اختياره بما رواه عن قتادة قال: «... إنما كان بلاء ليعلم الله الكافر من المؤمن»^(٥). فهذا - كأثر ابن عباس - لا متعلق له فيه، بل هذا حجة عليه لا له؛ إذ فيه - كما فى الآيات - تصريحٌ بنسبة الحكمة من ذلك الابتلاء، وهى العلم بالكافر من المؤمن، إلى الله تعالى.

(١) التفسير (٥٨٣/٦) شاكر.

(٢) انظر مثلاً لهذه المناقضات فى التبصير (١٤٤ - ١٤٦).

(٣) التفسير (٣٢٥/٧) ط شاكر.

(٤) انظر: زاد المعاد لابن القيم (٢٢٣/٣)، الرد على المنطقيين لابن تيمية (٤٦٦)، التسهيل

لابن جزى (١١٩، ٦٢). وقد ذكر ابن جرير هذا القول، ضمن ما حكاه من الأقوال فى

بعض المواطن لكن لم يعزه إلى أحد. انظر: التفسير (٨٨/٢٢) فكر).

(٥) انظر: تفسير سورة سبأ الآية (٢١) (٨٨/٢٢) ط الفكر).

رابعاً: احتجاجة لذلك بأن له نظائر في كلام العرب، لو صح ذلك عن العرب، وسُلِّمَ له أنه ما ذكره نظير لما هنا، فليس ذلك وحده كافياً لإحالة الكلام عن ظاهره إلى الباطن^(١).

خامساً: أن من تأول هذه الآيات، إنما يفر من إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، التي هي قائمة به، ومتعلقة بمشيئته، في حين أن ابن جرير - كأهل السنة - لا يتحاشى من إثبات ذلك، على ما جاءت به النصوص صريحة، كما سبق. فإثبات هذه الآية على ظاهرها اللائق بها مستقيم متمشٍ مع ذلك الأصل - بل إن ابن جرير نفسه قد قال في قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤]. قال: «وسيرى الله ورسوله، فيما بعدُ عملكم»^(٢). وما يقرره في هذه الآية من أن الله تعالى سيرى عملهم فيما بعد، هو نفس مراد من قال: إن الله تعالى يعلم الشيء إذا وجد، بعلم آخر سوى علمه السابق به قبل أن يوجد؛ فمن أثبت أحدهما أثبت الآخر، ومن نفى نفى الأمرين، ولا فرق^(٣).



(١) راجع القاعدتين السابقتين في ضوابط التأويل عند الطبري، وأثرهما في منهجه في التأويل.

(٢) التفسير (١٤/٤٢٤، ٤٦٢) ط شاكر.

(٣) انظر: الرد على المنطقيين (٤٦٥، ٤٦٦)، جامع الرسائل (١ / ١٨١) كلاهما لابن تيمية.

المبحث الثانى

صفة الكلام

لم تكذب النصوص فى إثبات صفة من الصفات ما بلغت فى إثبات صفة الكلام لله تعالى، حاشا أن تكون صفة العلو^(١). فلقد صرحت الكثرة الكاثرة منها، بإثبات الكلام: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال آدم لموسى: «... أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه»^(٢).

«وبينت هذه النصوص أن الله «كَلَّمَ» بعض عباده: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، «وَيَتَكَلَّمُ»؛ قالت عائشة: «... ولشأنى كان فى نفسى أحقر من أن يتكلم الله فى أمر يتلى».»^(٣)، وسوف «يُكَلِّمُ»: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان»^(٤). وأكدت بعض النصوص ذلك بما يدفع توهم المجاز فيه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. قال أبو جعفر النحاس: «أجمع النحويون على أن الفعل إذا أكد بالمصدر لم يكن مجازا؛ فإذا قال: «تكلّما» وجب أن يكون كلاما على الحقيقة التى تعقل...، وأجمع السلف والخلف من أهل السنة وغيرهم على أن «كَلَّمَ» - هنا - من «الكلام»^(٥)، وليس من الكَلَم.

ثم يتأكد ذلك بما يشق إحصاؤه من النصوص التى تذكر ما يرادف الكلام أو

(١) انظر: ابن القيم الصواعق المرسلة (٢/٥٠٨ المختصر).

(٢) رواه البخارى (٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له، وغيرهما، من حديث أبى هريرة.

(٣) البخارى (٧٥٠٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة.

(٤) البخارى (٧٥١٢)، مسلم (١٠١٦).

(٥) انظر: فتح البارى (١٣/٤٨٧)، وقد طول ابن القيم فى دفع توهم المجاز فى هذا الموضوع. انظر: بدائع الفوائد (٢/٧٨-٨٠). وقارن: تفسير المنار (٦/٥٩)، الكشف (١/٥٩١).

يستلزمه؛ فهو تعالى قد قال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ^ط﴾ [المائدة: ١٢]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، قولاً: ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ^{٥٨}﴾ [يس: ٥٨]، وقيلاً: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وحديثاً: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]. وأنه «نادى» و«ناجى»... وأن كلامه مجرف: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة...»^(١) وصوت: «يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت، يسمعه مَنْ بَعْدَ، كما يسمعه من قُرْبٍ..»^(٢).

كل ذلك، وغيره كثير؛ ليقطع طمع طامع في تحريفه عن حقيقته، وأنه، إن فعل، فلا مطمع في حقيقة بعدها، ويأبردها على كبد الباطني جُنَّةً، يجوس بها خلال ما شاء من نصوص الوحي إلخاداً!!

وبالرغم وضوح تلك القضية، فلقد كثر اضطراب الناس فيها، حتى ولم يكد ينضبط، وعم النزاع فيها بين أهل الأرض، على حد تعبير ابن تيمية^(٣)، حتى لم تكذب بلغ صفة من صفات الله تعالى، بل ولا قضية كلامية أخرى، ما بلغته هذه الصفة من الخلاف حولها، وحتى كانت - لمكانتها - أحد ما قيل إنه سبب تسمية علم الكلام باسمه ذلك: «... أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه، حتى كثر فيه التقاتل!!!»^(٤)، ولعله لم يغفل من عبر عن ذلك فقال: مسألة الكلام،

(١) رواه الترمذی (٣٠٧٥ تحفة الاحوذی)، والدارمی فی السنن (٣٣٠٨)، وصححه الألبانی فی صحيح سنن الترمذی (٢٣٢٧). وانظر صحيح مسلم رقم (٨٠٦).

(٢) خلق أفعال العباد ص (١٣٧)، وانظر حاشية المحقق.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٩٥، ٦٤/١٢)، ويشبه ذلك قول أبي نصر السجزي: «واليهود والنصارى مقرون بأن لله كلاماً، ومختلفون في نفى الخلق عنه وإثباته، كاختلاف المسلمين». انظر: رسالته إلى أهل زبيد (١٥٢).

(٤) التهانوي: كشف الاصطلاحات (٢٤/١)، وانظر: مقدمة ابن خلدون (٤٢٩).

حيرت عقول الأنام!!^(١).

ويرجع تاريخ الخلاف حول هذه الصفة إلى زمان التابعين، وذلك أن من مضى من الأمة لم يزالوا يقولون في ذلك بما أثبتته النصوص، لا يعرفون له تأويلاً غير ما يُتلى من ظاهره: أنه كلام الرحمن - تبارك وتعالى - من غير أن يعتقدوا فيه المجاز أو التشبيه^(٢).

ولم يزل ذلك قول الناس، حتى نبغ الجعد بن درهم (ت ١١٨ هـ) فأظهر القول بخلق القرآن سنة نَيِّفٍ وعشرين ومائة^(٣). ثم تلقى الجهم (ت ١٢٨ هـ) أو بعدها) هذه المقالة عنه، وأظهرها قريباً من سنة ثلاثين ومائة^(٤).

وبرغم موقف خلفاء بني أمية من الرجلين ومقالاتهما، وانتهاء أمرهما إلى القتل!!، كان من شأنه أن يضعف انتشار هذه المقالة، فإنها - برغم ذلك - لم تزل تتناقل، بصورة أو بأخرى، حتى لم يكد يتتصف القرن الثاني إلّا وقد ظهرت على الساحة العلمية ردود أهل السنة على هذه البدعة.

ومع أن هذه المقالة كانت قد نشأت في أواخر عصر بني أمية، فلقد ظلت لا

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/١١٣).

(٢) انظر: الدارمي: الرد على الجهمية (١٧٩)، النقض على بشر (١٠٧) وما بعدها، ابن الوزير: العواصم (٤/٣٤٩، ٣٥٣).

(٣) الدارمي: النقض (١٠٨)، شرح أصول أهل السنة للالكائي (٢/٣٨٢)، على حين ينقل ابن كثير في البداية (٩/٣٦٤) ما يفيد أن أصول هذه المقالة يهودية، (وانظر: المعتزلة، لزهدي جار الله (٢٢-٢٣))، فإن ابن تيمية يرى أنها من فروع مقالات الصابئة، ويعنى بهم الفلاسفة المشائين. انظر: الفتاوى (١٢/٣١).

(٤) اللالكائي (٣/٣٨٠)، المعتزلة (١٥٨). ما ذكره اللالكائي في سنة إظهار الجهم هذه المقالة صحيح على ما يراه من أن مقتل الجهم كان في سنة (١٣٢ هـ)، وأما على المشهور من أن مقتله كان سنة (١٢٨ هـ) فيكون تاريخ إظهارها بسنة (١٣٠ هـ) على وجه التقريب. وانظر: تاريخ الجهمية للقاسمي ص (١٧).

تجد المناخ الملائم لانتشارها، حتى كانت خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨) فوجدت في شخصيته ضالتها؛ وكان ذلك بدء تحول الدولة نحو الاعتزال. قال البيهقي: «لم يكن في الخلفاء قبله من بنى أمية وبنى العباس إلا على مذهب السلف ومنهاجهم، فلما ولى هو الخلافة اجتمع به هؤلاء (يعنى: المعتزلة) فحملوه على ذلك، وزينوا له»^(١). وعلى الرغم مما قد يبدو في مقالة البيهقي هذه من تسامح وإغفال لما قيل عن صلة اليزيد بن الوليد بالقدرية، وعلاقة مروان بن محمد بالجد بن درهم، والتي بلغت أن ينسب مروان إليه^(٢)، على الرغم من ذلك فلقد كانت دولة العباسيين - عند غير واحد من مؤرخي الفكر - أرضا خصبة، نبتت فيها ألوان شتى من البدع، وقويت كثير من المقالات الكلامية والفلسفية^(٣).

ولم يزل أمر هذه المقالة في ازدياد منذ أظهرها المأمون في شهر ربيع الأول سنة ثنتي عشرة ومائتين^(٤)، حتى بلغت محزنها حين حمل الناس عليها قهرا، سنة ثمان عشرة ومائتين؛ فاشتد لذلك فرح المعتزلة^(٥)، ونالوا ما راموه من استمالة السلطان إليهم، واستعانوا بذلك على فرض آرائهم بقوة الحديد والنار، وهم دعاة العدل والحرية - زعموا^(٦)!!

(١) نقله عنه ابن كثير في تاريخه (البداية . .) (٣٤٦/١٠).

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٢٩٨/٧)، والمعتزلة لزهدى . . (١٥٨) وما بعدها.

(٣) انظر: البريهارى: شرح السنة (٤٢)، والملل والنحل للشهرستانى (٣٠/١)، التحف فى مذاهب السلف للشوكانى ضمن المنيرية (٨٧-٨٨/٢).

(٤) انظر: تاريخ الطبرى (٦١٩/٨)، ضحى الإسلام (١٦٦/٣). وانظر فى محاولات المعتزلة المتكررة لذلك: المعتزلة لزهدى جار الله (١٥٨ وما بعدها)

(٥) تاريخ الطبرى (٦٣١/٨) وما بعدها.

(٦) يقول ابن عقيل (الحنبللى): «إذا كانت المذاهب تنتصر بوضلة هى الدولة والكثرة، وأوحشمة هى الإنعام، فلا عبرة بها. إنما المذهب ما نصره دليله؛ حتى إذا انكشف من وحدته سادجا من ناصر مُحْتَشَم، ومال مبذول، كان طاهرا بصورته فى الصحة والسلامة

ثم تقلد أمر هذه الفتنة - من بعد المأمون - المعتصم، ثم ابن أخيه الواثق، الذى تولى كبرها، وكان أقوى الثلاثة شكيمة فى الحمل عليها^(١)؛ حتى لقد بلغ به الأمر - فيما يروى - أن يمتحن أسارى المسلمين فى أيدي الروم، فمن أجاب إلى «خلق القرآن» فُودى به، ومن لم يُجب ترك فى أيدي الروم!!^(٢)؛ والله الأمر من قبل ومن بعد!!

وظلت هذه المسألة قضية الدولة، تملأ الدنيا وتشغل الناس، حتى كانت خلافة المتوكل، الذى وصف بأنه أظهر السنة وقمع البدعة، فأمر بمنع الكلام فى هذه المسألة، والكف عن القول بخلق القرآن، وأمر ألا يشتغل أحد إلا بالكتاب والسنة لا غير... ثم أظهر إكرام الإمام أحمد، الذى كان علم هذه «الحنة»^(٣) ولكل زمان دولة ورجال!!!.

لكن، ومع كل ذلك، لم يكن ممكناً أن يسقط فصل الحنة من التاريخ كأن لم يكن، بعد أن غرقت فيه الدولة - سُوْقَتْهَا وَمَلِكُهَا - زُهاء ربع قرنٍ من الزمان؛ وصارت فروع التجهم تجول فى نفوس كثير من الناس^(٤)؛ لينشأ من بقائها وبقاء

= من الدُخل والاعتراضات؛ كالجوهر الذى لا يحتاج إلى صقالة وتزويق، والحسن الذى لا يحتاج إلى تحسين. ونعوذ بالله من مذهب لا ينتصر إلا بوصلة؛ فذلك الذى إذا زل ناصر، أفلس الذاهب إليه من الانتصار بدليل، أو وضوح تعليل. والدَّين من خلص الدلالة من الدولة، والصحة من النصرة بالرجال، وقلما يعول فى دينه على الرجال» أ. هـ من الفنون (٢٣٧/١)، وقارن ذلك بنظرة ابن خلدون فى المقدمة (١٤٣-١٤٥).

(١) انظر: البداية والنهاية (٣١٧/١٠)، المعتزلة (١٧١-١٧٩).

(٢) تاريخ الطبرى (١٤٢/٩)، البداية (٣٢٠/١٠). وقال ابن السبكي: «على ما حُكى عنه، ولكن لم يثبت عندنا» طبقات الشافعية (٦١/٢).

(٣) انظر: السنة لعبد الله بن أحمد (١٦)، البداية والنهاية (٣٣٠/١٠)، المعتزلة لزهدي جار الله (١٨٠ وما بعدها).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٥٨/١٢).

الخوض حولها، مقالات جديدة لم تكن عرفت من قبل، وتأخذ بدورها - حظها من الجدل، وتكتب «فصلها» من تاريخ الفكر الكلامى .

وبعد ما كانت مقالة الجهمية الأولى واحدة، دار حولها ما دار من جدل ومحن، افترقت الجهمية - فى تاريخ أهل السنة لها - ثلاث فرق: الذين يقولون مخلوق، والذين شَكُّوا، والذين قالوا: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة^(١).

وهذا الفرع الجديد الذى ظهر «الوقف» أو «الشك»، على حد تعبير الإمام أحمد وغيره - إنما كان فى أعقاب المحنة، وحيث غدا التصريح بـ «الخلق»، مخاطرة غير مأمونة^(٢). وعلة من لقبهم بذلك «شُكَّاكُ» أنهم - عنده - لا يدرون دينهم. فالواجب - من ثمَّ - هجرهم، والتحذير منهم...^(٣).

ومع ذلك، فلم يكن ذلك الحكم يعم جميع من «وقف»، بل فصل الإمام أحمد، وغيره القول فى أصنافهم، فقال: «من كان منهم يخاصم ويعرف بالكلام، فهو جهمى، وإن لم يكن يعرف بالكلام يُجَانِبُ حتى يرجع، ومن لم يكن له علم يسأل، يتعلم»^(٤).

وسبب هذا الموقف لعلماء السنة حيال «الواقفة»، هو أنهم رأوا أن من وقف - ممن يعرف الكلام - إنما يريد التجهم ويتستر بالوقف، ليستميل العامة^(٥).

(١) انظر ما رواه ابن بطة فى الإبانة (٣ / رقم: ٧٢، ٩٦، ١٥٠)، والأصبهاني فى «الحجة» (٧٨ / ١). وغيرهما عن الإمام أحمد بسند صحيح كما قال محقق «الإبانة». ورواه الأصبهاني أيضا عن وكيع بن الجراح.

(٢) ذكر ابن كثير أن المتوكل أمر أن من تعلم علم الكلام، لو تكلم فيه فالمطبق مأواه إلى أن يموت. البداية (١٠ / ٣٣٠).

(٣) انظر بتوسع الإبانة لابن بطة (٣ / ١ / ٢٨٤-٣١٦)، سنن اللالكائى (٢ / ٣٢٣-٣٢٩)، الرد على الجهمية للدارمى (١٩٣-١٩٧) وغيرها من المصادر.

(٤) السنة لعبد الله (٣٦)، واللالكائى رقم (٥٢٥)، وانظر الحجة للأصبهاني ١ / ٣٩١.

(٥) انظر: الإبانة لابن بطة (٣ / رقم: ٦٢، ١٠٠، ١٠٣)، اللالكائى (٥٢٧).

وأما من كان صاحب حديث فوقف، ولو بغير شك، فرأوا أنه يفتح الباب بذلك لأجناس الواقعة ليقنتوا به^(١).

أما قضية «اللفظ» وهى التى عدها الإمام أحمد ثالث فروع التجهم؛ فلقد انتشر القول فيها، والخلاف حولها، حتى إن أهل السنة قد وقع فيما بينهم وبين أنفسهم من الخلاف والتهاجر حولها، ما لم يقع بينهم فى غيرها^(٢).

ولم يكن منتظرا من الإمام أحمد - وغيره من أئمة السنة - وقد عد ذلك فرعا من التجهم أن يقبله. قال عبد الله: «سألت أبى، قلت: إن قوما يقولون: لفظنا بالقرآن مخلوق؟ فقال: هم جهمية، وهم شر ممن يقف، هذا قول جهم، وعظم الأمر عنده»^(٣).

وإنما مراده، هو وغيره من الأئمة، بذلك: من أبطن القول بخلق القرآن، وكفى بخلق اللفظ عنه. قال أحمد: «من قصد إلى القرآن بلفظ وغير ذلك، يريد به مخلوق، فهو جهمى»^(٤).

ولا يقف الخوض فى هذه القضية عند ذلك الحد؛ إذ يظهر فى أثناء المائة الثالثة ابن كُلاب بمذهبه فى الكلام النفسى؛ وعلى حين لم يكن قبله خلاف فى أن «الكلام» لا يكون إلّا حرفا وصوتا، ذا تأليف وأقسام، وإن اختلفت به اللغات^(٥)، فلقد نفى هو ذلك كله، وأثبت الكلام معنى واحدا قديما، قائما

(١) انظر: الدارمى: النقض على بشر (١٠٦ وما بعدها)، ابن قتيبة: الاختلاف فى اللفظ (٦٠ - ٦٢).

(٢) انظر: الاختلاف فى اللفظ (٥٧، ٢٠ وما بعدها).

(٣) السنة لعبد الله (٢٨-٢٩). وانظر: الإبانة لابن بطة (٣/ ٣١٧) وما بعدها، اللالكائى (٣٤٩/ ١) وما بعدها.

(٤) السنة لعبد الله (٢٩)، وانظر الصفات لليهقى (٢/ ٢٠)، الحجة للأصفهانى (١/ ٣٨٨) و(٢/ ١٩٥).

(٥) انظر: رسالة السجرى (٨٠، ١٠٥)، نهاية الأقدام (٣٠٩ وما بعدها)، الفتاوى (٦/ ٥٢٢).

بذات الله - تعالى - لا يختلف ولا يتغير، وإنما تتغير العبارات عنه، فإذا قرئ بالعربية كان قرآنًا، وإذا قرئ بالعبرية كان تورا...، وأن ما نسمعه من التالين إنما هو عبارة عن كلام الله تعالى، أما كلام الله تعالى المعبر عنه، فهو معنى قائم بنفس الله تعالى... إلى آخر ما ذهب إليه، وتبعه عليه الأشاعرة فيما بعد^(١). وهو أمر خالفهم فيه سائر العقلاء^(٢)، حتى قال الرازي - في رفضه التعلق بالإجماع لإثبات صفة الكلام -: «أما المعنى الذى يقول أصحابنا، فهو غير مجمع عليه، بل لم يقل به أحد إلا أصحابنا»^(٣).

رأى الطبرى:

يرى ابن جرير أن من الأصول التى لا يصح لأحد عقد الإسلام إلا بها، ولا يزول عنه حكم الكفر إلا بمعرفتها، أن يعلم أن ربه «المتكلم الذى لا يجوز عليه السكوت، وأن يعلم أن له... كلاما لا يشبهه كلام شيء سواه، وأنه لم يزل له العلم والقدرة والكلام»^(٤).

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (٢/٢٥٧-٢٥٨)، نهاية الأقدام (٢٧٩). وما بعدها، الأربعين للرازي (٢٤٩-٢٥٢)، مجموع الفتاوى (١٢/١٦٥)، شرح الطحاوية (١٧٣). وقد نسب ذلك إلى الأشعرى نفسه، وهو ما لا تساعد عليه كتبه التى بين أيدينا. انظر اللمع (٣٣) وما بعدها، الإبانة (٧١) وما بعدها، خاصة (٧٢، ٧٦)، إلا أن توارد بعض مخالفيه المعتدلين، كابن تيمية، والحاقلين عليه، كالسجزي والقاضى عبد الجبار، بل وبعض أتباعه كالشهرستاني على نسبة ذلك إليه، يجعل الجزم بنفى ذلك عنه مخاطرة صعبة، خاصة وأنا لم نقف على كل ما كتب. انظر: رسالة السجزي إلى أهل زيد (١٠٦)، شرح الأصول (٥٢٨)، نهاية الأقدام (٢٩١، ٣٠٤، ٣٢٠)، درء التعارض (٢/٩٨، ٩٩)، لمحات (٩٧).

(٢) الفتاوى (١٢/١٦٦).

(٣) المحصل (١٧٤)، وانظر: مختصر الصواعق (٥١٣-٥١٤).

(٤) الطبرى: التبصير (١٢٧)، وانظر: (١٣٢) و(١٥٢).

أما وصفه - تعالى - بأنه «متكلم»... وأن له «كلاما» فقد حكى غير واحد إجماع أهل الإسلام عليه، إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك في «حقيقة الكلام» و«التكلم» و«التكليم» وفيمن هو «المتكلم»، وانتشر القول في ذلك جدا، حتى صار الفلاسفة^(١)، وبعض الجهمية^(٢)، إذا أطلقوا الكلام في الظاهر، فإنما يطلقونه مجازا، وهم ينفون حقيقته عن الله - تعالى - في الباطن^(٣)، وحتى قال الرازي عن هذا الاتفاق، إنه ليس إلا في اللفظ، وأما المعنى فغير متفق عليه^(٤). ومن ثم كان مقصود السلف في الرد على مخالفيهم، هو إثبات أنه متكلم حقيقة بكلام يقوم بنفسه^(٥).

وأما جواز «السكوت» عليه، فقد حكاه ابن تيمية عن جمهور السلف، بل ذكر أنه ثبت بالسنة والإجماع^(٦). لكن ذلك لا يعنى أنه حدث له صفة الكلام، أو أنه تكلم بعد أن لم يكن متكلمًا، كما تقوله الكرامية، وإنما معناه «أنه لم يزل: إذا

(١) انظر نهاية الإقدام (٢٧٠)، الفتاوى (٢٢/١٢)، شرح الطحاوية (١٧٣)، ابن تيمية السلفي للهراس (١١٣-١١٤)

(٢) انظر خلق أفعال العباد (١٦-١٧)، الإمام أحمد: الرد على الجهمية (٤٣) مقالات الإسلاميين (١/٢٠٠).

(٣) انظر: تطور مقالة نفى الكلام عند ابن تيمية في شرح الأصفهانية ص (٨).

(٤) الأربعين (١/٢٧٤)، المحصل (١٧٤). وقارن المقالات للأشعري (٢/٢٥٦) وما بعدها، (١/٢٦٧ - ٢٧٠). ولا شك أن قول الرازي هو المطابق للحال، خلافا لزعيم المقلبي «الله متكلم حقيقة عند جمع الناس» انظر: العلم الشامخ (١٦٨).

(٥) انظر: شرح الأصفهانية لابن تيمية (٥٧-٥٨).

(٦) انظر الفتاوى (٦/١٥٠، ١٧٩)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٣/١٢٧٩) وما بعدها. وفي حكاية الإجماع هنا نظر؛ فالخلاف في جواز إطلاق «السكوت» - حتى بين أهل السنة - معروف، حكاه شيخ الإسلام نفسه في موطن آخر. انظر: درء التعارض (٢/٩١).

من مقال. انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/١٤٦-١٤٩) وحواشيه.

شاء تكلم، وإذا شاء سكت، لم يتجدد له وصف القدرة على الكلام، التي هي صفة كمال، كما لم يتجدد له وصف القدرة على المغفرة، وإن كان الكمال هو أن يتكلم إذا شاء، ويسكت إذا شاء»^(١).

لكن خالف في ذلك ابن كلاب، ومن تبعه على نفى قيام الأمور الاختيارية بالله، تعالى، وذهبوا إلى قدم الكلام، وعدم تعلقه بالمشيئة.

والواقع أنه قد يبدو في كلام ابن جرير في هذا الموضع «من التبصير» ميل إلى مذهب ابن كلاب في نفى تعلق الكلام بالمشيئة، لا سيما وقد قرن ذكر الكلام بذكر العلم والقدرة «وسائر صفاته التي هي صفات ذاته»^(٢). لكن إذا علمنا أن مذهب ابن كلاب في هذه المسألة، هو فرع مذهبه في نفى تعلق أفعال الله تعالى بمشيئته واختياره، وتأول ما يدل على ذلك من النصوص، وعلمنا أيضا أن مذهب ابن جرير إثبات جميع ما جاءت به النصوص من ذلك، على ظاهره على ما مر بنا، كان من الصعوبة بمكان دعوى تأثر ابن جرير في هذا بمذهب ابن كلاب.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما يقرره في غير موطن من تفسيره - مما هو صريح النصوص - من تكليم الله تعالى، بعض عباده دون بعض^(٣)، وأن ذلك يكون في وقت دون وقت^(٤)، وهذا هو معنى تعلق الكلام بالمشيئة، تقرر عندنا أن ثمة فرقا ما بين المذهبين.

(١) الفتاوى (١٦٠/٦)، وانظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد (٤٦)، الحجة للأصبهاني (٦٧/١)، فتح الباري (٤٦٣/١٣).

(٢) التبصير (١٣٠).

(٣) انظر: التفسير (١٠٥/١٣) ط شاكر، (٤٥/٢٥) ط الفكر.

(٤) انظر: التفسير (٤٣/١٧، ١١١، ١١٢) (٦٢/١٩) (٧١/٢٠) (١٦٨/٢٦ - ١٦٩) ط الفكر.

ثم إن ابن جرير يخالف ابن كلاب، ويثبت أن كلام الله تعالى، حروف^(١)،
ويصحح ما جاء في إثبات الصوت لله تعالى^(٢)، ويقرر أن ما في القرآن ليس هو
عين ما في التوراة والإنجيل، بل فُضِّلَ النبي ﷺ بما ليس في سائر الكتب، وحوى
كتابه ما لم تحوه.

ومما يدل على ما ذكرناه عن منهج ابن جرير ما جاء في تأويله لقول الله تعالى:
﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]؛ حيث حكى الخلاف في تأويلها، وأن بعضهم قال: الذي
[كذا] فزع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما يُفَزَعُ عن قلوبهم من غشية تصيبهم
عند سماعهم الله بالوحي. . . وروى ذلك عن ابن مسعود، قال: «إذا حدث أمر
عند ذي العرش سمع من دونه من الملائكة صوتا، كجر السلسلة على الصفا،
قال: فيغشى عليهم، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فيقول من
شاء: قال الحق وهو العلي الكبير»^(٣)، ثم إنه اختار ذلك القول لصحة الخبر عن
رسول الله ﷺ بتأييده^(٤). وروى من حديث أبي هريرة مرفوعا: «إن الله إذا
قضى الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها جميعا، ولقوله صوت
كصوت السلسلة على الصفا الصفوان. فذلك قوله. حتى إذا فزع عن

(١) السابق (١) / ٢٢٠ وما بعدها ط شاكر).

(٢) يأتي نقل ذلك عنه.

(٣) هذا الأثر روى عن ابن مسعود بألفاظ متقاربة، وهو ثابت عنه، علقه البخاري، ووصله
البيهقي، وغيره. انظر الصفات للبيهقي (١/ ٥٠٦ - ٥١٠)، فتح الباري (١٣ / ٤٦٤ -
٤٦٥).

(٤) وقع في تفسير الطبري (٩٢/٢٢ فكر): «لصحة الخبر الذي ذكرنا عن ابن عباس عن
رسول الله ﷺ» ١. هـ، وكأن الصواب: عن ابن عباس وعن رسول الله ﷺ فسقطت
الواو؛ لأن ما رواه مرفوعا إلى الرسول ﷺ ليس من رواية ابن عباس، ومارواه عن ابن
عباس فهو موقوف عليه، على ما في أسانيده من ضعف.

قلوبهم...»^(١)، وفي بعض هذه الروايات عن ابن عباس: «إن الله لما أراد أن يوحى إلى محمد دعا جبريل، فلما تكلم ربنا بالوحي كان صوته كصوت الحديد على الصفا...»^(٢)، وفي بعضها من حديث الثواس بن سمعان: «إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي»^(٣).

والواقع أن ما أثبتته ابن جرير هنا من الحرف الصوت، ونحو ذلك هو ما تصرح به كثير من النصوص، التي سبق الإشارة إلى بعضها. قال ابن الألوسى: «الأحاديث التي فيها إثبات الصوت تزيد على أربعين حديثاً، أخرج غالبها الإمام أحمد واحتج به، وكذا غيره من أئمة الحديث، كما حكاه الكوراني والسفاري وغيرهما عن جمع من السلف»^(٤).

وهو كذلك مقتضى لفظ «الكلام» كما ذكره أهل اللغة. قال ابن منظور: «قال سيبويه: . . . ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله، وألا يقولوا القرآن قول الله؛ وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر، لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبرَ لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة»^(٥).

(١) هكذا هو عند ابن جرير بسند رجاله ثقات، ورواه البخاري بنحوه في التفسير (٣٩٨/٨)، والتوحيد (٤٦١/١٣). وانظر ابن كثير (٥٣٧/٣).

(٢) إسناده عند ابن جرير ضعيف؛ لم يصرح ابن جرير بشيخه، وشيخ شيخه لا يعرف، وقد تحرف أيضاً فيه إلى: الحسين وهو: الحسن. وانظر: (٥٠٤/١) هامش (٢)، ورواه ابن أبي حاتم بنحوه، كما في ابن كثير (الموضع السابق).

(٣) في إسناده ابن جرير ضعيف، وانظر: الصفات للبيهقي (٥١١/١ - ٥١٢) وحاشيته.

(٤) نعمان بن زيد الدين (ابن الألوسى): جلاء العينين في محاكمة الأحمدين (٣٧٣).

(٥) هكذا ذكر ابن منظور هذا النص في اللسان (٣٩٢٢/٥) وعزاه إلى سيبويه. ولم أظفر به في «الكتاب» بعد طول تفتيش، ثم تبين لي أنه ليس في الكتاب، بل ليس كلام سيبويه أصلاً، وإنما هو كلام ابن جني بنصه في الخصائص (١٩/١).

ويؤكدده النصوص الكثيرة بإثبات النداء لله تعالى، في القرآن والسنة، والنداء: الصوت...^(١)، فلا غرو أن حكى السجزي إجماع العقلاء على أن الكلام حرف وصوت^(٢).

وسبب غلط من نفى الحرف أو الصوت، هو سبب غلط كل من نفى شيئا مما أثبتته النصوص: أنه قاس ما أثبتته النصوص لله تعالى، على ما ثبت للخلق، فتوهم المشابهة، فوقع في نفى ما نفاه^(٣). وقد سبق أن ذكرنا أن اتفاق الأسماء لا يوجب اتفاق المسمين بها. قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: «ويذكر عن النبي ﷺ... أن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب.. فليس هذا لغير الله - عز وجل ذكره - قال أبو عبد الله «هو البخاري»: وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق، لأن صوت الله جل ذكره يُسمعُ من بُعد، كما يُسمعُ من قُرب، وأن الملائكة يَصْعَقُونَ من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا. وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] فليس لصفة الله ند، ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين^(٤). ويزيد منهج ابن جرير وضوحا، وخلافا مع الكلاية في آين، أنه يقرر أن الكلام صفة قائمة بالله تعالى - كسائر الصفات^(٥)، وهو مع ذلك يكلم بعض عباده، على الحقيقة المفهومة من التكليم في اللغة قال: «وخاطب الله موسى بكلامه خطابا^(٦)» «وكلمه» بحيث يسمعُ كلامه ولا يراه^(٧).

(١) انظر لسان العرب (٦/٤٣٨٨)، القاموس (١٧٢٤).

(٢) رسالة السجزي إلى أهل زيد (٨١).

(٣) انظر: فتح الباري (١٣/٤٦٦، ٤٦٩).

(٤) البخاري: خلق أفعال العباد، ص (١٣٦).

(٥) انظر التبصير: (٢٠١-٢٠٢).

(٦) التفسير (٩/٤٠٣) ط شاكر، وانظر (١٣/١٠٥) ط شاكر. وانظر أيضا: كلام ثعلب عن

هذه الآية في اللسان (٥/٣٩٢٢).

(٧) التفسير (٢٥/٤٥) ط الفكر.

وقد أيد كون الخطاب على حقيقته بما رواه عن نوح بن أبي مريم^(١)، وسئل: كيف كلم الله موسى تكليماً؟ فقال: مشافهة^(٢).

ومع أن إثبات لفظة لم ترد بها النصوص صريحة (مشافهة) مما لا يعتمد فيه على مثل «نوح»؛ فإننا نجد أنها أيضاً عند الأشعرى نفسه، حيث يقول في الإبانة: «والتكليم هو المشافهة بالكلام»^(٣)، بل يحكيه اللالكائي عن ابن عباس، إلا أنه لم يذكر إسناده^(٤). وإذا كان ما قررنا من منهج ابن جرير هنا في حل الكلام على ظاهره في اللغة، هو مقتضى «أصله» العام في «التأويل» وهو: «اتفاق معاني آي القرآن، ومعاني منطق من نزل بلسانه القرآن»^(٥) فإنه يقرر كذلك هنا ما يوافق منهجه العام في الصفات، فيقول: إن كلامه «لا يشبه كلام شيء سواه»^(٦).

والذي يظهر في ضوء ما قدمناه أن مراده بنفي السكوت عن الله تعالى نفى السكوت المطلق - أي التام - لا أنه ينفي تعلق الكلام بمشيئة الله تعالى واختياره، فإن السكوت المطلق في الأزل يلزم منه النقص والعاهة، وأنه حدث له الكلام أو القدرة عليه، وهذا الحدوث قد التزمته الكرامية.

وإلى ذلك المعنى يشير بقوله: «فلا شك أن من زعم أن [علم] الله محدث وأنه قد كان لا عالماً، وأن كلامه مخلوق، وأنه قد كان ولا كلام له، فإنه أولى بالكفر، وبزوال اسم الإيمان عنه»^(٧)، فقرن السكوت الذي هو خلاف

(١) أبو عصمة، نوح بن أبي مريم، ويعرف بالجامع لجمعه العلوم، لكن كذبه في الحديث توفي (١٧٣ هـ) انظر: المجروحين لابن حبان (٤٨/٣)، التقریب (١٠١٠).

(٢) انظر التفسير (٤٠٣/٩) ط شاكر.

(٣) انظر: الإبانة (٧٢).

(٤) شرح أصل أهل السنة للالكائي (٣٣١/٢).

(٥) انظر: التفسير (٨/١) ط شاكر.

(٦) التبصير (١٢٧)، وانظر التفسير (٨/١) ط شاكر.

(٧) التبصير (١٤٩).

الكلام^(١)، بالعجز الذي هو خلاف القدرة^(٢).

وإذا كان السكوت المطلق في «الأزل» يلزم عنه حدوث «الكلام» لله، بعد أن لم يكن، فكذاك يلزم من إثبات السكوت المطلق في الأبد أن «تفنى كلمات الله» تعالى الله عن ذلك، وهو خلاف ما صرح به القرآن في غير موضع. قال - تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣) [لقمان: ٢٧].

على أن أبا نصر السجزي^(٤)، حكى خلاف أهل العلم في إطلاق «السكوت» بناء على ما ورد فيه من الآثار. قال «ومنع كثير من أهل العلم إطلاق السكوت عليه، ومن أهل الأثر من جَوَّز إطلاق السكوت عليه، لوروده في الحديث^(٥)، وقال: معناه تركه التويخ والتقرير والمحاسبة اليوم...، فذلك الترك بمعنى السكوت»^(٦).

(١) انظر: مقاييس اللغة (٨٩/٣)، اللسان (٢٠٤٦/٣). وقارن التعريفات للجرجاني (١٠٦).

(٢) التبصير (١٢٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣٩/١٦) (٨٢-٨٠/٢١) ط الفكر. وقارن: ما نقله ابن تيمية عن ابن حامد من أئمة الحنابلة وتعليق ابن تيمية عليه، في درء التعارض (٧٦-٧٥/٢)، وانظر: الفتاوى (١٥٨/٦) وما بعدها.

(٤) هو عبيد الله بن سعيد بن حاتم، أبو نصر السجزي الوائلي، أحد الحفاظ الثقات، رحل في طلب الحديث إلى العراق ومصر والحجاز، وأقام بمكة إلى أن مات (٤٤٤هـ). انظر اللباب لابن الأثير (٣٥٢/٣)، البداية والنهاية (١٢/١٢٥)، مقدمة المحقق لرسالته إلى أهل زبيد (٤٦-٢٨).

(٥) يعني حديث أبي ثعلبة الخشني: «وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان». الحديث وسبقت الإشارة إليه. وانظر جامع العلوم والحكم (١٤٦-١٤٩).

(٦) نقله ابن تيمية في: درء التعارض (٨٩/٢) عن كتاب «الإبانة» لأبي نصر. وهو من كتبه المفقودة. وقارن ذلك بالسكوت الذي نفاه ابن خزيمة في التوحيد (١٤٥).

الاستدلال على الكلام:

مع أن ابن جرير قد عد صفة الكلام مما يثبت «العقل» من صفات الله تعالى، ولا تتوقف معرفته على ورود الشرع، فإننا لا نجد يشير إلى «المصحح العقلي» لذلك، على نحو ما يصنع من يجعلها صفة عقلية^(١)، وهو نفس الشيء الذي لاحظناه في عرضه لصفة «العلم». وغاية ما نجده عنده في ذلك أن يشير إلى أن الاتصاف بالكلام هو من لوازم الألوهية، ومن لا يتكلم لا ينبغي لعاقل أن يعتقد إلهًا. ومن ذلك ما ذكره في تأويل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، «ينجز جل ذكره أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل، وذلك أن الرب - جل جلاله - الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يتكلم ولا يرشد إلى خير، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى». ^(٢)



(١) انظر: نهاية الإقدام (٢٦٨) وما بعدها، مناهج الأدلة (١٦٣-١٦٤)، شرح الأصفهانية (٥٥ وما بعدها)، وقارن بالمحصل للرازي (١٧٣-١٧٤) حيث ضعف الأدلة العقلية عليها، وبنى القول في إثباتها على السمع، وهو ما اعتمده الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد (٣٧).

(٢) التفسير (١٣ / ١١٨) ط شاكر، وانظر: (٢٠٢ / ١٦) (٤٢ / ١٧) ط الفكر. وانظر قريباً من هذه الحجة عند الدارمي في الرد على الجهمية ص (١٥٧)، والأشعرى في الإبانة (٧١).

قضية خلق القرآن:

عرض ابن جرير لهذه القضية فى رسالتيه «التبصير» و«صريح السنة»؛ حيث قرر فيهما مذهب أهل السنة فى القول بعدم خلق القرآن، على ما سبقت الإشارة إليه، وقد حكى طرفاً من الخلاف فى أمر القرآن فى «التبصير»، فقال: «فقال بعضهم: هو مخلوق. وقال آخرون: ليس بمخلوق ولا خالق. وقال آخرون: لا يجوز أن يقال: هو مخلوق ولا غير مخلوق». ثم اختار أن الصواب من ذلك قول من قال: «ليس بخالق ولا مخلوق...»، ثم بدأ فى إثبات صحة ما اختاره، وإبطال القول بما عداه^(١).

فأبطل أن يكون الكلام خالفاً بأنه «ليس بجسم، فيقوم بذاته قيام الأجسام بأنفسها؛ فمعلوم، إذا كان ذلك كذلك، أنه غير جائز أن يكون خالقاً»^(٢)، ومعنى ذلك: أن ما لا يقوم بنفسه هو محتاج إلى غيره، فلا يصلح أن يكون إلهاً؛ إذ الإله غنى بنفسه عما سواه، ولا يعنى به أن الإله لا يكون إللاً جسماً، كما قد يفهم من كلامه.

ثم أخذ فى إبطال القول بأنه «مخلوق» باحتجاج عقلى، أورده فى صورة سؤال لمن زعم أنه مخلوق: «أخلقه... - إذ كان عنده مخلوقاً - فى ذاته، أم فى غيره، أم قائم^(٣) بنفسه». ثم أخذ فى بيان ما يترتب على كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة؛ قال: «فإن زعم خَلَقَهُ فى ذاته، فقد أوجب أن تكون ذاته محلاً للخلق، وذلك

(١) مع ملاحظة أنه لم يعرض لقول الواقفة بالمناقشة.

(٢) وقد نقل ابن حجر العسقلانى اتفاق السلف والخلف على نفى الجسمية عن القرآن، فتح البارى (٤٧١/١٣) وانظر: خلق أفعال العباد للبخارى (١٧٥)، المغنى لعبد الجبار (٧/

٢٤-٢٥).

(٣) كذا بالرفع فى المخطوط والمطبوع، ولعلها: قائماً بالنصب، حالاً.

عند الجميع كفر». أما الاحتمال الثاني (وهو أن يكون خلقه قائماً بغيره) - كما تقول المعتزلة^(١) - فإن ابن جرير يلزم من قال به أن يكون - تعالى ذكره - إذا خلق حركة في غيره، فهو المتحرك، وإذا خلق لونا في غيره، فهو المتلون به. قال: «وذلك عندنا وعندهم كفر وجهل».

وأما الاحتمال الثالث فأبطله بأمرين: الأول: أن «الكلام» صفة، والصفات لا تقوم بأنفسها، وإنما تقوم بالموصوف بها، كالألوان والطعوم والأرايح... والثاني: أنه يلزم منه أن يخلق لونا قائماً بنفسه، وطعماً، وذوقاً. فإن أبى التزام ذلك ألزم التفريق بين ما نفاه وما أثبتته، أو الرد على من أثبت ما نفاه هو، أو نفى ما أثبتته!!!

ثم قال: «وفي فساد هذه المعاني التي وصفنا الدلالة الواضحة؛ أن كلام الله صفة له، غير خالق ولا مخلوق، وأن معاني الخلق منتفية عنه»^(٢).

ولا نجده في رسالة «صريح السنة» يعرض لهذا المسلك العقلي في احتجاج بشيء، وإنما يكتفى بالاحتجاج لاختياره الذي هو قول أهل السنة - بأثرين: أحدهما عن جعفر بن محمد، وقد سبق نقله عنه، والآخر هو ما رواه عن عمرو بن دينار قال: أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود^(٣).

وهذا الاحتجاج العقلي عند ابن جرير، واعتماده على «القسمة الحاصرة» نجده قبله عند عبد العزيز الكناني في «الحيدة»^(٤)، ونجده - كذلك - عند

(١) انظر: المغنى لعبد الجبار (٢٦/٧ وما بعدها).

(٢) انظر التبصير (٢٠٠-٢٠٣).

(٣) صريح السنة (١٩). وهذا الأثر رواه: البخاري في «خلق الأفعال» رقم (١) والبيهقي رقم

(٥٢١، ٥٣٢) واللالكائي وغيرهم، وهو صحيح عنه، وانظر مختصر العلو (١٧٤ -

١٧٥).

(٤) انظر: الحيدة (٥٨-٦٠)، وقد نقل كلامه ابن تيمية وعلق عليه في درء التعارض (٢/٢٤٥ =

معاصرَيْه: الأشعرى والماترىدى^(١)، إلا أن تعبير ابن جرير هنا «محلا للخلق». أسلم من الاعتراض من تعبير «الكنانى» فى «الحيدة»: «... محلا للحوادث»^(٢)، بينما يبدو أن إلزام «الكنانى» لبشر أن يجعل كل كلام خلقه الله فى غيره هو كلام الله، أقوى من إلزام ابن جرير لهم أن يجعلوه «إذا خلق حركة فى غيره فهو المتحرك...»؛ فإن كلام الكنانى أخصر فى المناظرة، وأقرب لبيان اللوازم الباطلة لمقالة الخصم، وأبعد عن أن يدعى فرق ما بين «الكلام» - الذى هو محل النزاع - وغيره من الأعراض!! على أن الحلولية قد التزموا إلزام الكنانى أيضا وقالوا:

وَكُلُّ كَلَامٍ فِى الْوُجُودِ كَلَامُهُ سِوَاءَ عَلَيْنَا نَشْرُهُ وَنِظَامُهُ^(٣)
وفى موطن آخر من «التبصير» نجد ابن جرير يعرض لحكم من خالف فى هذه القضية، فذهب إلى القول بخلق القرآن: «... من زعم... أن كلامه مخلوق، وأنه قد كان ولا كلام له، فإنه أولى بزوال اسم الإيمان عنه»^(٤).
ويحفظ لنا اللالكائى نصًا نادرًا من كلام ابن جرير، هو أبين من هذا، وأدل على مراده، وهو مما لم نجده فى تراثه الذى بين أيدينا. قال:

= وما بعدها.

(١) انظر: اللمع للأشعرى (٤٣-٤٤)، درء التعارض (٢/٢٤٤ - ٢٤٥)، وقارن شرح الأصول الخمسة (٥٣٩ - ٥٤٠) (٥٥٨ - ٥٦٠).

(٢) إذ إن عبارة الحوادث تحتل أنه لا يحل فى ذاته المقدسة شىء من مخلوقاته المحدثه، أولا يحدث له وصف متجدد لم يكن، وهذا نفى صحيح؛ وتحتل نفى أفعاله الاختيارية المتعلقة بمشيئته؛ كالكلام والغضب والرضا ونحو ذلك، وهذا محل خلاف بين من يثبت من أهل الحديث والسنة، ومن ينفيه من أهل الكلام. بينما عبارة ابن جرير لا تنفى إلا المعنى الباطل المتفق على نفيه. وانظر شرح الطحاوية (٩٧).

(٣) انظر: درء التعارض (٢/٢٥٢).

(٤) التبصير (١٤٩) وقد سبق نقله.

«أخبرنا عبيد الله بن محمد بن أحمد قال: حدثنا أحمد بن كامل، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن جرير الطبري، مالا أحصى، يقول: من قال القرآن مخلوق معتقدا له فهو كافر، حلال الدم والمال، لا يرثه ورثته من المسلمين، يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه. فقلت له: عمن لا يرثه ورثته من المسلمين؟ قال: عن يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي.

قليل للقاضي ابن كامل: فلمن يكون ماله؟ قال: فينا للمسلمين!!»^(١).

قضية اللفظ بالقرآن:

عرض ابن جرير لقضية اللفظ في «صريح السنة» باعتبارها من الحوادث التي ليس فيها «أثر نعلمه عن صحابي مضي، ولا تابعي قفا...» وإذ عزت مقالة هؤلاء الأئمة المتبوعين، فلقد قام مقامهم الإمام أحمد بن حنبل: «... إلا عمن في قوله الغنى والشفاء... الإمام أحمد...» ثم روى عنه قوله: «اللفظية جهمية، لقول الله جل اسمه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فممن يسمع؟!». قال ابن جرير:

«ثم سمعت جماعة من أصحابنا، لا أحفظ أسماءهم، يذكرون عنه أنه كان يقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع» ثم عقب بقوله: «ولا قول في ذلك عندنا يجوز أن نقوله غير قوله، إذ لم يكن لنا فيه إمام نأتم به سواه، وفيه الكفاية والمقنع، وهو الإمام المتبع، رحمة الله عليه...»^(٢).

(١) شرح أصول أهل السنة للالكائي (٢/٣٢٠)، وانظر بتوسع أقوال العلماء في ذلك في المصدر نفسه (٢/٢٤٨-٣٢٢). والبخاري: خلق أفعال العباد، من أول الكتاب، الذهبي: العلو (١٧٣ مختصرة).

(٢) صريح السنة (٢٥-٢٦)، المخطوط (ق ١٦٧).

فظهر أن ابن جرير هنا قد تبع الإمام أحمد في «تجهيم» اللفظية، واحتج بآية «التوبة» التي ذكرناها؛ إذ إن كلام الله لا يُسمع إلا ممن تلاه «بلفظه»، كما قال ابن عُيَيْنَةَ: رأيت ابن إدريس قائما عند كُتَّاب. قلت: ما تفعل يا أبا محمد هنا؟! قال: أسمع كلام ربى من فم هذا الغلام^(١).

بيد أن تناوله لهذه القضية في «التبصير» كان أكثر تدقيقاً وبياناً لها مما في «صريح السنة»؛ حيث فصل القول فيمن قال: «قراءتى القرآن مخلوقة» - وهو قول من أطلق خلق اللفظ - بحسب مراده: فإن «زعم أنه يريد بذلك أن القرآن مخلوق، فكافر لا شك فيه عندنا، ولا أحسب أحداً على شيء من الفهم أو العقل يزعم ذلك أو يقوله» - وهو نفس ما يقرره في شأن هؤلاء في «صريح السنة» كما سبق، بل إنه يؤكد على ذلك المعنى، ويرى أن من قصد أن القرآن بفعل العبد مخلوق، فهو كمن اعتقد أن الله - تعالى - بعبادة العبد له مخلوق، بل يكفر من شك أن القرآن غير مخلوق!!! قال: «فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن من يزعم أن كلام الله يتحول بتلاوته إذا تلاه، ويحفظه إذا حفظه، أو بكتابه إذا كتبه محدثاً مخلوقاً، فبالله تعالى ذكره - كافر.

وكذلك القول فيه إن شك أن القرآن غير مخلوق، مقروءاً كان أو محفوظاً أو مكتوباً، كما لو قال قائل: إن بارئ الأشياء يتحول بذكره أو بمعرفته أو بكتابه مصنوعاً لا صانعاً، كان لا شك في كفره.

فأما إن قال: أعنى بقولى: «قراءتى...» فِعْلِي الذى يَأْجُرْنِي الله عليه، والذى حدث منى بعد أن لم يكن موجوداً، لا القرآن الذى هو كلام الله - تعالى ذكره - الذى لم يزل له صفة قبل كون الخلق، ولا يزال بعد فنائهم، الذى هو غير مخلوق، فهذه لاشك في خلقها، بل لا شك في خلق أفعال العباد جميعها،

(١) ذكره البخارى فى خلق أفعال العباد، رقم (٤٧).

طاعاتها ومعاصيها، وسواء في ذلك ذكر العبد ربه، أو ذكره الشيطان^(١).
فابن جرير يفرق بين «القراءة» التي هي فعل العبد، وفعل العبد لا شك في خلقه،
وبين المقروء الذي هو كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته، لا شك في أنه غير
مخلوق. وليس اقتران فعل العبد بكلام الله بموجب أن يكون «الفعل» قديماً، أو
الكلام - كلام الله - محدثاً. قال:

«كما كان غير جائز أن يتحول كلام الله - عز وجل - مخلوقاً بقراءة قارئ،
أو كتابة كاتب، أو حفظ حافظ، أو يتحول الصانع مصنوعاً، أو القديم محدثاً
بذكر محدث مصنوع إياه^(٢)، فكذاك غير جائز أن تتحول قراءة قارئ أو تلاوته
أو حفظه القرآن قرآناً أو كلام الله - تعالى ذكره - بل القرآن هو الذي يُقرأ
ويحفظ، كما الرب - جل جلاله - هو الذي يعبد ويذكر. وشكر العبد ربه
عبادته إياه، وذكره له غيره، والشاك في ذلك لا شك في كفره^(٣)».

وعلى الرغم من وضوح ما قرره ابن جرير هنا، بل بداهته - ربما - فلقد كثرت
اضطراب الناس في هذه القضية، كما أسلفنا، وعظم اختلافهم فيها. قال
البخاري - وهو أحد من امتحن بسببها^(٤): «وانتحل نفر هذا الكلام، فافترقوا
على أنواع، من غير بَصَرٍ ولا تقليد يصح، فأضل بعضهم بعضاً؛ جهلاً بلا حجة
أو ذكر إسناد، وكله من عند غير الله، إلّا من رحم ربك، فوجدوا فيه اختلافاً
كثيراً...»^(٥).

(١) انظر: التبصير (١٥٠-١٥٢).

(٢) قال: وكذلك القول أن صفة من صفاته تتحول عما هي به بذكر ذاك، أو معرفة عارف
بها... أو شك في أن لا يجوز تحولها...

(٣) التبصير (١٥-١٥١).

(٤) انظر في محنة البخاري هذه: طبقات الشافعية (٢/ ٢٢٨-٢٣١)، هدى الساري «مقدمة

فتح الباري» لابن حجر (٥١٤-٥١٦)، مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٥) خلق أفعال العباد ص (٨٩).

وسبب الإشكال واللبس فى هذه القضية أن «التلاوة» و«القراءة» و«اللفظ» محتملة أن يراد بها «الملفوظ» أو «المقروء» أو «المتلو»...، وهو كلام الله، وهو «غير مخلوق» باتفاق أهل السنة. وتحتل أن يراد بها نفس «الحدث» الذى هو نعل العبد، وهو مخلوق بالاتفاق أيضاً^(١).

أضف إلى ذلك هذين الجانبين لا ينفصلان فى الخارج، بحيث يسهل تميزهما؛ كما يتميز «الأكل» من «المأكول» - مثلاً - فيكون المأكول الممضوغ، ويكون الأكل المضغ والبلع؛ وإنما يقوم القرآن بواحدة من أربع: قراءة أو كتابة، أو حفظ أو استماع؛ فهو بالعمل فى الكتابة قائم، والعمل خط وهو مخلوق، والمكتوب قرآن، وهو غير مخلوق...^(٢) وهكذا.

ولدقة هذين المعنيين، وعسر التمييز بينهما - كما ذكرنا - منع أحمد من إطلاق القول بخلق «اللفظ»؛ إذ يوهم خلق الملفوظ، الذى هو كلام الله، ومنع أيضاً من إطلاق القول بعدم خلق اللفظ، حتى لا يوهم قدم «الحدث» الذى هو فعل العبد. قال عبد الله: وكان أبى - يعنى الإمام أحمد - يكره أن يتكلم فى اللفظ بشيء، أو يقال مخلوق أو غير مخلوق^(٣).

فأما البخارى فلقد أحكم الباب، هو وجماعة من أهل الحديث معه، وميزوا بين ما لله، وما للعبد فى ذلك؛ قال البخارى، وقد روى قول يحيى بن سعيد: «مازلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة»، قال: «حركاتهم

(١) انظر: الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة (٥٧-٦٣)، الفتاوى (١٢/٣٧٣-٣٧٤). وقارن تفريق البخارى بين «الفعل والمفعول» فى «خلق الأفعال» (١٧١-١٧٥).

(٢) انظر الاختلاف فى اللفظ (٦٣)، الفتاوى (١٢/٣٨٣) وما بعدها، مختصر الصواعق (٥٣٩-٥٤٠)، شرح الطحاوية (١٩٣-١٩٤).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (٢٩)، وانظر كلام أحمد وغيره من الأئمة فى ذلك - عند اللالكائى (٢/٣٤٩ وما بعدها) وابن بطة فى الإبانة (٣/١/٣١٧ وما بعدها) وغيرها من المصادر.

وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلّو المبين، المثبت فى المصحف، المسطور المكتوب، الموعى فى الصدور، فهو كلام الله ليس بخلق...»^(١)، وهذا هو صنيع ابن جرير هنا، وفى رسالة «صريح السنة» يجمّل معتقده فى القرآن، وأنه كلام الله، بقوله:

«أول ما نبدأ بالقول فيه من ذلك عندنا: القرآن كلام الله وتنزيله؛ إذ كان من معانى توحيده: فالصواب من القول فى ذلك عندنا أنه كلام الله غير مخلوق كيف كتب، وحيث تُلى، وفى أى موضع قرئ، فى السماء وجد، وفى الأرض حفظ، فى اللوح المحفوظ كان مكتوبا، وفى ألواح صبيان الكتابيب مرسوما، فى حجر نُقش، أو فى ورق خُط، أو فى القلب حفظ، وبلسان لفظ، فمن قال غير ذلك، أو ادعى أن قرآنا، فى الأرض أو فى السماء، سوى القرآن الذى نتلوه بألسنتنا، ونكتبه فى مصاحفنا، أو اعتقد غير ذلك بقلبه، فهو برىء من الله، والله منه برىء، بقول الله - عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢] وقال - وقوله الحق عز وجل -: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فأخبر جل ثناؤه أنه فى اللوح المحفوظ مكتوب، وأنه من لسان محمد ﷺ مسموع، وهو قرآن واحد، من محمد ﷺ مسموع، فى اللوح المحفوظ مكتوب، وكذلك هو فى الصدور محفوظ، وبألسن الشيوخ والشباب متلو»^(٢).

وابن جرير يرد هنا - فيما يبدو - مقالة الكلابية الذين يفرقون بين المتلو الذى «هو كلام الله»، وهو عندهم معنى قائم بذاته غير مخلوق، والتلاوة التى هى «كتاب الله»، وهو هذا الذى نقرؤه ونسمعه، ويرون أنه مخلوق»^(٣).

(١) خلق أفعال العباد ص (٣٤) وانظر ص (١٤٦-١٥١، ١٥٢، ١٥٩). من نفس المصدر.

(٢) صريح السنة ص (١٨).

(٣) وانظر الفتاوى (٣٧٤/١٢) وقارن فى ردها: رسالة السجزي (١٠٦ وما بعدها)، الحجة

ثم يختم ابن جرير مقالته تلك مشيرا إلى المحنة التى نالته بسبب ذلك، وما كان من الغلط عليه بقوله: «فمن روى عنا، أو حكى عنا، أو تقول علينا، فادعى أنا قلنا غير ذلك، فعليه لعنة الله وغضبه، ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين، لا قَبْلَ الله له صرفا ولا عدلا، وهتك ستره، وفضحه على رؤوس الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار»^(١).



= للأصفهاني (١/٢٩١-٢٩٢).

(١) صريح السنة (١٩). وانظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني - ضمن الرسائل المنيرية (١٠٨-١٠٩).

المبحث الثالث

رؤية الله جل جلاله

سأل النبي ﷺ أصحابه: هل نرى ربنا؟

فأجابهم، بما لا يدع لقاتل مقالا، ولا في نفس حسيكة: «نعم! قال: هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب؟» .

قالوا: لا يا رسول الله .

قال: «ما تضارون في رؤية الله - تبارك وتعالى - يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»^(١) .

ثم إنه كان ربما بشرهم بتلك الرؤية السعيدة - لا حرمانا الله منها - ابتداء^(٢)؛ لتَهْفُو النفوس إلى النعيم الذي «إذا ناله أهل الجنة، نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم، أشد عليهم من عذاب الجحيم»^(٣) .

(١) الحديث رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له، من حديث أبي سعيد، وأخرجنا نحوه أيضا من حديث أبي هريرة. ويبدو أن هذا السؤال كان فاشيا، كما في بعض الروايات في الصحيحين وغيرهما «أن الناس قالوا: . . .» وبعضها «قلنا: هل نرى . . .» .

(٢) انظر ما رواه البخاري في ذلك في كتاب التوحيد من صحيحه - باب قول الله تعالى ﴿وَيُؤْتِي بِمَيمَنَةٍ تَبْتَغِي﴾ (٤٢٩/١٣) فتح الباري، ومسلم / كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين (١٨٠، ١٨١)، والسنة لابن أبي عاصم (١٩٣/١) وما بعدها.

(٣) ابن القيم: حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢١٩)، وانظر الرد على الجهمية للدارمي ص (١٢٢) والإنصاف للباقلاني (١٧٦).

وانتشرت أحاديث الرؤية وتواترت، حتى رواها نحو من ثلاثين صحابيا أو يزيد^(١)، سوى ما دل على إثباتها من آيات الكتاب، على ما يأتي الإشارة إليه. فلا غرو، أجمع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى، في الآخرة للمؤمنين^(٢)؟

ولم يزل المسلمون يروون ما جاء فيها من الآثار، لا ينكرونها ولا يستكرونها^(٣)، حتى ظهرت الجهمية فأنكرت ذلك، فاختلف الناس من حينها، ما بين مُفَرِّط ينفي رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومُفَرِّط يدعى ثبوتها في الدنيا، بَلَّة الآخرة، وكِلا طرفي قصدِ الأمور ذميم.

وقد كانت هذه المسألة إحدى المسائل التي حكى ابن جرير اختلاف الناس حولها. فقال: اختلف أهل القبلة في جواز رؤية العباد صانعهم: «فقال جماعة القائلين بقول جهم: لا تجوز الرؤية على الله - تعالى ذكره - ومن أجاز الرؤية عليه فقد حده، ومن حده فقد كفر»^(٤).

وهذا الذي حكاه ابن جرير هو الطرف الأول من الخلاف حول المسألة،

(١) ولذا قال ابن رشد: «أنكرها - يعنى الرؤية - المعتزلة، ورَدَّت الآثار المتواترة في الشرع بذلك مع كثرتها وشهرتها». ا. هـ مناهج الأدلة ص (١٨٦)، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي (٢٠/٣)، فتح الباري لابن حجر (٤٤٣/١٣)، الإبانة للأشعري (٤٩)، حادى الأرواح (٢٢٨ وما بعدها)، شرح الطحاوية (٢١٧).

(٢) انظر في حكاية هذا الإجماع: رسالة الثغر للأشعري (٧٦)، ضوء السارى إلى معرفة رؤية الباري لأبى شامة (٢٨)، شرح صحيح مسلم (٢٠/٣)، مجموع الفتاوى (٤٦٩/٦)، تفسير ابن كثير (٤٥٠/٤).

(٣) انظر: الرد على الجهمية للدارمي (١٢٢)، الشريعة للأجري (٦/٢، ١٠)، الإبانة لابن بطة (٥٩/٣/٣).

(٤) التبصير (٢١٥)، وانظر: الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ص (٤٦) فقد حكى عنهم هذه الشبهة بلفظها.

طرف النفاة الذين هم جهم والقائلون بقوله، على حد تعبير ابن جرير. أما جهم فقد اشتهر النقل عنه، من قديم، أنه نفى الرؤية^(١)، لكن «القائلين بقوله» ليسوا هم فقط أتباعه على كل مقالاته، والذين هم الجهمية المحضة^(٢)، وإنما يتسع مدلول (الجهمية) ليشمل سائر النفاة، وعلى رأسهم المعتزلة، الذين صاروا يلقبون منذ عهد المأمون بذلك اللقب (الجهمية)^(٣) على الرغم من براءتهم من جهم، أن ينسب إليهم أو ينسبوا إليه^(٤). يقول ابن تيمية: «الجهمية الذين يدخلون في هذا الاسم عند السلف، كالمعتزلة والنجارية والفلاسفة، ينكرون الرؤية... ومسألة الرؤية كانت من أكبر المسائل الفارقة بين السنة المثبتة وبين الجهمية، حتى كان علماء الحديث والسنة يصنفون الكتب في الإثبات، ويقولون: كتاب الرؤية والرد على الجهمية...»^(٥).

ومع انقراض الجهمية المحضة، كفرقة قائمة برأسها، وتوزع الفرق مقالاتهم، صار نفى الرؤية وشيكا حصره في المعتزلة، الذين تقلدوه عن الجهمية وأجمعوا عليه^(٦)، حتى صار من تأثر بهم (بالمعتزلة) ينفيها^(٧)، ومن ينفيها يُقرن إلى

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (٢٥)، التنبيه والرد للملطى (١١٦)، الفصل لابن حزم (٢/٣).

(٢) انظر: مقالات الأشعري (١/٣٣٨)، الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦-٨٨).

(٣) تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمي (١٠، ٥٩). وانظر: نشأة الفكر (١/٣٥٩ وما بعدها).

(٤) انظر: الانتصار للخياط (١٨٨).

(٥) ابن تيمية: بيان تلبيس الجهمية (١/٣٤٩). وانظر الإبانة لابن بطة (٣/٥٣) حيث

يروى عن الإمام أحمد: «من كذب بالرؤية فهو جهمي»^١.

(٦) انظر: شرح الأصول الخمسة (٢٣٢)، مقالات الأشعري (١/٢٨٩)، الفصل (٢/٣)

ضوء الساري لأبي شامة (٢٩)، تاريخ الجهمية (٥٩).

(٧) كالروافض الذين تقلد متأخروهم النفي عن المعتزلة، بعد أن كان جمهور قدمائهم على

الإثبات - عامة - وربما غلوا فيه: انظر: منهاج السنة (٢/٣١٥-٣١٦).

المعتزلة في حكاية مقالته^(١).

ثم يعرض ابن جرير للطرف الثاني من طرفي الخلاف حول المسألة، وهو طرف المثبتة، على تنوع مقالاتهم. قال: «وقال ضرار بن عمرو: الرؤية جائزة على الله، تعالى ذكره. ولكنه يُرى في القيامة بحاسة سادسة»^(٢).

وهذه الحكاية عن ضرار - أيضا - وإن تكن معروفة عنه عند نقلة المقالات^(٣)، إلا أن ابن جرير يُعَرِّجُ على هذه المقالة في تفسيره، لينفرد عن رواية المقالات، فيما اطلعت عليه، بحكاية مُتَعَلِّقِ القائلين بهذه الحاسة السادسة من النقل والعقل.

فقال، في تأويل قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

«وقال آخرون: الآية على العموم، ولن يدرك الله بصر أحد في الدنيا والآخرة، ولكن الله يُحْدِثُ لأوليائه يوم القيامة حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس، فيرونها بها.

واعتلوا لقولهم هذا بأن الله تعالى ذكره نفى عن الأبصار أن تدركه، من غير أن يدل فيها أو بآية غيرها على خصوصها. قالوا: وكذلك أخبر في آية أخرى أن وجوها إليه يوم القيامة ناظرة. قالوا: فأخبار الله لا تتنافى ولا تتعارض، وكلا

(١) كالمرجئة، حيث حكى الأشعري اختلافهم على قولين؟ قال: فمنهم من مال في ذلك إلى قول المعتزلة... المقالات (١/٢٣٣).

(٢) التبصير (٢١٦).

(٣) ووافقه عليها حفص الفرد. انظر: المقالات (١/٢٨٩) (٢/٣٢)، الفرق بين الفرق

(٢١٤). وقد ردّ عليهما المعتزلة ذلك، بل انتفوا منهما. انظر، المغنى لعبد الجبار (٤/

١٠٢-١٠٨)، شرح الأصول الخمسة له (٢٥٢). وقارن: الفصل لابن حزم (٣/٢-٣)،

الاستقامة لابن تيمية (٢/٩٦-٩٧).

الخبرين صحيح معناه على ما جاء به التنزيل.

واعتلوا أيضا من جهة العقل بأن قالوا: إن كان جائزا أن نراه في الآخرة بأبصارنا هذه، وإن زيد في قواها، وجب أن نراه في الدنيا، وإن ضعف إدراكها إياه، ما لم تُعَدَم. قالوا: فلو كان في البصر أن يدرك صانعه في حال من الأحوال أو وقت من الأوقات ويراه، وجب أن يدركه في الدنيا ويراه فيها، وإن ضعف إدراكه إياه^(١).

قالوا: فلما كان ذلك غير موجود من أبصارنا في الدنيا، كان غير جائز أن تكون في الآخرة إلا بهيئتها في الدنيا، في أنها لا تدرك إلا ما كان من شأنها إدراكه في الدنيا.

قالوا: فلما كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذكره، قد أخبر أن وجوها في الآخرة تراه، علم أنها تراه بغير حاسة البصر، إذ كان غير جائز أن يكون خبره إلا حقا^(٢).

ثم يقول ابن جرير في التبصير، في تمام عرض الخلاف في المسألة:

«وقال هشام وأصحابه، وأبو مالك النخعي، ومقاتل بن سليمان: الرؤية على الله جل ثناؤه، جائزة بالأبصار التي هي أبصار العيون^(٣)».

(١) انظر نفس الفكرة عند المعتزلة في شرح الأصول الخمسة (٢٥٣).

(٢) التفسير (١٢/١٩-٢٠) وقد يحتمل نقل ابن جرير هذا أن يكون احتجاجا منه لهم، لا أنه رواه عنهم. وانظر الفصل (٢/٣).

(٣) لم يعين هشام هنا، وكلا الهشامين: هشام بن سالم الجواليقي، وهشام بن الحكم الرافضي، وأتباعهما من المجسمة وقد قال الأشعري في المقالات (١/٢٩٠): «وكل المجسمة، إلا نفرا يسيرا، يقولون بإثبات الرؤية»^١. وانظر المقالات (١/١٠٦-١٠٩)، الفرق بين الفرق (٦٥)، منهاج السنة (٢/٣١٥-٣١٦)، وانظر حول مقالة مقاتل الغنية للجيلاني (١/٩٣)، نشأة الفكر (١/٢٨٩-٢٩١). ولم أقف على من نسبت إليه هذه المقالة، ممن يقال له: «أبو مالك النخعي».

وقال جماعة متصوفة، ومن ذكر ذلك عنه مثل بكر بن أخت عبد الواحد: الله، جل وعز، يرى في الدنيا والآخرة. وزعموا أنهم قد رأوه، وأنهم يرونه كلما شاءوا، إلا أنهم زعموا أنه يراه أولياؤه دون أعدائه.

ومنهم من يقول: يراه الولي والعدو في الدنيا والآخرة، إلا أن الولي يثبتته^(١) إذا هو رآه، لأنه يتراءى في صورة إذا رآه بها عرفه، وأن العدو لا يثبتته إذا رآه^(٢).

وقال بعض أهل الأثر: يراه المؤمنون يوم القيامة بأبصارهم، ويدركونه عيانا ولا يحيطون به^(٣).

وقال آخرون منهم - يعني من أهل الأثر - يراه المؤمنون بأبصارهم ولا يدركونه. قالوا: وإنما زعمنا أنهم لا يدركونه لأنه قد نفى الإدراك عن نفسه بقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ﴾^(٤). فهذه جملة أقاويلهم^(٥).

(١) يعني: يتحققه.

(٢) انظر حول بكر هذا وطائفته البكرية: المقالات (٣٤٢/١)، التبصير للإسفرائيني (٩٩).

وقارن ما حكاه عنه ابن جرير بما في المقالات (٢٨٩/١)، والفرق بين الفرق (٢١٣).

(٣) وذكر - في التفسير - عن أهل هذه المقالة أنهم قالوا: «الإدراك» في هذا الموضع: الرؤية؛ إذ الرؤية أحد معانيه، وإن كان قد يكون في بعض الأحوال بغير معنى الرؤية...، وحيث لا يجوز أن يكون في أخبار الله تضاد ولا تعارض، فإن قوله «لا تدركه الأبصار» على الخصوص، يعني: في الدنيا، لا على العموم، «وهو يدرك الأبصار» في الدنيا والآخرة، لدلالة قوله «وجه يومئذ ناضرة» على أن الرؤية في الأخرى مستثناة من عموم النص. انظر: التفسير (١٢/١٨-١٩) وقارن: المقالات (٢٨٨/١) والإبانة للأشعري (٥٨) وضوء الساري (١١٧).

(٤) انظر: التفسير (١٢/١٥ ط شاكر)، المقالات (٢٨٨/١)، ضوء الساري (١١٩-١٢٣).

(٥) التبصير (٢١٥-٢٢٠).

وكما أشار ابن جرير في هذا النص - من «التبصير» إلى أهم شبه نفاة الرؤية، قبل أن يعود إلى تفاصيلها، فإننا نراه، وبنفس المنهج، في تفسيره يقدم بين يدي عرضه لحججهم إجمالاً لموقف النفاة، مع تقييده لهذا الموقف بصفة عامة. يقول: «

«وتأول بعضهم في الأخبار التي رويت عن رسول الله ﷺ بتصحيح القول برؤية أهل الجنة ربهم يوم القيامة تأويلات^(١)، وأنكر بعضهم مجيئها، ودفعوا أن يكون ذلك من قول رسول الله ﷺ^(٢) وردوا القول فيه إلى عقولهم، فزعموا أن عقولهم تحيل جواز الرؤية على الله عز وجل، بالأبصار. وأتوا في ذلك بضروب من التموهيات، وأكثروا القول فيه من جهة الاستخراجات^(٣)».

وقبل أن يذكر ابن جرير - في التفسير - علل نفاة الرؤية، فإنه ينسب مقالتهم إلى السُّدِّي - من علماء التابعين، وأم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها. أما السدي فروى عنه أنه قال: «لا يراه شيء وهو يرى الخلائق»^(٤)، وهذا

(١) ذكر الدارمي أن هذا مسلك بشر المريسي، انظر: «النقض» (١٥-١٦، ٥٥-٥٩)، وأيضاً تأويل مختلف الحديث - لابن قتيبة - (١٨٦، ١٨٨)، الإبانة للأشعري (٥٣)، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٢٦٨، ٢٧٠).

(٢) حكى ذلك الدارمي - في الرد على الجهمية - (١٢٢، ١٢٦)، والإمام أحمد - كما في البداية والنهاية (١٠/٣٤٨) عن بعضهم، وأخذه ابن رشد على المعتزلة - مناهج الأدلة (١٨٦). وهو ما نراه في كتبهم: شرح الأصول (٢٦٨-٢٦٩)، المغنى (٤/٢٢٤) وما بعدها) وقارن نموذجاً آخر لذلك الموقف، ودفعه عند أبي شامة: في ضوء الساري (١٠٣-١١٥)، وانظر موقف السلف ممن رد هذه الأخبار عند ابن بطة في الإبانة (٣/٣/٥٢)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٣٨).

(٣) التفسير (١٢/١٧ ط شاكر)، وانظر موقف المعتزلة في: شرح الأصول (٢٤٨ وما بعدها) وقارن: الرد على الجهمية للدارمي (١٢٧)، رؤية الله لأحمد الحمد (٥٥ وما بعدها).

(٤) التفسير (١٢/١٦ ط شاكر).

القول - في الواقع - ليس نصا في نفى الرؤية في الدنيا والآخرة جميعا، بل هو محتمل تأويله إلى نفى الرؤية في الدنيا دون الآخرة، وهذا التأويل يترجح من وجهين:

أولا: أنه - أي السدي - رَوَى إثبات الرؤية عن ابن مسعود وابن عباس^(١) - رضى الله عنهم - ويبعد جدا أن يكون هو راوى قوليهما، ثم يخالفه.
ثانيا: أن القول بإثبات الرؤية قد روى منصوصا عن السدي نفسه^(٢)، فأقل ما يقال: إن له قولين في المسألة.

وأما عائشة رضى الله عنها، فروى حديث مسروق عنها أنها قالت: «من حدثك أن رسول الله ﷺ رأى ربه فقد كذب»، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾ ولكن قد رأى جبريل في صورته مرتين^(٣). وقد تعلق المعتزلة بهذه الرواية عن عائشة في نقض ما احتج به المثبتون من إجماع الصحابة^(٤).

بيد أن هذا العزو من ابن جرير أمر لم يَشْرَكْ فيه غيره من أهل السنة، فيما أعلم. وذلك أن عائشة إنما تتكلم عن قوم زعموا أن محمدا ﷺ رأى ربه مرتين^(٥)، ولذلك فهي تنفى أن أحدا «رأى ربه» في الدنيا، رسول الله ﷺ فمن دونه، كما هو نص كلامها، ولم تتعرض هنا لنفى أن أحدا «يرى ربه» يوم القيامة، أو إثباته^(٦).

(١) انظر: اللالكائي (٣/٤٥٩-٤٦٠).

(٢) انظر العواصم لابن الوزير (٥/١٩٥)، وحاشية المحقق رقم (٨).

(٣) التفسير (١٢/١٦-١٧) ط شاكر. وانظر: صحيح البخارى (٤٨٥٥)، صحيح مسلم (١٧٧).

(٤) شرح الأصول الخمسة (٢٦٧-٢٦٨)، وانظر: رؤية الله، لأحمد الحمد (٥٣-٥٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٨/٤٧٢-٤٧٣)، شرح صحيح مسلم (٣/٤-٥).

(٦) وانظر: الإنصاف للباقلاني (١٨٦-١٨٧).

ويوضح ذلك ويؤكد ما رواه في تفسير سورة النجم أن عائشة رضي الله عنها لما قالت ذلك احتج عليها مسروق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ - ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٢٣﴾ فقالت أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: لم أر جبريل على صورته إلا هاتين المراتين...^(١) وأخبار رسول الله ﷺ لا تتعارض؛ بل قد جاء من طريق عائشة - رضى الله عنها - نفسها بعض الأحاديث في إثبات الرؤية^(٢). ولهذا قال ابن كثير في تفسيره^(٣): «كانت: أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - تثبت الرؤية في الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾».

قال الإمام أحمد: من قال: إن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي، وإنما تكلم من تكلم في رؤية الدنيا^(٤).

نعم، ثبت عن مجاهد أنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿٢٣﴾: «تنظر الثواب من ربها»^(٥) وفسر «الزيادة» في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ - وهي من أدلة مثبتة الرؤية - بأنها: مغفرة من الله ورضوان^(٦).

فيقال: وكذلك روى عنه في تفسير هاتين الآيتين ما يوافق قول المثبتة^(٧)، ولو

(١) التفسير (٢٧/٥٠-٥١) ط الفكر، وانظر صحيح مسلم رقم (١٧٧)، فتح الباري (٨/ ٤٧٣).

(٢) انظر: العواصم لابن الوزير (٥/١٧٤)، والإنصاف للباقلاني (١٨٧).

(٣) (٢/١٦٢).

(٤) الإبانة لابن بطة (٣/٣/٥٩)، وقال محققه: إسناده صحيح أ.هـ.

(٥) التفسير (٢٩/١٩٢-١٩٣)، وفي رواية عند ابن جرير: لا يراه شيء من خلقه، لكن شيخ الطبري فيها محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف... وانظر: فتح الباري (١٣/٤٣٤).

(٦) التفسير (١٥/٧٠ ط شاكر)، وقد ثبت تفسير «الزيادة» في هذه الآية - عن النبي ﷺ بأنها النظر إلى ربهم - عز وجل - وكما في صحيح مسلم (١٨١).

(٧) اللالكائي (٣/٤٦٣، ٤٦٥)، وانظر العواصم لابن الوزير (٥/١٩٥).

فُرِضَ أنه لم يثبت عنه إلا القول الأول، فهو قول مردود بالسنة الثابتة عن النبى ﷺ، وأقاويل الصحابة وجمهور السلف، وهو قول عند أهل السنة مهجور...^(١)، ثم منهم من اعتذر عنه بأنه لم يبلغه الخبر^(٢)، ومنهم من تأوله بما لا ينفى الرؤية^(٣).

ومجمل ما ذكره ابن جرير من الشبه العقلية للنفاة اثنتان، قال فى الأولى: «وكان من أجل ما زعموا أنهم علموا به صحة قولهم ذلك من الدليل، أنهم لم يجدوا الأبصار ترى شيئا إلا ما باينها دون ما لا صقها، فإنها لا ترى ما لاصقها، قالوا: فما كان للأبصار مباينا مما عاينته، فإن بينه وبينها فضاء وفرجة. قالوا: فإن كانت الأبصار ترى ربها يوم القيامة، على نحو ما ترى الأشخاص اليوم، فقد وجب أن يكون الصانع محدودا. قالوا ومن وصفه بذلك فقد وصفه بصفات الأجسام التى يجوز عليها الزيادة والنقصان»^(٤)

وما ذكره ابن جرير هنا، هو نفس الشبهة التى حكاها عنهم فى «التبصير»^(٥) بأوسع مما هنا، إلا أنه يزيد على ما جاء فى التفسير زيادة لها أهمية كبيرة فى تأريخه للمقالات، وهى ترشيح النفاة استدلالهم ذلك بتناقض بعض مخالفاتهم من أهل الإثبات:

«... بعض من يخالفنا من أهل هذه المقالات ينفون الحدود عنه، ويوافقونا على ذلك. قالوا: وفى نفهم ذلك عنه، مع إجازتهم الرؤية عليه، نقض منهم

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢/٣٣- فتح البر).

(٢) الفصل لابن حزم (٢/٣) - وفيه بُعِدَ.

(٣) الرد على الجهمية للدارمى (١٢٨).

(٤) التفسير (١٢/١٨)، وانظر حكاية هذه الشبهة عند ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث

(١٨٧) وجوابه عنها (١٨٨-١٨٩)، وانظر مقالات الأشعرى (١/٢٨٨).

(٥) ص (٢٢٠-٢٢١).

لقولهم: إنه غير محدود؛ وفي قولهم: إنه غير محدود، نقض منهم لقولهم: إنه يُرى؛ لأنه إذا كان مرثياً لم يكن مرثياً إلا على الصفة التي وصفنا، وذلك إيجاب حد لله، تعالى ذكره.

قالوا: فكل قول من ذلك ناقض لصاحبه، ولن يسلم مخالفنا من المناقضة. قالوا: وفي تناقض القولين الدلالة الواضحة على فساد قول مخالفنا القائل برؤية الصانع، وصحة قولنا.^(١)

وهذه المناقضة - في واقع الأمر - ليست واردة على مذهب السلف والأئمة الذين جمعوا بين إثبات الرؤية وإثبات علو الله تعالى على عرشه، ومبايئته لخلقه^(٢).

فإن من المعلوم في بدائه العقول أن المرئ القائم بنفسه لا يكون إلا بجهة من الرائي. ثم إنه لو ساءل للنفاة نفى الرؤية «رؤية العباد لربهم في القيامة» فرارا من إثبات الجهة «التي يطلقونها على علو الله تعالى على عرشه ومبايئته لخلقه» لكان يلزمهم أن ينفوا رؤية الله تعالى لنا لنفس العلة، ولا يجدون فرقا بين الرائي والمرئ^(٣).

لكن الأزمة الفعلية إنما كانت بالنسبة لمن رام من متأخري الأشاعرة الجمع بين نفى العلو، وإثبات الرؤية، وهو الأمر الذي عبر عنه الرازي بأن لم يقل به

(١) انظر فيمن نفى الرؤية لانتفاء الجهة والحد عنده: شرح الأصول الخمسة (٤٨) وما بعدها، (٢٧٤)، وقارن بالمصدرين السابقين لابن قتيبة والأشعري، في نفس الموضوعين، مناهج الأدلة (١٨٦) ومقدمته (٨١)، درء التعارض (٢٤٧/١) وما بعدها، رؤية الله - للحمد - (٥٥) وما بعدها.

(٢) انظر: النقض على بشر (٢٣-٢٥)، مجموع الفتاوى (٤٦٩/٦)، درء التعارض (١/

٢٤٥)، شرح الطحاوية (٢١٩).

(٣) المقبلي: العلم الشامخ (١٦٧).

أحد سواهم، وخلافهم فيه مع جميع الفرق^(١).

وإذا كان الأشعري، شيخ المذهب، ممن جمعوا بين إثبات العلو والرؤية، فلقد وُجد عند عَصْرِيَّهِ الماتريدي مقالة المتأخرين، في الجمع بين نفى العلو وإثبات الرؤية^(٢).

وإذا كان السبق الزمني - نوعاً ما - لابن جرير (٣١٠هـ) يجعل من الصعب القول بأن الماتريدي (٣٣٣هـ) هو المعنى بتلك المعارضة المحكية عن نفاة الرؤية، فإن الأشعري ينقل عن زهير الأثرى أنه كان يقول: «إن الله، سبحانه - بكل مكان، وإنه، مع ذلك، مستو على عرشه، وإنه يُرى بالأبصار بلا كيف»^(٣). وذكر شيخ الإسلام أن قول حسين النجار وضرار خير من قول المعتزلة، وقولهما يشبه قول من ينفي العلو ويثبت الرؤية من الأشعرية ونحوهم^(٤).

وبغض النظر عمّن المعنى بالزام النفاة هذا ومعارضتهم، فإننا نجد ابن جرير، إذ لم يُلْزَمُهُ ذلك، لا هو ولا جمهور المثبتين للرؤية، يسلك كذلك مسلك المناقضة مع النفاة، ويلزمهم بعض ما نَعَوْه على مُخالفهم!!

ويبنى ابن جرير معارضته للنفاة على أنهم يُثبتون الله تعالى «مُدَبَّرًا» للعالم و«صانعًا» له، ويدّعون مع ذلك أنه غير مماسٍ للعالم ولا مباينٍ له، مع أنهم لا

(١) المحصل للرازي (١٨٩)، وانظر مناهج الأدلة (١٨٦ وما بعدها)، منهاج السنة (٣٢٨/٢) - (٣٢٩).

(٢) انظر التوحيد للماتريدي (٦٩) في نفى العلو، وص (٧٧) وما بعدها في إثبات الرؤية، خاصة ص (٨٥).

(٣) المقالات (٣٥١/١)، وقارن التوحيد للماتريدي (٨٥). وذكر القاضي عبد الجبار أنه يُحكى عن سفيان بن سحبان، وغيره من المرجئة: أنه يجوز أن يرى عز وجل بالأبصار على خلاف الرؤية المعقولة في الشاهد ١. هـ المغنى (١٣٩/٤).

(٤) درء التعارض (٢٧٨/٧) وأحسب أن مراد الشيخ بهذا التشبيه تأويلهم الرؤية بما يشبه العلم، وعدم إثباتها على معناها المعقول. وانظر المقالات (٣٤٢/١).

يجدون في «الشاهد» مدبراً ولا صانعاً، إلا مماساً أو مبايناً. فليساعدوا خصمهم على إثبات الرؤية، دون أن يلزموه بما يجدونه في الشاهد من أن المرئ يجب أن يكون محدوداً، أو بينه وبين الرائي فضاء!! يقول:

«ما تنكرون أن تكون الأبصار كذلك قد تراه وهو غير مباين لها، ولا فُرجة بينها وبينه، ولا فضاء. كما لا تعلم القلوب موصوفاً بالتدبير إلا مماساً لها أو مبايناً، وقد عَلِمْتُهُ عندكم لا كذلك؟ وهل بينكم وبين من أنكر أن يكون موصوفاً بالتدبير والفعل معلوماً إلا مماساً للعالم أو مبايناً، وأجاز أن يكون موصوفاً برؤية الأبصار لا مماساً لها ولا مبايناً، فرق؟ ثم يسألون الفرق بين ذلك، فلن يقولوا في شيء من ذلك قولاً، إلا ألزموا في الآخر مثله...»^(١).

وهذه المعارضة من ابن جرير مبناها تناقض كل من أثبت شيئاً مما أتت به النصوص ونفى غيره، أو أثبت صفة أو اسماً من أسماء الله تعالى - الثابتة له، ونفى غيره بدعوى استلزام ما نفاه للتشبيه أو قياس الغائب على الشاهد، مع أن ذلك لازم له فيما أثبتته.

وهذا المسلك في المعارضة هو نفس ما سلكه في الجواب عن شبهتهم العقلية الأخرى التي ساقها، وهي أن الأبصار من شأنها ألا تدرك الألوان...

وأما شبههم النقلية فقد ذكر ابن جرير منها احتجاجهم الشهير بآية الأنعام ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ قال: «فقال قائلو هذه المقالة: معنى الإدراك في هذا الموضع الرؤية، وأنكروا أن يكون الله يرى بالأبصار في الدنيا والآخرة: وتأولوا قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾^(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ^(٢٣)» بمعنى: انتظارها رحمة الله وثوابه^(٢).

وقد أجاب ابن جرير - محققاً الرؤية - عن هذا الاستدلال، بلسان

(١) التفسير (١٢/٢٠-٢١) ط شاكر، ورسالة التبصير مخرومة من آخرها عند هذا الموضع.

(٢) التفسير (١٢/١٧) ط شاكر.

«بعضهم»، وهو لسانه في واقع الأمر، بأن: معناه لا تحيط به الأبصار، وهو يحيط بها...، فالمؤمنون وأهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله بأن شيئا يحيط به. كما أنه تعالى نفى عن خلقه أن يحيطوا به علما، ولم يكن ذلك نفيا للعلم به.

وإذا كان الشيء قد يدرك الشيء ولا يراه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]، وليس الغرق مما يجوز أن يوصف بأنه يرى شيئا. وقد يراه ولا يدركه كما قال: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ فأثبت «ترائي الجمعين»، مع أنه قد وعد نبيه موسى ﷺ أنهم لا يُدْرِكُونَ، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، وإذا كان ذلك كذلك، صح أن معنى الرؤية غير معنى الإدراك، وأن معنى الإدراك غير معنى الرؤية، وأن قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ من معنى: لا تراه الأبصار، بمعزل، وإنما معناه: لا تحيط به الأبصار، كما قال ابن عباس.

وبعد، فقد أخبرنا الله جل ثناؤه في كتابه، أن وجوها في القيامة إليه ناظرة، وأخبر رسوله ﷺ أمته أنهم سيرون ربهم يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، وكما تُرى الشمس ليس دونها سحب، فحقق أنه نظر أبصار العيون إلى الله عز وجل.

ولما كان كتاب الله يصدق بعضه بعضا، وكان مع ذلك غير جائز أن يكون أحد هذين الخبرين - آية الأنعام وآية القيامة - ناسخا للآخر، إذ كان النسخ غير جائز في الأخبار^(١)، علم أن أهل الجنة ينظرون بأبصارهم يوم القيامة إلى

(١) وقد أحال ابن جرير في تحقيق هذه المسألة الأصولية على كتابه «الطيف البيان عن أصول»

الله، ولا يدركونه بها، تصديقا لله في كلا الخبرين، وتسليما لما جاء به تنزيله على ما جاء في السورتين^(١).

وبعد أن يصرح ابن جرير بأن الصواب من القول في ذلك ما تظاهرت به الأخبار^(٢)، يعود ليُجمل موقفه من حجج النفاة، ويُقيّم موقفهم العام من المسألة:

«ولأهل هذه المقالة مسائل فيها تلبس، كرهنا ذكرها وإطالة الكتاب بها وبالجواب عنها، إذ لم يكن قصدنا في كتابنا هذا قصد الكشف عن تمويهاهم، بل قصدنا فيه البيان عن تأويل آي الفرقان. ولكننا ذكرنا القدر الذي ذكرنا، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أنهم لا يرجعون من قولهم إلّا إلى ما لبس عليهم الشيطان، مما يسهّل على أهل الحق البيان عن فسادهم، وأنهم لا يرجعون من قولهم إلى آية من التنزيل محكمة، ولا رواية عن رسول الله ﷺ صحيحة ولا سقيمة، فهم في الظلمات يخبّطون، وفي العمياء يترددون، نعوذ بالله من الحيرة والضلالة»^(٣).



= الأحكام وهو من مصنفاته المفقودة.

(١) انظر تفصيل هذه المناقشة في التفسير (١٢/١٣-١٦) ط شاكر.

(٢) وهو ما يذكره في رسالته «صريح السنة» صرفا، لم يخلطه بجдал الخصم أو معارضته.

(٣) التفسير (١٢/٢٢) ط شاكر.

الاستدلال على الرؤية:

يفرق ابن جرير - شأن غيره من المثبتة - بين جواز الرؤية الذى يدرك بمجرد العقل، ووجوبها (وقوعها) الذى لا يدرك إلا بالخبر. قال:

«فأما الرؤية فإن جوازها عليه مما يدرك عقلا، والجهل بذلك كالجهل بأنه عالم وقادر. وذلك أن كل موصوف فغير مستحيل الرؤية عليه، فإذا كان القديم موصوفا، فاللازم لكل من بلغ حد التكليف أن يكون عالما بأن ربه إذا كان عالما قادرا له من الصفات ما ذكرنا، أنه لا يكون زائلا عنه أحكام الكفار إلا باعتقاده أن ذلك له، جائزة رؤيته إذ كان موصوفا...»

فأما إيجاب القول بأنه^(١) لا محالة يُرى، وفي أى وقت يُرى، وفي أى وقت لا يرى، فذلك مما^(٢) لا يدرك علمه إلا خبرا وسماعا، وبالخبر قلنا: إنه في الآخرة يرى، وإنه مخصوص برؤيته^(٣) أهل الجنة دون غيرهم.

فسبيل الجهل بذلك سبيل الجهل بما لا يدرك علمه إلا حسا، حتى تقوم عليه حجة السمع به^(٤).

وإذا كان جواز الرؤية عقلا مما اتفق عليه من أثبتها^(٥)، فإن ابن كلاب يختلف مع الأشعرى حول المصحح لها؛ حيث يرى ابن كلاب، وتبعه

(١) فى المطبوع: فإنه، والتصويب من المخطوط.

(٢) فى المطبوع: ما، والمثبت من المخطوط.

(٣) فى المطبوع: برؤية، والتصويب من المخطوط.

(٤) التبصير (١٤٧-١٤٨)، وقارن: مقالات الأشعرى (٢٨٩/١).

(٥) بل قال ابن تيمية: «لا يوجد أحد من الأمم السليمة الفطرة قال: إن رؤية الله ممتنعة،

يعنى أنه لا يجوز أن يكون مرثيا بحال، وليس فى مقدوره أن يُرى أحدا نفسه، بل هم إذا

نفوا رؤيته، كان لعظمته من جهة القدر أو الوصف...» هـ بيان تلييس الجهمية (٢/

القلانسي، جواز رؤية كل ما هو قائم بنفسه، ومنعاً من رؤية الأعراض^(١). بينما يرى الأشعري أن المصحح للرؤية هو الوجود، وكل موجود يصح أن يرى^(٢)...، وهو ما ارتضاه أصحابه فيما بعد^(٣).

إلا أن ما وجه إليه من نقد، بدأ يقنع الأشاعرة منذ الغزالي بضعف هذا الدليل^(٤) الأمر الذي حدا ببعض المتأخرين منهم، كالرازي إلى متابعة الماتريدي على الاختصار - في إثبات الرؤية - على الدليل السمعي^(٥).

وإزاء هذا الموقف من ضعف الدليل العقلي المشهور، مال ابن تيمية إلى أن مصحح الرؤية يجب أن يكون أمراً وجودياً محضاً؛ لأن العدم لا تأثير له في الوجود المحض، فلا يكون سبباً له، ولا جزءاً، أو شرطاً في ذلك السبب، ثم لا حاجة بنا بعد إلى تعيينه؛ سواء قيل هو مطلق الوجود، أو القيام بالنفس، أو غير ذلك مما هو أمور وجودية^(٦)، ولعل هذا الذي ذهب إليه الشيخ قريب مما عزاه

(١) أصول الدين للبغدادى (٩٧)، وانظر بيان تلبيس الجهمية (١/٣٥٧).

(٢) انظر الإبانة (٥١) والمصدرين السابقين. بينما نراه فى «اللمع» يعتمد على منهج سلبى فى الاستدلال؛ يقرر فيه أنه لا يلزم من تجويز الرؤية على الله نسبة شىء من النقص إليه... انظر ص (٦١-٦٣).

(٣) انظر: الانصاف (١٨١)، الإرشاد (١٦٣)، نهاية الإقدام (٣٥٧) وما بعدها) وانظر أيضاً: لمحات (١٩٢-١٩٣).

(٤) انظر حول ذلك النقد: المغنى (٤/٨٥ وما بعدها)، مناهج الأدلة (١٨٨-١٩٠) ومقدمته (٨٣-٨٤)، لمحات (١٩٤-١٩٥).

(٥) الأربعين للرازي (٢٧٧)، وانظر شرح الفقه الأكبر للقارى (٨٤)، والعلم الشامخ للمقبلى (١٦٧).

(٦) انظر: بيان تلبيس الجهمية (١/٣٥٧-٣٥٨)، وقارن (١/٣٦٧) من نفس المصدر، حيث يبدو أميل إلى طريقة ابن كلاب، بل صرح فى التدمرية (١٥٠-١٥١) أنها أصح، وانظر الصواعق - الأصل - (٤/١٣٣٢).

القارى - فى شرحه على الفقه الأكبر - إلى الإمام الزاهد الصفار^(١)، أنه ذكر فى آخر كتاب التلخيص له أن «كل موصوف فغير مستحيل الرؤية عليه»، وهو معنى قول ابن كُلاب أيضا.

وأما أن الأبصار لا تراه الآن فلأن هيئتها التى هيأها الله عليها، لا تقوى على الرؤية فى تلك الدار، فإذا كان يوم القيامة أصلحها الله تعالى لهذا النعيم^(٢)، يقول ابن جرير:

وأما قوله: «وهو اللطيف الخبير» فإنه يقول: والله تعالى ذكره المتيسر له إدراك الأبصار، والمتأني له من الإحاطة بها رؤية، ما يعسر على الأبصار من إدراكها إياه، وإحاطتها به، ويتعذر عليها.

«الخبير» يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذى له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته، فهى أبصار خلقه هيئة لا تدركه...^(٣).

ويبقى أن ما ذكره من تكفير من لم يعتقد ذلك الجواز (العقل) أو الوجوب (الخبرى)، هو جزء من منهجه العام فى عدم إعدار المخالف فى قضايا العدل والتوحيد (العقلية)، وتكفير أهل الأهواء^(٤).



(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الزاهد الأصبهانى الصفار، من أهل أصبهان، سكن نيسابور، وكان زاهدا حسن السيرة ورعا. ت (٣٣٩) انظر: الباب لابن الأثير (٢/ ٢٤٣-٢٤٤)، البداية والنهاية (١١/ ٢٣٨).

(٢) انظر: الرد على الجهمية للدارمى (١٢٥)، الإبانة لابن بطة (٣/ ٧٧).

(٣) شرح الفقه الأكبر (٨٤)، وعزاه أيضا للمفسرين.

(٤) انظر ما مضى فى الباب الأول حول ذلك.

الفصل الرابع

الصفات الخيرية عند الطبري

تمهيد: (مجمل ما أشار إليه ابن جرير):

مثّل ابن جرير للصفات الخيرية عنده^(١) بقوله:

* «... وذلك نحو إخبار الله، تعالى ذكره، إيانا أنه سميع بصير»^(٢). وهو يشير هنا إلى تكرر هاتين الصفتين في النصوص، مقترنتين، ومنفردتين، وهما صفتان متغايرتان عند ابن جرير، كما هو الحال عند أهل السنة، وقد أشار إلى ذلك في آية من أشهر آيات الصفات، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يقول: «وهو»: يعنى: نفسه «السميع» لما ينطق خلقه من قول (البصير) لأعمالهم^(٣)، لا يخفى عليه من ذلك شيء...^(٤). ومعنى «سميع» أنه «ذو سمع»^(٥)، وهو أمدح من سامع^(٦) ومعنى «بصير»: ذو إبصار، وهو في معنى مبصر^(٧).

(١) انظر ما سبق عن أقسام الصفات وأحكامها.

(٢) نصوص ابن جرير المقتبسة هنا، والمسبوقة بالعلامة (*) مأخوذة من التبصير ص (١٣٣-١٣٨).

(٣) لأعمالهم: كذا، ولعلها: بأعمالهم.

(٤) التفسير (١٣/٢٥) ط الفكر، وانظر: (٤٩٨-٤٩٩/٤) (٤٩٤-٤٩٥/٨) ط شاكر، (١٧/١٩٦) ط الفكر.

(٥) انظر: (١٩٦/١) ط الفكر.

(٦) السابق (٣٦٣/٦) ط شاكر.

(٧) السابق (٧٦/٥) ط شاكر، وانظر (١٤٠، ٣٧٦، ٥٠٦) وغيرها كثير. وكان قياس قوله في «سميع»، أن يكون «بصير» أمدح من «مبصر» لكن لم أره صرح به.

قال ابن جرير:

* «وأن له يدين، لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأن له يميناً، لقوله: ﴿وَالسَّمَكُوتَ مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]^(١).
* «وأن له وجهاً، لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨]، وقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقد ذكر فى تفسير الآية الأولى - آية القصص - قولين فى تفسيرها: «فقال بعضهم: معناه: كل شىء هالك إلا هو، وقال آخرون معنى ذلك إلا ما أريد به وجهه...» ولم يرجح بين هذين القولين^(٢).

وأما آية (الرحمن) فقال فيها «و﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع «ذو»^(٣).

قال ابن جرير:

* «وأن له قدماً، لقول رسول الله ﷺ حتى يضع الرب فيها قدمه»^(٤).
وقد ذكر ابن جرير أن فى تأويل قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] قولين:
أولهما: أنها - أي: جهنم - تقول ذلك بعد أن يضع فيها قدمه.

والثانى: أنها تستزيد حتى يضع الرب فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، واختار القول الثانى، لصحة الخبر به عن رسول الله ﷺ^(٥).

(١) يأتى تفصيل موقفه من «اليدين واليمين والأصابع» إن شاء الله.

(٢) (١٢٧/٢٠) ط الفكر.

(٣) (١٣٤/٢٧) ط الفكر.

(٤) جزء من حديث طويل، رواه البخارى (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) وغيرهما من حديث أبى هريرة.

(٥) انظر التفسير (١٦٩/٢٦-١٧١) ط الفكر. وانظر ما ذكره ابن جرير فى تفسير قوله تعالى: =

قال ابن جرير:

* «وأنه يضحك، لقول النبي ﷺ للذي قتل في سبيل الله... «إنه لقي الله عز وجل وهو يضحك إليه»^(١).

* وأنه يهبط كل ليلة، وينزل إلى السماء الدنيا، لخبر رسول الله ﷺ^(٢).

* وأنه ليس بأعور، لقول النبي ﷺ إذ ذكر الدجال، فقال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»^(٣).

* وأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، كما يرون الشمس ليس دونها غياية، وكما يرون القمر ليلة البدر، لقول النبي ﷺ^(٤).

* وأن له أصابع، لقول النبي ﷺ: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(٥).



= ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ (٢٩/٣٨-٤٢)، وقارن رسالة سليم الهلالي: «المنهل الرقاق...» (١٥ وما بعدها).

(١) ورد الحديث بالفاظ مقاربة لما هنا عند الدارمي في «النقض على بشر» (١٧٩، ١٨٠) والبيهقي في الصفات - (٤٠٧/٢-٤١١). وانظر حاشية محقق الصفات. وانظر روايات أخرى في ذلك عند ابن خزيمة (٢٣٠-٢٣٩) والدارمي - في النقص (١٧٤-١٨١)، والبيهقي في الصفات (٤٠١/٢-٤١٨).

(٢) يأتي دراسة هذه الصفة مفصلة، إن شاء الله تعالى. ص

(٣) الحديث رواه البخاري (٧٤٠٨)، ومسلم (٢٩٣٣) من حديث أنس - وغيرهما. وقد ترجم البخاري على هذا الحديث: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَتُصَنِّعَ عَلَيَّ عِيفَى﴾ تُغْذَى، وقوله جل ذكره: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾. هـ ومراده إثبات صفة العين لله - تعالى -، وانظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبد الله الغنيمان (١/٢٨١ وما بعدها).

(٤) سبق الكلام على الرؤية. ص

(٥) يأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

وفيما يلي، إن شاء الله، دراسة لثلاثة من الصفات الخبرية عند ابن جرير: الأولى: صفة الاستواء والفوقية، وما يتبعها من الكلام على «العرش والكرسى، والنزول، والجحيم...». وقد درسنا ضمن ذلك موقف ابن جرير، وموقف الفرق، من علو الله تعالى على خلقه، مع أنه من الصفات العقلية عند عامة من يثبته، مراعاة لأمرين:

الأول: أن ابن جرير لم يتكلم في خصوص هذه الصفة (العلو)، وكونها عقلية أو سمعية بشيء.

الثاني: وهو مرتب على الأول، مراعاة ارتباط القضايا المدروسة ثم، ودراستها في مكان واحد إبرازاً للقضية مجتمعة، مع اعتبار ما ذكرناه هناك من أن هذه المسائل: الاستواء، النزول...، هي من أدلة مثبتة العلو.

وأما الصفتان الأخريان فهما: «اليدان» و«الاستهزاء».

فأما «اليدان» فمثال للصفات الخبرية التي وافق ابن كلاب والأشعرى ومتقدمو أصحابه، أهل الحديث على إثباتها، ونفاها متأخرو الأشاعرة تبعاً للمعتزلة.

وأما الاستهزاء فهو من الأفعال الاختيارية التي أثبتها أهل الحديث (السنة)، بينما تأولها الأشاعرة، بمن فيهم الشيوخ الأوائل.



المبحث الأول

العلو والفوقية

تنوعت دلالات الكتاب والسنة على تقرير علو الله «العلی العظيم» على خلقه، وأن ربنا «الأعلى» «في السماء»، على العرش استوى، ليس فوقه شيء، بل كل خلقه دونه، في المكانة والمكان، وربهم من فوقهم، سبحانه الكبير المتعال.

ولا علينا ألا نطيل المقام هنا بذكر بعضها، فلقد بلغت من الكثرة أن قال عنها بعض كبار أصحاب الشافعي: «في القرآن ألف دليل أو أزيد، تدل على أن الله عال على خلقه، وأنه فوق عباده»^(١)؛ وبغض النظر عما قد يكون في هذا القول من مبالغة، فإن أمراً كذلك لاشك أنه من كل آخذ على طرف الثمام؛ حتى قال الذهبي: «أنا أعد إيراد نصوص هذه المسألة للاحتجاج عيا»!!^(٢).

ولقد تعددت موارد هذه النصوص، وتنوعت سياقاتها، لتدفع كل تظنن يمكن أن يدخل على دلالتها القطعية على ذلك، حتى لقد قال ابن رشد - بعد ما ذكر بعض هذه النصوص: «إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط عليها التأويل عاد الشرع كله مؤولاً، وإن قيل إنها من التشابهات، عاد الشرع كله متشابهاً؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين. وأن من السماء نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدة المنتهى»^(٣).

(١) نقله ابن تيمية في الفتاوى (٢٢٦/٥) ولم أقف على اسم القائل، وانظر: الصواعق المرسلّة - الأصل (١/٢٩٤).

(٢) مختصر العلو (١٠٢)، وانظر: النقض على بشر للدارمي (٧٢، ٧٧).

(٣) مناهج الأدلة (١٧٧).

ولعله لذلك نقل كثير من العلماء، كالدارمى^(١) وابن كلاب^(٢)، وابن عبد البر^(٣)، والذهبي^(٤) وغيرهم، اتفاقاً الأُمم على ذلك، وحكاة ابن رشد عن الآراء السالفة القديمة والشرائع الغابرة^(٥).

وأما هذه الأمة، فلم تنزل مجمعة على الإيمان بعلو الله - تعالى - على خلقه، واستوائه على عرشه، من لُذُنِ الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم، حتى ظهر إنكار ذلك بظهور الجعد بن درهم، أوائل المائة الثانية.

ولقد روى ذلك القول عن جملة من الصحابة: أبى بكر وعمر وعائشة وابن مسعود، وابن عباس... فى جمع غيرهم كثير، رضى الله عنهم جميعاً.

فمن ذلك: قول صديق الأمة أبى بكر رضي الله عنه لما قبض رسول الله ﷺ وحدث ما حدث: «أيها الناس، إن كان محمدٌ إلهكم الذى تعبدون، فإن إلهكم قد مات، وإن كان إلهكم الذى فى السماء، فإن إلهكم لم يمت»^(٦).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما بين السماء الدنيا والى تليها مسيرة خمسمائة عام، بين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسى مسيرة خمسمائة عام، وبين الكرسى إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على

(١) الرد على الجهمية (٣٢).

(٢) فى كتاب «الصفات» له كما فى درء التعارض - (٦/ ١٩٤).

(٣) فى التمهيد (٢/ ١٢ فتح البر).

(٤) فى: الأربعين فى الصفات (٥٧).

(٥) مناهج الأدلة (١٧٨).

(٦) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨/ ٥٦٥)، ومن طريقه الدارمى فى (النقض) (١٠٥)،

والرد على الجهمية (رقم ٧٨)، ورواه البخارى فى التاريخ الكبير، كما فى اجتماع

الجيوش (٣٩) وفيه: «... فإن الله حى فى السموات لم يمت»، وإسناد الأثر صحيح

على شرط الجماعة، وصححه الذهبى فى الأربعين (٥٧).

الماء، والله تعالى فوق العرش، ويعلم ما أنتم عليه»^(١).

وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: «زَوَّجَكَنْ أَهْلِيكُنْ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات»^(٢).

وأما التابعون، فقد ذكرنا من قبل قول الأوزاعى (١٥٧هـ): «كنا، والتابعون متوافرون، نقول: «إن الله فوق عرشه...». وقال ابن تيمية: «وإنما قال الأوزاعى هذا بعد ظهور مذهب جهن المنكر لكون الله فوق عرشه، ليعرف الناس أن مذهب السلف خلاف ذلك.»^(٣).

وأما مَنْ بَعْدَ التابعين، فقد حكى إجماعهم عليه إسحاق بن راهويه وقتيبة بن سعيد وغيرهما. قال قتيبة^(٤): «هذا قول الأئمة فى الإسلام والسنة والجماعة: نعرف ربنا فى السماء على عرشه، كما قال - جل جلاله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾». قال الذهبى - تعليقا عليه: «فهذا قتيبة فى إمامته وصدقه نقل الإجماع على المسألة، وقد لقي مالكا والليث وحامد بن زيد والكبار»^(٥)، وهذا الإجماع قد حكاه كثير من المصنفين عند حكاية قول السلف، بل حكوا إجماع الأمة على ذلك قبل ظهور الجهمية^(٦).

ولقد كان أحد ما تأيد به أهل الإثبات، كون ذلك مقتضى فطرة الله التى فطر

(١) رواه الدارمى فى «النقض...» (١٠٥)، وابن خزيمة فى التوحيد (١٠٥-١٠٦)، والبيهقى فى الصفات رقم (٨٥١)، وأبو الشيخ فى «العظمة» رقم (٢٧٩)، وغيرهم وصحح إسناده الذهبى فى العلو (١٠٣ - مختصر)، وابن القيم فى اجتماع الجيوش (١٠٠).

(٢) رواه البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه (رقم-٧٤٢٠).

(٣) الفتوى الحموية (٣٩/٥ - فتاوى)،.

(٤) هو قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف، أبو رجاء البغلانى، ثقة ثبت، روى له الجماعة.

مات سنة أربعين ومائتين عن تسعين سنة. انظر ترجمته فى: التقريب ص (٧٩٩).

(٥) مختصر العلو (١٨٧)، وانظر مقالة إسحاق بن راهويه فى نفس المصدر (١٩٤).

(٦) انظر الرد على الجهمية للدارمى ص (٦٦)، ورسالة الثغر للأشعرى (٧٥)، والتمهيد لابن =

الناس عليها، ما لم تَجْتَلْهَا الأهواء أو تغيرها الآراء، قال ابن قتيبة: «والأمم كلها عرييها وعجميها، تقول: إن الله فى السماء، ما تُرِكَتْ على فطرتها، ولم تُنقل عن ذلك بالتعليم»^(١).

ثم هو كذلك ما قضت به العقول الصحيحة التى ترى كل شىء أسفل مذموما^(٢).

ولم يزل على ذلك أمر الناس؛ يسلمون «بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة»^(٣)، حتى أظهر الجعد قول النفاة، وعنه أخذه الجهم، وعن الجهم ظهر إنكار أن يكون الله - سبحانه - فى السماء دون الأرض، وإنكار العرش والكرسى، واستواء الرحمن على عرشه^(٤)، ثم لم تزل المقاتلان - الإثبات والتعطيل - تُعرِّفان منذ ذلك الحين، وحتى يوم الناس هذا.

فبقى على مقالة الإثبات أهل الحديث قاطبة؛ قال الإمام أبو عثمان الصابونى^(٥)

= عبد البر (١٢/٨، ١٢ فتح البر)، والأربعين للذهبى (٤٣)، ومختصر العلو (٢٢٥، ٢٦٥، ٢٦٦)، ومختصر الصواعق لابن القيم (٤٤٩). وقد أغفل المقبلى ذلك كله، فادعى أن السلف لم يجرى عنهم فى صفة «الفوق» نفى ولا إثبات، وكذَّب ابن تيمية فى «دعواه نسبة الإثبات إلى السلف»، انظر العلم الشامخ (١٦٣).

(١) تأويل مختلف الحديث (٢٤٠)، وانظر تأويل مشكل القرآن له (١٣١). وانظر: فتح البر بترتيب التمهيد (١٢/٢).

(٢) انظر الرد على الجهمية للإمام أحمد (٤٩).

(٣) انظر: فتح البارى لابن حجر (٤١٨/١٣).

(٤) انظر: التنبيه والرد للملطى (٩٩ - ١٠٤) درء التعارض.. (٢٦٦/٦) نشأة الفكر للنشار (٣٣١/١، ٣٤٦-٣٤٩). ولم أقف للجعد على كلام فى خصوص مسألة العلو، وإن كان مذهبه العام فى النفى معلوما متفقا عليه بين المؤرخين.

(٥) الإمام شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، الخطيب المفسر المحدث الواعظ، الشافعى، كان مجمعا على أنه عديم النظير، وسيف السنة ودافع البدعة. (ت ٤٤٩) انظر: طبقات الشافعية (٤/٢٧١-٢٩٢)، البداية (١٢/٨١).

«ويعتقد أهل الحديث ويشهدون أن الله سبحانه وتعالى، فوق سبع سموات، على عرشه؛ نطق به كتابه في قوله عز وجل في سورة الأعراف^(١): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]... يشبتون له من ذلك ما أثبتته الله تعالى، ويؤمنون به، ويصدقون الرب جل جلاله في خبره، ويطلقون ما أطلقه الله سبحانه وتعالى من استوائه على العرش، ويؤمنون على ظاهره، ويكلمون علمه إلى الله، ويقولون: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]»^(٢). وهو قول الأئمة الأربعة الفقهاء^(٣). وهو كذلك قول ابن كلاب^(٤)، وكبار أصحابه؛ كأبي العباس القلانسي، والحارث بن أسد المحاسبي، والأشعري^(٥)، وكبار أصحابه: كأبي الحسن علي بن مهدي الطبري^(٦)، والباقلاني^(٧).

(١) كذا والآية المذكورة من سورة يونس، وانظر سورة الأعراف آية (٥٤).

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ضمن الرسائل المنيرية ١/١٠٩-١١٠)، وانظر:

المقالات للأشعري (١/٣٤٥)، أصول السنة لابن أبي زمين (ق ٢٨/ب).

(٣) انظر: مختصر العلو للذهبي (١٣٦)، درء التعارض (٦/٢٦٣). وانظر: ما ذكره ابن القيم

عن الأئمة الفقهاء وأتباعهم في «الجوش» ص ٤٥ وما بعدها.

(٤) انظر: المقالات (١/٣٥١)، أصول الدين للبغدادى ص (١١٣)، وقد نقل بعض نصوصه

في ذلك: ابن تيمية في «الدراء» (٦/١١٩-١٢٢) (١٩٣-١٩٦)، وابن القيم في «الجوش»

(١١١-١١٢).

(٥) انظر الإبانة (١٠٥-١٢٠) حيث عقد فصلاً للاحتجاج لها، وانظر المقالات (١/

٣٤٥، ٣٥٠)، رسالة الثغر (٧٥).

(٦) نقله عنه البيهقي في الصفات (١/٣٠٨)، والذهبي في العلو (٢٥٠-٢٥٢) - المختصر -

، وابن تيمية في «بيان تلبيس» (٢/٣٣٥-٣٣٧)، ونقله د/ عبد الرحمن المحمود في كتابه

«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» (٢/٥١٩-٥٢١) عن نسخة خطية من كتاب ابن مهدي

«تأويل الأحاديث المشككة...» وذكر أنها في مكتبة طلعت بالقاهرة مجموع (٤٩١).

(٧) التمهيد (٢٦٠-٢٦٢) - ت: مكارثي -، وانظر: درء التعارض (٦/٢٠٦-٢٠٧)، =

وهو أيضا قول الكرامية^(١)، وسائر المجسمة^(٢)، ونقل ابن رشد اتفاق الفلاسفة عليه^(٣). لكن ذكر ابن تيمية أن من الفلاسفة من ينازع في ذلك، وأنهم في هذه المسألة على قولين^(٤).

وهو قول جمع من أئمة الصوفية، كالحاسبي والجيلاني وغيرهما^(٥)، لكن يبدو أن فيهم من ينازع في ذلك، كالفلاسفة^(٦).

وأما مقالة النفي فقد تقلدتها الجهمية والمعتزلة، وأوَلَّت وصفه بـ «العلی» و«المتعال» بعلو القهر أو القدرة، قالوا: «فأما (عالی) بمعنى ارتفاع المكان، فلا يُستعمل فيه سبحانه؛ لأن كونه في الأماكن يستحيل عليه»^(٧).

ثم اختلفوا في علاقته - سبحانه - المكان؛ فجمهورهم قال: إن الباري بكل مكان، بمعنى أنه مدبر لكل مكان... وقال بعضهم: الباري لا في مكان، بل هو على ما لم يزل عليه^(٨).

= اجتماع الجيوش (١١٩-١٢١)، المحمود: السابق (٢/٥٣٨-٥٤٠).

(١) التبصير في الدين (١٠١-١٠٢)، الملل والنحل (١/١٠٨-١٠٩، ١١٢)، وانظر ما دار بين ابن الهيثم وابن فورك في ذلك عند السلطان محمود بن سبكتكين: الملل والنحل (١/٣١)، درء التعارض (٦/٢٥٣)، البداية والنهاية (١٢/٣٢)، وقارن بالتبصير، الموضوع السابق.

(٢) شرح المحصل للطوسي (١٥٧)، وانظر شرح الفقه الأكبر (١١٦)، لمحات (١٧٤).

(٣) مناهج الأدلة (١٧٧)، وانظر: اجتماع الجيوش (١٣١-١٣٢).

(٤) انظر: درء التعارض (٦/٢٤٥، ٢٦٥، ٢٦٧)، لمحات (١٧٥-١٧٦).

(٥) انظر: فهم القرآن للمحاسبي (٣٤٦) وما بعدها، الغنية للجيلاني (١/٥٦-٥٧)، وأيضا: اجتماع الجيوش (١٠٥-١١٠).

(٦) انظر: التعرف للكلا باذی (٤٨، ٥٢)، لمحات (١٧٤-١٧٥).

(٧) انظر المغنى لعبد الجبار (٥/٢١٤-٢١٥).

(٨) المقالات (١/٢٣٦-٢٣٧)، وانظر الإبانة (١٠٩-١١٠)، الفصل (٢/٩٦)، مقدمة المناهج (٧٤)، لمحات (١٧٣).

ويقترّب الماتريدي من هذا الموقف حيث يتأول العلو بالرفعة، وينفى كونه تعالى في مكان؛ لأن إثباته يستلزم الحاجة إليه، ولأنه كان ولا مكان، فهو على ما كان؛ إلا أنه يوجب القول بأن «الرحمن على العرش استوى» على ما جاء به التنزيل، وثبت في العقل (!؟)، ثم لا يقطع على تأويله بشيء^(١).

وقد اتجه الأشاعرة من بعد الباقلاني نحو النفي، بحيث لم يكذب يخرج متأخروهم عما قرره المعتزلة قبلهم^(٢).

رأى الطبري:

ربما كانت مسألة العلو، وما يتعلق بها من إثبات «العرش» و«الكرسي» ونسبة «الاستواء» و«النزول» إلى الله - تعالى - هي الوحيدة التي حكى ابن جرير فيها اختلاف المقالات في غير موطن من تفسيره، فلقد حكى الخلاف في معنى اسم الله - تعالى - «العلی» وفي حقيقة «الاستواء»...

* فأما معنى اسم الله - تعالى - «العلی» فقد حكى الخلاف فيه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال: «واختلف أهل البحث في معنى قوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾؛ فقال بعضهم: يعنى بذلك: وهو العلى عن النظر والأشباه، وأنكروا أن يكون معنى ذلك: وهو العلى المكان، وقالوا: غير جائز أن يخلو منه مكان، ولا معنى لوصفه بعلو المكان؛ لأن ذلك وصفه بأنه في مكان دون مكان.

وقال آخرون: معنى ذلك وهو العلى على خلقه، بارتفاع مكانه عن أماكن

(١) التوحيد للماتريدي (٦٧-٧٧)، (١٠٥-١٠٦) وانظر: شرح الفقه الأكبر (٣٨ و١١٤-١١٦)، مقدمة مناهج الأدلة (٧٨-٧٩).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي (١٩) الإرشاد للجويني (٥٩-٦٠). أصول الدين (١١٢-١١٤) أساس التقديس ص (٣٠) وما بعدها خاصة (١٩٤-٢١٤)، لمحات (١٧٩-١٨٤).

خلقه؛ لأنه تعالى ذكره، فوق جميع خلقه، وخلقه دونه، كما وصف نفسه أنه على العرش، فهو عالٍ بذلك عليهم^(١).

والطبري، وإن لم يصرح بما «يختاره هو من ذينك القولين»^(٢)، فلقد يبدو لنا أن القول الثاني، الذي هو قول أهل السنة، هو اختياره. ومن الأدلة على ذلك أنه ذكر قبل حكاية الخلاف، أن «العلِّي» «الفَعِيلُ» من قولك: «عَلَا يَعْلُو عُلُوءًا»، إذا ارتفع، فهو «عالٍ وعلى» والعلِّي ذو الارتفاع على خلقه بقدرته^(٣). إلا أن قوله في هذا النقل «بقدرته» يشير إشكالا حول دلالة على ما زعمنا، فهل يعنى بذلك أنه يفسر العلو والارتفاع بعلو «القدرة»، فيكون القول الأول في تفسير «العلِّي» أقرب إلى أن يكون اختياره؟!.

إن ذلك الاحتمال لا يعدم ما يؤيده من كلام ابن جرير، فلقد قال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. «يعنى تعالى ذكره، بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ نفسه، يقول: والله الظاهر فوق عباده، ويعنى قوله: ﴿الْقَاهِرُ﴾ المَذَلُّ المستعبد خلقه، العالِي عليهم. وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لأنه وصف نفسه تعالى ذكره بظهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئا أن يكون مستعليا عليه.

فمعنى الكلام إذا: والله الغالب عباده المذل لهم، العالِي عليهم بتذليله لهم، وخلقهم إياهم، فهو فوقهم بظهره إياهم، وهم دونه»^(٤).

(١) التفسير (٤٠٦/٥) ط شاكر.

(٢) وعدم تصريحه بما يختاره هنا هو مأخذ منهجي، لحظناه على ابن جرير مرات عديدة عند حكايته اختلاف أهل «البحث» حول مسألة كهذه، مع أن منهجه العام الذي اختطه لنفسه بيان الصحيح لديه مما يورده من خلاف: انظر التفسير (٧/١) شاكر.

(٣) التفسير (٤٠٥/٥) ط شاكر.

(٤) التفسير (٢٨٨/١١)، وانظر (٤٠٨/١١)، (٤٢/١٣) ط شاكر، وقد نقل البيهقي نحوا من ذلك عن الفراء، انظر: الأسماء والصفات (٣٢٣/٢)، وانظر أيضا: ابن كثير (١٢٦/٢).

وعلى حين يتأول النفاة هذه الآية، وآية النحل: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. على فوقية القدر والقهر لا غير^(١)، فلقد أطبق أهل الإثبات على الاستدلال بهما على علو الله عز وجل وارتفاعه على عرشه^(٢)، بل ذكروا أن آية النحل لا تقبل التأويل، على تسليم أن تقبله غيرها؛ إذ لا يُعرف في اللغة أن يقال: الذهب من فوق الفضة، والعالم من فوق الجاهل، وإنما يسوغ ذلك إذا كانت الفوقية مجردة من الحرف «من»^(٣). ولعله لذلك الملحظ لم يتصرف ابن جرير في تأويلها بشيء، بل لم يزد على أن قال: «يخاف هؤلاء الملائكة التي في السموات، وما في الأرض من دابة، ربهم من فوقهم أن يعذبهم...»^(٤).

إلا أننا، ومع ذلك كله، نعود على بدئنا لنقرر ترجح احتمال أن يكون القول الثاني في تفسير «العلی» بعلو الله تعالى على عرشه، فوق جميع خلقه، هو اختيار الطبري؛ لأنه أحظى بالشواهد والنصوص من كلام ابن جرير، في غير ما موطن من تفسيره وسائر كتبه، ولأنه أيضا مقتضى منهاجه العام في إثبات الصفات. ومن أمثلة ذلك قوله في تأويل قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]: «العلی ذو العلو على كل شيء، هو فوق كل شيء، وكل شيء دونه»^(٥).

(١) انظر: المغني لعبد الجبار (٢٨٨/٥)، الكشف للزمخشري (١٠/٢)، تأسيس التقديس (٢٠٤، ٢٤٢)، إيضاح الدليل لابن جماعة (١٠٨-١٠٩).

(٢) انظر على سبيل المثال: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد (٤٩)، فهم القرآن للمحاسبي (٣٤٩-٣٥٠)، الرد على الجهمية للدارمي (٤٠). وقد عقد البيهقي باباً مستقلاً لها في الأسماء والصفات (٣١٥/١).

(٣) انظر: مختصر الصواعق لابن القيم (٤٤٤)، شرح الطحاوية (٣٨١).

(٤) تفسير الطبري (١١٧/١٤-١١٨) ط الفكر.

(٥) التفسير (١٧/١٩٦ ط الفكر)، وانظر (٧٠/٢٩) نفس الطبعة.

وفى تأويل: ﴿ءَأْمَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٧] قال: «وهو الله»^(١) وهذه الآية أيضًا مما احتج به أهل الإثبات طُرًا على علو الله تعالى على خلقه^(٢).

فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما نورهه فيما بعد، إن شاء الله، من موقف ابن جرير من «الاستواء» و«النزول» و«العرش» و«الكرسى»... بان لنا - صحة ما ادعينا.

ويبقى أن نشير هنا إلى أن كلمته الموهمة هذه «بقدرته» فى سياقها السالف ذكره، لا تبطل الاحتمال الذى رجحنا، بل لها مغزى دقيق طواه ابن جرير فيها طيًا؛ وذلك أن من نفى علو الله - تعالى - على عرشه توهم أنه يلزم من إثباته تجويز الحاجة على الله - عز وجل -، فأراد ابن جرير بذلك دفع ذلك الوهم الذى كان أحد ذرائع النفاة، وبيان أن علو الله تعالى على عرشه، إنما هو بقدرته التى بها حمل العرش نفسه، وأمسك السموات والأرض. وهذا التوجيه يؤيده - أيضًا - عبارة أخرى هى أوضح من هذه، فسر بها آية البقرة [٢٩] وسيأتى كلامه فيها بتمامه، ويهنا هنا منه قوله: «علا عليهن فدبرهنَّ بقدرته.»^(٣).

ولعل من أسباب الإيهام فى عبارة ابن جرير هذه، ما يحاوله، فى غير موطن، من اختزال التعبير عن نوعى العلو: علو القدر والمكانة، وهذا لا نزاع فيه، وعلو المكان الذى يأباه النفاة، فيحاول تقرير النوعين فى عبارة واحدة تصلح - بطبيعة الحال - للمعنيين؛ إذ هما متلازمان، لا متنافيان.

ومن شواهد ذلك قوله فى تأويل قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤].

(١) السابق (٧/٢٩) نفس الطبعة.

(٢) انظر: الإبانة للأشعرى (١٠٧)، شرح السنة للالكائى (٣/٣٨٨)، الأسماء والصفات للبيهقى (٢/٣٢٤-٣٣٠)، وانظر: مناهج الأدلة لابن رشد (١٧٧).

(٣) التفسير (١/٤٣٠) ط شاكر. فقله: «بقدرته» متعلق بـ «دبرهن» كما هو ظاهر.

«وهو العلى - يقول: وهو ذو علو وارتفاع على كل شىء، والأشياء كلها دونه» وهذا كالصريح فى علو المكان، ثم يعود فيقول: «لأنهم فى سلطانه، جارية عليهم قدرته، ماضية فيهم مشيئته» وهذا انتقال إلى علو القهر والقدرة. ثم فى تفسيره للآية التالية لها: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ يعود ليزيد المعنى الأول بيانا، وهو علو الله تعالى، على عرشه فوق سمواته، ويقوى فهمنا لمنهجه، ودعوانا فى مراده. قال: «وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس، قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾، قال: يعنى من ثقل الرحمن وعظمته تبارك وتعالى...^(١).

حدثنا محمد بن منصور الطوسى، قال: حدثنا حسين بن محمد عن أبى معشر، عن محمد بن قيس قال: جاء رجل إلى كعب، فقال يا كعب، أين كان ربنا؟ فقال له الناس: دق^(٢) الله تعالى؛ أفتسأل عن هذا. فقال كعب: دعوه، فإن يك عالما ازداد علما، وإن يك جاهلا تعلم، سألت أين ربنا؟ وهو على العرش متكئ...^(٣).

ولئن كان هذا النص - وقد اختصرت بعضه - ظاهر الدلالة فيما سقناه إليه، فإن لنا أن نشير هنا إلى ما سبق ذكر بعضه فى الباب الأول، من أخذنا على الطبرى شينه كتابه ببعض الإسرائيليات والروايات الواهية، والتى تحالف منهجه

(١) انظر ما سبق حول هذا الإسناد، وقد ورد من طريق أخرى عند أبى الشيخ فى العظمة، رقم (٢٣٦)، والحاكم فى المستدرک (٤٤٢/٢)، وفى إسناده خفيف بن عبد الرحمن، وهو صدوق سئى الحفظ تغير بآخره، كما فى التقريب لابن حجر، فالأثر ضعيف بهذا الإسناد أيضا.

(٢) لم أقف لها على معنى يلائم السياق هنا لا فى اللسان ولا فى القاموس.

(٣) التفسير (٧/٢٥) ط الفكر.

هو نفسه؛ فإن أثر ابن عباس الذى ساقه هنا إسناده ضعيف جداً، وقد مر بنا التنبيه على ضعف ذلك الإسناد الدائر فى تفسيره... هذا فضلاً عما فى قوله من «ثقل الرحمن» من نكارة، ولقد قال الحافظ الذهبى فى تعليقه على ما ورد فى بعض الروايات من أطيح العرش (أو الكرسي) - وهو أخف بكثير مما فى هذا الأثر، وليس من الصفات فى شيء، كما نسب لفظ الثقل هنا إلى «الرحمن» قال: «وليس للأطيح مدخل فى الصفات أبداً، بل هو كاهتزاز العرش لموت سعد، وكتفطر السماء يوم القيامة ونحو ذلك، ومعاذ الله أن نَعُدَّه صفة لله عز وجل، ثم لفظ الأطيح لم يأت من نص صحيح ثابت»^(١).

وأما أثر كعب فضيف الإسناد كذلك؛ محمد بن قيس والراوى عنه ضعيفان^(٢). ثم هو لو صح ليس فيه حجة؛ لأن كعباً مع ثقته، من معادن الإسرائيليات.

وبعد، فإن ابن جرير يشير إلى أن هذه القضية، قضية علو الله تعالى، وكونه فى السماء، هى مما أعلم به موسى فرعون، ودعاه إليه، فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنِ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ﴾ [٣٦] ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] يقول: «معناه: لعلى أبلغ من أسباب السموات أسباباً أتسبب بها إلى رؤية إله موسى؛ وإنى لأظن موسى كاذباً فيما يقول ويدعى؛ من أن له فى السماء رباً أرسله إلينا»^(٣).

(١) العلو للذهبي (١٢٤-مختصره).

(٢) انظر ترجمتهما فى التقريب لابن حجر رقم (٦٢٨٦) و(٧١٥٠)، وانظر: العظمة لأبى

الشيخ رقم (٢٣٤)، وحاشية محققه (٦١٢/٢) والرد على الجهمية للدارمى رقم (٨٨).

فهذا ضعف إسناده، فضلاً عما تضمنه هذا الأثر من ألفاظ منكرة.

(٣) انظر التفسير (٢٤/٦٤-٦٦)، وقارن التوحيد لابن خزيمة (١١٥).

وهذا المعنى يؤكد ما سبق نقله من إخبار الأنبياء أممهم بذلك، وهو ما اشتهر عند أهل الإثبات الاستدلال به، ويؤكدده أحد متقدميهم - قبل ابن جرير - وهو الحارث المحاسبي بقوله: «ولو أن موسى عليه السلام أخبره أنه في كل مكان بذاته، لطلبه في الأرض وفي بيته وبدنه، ولم يتعز ببنيان الصرح»^(١).



(١) فهم القرآن للمحاسبي (٣٥٢)، وانظر نحوا من هذا الاستدلال عند الدارمي في الرد على الجهمية (٤٤-٤٥)، وابن عبد البر في التمهيد (١١١/٢) فتح البر.

الاستواء على العرش:

جاء ذكر استواء الله - تعالى - على عرشه في سبع آيات من القرآن^(١)، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وذكر الاستواء من غير ذكر العرش في موضعين^(٢).

وكذا ورد أن لله عرشا عظيما: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦-التوبة: ١٢٩]^(٣)، وأن لله - تعالى - ملائكة تحمل عرشه، وملائكة تحف من حوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

وبالجملة، فذكر العرش في القرآن والأخبار النبوية المتواترة^(٤)، أكثر من أن يحاط به هنا، قال الذهبي: «والقرآن مشحون بذكر العرش، وكذلك الآثار، بما يمتنع أن يكون - مع ذلك - أن المراد بذلك الملك^(٥)، فدع المكابرة والمراء، فإن المراء في القرآن كفر، ما أنا قلته، بل المصطفى ﷺ قاله»^(٦).

وقال البيهقي: «وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم، خلقه الله تعالى، وأمر ملائكته بحمله، وتعبدتهم بتعظيمه والطواف

(١) انظر سورة: (الأعراف / ٥٤)، يونس (٣)، والرعد (٢)، وطه (٥)، والفرقان (٥٩)، السجدة (٤)، والحديد (٤).

(٢) في سورتي (البقرة: ٢٩)، وفصلت (١١).

(٣) والعظيم في الآيتين بالحجر، صفة للعرش.

(٤) انظر نص الذهبي على تواترها في «مختصر العلو» (١٠٥، ١٠٩).

(٥) على ما ذهب إليه النفاة.

(٦) مختصر العلو (١٠٠)، والحديث الذي ذكره رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وصححه

الذهبي في نفس الكتاب ص (٨٠-مختصر)، وانظر تعليق الألباني ص (٨١، ١٠١)،

وجامع بيان العلم لابن عبد البر (٩٢/٢).

به...، وفي أكثر هذه الآيات^(١)، دلالة على صحة ما ذهبوا، وفي الأخبار والآثار الواردة في معناه دليل على صحة ذلك^(٢).

فاستدل أهل الإثبات - من ثم - بهذه النصوص البيّنة على إثبات علو الله - تعالى - واستوائه على عرشه، وهو - أعنى الاستواء - عند أكثرهم من الصفات الفعلية الخبرية، التي لا تعلم إلا بالسمع، بينما يعلم العلو بالسمع والعقل معا. وقد تحمل النفاة تأويلات عدة، مستنكرة أو مستكرهة، لمعنى «الاستواء» مرة، و«للعرش» أخرى، و«لمن أسند إليه الاستواء» مرة ثالثة؛ «فالمشهور عنهم ما حكاه الأشعرى عنهم، وبدعهم وضلّهم فيه [أنه] بمعنى استولى، أى: ملك وقهر، وقالت فرقة منهم بل معنى: [ذلك] قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته يحتمل خمسة عشر وجها، كلها لا يعلم أيها المراد، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل...»^(٣)!!

وأما أهل الإثبات، فالاستواء عندهم على ظاهر معناه المعلوم من اللغة، إلا أنه «لا يقال لله: إنه على العرش كمخلوق على مخلوق، ولكن مَلِكٌ كريم خالق غير

(١) يعنى التى ذكرت العرش.

(٢) الأسماء والصفات (٢/ ٢٧٢)، وذكر ابن تيمية أن العرش ثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها. انظر: الفتاوى (٥/ ٥٨٤).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم (٣٧٩-٣٨٠)، ثم أبطل ابن القيم دعوى النفاة من اثنين وأربعين وجهاً. انظر: السابق (٣٨٠-٤٠١). وانظر أيضاً: الإبانة للأشعرى (١٠٨) وما بعده، والمقالات له (١/ ٢٣٧). ومن المفارقات فى هذه المسألة ما وقع لأبى بكر ابن العربى؛ حيث بنى فى «العواصم» (ص ٢١٤) القول بأن العرش والاستواء مجملان فى مجازاتهما، وهو ما رده عليه ابن القيم فى الصواعق (٣٩٧ - مختصر)، فى حين أنه - أى ابن العربى - يقول فى أحكام القرآن (٣/ ١٥٤٢): «... فهذا محمد - ﷺ - ما عصى ربه، لا حال الجاهلية ولا بعدها... ليصلح أن يقعد معه على كرسيه». ه فثبت الكرسي، والقعود عليه، وأثبت إقعاده النبى معه!!!.

خلق، على عرش عظيم مخلوق»^(١).

ثم القول في كيفية الاستواء - عند أهل الإثبات - كالقول في كيفية سائر صفات الله - تعالى - وأفعاله فلا يعلمه إلا الله، تعالى. ومن أشهر مقالاتهم في ذلك قول الإمام مالك:

«الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(٢).

قال الذهبي، تعليقاً على هذه المقالة: «وهو قول أهل السنة قاطبة: أن كيفية الاستواء لا نعقلها، بل نجهلها، وأن استواءه معلوم كما أخبر في كتابه، وأنه كما يليق به، ولا نتمق ولا نتحلق، ولا نخوض في لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً، بل نسكت ونقف كما وقف السلف، ونعلم أنه لو كان تأويل، لبادر إليه الصحابة والتابعون، ولما وسعهم إقراره وإمراره والسكوت عنه، ونعلم يقيناً، مع ذلك، أن الله جل جلاله، لا مثل له في صفاته، ولا في استوائه، ولا في نزوله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً»^(٣).

ومما يدل على أن ما يقوله أهل الإثبات هو مراد الإمام مالك بمقولته تلك، تصريحه بكون الله تعالى في السماء دون غيرها من الأماكن، فقال: «الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان»^(٤) ففرق بين كون الله

(١) الدارمي: النقض على بشر (٧٧-٧٨).

(٢) أخرج هذه المقالة عن مالك: الدارمي: في الرد على الجهمية رقم (١٠٤)، والبيهقي في الصفات رقم (٨٦٧)، واللالكائي رقم (٦٦٤)، وغيرهم. وقال الذهبي في العلو (١٤١- مختصر): «هذا ثابت عن مالك» ا. هـ وجود إسناده ابن حجر في فتح الباري (١٣/٤١٧).

(٣) مختصر العلو (١٤١-١٤٢).

(٤) روى ذلك عن مالك: عبد الله بن أحمد في السنة (٣٤، ٥)، والآجري في الشريعة رقم (٦٩٥)، واللالكائي (٦٧٤) وقال الألباني: سنده صحيح ا. هـ مختصر العلو (١٤٠).

تعالى في سمائه، وشمول علمه لكل مكان^(١).

رأى الطبري:

حكى الطبري الخلاف في تأويل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ هل الاستواء هنا بمعنى الإقبال، أو بمعنى تحول الفعل، أو بمعنى العلو؟ ثم حكى - أيضًا - اختلاف متأولي الاستواء بمعنى العلو والارتفاع، في الذي استوى إلى السماء: هل هو الله - تعالى - خالقها ومُنشئها، أو هو الدخان الذي جعله الله للأرض سماءً؟^(٢).

وقبل أن يذكر ابن جرير ما يختاره من هذه الأقوال، ذكر بعض الوجوه التي يُحمل عليها الاستواء في كلام العرب؛ فمنها: «انتهاء شباب الرجل وقوته، فيقال، إذا صار كذلك: قد استوى الرجل، ومنها: أقبل فلان على فلان بما يكرهه ويسوؤه بعد الإحسان إليه. ومنها الاحتياز والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، بمعنى احتوى عليها وحازها»^(٣). ومنها العلو والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريرته، يعنى به علوه عليه».

ثم أعقب الطبري ذلك بقوله: «وأولى المعاني بقول الله، جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ

(١) انظر الفتوى الحموية - ضمن الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤١-٤٢).

(٢) انظر: التفسير (١/ ٤٢٨-٤٢٩) ط شاكر. وقد روى هذا القول الأخير عن ابن عباس، لكن إسناده ضعيف جدًا؛ فيه متهمون بالكذب. وانظر: الصفات للبيهقي (٢/ ٣١١-٣١٣) حيث بين ضعف إسناده.

(٣) وهذا المعنى أنكره ابن الأعرابي في اللغة، وقال أيضًا: لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد. انظر: اللالكائي (٣/ ٣٩٩)، لسان العرب (٣/ ٢١٦٤). مع ملاحظة أنه ليس فيه ذكر الاستواء على العرش، وليس فيه أيضًا أن ابن جرير يقبل ذلك المعنى، وغاية الأمر أن ابن جرير يجمع هنا ما قيل في معنى الاستواء من حيث اللغة.

أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴿١﴾: علا عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات^(١)

وإذا كان ابن جرير قد ذكر الخلاف في معنى «الاستواء» في هذا الموضع، فإنه لا يذكر في باقي المواضع إلا قولاً واحداً هو الذي ارتضاه: «الرحمن على عرشه ارتفع وعلا»^(٢).

ومعرفة ذلك والإيمان به، واحد من الأصول التي بنى عليها «معتقد» - صريح السنة - قال: «وحسب امرئ من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله - عز وجل ثناؤه - الصادق، . . . ويعلم أن ربه على العرش استوى»^(٣). وهذا المعنى الذي اختاره ابن جرير هو المروى عن جمع من أئمة السلف والمفسرين، وعلماء اللغة:

أما السلف: فقد روى عن ابن عباس^(٤) ومجاهد^(٥)، وأبي العالية^(٦)، والربيع ابن أنس^(٧)، ونقله أبو الفضل التيمي عن الإمام أحمد^(٨)، والبغوي عن أكثر المفسرين^(٩)، وابن بطال عن أهل السنة^(١٠)، وحكى ابن القيم إجماع السلف

(١) التفسير (١/٤٢٩-٤٣٠).

(٢) السابق (١٦/١٣٨) ط الفكر، وانظر (١٦/٣٢٥) ط شاكر و(١٩/٢٨)، (٢٤/٩٨)، (٢٧/٢١٦) ط الفكر.

(٣) صريح السنة ص (٢٧) ط الكويت.

(٤) حكاه عنه الفراء، كما في «الصفات» للبيهقي (٢/٢١٠) و«اللسان» (٣/٢١٦٣)، ونقله عنه كذلك البغوي، كما في «فتح الباري» (١٣/٤١٦).

(٥) ذكره عنه البخاري في «صحيحه» (١٣/٤١٤ - فتح).

(٦) كما في المصدر السابق نفسه.

(٧) كما في تفسير الطبري (١/٤٢٩) ط شاكر.

(٨) انظر: اعتقاد الإمام أحمد لأبي الفضل التيمي (ق ١٥٤).

(٩) كما في فتح الباري (١٣/٤١٦).

(١٠) شرح صحيح البخاري - مخطوط بدار الكتب ج ٤ (ق ٢٢٩/ب).

عليه^(١).

وأما علماء اللغة وأئمتها: فمنهم: الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)^(٢)، والفراء^(٣) (٢٠٧ هـ)، وأبو عبيدة معمر بن المثنى^(٤) (٢١٠هـ)، والأخفش^(٥) (٢١٥ هـ)، وابن الأعرابي^(٦) (٥٢٣ هـ)، وثعلب^(٧) (٢٩١هـ)، ونفطويه^(٨) (٣٢٣هـ)،

(١) مختصر الصواعق (٣٨٠).

(٢) كما في التمهيد لابن عبد البر (١٠/٢ - فتح البر)، والعلو للذهبي (١٧١ - مختصر)، وترجمة الخليل في مراتب النحويين لأبي الطيب (٥٤ - ٧٠)، وطبقات الزبيدي (٤٧ - ٥١).

(٣) حكاة عن ابن عباس وجوزة في كلام العرب، انظر الصفات للبيهقي (٣١٠/٢)، واجتماع الجيوش (١٠٤)، وترجمته في المراتب (١٣٩-١٤١)، والطبقات (١٣١-١٣٢).

(٤) كما في مجاز القرآن له (٢٧٣/١)، وعنه ابن عبد البر (٩/٢ - فتح البر)، والبغوي في تفسيره، كما في اجتماع الجيوش (١٠٤)، وذكر ابن القيم أن ابن جرير رواه عنه، ولم أقف عليه في تفسيره للآية التي ذكرها ولا في غيرها. وانظر ترجمته في الطبقات (١٧٥-١٧٨)، والمراتب (٧٧، ٧٩).

(٥) كما في تهذيب اللغة للأزهري (١٢٥/١٣)، لسان العرب (٣/٢١٦٤)، واجتماع الجيوش (١٠٥)، وانظر ترجمته في المراتب (١١١-١١٢)، والطبقات (٧٢-٧٤).

(٦) رواه عنه البيهقي في الصفات (٣١٤/٢)، واللالكائي رقم (٦٦٦)، وابن عرفة في الرد على الجهمية، كما في الجيوش (١٠٤)، وترجمته في المراتب (١٤٧)، والطبقات (١٩٥-١٩٧).

(٧) رواه عنه اللالكائي - في تفسير «الرحمن على العرش استوى» رقم (٦٦٧)، وعنه الذهبي في العلو (٢٣٠ - مختصر). وترجمته في المراتب (١٥١-١٥٣)، وطبقات (١٤١-١٥٠).

(٨) له كتاب في الرد على الجهمية، أنكر فيه أن يكون «استوى» بمعنى «استولى»، كذا قال ابن القيم في «الجيوش» (١٠٤)، وانظر رقم (٥)، وانظر ترجمته في الطبقات (١٥٤). والبداية والنهاية (١١/١٩٥).

وغيرهم . . . ومن الناسُ إلَّا أولئك؟! فلا غَرَوَ أن نقل ابن القيم إجماع أهل اللغة على أن «استوى على . . .» معناه العلو والارتفاع. ^(١).

وأما النفاة الذين تأولوا الاستواء بالإقبال، فيرى ابن جرير أنهم أخطأوا فى أمرين:

الأول: أنهم عدلوا عن تأويل الاستواء بالعلو، وهو معناه المعروف المشهور فى لغة العرب، إلى أن تأولوه «بالمجهول من تأويله، المستكر»؛ يعنى بذلك: تأويل الاستواء بالإقبال، وهذا خلاف الواجب فى تأويل كلام الله تعالى ^(٢).
 الثانى: أن من تأول الاستواء بالإقبال «لم يَنْجُ مما هرب منه!!» فيقال له: زعمت أن تأويل قوله: ﴿أَسْتَوَى﴾: أقبل، أفكان مدبراً عن السماء فأقبل إليها؟! ^(٣).



(١) الصواعق المرسلة (٣٨٠- مختصر)، وقد يبدو غريباً فى ضوء ذلك أن يقول د/ النشار

(٣٤٧/١): «قد كان من المعروف عند العرب أن الاستواء هو الاستيلاء».

(٢) راجع ما مضى فى الباب الأول حول ضوابط التأويل عند الطبرى. وموقف ابن جرير هنا

مما يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من أنه لا يقر صحة كل ما أجمله للاستواء من معانٍ، وإنما كان همه جمع ما قيل.

(٣) التفسير (٤٠٣/١) ط شاكر.

★ الكرسي:

لم يذكر الكرسي في القرآن مضافا إلى الله - تعالى - إلا في آية واحدة عرفت باسمه هي آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥] وصح إخبار النبي ﷺ عنها أنها أعظم آية في كتاب الله^(١).

وقد جاء ذكر الكرسي أيضا في غير واحد من الآثار. قال ابن تيمية: «الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف»^(٢).

فأما أهل الحديث فقالوا: إنه جسم مخلوق، كما أن العرش جسم مخلوق، وأنه بين يدي العرش... على ما ذكر في بعض الآثار^(٣). قال ابن القزويني^(٤) «ومن قال: العرش مُلْكٌ»^(٥)، أو الكرسي ليس بالكرسي الذي يعرف الناس فهو مبتدع...»^(٦).

(١) كما في صحيح مسلم (٨١٠) من حديث أبي بن كعب.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥/٥٨٤).

(٣) انظر: أصول السنة لابن أبي زمنين (ق ٢٨/ب).

(٤) هو: علي بن عمر بن محمد بن الحسن، أبو الحسن الحرابي البغدادي الشافعي، ذكر ابن السبكي أن ابن الصلاح أفردته بترجمة، وقال فيها: «... جميع الناس في عصره أجمعوا، مع اختلاف آرائهم وتشعب أنحائهم، على حسن معتقد هذا الشيخ، وزهده وورعه». ١هـ، (ت ٤٤٢هـ) انظر ترجمته في: طبقات الشافعية (٥/٢٦٠-٢٦٦)، البداية والنهاية (١٢/٦٦).

(٥) كذا، ولعل ضَبَطَها كما ذكرت، أو تكون: الملك. وانظر أيضا السنة لعبد الله بن أحمد (٧١)، وما نقله ابن تيمية عن الإمام أبي نعيم، في «الحموية» - فتاوى - (٥/٦٠).

(٦) نقله عنه الأصبهاني في «الحجة» (١/٢٤٩). مراده بقوله: «الذي يعرف الناس»: أن الكرسي معلوم من لغة العرب، كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم. وهو بذلك يرد على من يتأول الكرسي بما ينفي حقيقته. أما كيفية هذا الكرسي فلم يعرض لها هذا النص بشيء، ويكفيه بعدا عن كراسي الناس أنه وسع السموات والأرض، مع اعتبار أن

ثم كان إثبات الكرسي، على ما جاءت به النصوص، أحد ما استدل به أهل الإثبات على أن الله - تعالى - عالٍ على الأشياء، فوق عرشه المجيد، غير حال في الأمكنة^(١).

وأما الجهمية ومن تبعهم على مقالة النفي، فأنكروا أن يكون لله كرسي بين يدي عرشه، وربما تأولوا الآية بالملك، أو بالعلم^(٢)، وصارت هذه المسألة - كما يفهم أيضا من كلام ابن القزويني السابق - واحدة من مسائل الخلاف العديدة بين الفريقين، وإن يكن رأى كل منهما متمشيا مع منهجه العام في الفهم والاستدلال.

رأى الطبري:

حكى ابن جرير في تفسيره لآية الكرسي الخلاف في تأويلها. قال: «اختلف أهل التأويل في معنى الكرسي الذي أخبر الله - تعالى ذكره - في هذه الآية أنه وسع السموات والأرض؛ فقال بعضهم: هو علم الله - تعالى

= الكرسي ليس من صفات الله أصلاً، وإنما هو مخلوق عظيم من مخلوقاته تعالى التي اختصها لنفسه.

(١) انظر: العلو للذهبي (١٢١- مختصره)، وانظر تعليق الألباني عليه (١٢٢-١٢٣)، وقارن درء التعارض (٢٤٨-٢٤٩). وأيضاً: نشأة الفكر (٣٤٨/١) حيث يرى د/ النشار أن الجهم لم ينكر الكرسي لله، كما تذكر الآية، وإنما ينكر الكرسي المادي الذي تصوّره المشبهة والمقاتلية من أتباع مقاتل بن سليمان (!!)، تحت تأثير يهودى ومسيحي، ومزدكى (!!). هـ مع أن هذا الموقف (المقاتلى...) هو الذى تدل عليه النصوص وأجمع عليه أهل الحديث والسنة.

(٢) انظر: نقض الدارمي على بشر (٧١)، التنبيه والرد، للملطي (١٠٣)، وقارن: الكشف (٣٠١/١).

ذكره... عن ابن عباس قال: كرسيه علمه^(١).

وقال آخرون: الكرسي موضع القدمين... [ثم رواه عن أبي موسى وغيره]^(٢). وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد، ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»^(٣).
وقال آخرون: الكرسي هو العرش نفسه... [ثم رواه عن الحسن]^(٤).

(١) رواه من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، والأثر من نفس الطريق عند ابن مندة في الرد على الجهمية رقم (١٦). وأعله بجعفر هذا، والدارمي في نقضه على بشر ص (٧١) وأعله بنفس العلة. وجعفر هذا، صدوق يهيم، كما في التقريب رقم (٩٦٨)، وذكر ابن مندة أنه لم يتابع على روايته هذه، وقال: ليس هو بالقوى في سعيد بن جبير. هـ الرد على الجهمية (٤٥-٤٦). فمثله لا تحتل مخالفته للثقات، ولهذا قال الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (١٦٢/٢): إسناده جيد، لكنه شاذ بمرّة، مخالف للثابت الصحيح عن ابن عباس. هـ وانظر ترجمة جعفر في: الميزان (١/٤١٧)، التهذيب (١/٣٨٨). وقارن تعليق الأرنؤوط على الطحاوية (٣٧١).

(٢) ورواه أيضا ابن مندة في الرد على الجهمية رقم (١٧)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢٤٥)، والبيهقي في الصفات رقم (٨٥٩)، وذكر محققه أن في إسناده انقطاعا بين أبي موسى والراوى عنه.

(٣) خرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن زيد عن أبي ذر، وهو إسناده ضعيف جدا، وانظر التعليق على الطحاوية (٢٧٠)، والصفات للبيهقي (٢/٢٩٩-٣٠٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (رقم ١٠٩) لطرق أوردها، وفي تصحيحه نظر؛ فليس في طرقه التي أوردها ما يصلح لتحسينه، بلّة تصحيحه.

* تنبيه: قال الألباني عند ذلك الحديث: «اعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث» هـ الصحيحة (١/٢٢٦). وقد أسلفت أن في تصحيحه نظرا.

(٤) من طريق جويبر عن الضحاك عنه. قال الشيخ أحمد شاكر: «جويبر بن سعيد الأزدي ضعيف جدًا، فهذا القول إذن غير ثابت عن الحسن» هـ من عمدة التفسير (٢/١٦٣) حاشية).

قال أبو جعفر: ولكل قول من هذه الأقوال وجه ومذهب، غير أن الذى هو أولى بتأويل الآية ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثني به... عن عبد الله بن خليفة قال: أنت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. فعظم الرب تعالى ذكره، ثم قال: «إن كرسیه وسع السموات والأرض، وإنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع، ثم قال بأصابعه فجمعها، وإن له أطيباً كأطيب الرحل الجديد إذا ركب من ثقله...»^(١).

وأما الذى يدل على صحته ظاهر القرآن فقول ابن عباس الذى رواه جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه أنه قال: هو علمه. وذلك لدلالة قوله - تعالى ذكره -: ﴿وَلَا يُوَدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ على أن ذلك كذلك؛ فأخبر أنه لا يؤوده حفظ ما علم وأحاط به، مما في السموات والأرض، وكما أخبر عن ملائكته أنهم قالوا في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فأخبر، تعالى ذكره، أن علمه وسع كل شيء، فكذاك قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٢).

قال أبو جعفر: وأصل الكرسي العلم، ومنه قيل للصحيفة يكون فيها علم مكتوب: كراسة، ومنه...^(٣).

إن ما وقع فيه ابن جرير هنا من الاضطراب بين أن يكون الأولى في معنى الآية

(١) ورواه الدارمي في نقضه على بشر (٧٤)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧١)، ووصله ابن جرير بعده، وابن خزيمة (١٠٦)، وأبو الشيخ (رقم ١٩٣) وغيرهم، ومداره على عبد الله ابن خليفة. قال الذهبي: لا يكاد يعرف وقد سبق قول الذهبي: «لفظ الأطيط لم يأت من نص ثابت» ١. هـ من العلو (١٢٤- مختصر) وقال الألباني عن هذا الحديث: «منكر»، الضعيفة رقم (٨٦٦).

(٢) انظر نقد الشيخ / محمود شاكر - رحمه الله - لهذا الاستدلال من الطبرى، والذى وصفه - بعد نقده - بأنه ضعيف جداً. حاشية (٤٠١/٥).

(٣) تفسير الطبرى (٣٩٧-٤٠٢).

أن الكرسي موضع القدمين؛ لمجىء الأثر به، وأن يكون معناه «العلم» لدلالة ظاهر القرآن عنده عليه، إن هذا الاضطراب سببه - فيما يبدو لى - تعارض أصليين من أصول التأويل والاستنباط عند ابن جرير؛ فهو يقدم - فى تأويله للآيات - القول الذى يدل على صحته الأثر، وهنا قد صح الأثر، عنده، بأحد الأقوال. ويقدم أيضا ما يدل السياق وظاهر الكلام عليه، وهنا قد دل السياق وظاهر الكلام - عنده أيضا - على قول آخر سوى الأول. فحاول ابن جرير أن يجمع بين القولين، وهو مسلك نجده عنده كثيرا، حينما تتعدد الأقوال من غير تناقض^(١)، بيد أنه لم يُوفّق هذه المرة؛ لبُعْد ما بين القولين، فخرج منهما بهذا الاضطراب!!

وبعد، فلا الأثر الذى اعتمده صحيح، ولا الظاهر الذى ادعاه ظاهر، ولا يسلم له حتى يحثه اللغوى فى معنى الكرسي^(٢).

وأيا ما كان الأمر، فحسبنا من كلام ابن جرير هنا أنه يثبت «الكرسي» على ما جاء به الأثر عن رسول الله ﷺ على حد قوله، بغض النظر عما إذا كان هو المراد بهذه الآية، كما يقوله أهل الإثبات، وكما هو الصحيح، أو كان يشبه بما ورد فيه من الآثار. ولذلك، فهو لما حكى فى «تاريخه» الخلاف فى «بدء الخلق» قال: «وقد قيل: إن الذى خلق ربنا عز وجل بعد القلم الكرسي، ثم خلق بعد الكرسي العرش...».

(١) انظر هذا المسلك فى التفسير: (٥٧٦-٥٧٩)، (١١/٤٣٠)، (١٣/٣٣٧-٤٧٢) ط شاكر، ومواقع أخرى كثيرة منه.

(٢) ولهذا قال ثعلب: «الكرسي ما تعرفه العرب من كراسى الملوك»^١. وهو قول الزجاج والأزهري أيضا. انظر لسان العرب (٥/٣٨٥٥)، وانظر: الاختلاف فى اللفظ لابن قتيبة ص (٤٨)، وتعليقات الشيخ محمود شاكر على هذا البحث عند الطبرى (٥/٤٠١، ٤٠٢).

وأما ما رواه عن ابن عباس أنه قال «كرسيه علمه» فهو، مع ضعفه، مخالف لما صح عنه. قال الإمام أبو منصور الأزهري: «والصحيح عن ابن عباس في الكرسي» ما رواه عمار الدُهْنِيّ عن مسلم البطّين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الكرسي موضع القدمين، وأما العرش فإنه لا يُقَدَّرُ قدره^(١). قال: وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها، ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم فقد أبطل...»^(٢).



(١) روى ذلك عن ابن عباس: ابن مندة، في الرد على الجهمية، رقم (١٥)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠٧، ١٠٨)، والحاكم (٢/ ٢٨٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٢١٦) وغيرهم كثير، وقال الذهبي: «رواته ثقات» ١. هـ العلو (١٠٢-مختصر)، وصححه أيضا الشيخ أحمد شاكر في «عمدة التفسير» (٢/ ١٦٣)، والألباني في: مختصر العلو (١٠٢)، وانظر حاشية محقق العظمة، لأبي الشيخ (٢/ ٥٨٢) هـ (٤).

(٢) نقله عنه في اللسان (٥/ ٣٨٥٥)، وانظر: عمدة التفسير (٢/ ١٦٣) - هامش. وانظر نحواً من مقالة الأزهري، للدارمي في «النقض على بشر» (٦٧) و(٧١).

★ النزول:

كان من أدلة أهل الإثبات على علو الله - تعالى - على خلقه، ما ثبت في نزوله - سبحانه - إلى السماء الدنيا. كالذي رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»^(١) وفي رواية - لمسلم - : «...فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من...»^(٢)، وفي حديث رفاعة الجهني: «ينزل الله إلى السماء الدنيا، فيقول: لا أسأل عن عبادي أحدا غيري...»^(٣).

وهذه الروايات - روايات النزول - لا مطعن في ثبوتها؛ إذ قد رواها بضع وعشرون صحابيا^(٤)، ولذا جزم بتواترها جمع من أهل العلم، منهم الحافظ عبد الغني المقدسي^(٥)، وابن القيم والذهبي^(٦). وقد تظاهرت جميعها على إثبات «أن الله - عز وجل على عرشه في السماء دون الأرض»^(٧)، لاسيما رواية مسلم

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) وغيرهما.

(٢) صحيح مسلم رقم (١٦٩)(٧٥٨).

(٣) رواه أحمد (٦/٤)، والدارمي في النقض (١٩-٢٠)، والآجزي رقم (٧٥٣-٧٥٥)، وابن

ماجه (١٣٦٧)، وابن خزيمة (١٣٢-١٣٣)، والدارقطني في النزول (٦٩) وغيرهم.

وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٩٨/٢).

(٤) انظر: الحجة للأصبهاني (٢٨٧/١) مختصر الصواعق (٤٦٣).

(٥) هو الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، صاحب التصانيف

المشهورة، منها: الكمال في أسماء الرجال، وغيره (٥٤١-٦٠٠هـ) وانظر في ترجمته:

البداية (٤٣-٤٢/١٣).

(٦) انظر نصوصهم على الترتيب: عقيدة الحافظ عبد الغني (٣٢)، تهذيب سنن أبي داود (٧/

١٠٧)، مختصر العلو (١١٦).

(٧) أصول السنة لابن أبي زيمين (ق٢٩ب)، وانظر أمثلة على الاستدلال بذلك على العلو عند =

وحديث رفاعة؛ حيث قال عنهما الحافظ عبد الغني: «وهذان الحديثان يقطعان تأوّل كلّ متاوّل، ويدحضان حجة كل مبطل»^(١).

فأما أهل السنة فأثبتوا هذه الصفة، شأن غيرها، من غير تكييف، ولا تشبيه بنزول المخلوقين، ولا تأويل ينفي حقيقة النزول^(٢). قال أبو جعفر الترمذي^(٣)، وسأله سائل عن حديث النزول: كيف هو، يبقى فوقه علو؟ فقال: «النزول معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعه»^(٤).

وقد علق الذهبي هذا الكلام بقوله: «صدق فقيه بغداد وعالمها في زمانه؛ إذ السؤال عن النزول ما هو، عيٌّ، لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة، وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والاستواء عبارات جليّة واضحة للسامع، فإذا اتصف بها من ليس كمثله شيء، فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة للبشر...»^(٥).

وقريب من أحاديث النزول ما ورد في غير آية من القرآن الكريم من ذكر مجيء الله - تعالى - وإتيانه لفصل القضاء بين خلقه يوم القيامة، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].. وهو أمر ورد في غير

= ابن خزيمة (١٢٥-١٢٦)، والأشعري، في: الإبانة (١١٠-١١٢).

(١) عقيدة الحافظ عبد الغني (٣٢).

(٢) انظر: ابن خزيمة (١٢٥)، مقالات الأشعري (١/٣٤٨)، أصول السنة لابن أبي زمنين (ق ٢٩ أ-ب)، عقيدة السلف للصابوني (١/١١١-١١٢)، عقيدة الحافظ عبد الغني (٣٠).

(٣) هو محمد بن أحمد بن نصر شيخ الشافعية بالعراق قبل ابن سريج، كان إماماً زاهداً ورعاً قانعاً باليسير، له كتاب في المقالات سماه «اختلاف أهل الصلاة» (٢٠١هـ - ٢٩٥هـ). انظر: طبقات الشافعية (٢/١٨٧-١٨٨)، البداية والنهاية (١١/١١٤).

(٤) نقله الذهبي في العلو (٢٣١-مختصر)، وصحح الألباني إسناده.

(٥) مختصر العلو (٢٣١)، وانظر مجموع الفتاوى (٥/١٩٤، ٣٦٥).

واحد من الأحاديث الصحيحة أيضًا^(١). وقد سُمِّي هذا «الجيء» و«الإتيان» «نزولاً» - في بعض الأحاديث التي وردت به^(٢)، وهى، وإن لم يخل واحد منها من ضعف^(٣)، فيما وقفت عليه، إلا أن غير واحد من المصنفين قد اعتمدها^(٤)، وتكلم عن هذا «النزول» وما ورد فيه، بل قال ابن القيم: إن ذلك قد تواترت به الأحاديث والآثار، ودلَّ عليه القرآن صريحاً^(٥).

وقد ربط واحد من أكابر علماء المحدثين بين النزول كل ليلة، والجيء يوم القيامة، وجعل الأخير، وقد نص عليه القرآن، دليلاً على ثبوت الأول؛ فقد سئل إسحاق بن راهوية^(٦) - في مجلس الأمير عبد الله بن طاهر - عن حديث النزول: أصحيح هو؟ قال: نعم. فقال له بعض قواد عبد الله: يا أبا يعقوب، أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ قال: نعم. قال: كيف ينزل؟ قال: أثبتته فوق حتى أصف لك النزول. فقال الرجل أثبتته فوق. فقال إسحاق: قال الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(٧) فقال الأمير عبد الله: يا أبا يعقوب، هذا يوم القيامة. فقال إسحاق: أعز الله الأمير، ومن يجيء يوم القيامة، من يمنعه اليوم؟!^(٨).

(١) رواها البخارى ومسلم وغيرهما، وتأتى الإشارة إلى بعضها.

(٢) كما تجده عند الطبرى (٢٦٧/٤) ط شاكر، وانظر: تفسير ابن كثير (١/٢٤٨-٢٤٩)، والأربعين فى الصفات للذهبي (١٣٣-١٦٤).

(٣) انظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على الطبرى (٢٦٨/٤)، وعمدة التفسير (٢/٨٠).

(٤) كالدارمى حيث بوب على ذلك فى الرد على الجهمية (ص ٨٦)، والبريهارى فى شرح السنة (٣١)، وانظر الأربعين للذهبي (١٤٠).

(٥) انظر مختصر الصواعق (٤٧٧).

(٦) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلى، الإمام أبو يعقوب ابن راهويه المروزي، عالم خراسان ثقة حافظ مجتهد، مات فى شعبان سنة ٢٣٨ هـ وعاش سبعا وسبعين سنة. انظر الكاشف للذهبي (١/١٠٦)، التقريب لابن حجر رقم (٢٣٣٤).

(٧) رواه عن إسحاق شيخ الإسلام الصابونى فى اعتقاد السلف وأهل الحديث (١/١١٣) =

ولئن كان موقف أهل السنة من هذه الصفة، هو نفس موقفهم من غيرها من الصفات، فكذا النفاة سواء بسواء، وقد عبر ابن حجر عن موقفهم من نصوص الإثبات بقوله «... منهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة، وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مكابرة. والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث، إما جهلا، وإما عنادا»^(١).

رأى الطبرى:

أشار الطبرى إلى بعض النصوص الواردة في «التزول» و«المجىء»، ثم قال: «فإن قال لنا منهم قائل^(٢): فما أنت قائل في معنى ذلك؟ قيل معنى ذلك ما دل عليه ظاهر الخبر، وليس عندنا للخبر إلا التسليم والإيمان به؛ فنقول: يجىء ربنا - جل جلاله - يوم القيامة والملك صفا صفا، ويهبط إلى السماء الدنيا وينزل إليها في كُلِّ ليلة، ولا نقول: معنى ذلك ينزل أمره؛ بل نقول: أمره نازل إليها كل لحظة وساعة، وإلى غيرها من جميع خلقه الموجودين، ما دامت موجودة، ولا تخلو ساعة من أمره، فلا وجه لخصوص نزول أمره إليها وقتًا دون وقت، مادامت موجودة باقية»^(٣).

وأما النفاة فإنه يسوق مناقضة جدلية معهم حول هذه الصفة التى يثبتها،

= منيرية) والحاكم، كما فى مختصر الصواعق (٤٨٠)، وصحح الألبانى إسناده فى مختصر الملو (١٩٣).

(١) فتح البارى (٣/٣٧)، وانظر: الإبانة لابن بطة (٣/٢٣٩)، التنبيه للملطى (١١٢) وما بعدها، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٣٢٩-٣٣٠)، الإرشاد للجوينى (١٤٩-١٥١)، أساس التقديس (٢١٧-٢١٩).

(٢) يعنى: من النفاة الذين لا يثبتون مجىء الرب جل جلاله ولا نزوله.

(٣) التبصير ص (١٤٦ - ١٤٧).

وينبنى جدله هذا على أمور:

أولاً: تقرير الخصم بتثبيت النصوص التي جاءت بذلك، وحتى يقطع شغب مخالفه، ساق ثلاثة نصوص قرآنية: «فمن أنكر شيئاً من ذلك قلنا له: إن الله - تعالى ذكره - يقول في كتابه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾^(١) وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فهل أنت مصدق بهذه الأخبار أم أنت مكذب بها؟

فإن زعم أنه مكذب سقطت المناظرة بيننا وبينه من هذا الوجه»^(١).

ثانياً: بيان أن الكلام في النزول الذي جاءت به السنة، كالكلام في المجيء الذي جاء به القرآن؛ إذ الباب في الصفات واحد، والقول في بعضها كالقول في الآخر^(٢).

وإن زعم أنه بها مصدق، قيل له: فما أنكرت من الخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ أنه يهبط إلى السماء الدنيا، فينزل إليها؟^(٣)

ثالثاً: دفع الشبهة العقلية التي ألجأت الخصم إلى التأويل، وبيان أنها إن كانت تلزم فيما نفاه، فهي أيضاً لازمة له فيما أثبتته، ولا فرق؛ فإنه إذا نفى المجيء

(١) التبصير (١٤٢-١٤٣). ووجه سقوط المناظرة معه أنه إذا كذب بنص القرآن كان كافراً به، فكيف يحتج به عليه، وإنما يحتاج - حيثئذ - إلى المناظرة في أصل اعتقاده.

(٢) وهذا المسلك حكاه ابن عبد البر عن جمهور أئمة أهل السنة، أنهم يقولون: «ينزل» - كما قال رسول الله ﷺ ويصدقون بهذا الحديث ولا يكيفون، والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاستواء والمجىء، والحجة في ذلك واحدة. اهـ فتح البر بترتيب التمهيد (١٩/٢). وانظر تقرير شيخ الإسلام لها في التدمرية (٣١-٣٣). وأيضاً: منهاج السنة (١١١/٢) وما بعدها.

(٣) التبصير (١٤٣).

والنزول من أجل أن ذلك - في الشاهد - نُقْلَةٌ وزوال، وذلك لا يجوز على الله تعالى ذكره، كان لخصمه أن يبطل عليه قياسه الغائب على الشاهد هنا، بما يثبتته النافي لله عز وجل في غير ذلك مكن غير أن يلتزم فيه ذلك القياس: «قيل له: وما برهانك على أن معنى المجيء والهبوط والنزول هو النُقْلَةُ والزوال، ولا سيما على قول من يزعم منكم أن الله - تقدست أسماؤه - لا يخلو منه مكان؟ وكيف لم يجوز عندكم أن يكون معنى المجيء والهبوط بخلاف ما عقلتم من النقلة والزوال، من القديم الصانع^(١)، وقد جاز عندكم أن يكون معنى العالم القادر منه بخلاف ما عقلتم ممن سواه؛ بأنه عالم لا علم له، وقادر لا قدرة له»^(٢).

رابعاً: بيان أن تأويله لبعض النصوص - أو بعض النص الواحد - دون بعض تحكم، لا يقبله خصمه: «الخبر عن مجيء الرب - تبارك وتعالى - والملك خبر واحد، فزعمت في الخبر عن الرب أنه يجيء أمره لا هو، وزعمت^(٣) في الملك أنه يجيء بنفسه لا أمره، فما الفرق بينك وبين من خالفك في ذلك، فقال: بل الرب هو الذي يجيء، فأما الملك فإنما يجيء أمره لا هو بنفسه؟».

إننا نجد شبهاً بين هذه المعارضة من ابن جرير، وجواب إسحاق بن راهوية فيما سبق؛ فكل منهما يربط بين النزول والمجيء، بغية إلزام الخصم بما ينكره، بيد أنه كان أقصر لطريق المناظرة، وأحسم للنزاع، أن يلزم خصمه بإثبات هذه الصفة، نظير ما يثبت من الصفات، إن كان يثبت بعضها وينفي بعضها، أو نظير ما يثبت من الأسماء، إن لم يكن يثبت شيئاً من الصفات.



(١) سياق الكلام: «... أن يكون معنى المجيء والهبوط، من القديم الصانع، بخلاف ما عقلتم...».

(٢) التبصير (١٤٥-١٤٦).

(٣) في المطبوعة: فزعمت، والتصحيح من المخطوط.

المبحث الثاني

صفة اليدين

دل الكتاب والسنة على أن لله - تعالى - يدين، هما صفة من صفات ذاته، على ما يليق بكماله وجماله وجلاله، وَتَمَدَّحَ رَبُّنَا الرَّحْمَنَ - جل جلاله - بعظيم شأن هذه الصفة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وَشَرَّفَ بعض خلقه بأن خلقه بيديه، وأعلى قدره على الذى خلقه بقوله: ﴿كُنْ﴾. فقال - تعالى - لإبليس، لما جهلَ موضعَ فضل آدم عليه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٧٥]. ورغبَ النبي ﷺ فى عظيم فضل الله - تعالى - وسعة عطائه، فقال: «إن يد الله ملأى - وفى رواية: يمين الله لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما فى يده» وفى رواية: «لم ينقص ما فى يمينه» وقال: «وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»^(١).

وإذ قد تواتر مجيء هذه الصفة فى الكتاب والسنة^(٢) فلا جرم أجمع السلف، الصحابة فمن بعدهم من أهل السنة، على إثباتها - على ما جاءت به الأخبار - صفة لله تعالى، لا ثقة، سبحانه^(٣).

(١) رواه البخارى ح (٧٤١١، ٧٤١٩)، مسلم (٩٩٣) وغيرهما من حديث أبى هريرة.

(٢) انظر فى نقل التواتر: الرسالة المدنية لابن تيمية (٤٥)، مختصر الصواعق (٤١٥)، وانظر بعض ما جاء فيها، فى صحيح البخارى (١٣/٤٠٣-٤٠٥ فتح البارى)، التوحيد لابن خزيمة (٥٣-٨٩)، الرد على الجهمية لابن مندة (٧٨-٩٣)، الصفات للبيهقى (٢/١١٨-١٧٩).

(٣) انظر فى حكاية هذا الإجماع: النقض على بشر للدارمى (٣٨)، مقالات الأشعرى (١/

ثم العقل، ليس فيه، من وجه ظاهر أو خفى، ما يحيل ذلك أو يردده^(١)، بل قد دل العقل - كما أثبت النقل - على أن «من يمكنه الفعل بقدرته أو تكليمه إذا شاء، وبيديه إذا شاء، هو أكمل مما لا يمكنه الفعل إلا بقدرته أو تكليمه، ولا يمكنه أن يفعل باليد، إما لامتناع أن يكون له يد، أو أن له يدا لا يفعل بها»^(٢).

وعلى ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل، درج أهل السنة في عقائدهم؛ لا يختلفون في إثبات هذه الصفة لله تعالى. يقول الحميدى^(٣) في أصول السنة من مسنده: «وما نطق به القرآن والحديث، مثل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِ﴾ وما أشبهه، لا نزيد فيه ولا نفسره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة، ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمي»^(٤).

ثم أظهر الجهمية نفى ذلك بعد انقراض عصر الصحابة، وتبعهم على ذلك

= (٣٤٥)، ورسالة الثغر له (٧٢)، الشريعة للأجرى (١٢٧/٢)، الأربعين للذهبي، حيث روى الإجماع عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة (٨٢)، وقد سمى الذهبي عشرة من كبار الصحابة ممن صرح بهذه الصفة، كأبي بكر وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو... انظر ص (٧٦-٧٩) وحكى الكلاباذى إجماع الصوفية على أن لله يداً على الحقيقة. انظر: التعرف ص (٥٠).

(١) انظر: الرسالة المدنية لابن تيمية (٥٤، ٥٦)، وأيضاً: الإبانة للأشعرى (١٣٦-١٣٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٩٢/٦، ٩٣).

(٣) عبد الله بن الزبير بن عيسى، القرشي، أبو بكر الحميدى من أجل أصحاب الشافعى، قال يعقوب بن سفيان: ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه. نقل عنه ابن السبكي قوله: «ما دمت بالحجاز، وأحمد بالعراق، وإسحاق بخراسان، لا يغلبنا أحد». ثم قال ابن السبكي: «ومن ثم قال الحاكم أبو عبد الله: الحميدى مفتى أهل مكة ومحدثهم، وهو لأهل الحجاز فى السنة كأحمد بن حنبل لأهل العراق». ا.هـ. توفي (٢١٩هـ) انظر: طبقات الشافعية (١٤٠-١٤١)، تهذيب التهذيب (٣/١٤٢).

(٤) نقله الذهبي فى الأربعين (٨٤-٨٥)، وابن القيم فى الجيوش (٨٦)، وهو فى آخر مسنده.

المعتزلة - شأن سائر ما نفوه من الصفات - حتى عرف النفي بهم وصار علامة عليهم^(١).

وعلى حين كان ابن كلاب والأشعري وقدماء أصحابهما على منهاج السلف في إثبات هذه الصفة^(٢) فلقد تبع متأخرو الأشاعرة المعتزلة في نفيها، وتأويل النصوص الواردة في ذلك، الأمر الذي عبر عنه الجويني بقوله: «ذهب بعض أئمتنا إلى أن اليتين والوجه صفات ثابتة للرب تعالى، والسييل في إثباتها السمع دون قضية العقل. والذي يصح عندنا حمل اليتين على القدرة...»^(٣).

رأى الطبري:

ذكر ابن جرير أن من صفات الله - تعالى ذكره - التي «جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه ﷺ أمته... أن له يدين لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وأن له يميناً لقوله: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثم قال: «... وأن له أصابع، لقول النبي ﷺ: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(٤).

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (٢٢٨)، مقالات الأشعري (١/٢٩٠)، الرسالة المدنية (٥٧)، مختصر الصواعق (٤١٠).

(٢) انظر مقالات الأشعري (١/٢٥٠، ٢٩٠)، الإبانة له (١٢٥)، مختصر الصواعق المرسلة (٤١٠)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٢/٥٣٧-٥٣٨).

(٣) انظر الإرشاد للجويني (١٤٦)، وقارن بموقفه في النظامية (٣٤)، وانظر أيضاً: أساس التقديس (١٦٣ وما بعدها)، تفسير ابن جزي (٥٧٩)، حاشية ابن المنير على الكشف (٤/١٠٧-١٠٦).

(٤) رواه الطبري أيضاً مسنداً في تفسيره (٢١٧/٦) ط شاكر، ورواه أحمد في المسند (٤/١٨٢)، وابن ماجه (١٩٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩)، وغيرهم، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وقال ابن مندة في «الرد على الجهمية»: حديث النواس بن

أما الآية الأولى فكانت واحدة من آيات قليلة حَكَى خلاف المتكلمين في تأويلها، وهم الذين عناهم بـ «أهل الجدل». وقد حكى ابن جرير في ثلاثة أقوال للنفاة في تأويل «اليد» في هذه الآية؛ فقال بعضهم: إن معنى اليد هنا النعمة، كقول العرب: لك عندي يدٌ، يعنون بذلك: نعمة^(١). وقال آخرون عنى بذلك: القوة، كما في قوله الله، تعالى ذكره: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^(٢) [ص: ٤٥]. وقال آخرون: بل يده ملكه، كقول العرب فلان بيده عقدة نكاح فلانة، أى: يملك ذلك^(٣)، وكقول الله تعالى ذكره: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ تَبَخُّؤَكُمْ صَدَقَةٌ﴾^(٤) [المجادلة: ١٢].

ثم انتقل ابن جرير إلى حكاية قول المثبتة، أن «يد الله صفة من صفاته، هي يد، غير أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم».

ومجمل ما ذكره ابن جرير من احتجاج المثبتة حجتان:

= سمعان حديث ثابت، رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم اهـ والحديث صححه أيضاً: ابن تيمية في «درء التعارض» (٣/ ٣١٢)، والبوصيرى في «زوائد ابن ماجه» (١/ ٨٧)، والألبانى في ظلال الجنة (١/ ٩٨)، وأصله في مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(١) نجد هذا التأويل عند المعتزلة، كما في شرح الأصول (٢٢٨)، وحكاه عنهم الأشعرى فى: المقالات (١/ ٢٩٠)، وحكاه الدارمى فى «النقض» (٣٨) عن بشر المريسى وأصحابه، وحكاه ابن خزيمة فى التوحيد (٨٥) عن الجهمية، وممن اختاره أيضاً: الرازى، كما فى أساس التقديس (١٦٣). وانظر: الإبانة، للأشعرى (١٢٨).

(٢) انظر: شرح الأصول (٢٢٨)، والخصائص لابن جنى (٣/ ٢٥١)، أساس التقديس (١٦٤)، وقارن: التوحيد (٥٧)، الأبانة (١٣٠-١٣٢)، مختصر الصواعق (٤٠٣).

(٣) انظر فى حكاية ذلك: الصفات، لليهقى (٢/ ١٥٩، ١٦١، ١٦٢)، الإبانة، لابن بطة (٣/ ٣١٦-٣١٧)، الرسالة المدنية لابن تيمية (٤٧-٤٨).

(٤) ينظر فى صحة التمثيل بهذه الآية هنا، فإن معناها: أمام نجواكم، كما ذكر الطبرى نفسه:

(١٩/ ٢٨) فكر، ولم أر عنده ولا عند غيره ذكرًا لمن فسر بها بذلك!!

الأولى: أن الله تعالى خص آدم، دون غيره من عباده، بأن خلقه بيده، وإذا كان قوته، ونعمته، وملكه، تعم آدم وغيره، لم يبق لذلك التخصيص معنى مفهوم إلا أن يكون الله تعالى، خلقه بيده التي هي صفته.

الثانية: أنه لو كان المراد باليد في هذه الآية النعمة، ل قيل: «بل يده مبسوطة»، ولم يقل: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، لأن نعم الله، تعالى، لا تحصى، كما أخبر في كتابه، وأما النعمتان فهما محصتان.

«قالوا: ففي قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ مع إعلامه عباده أن نعمه لا تحصى، مع ما وصفنا من أنه غير معقول في كلام العرب أن اثنين يؤديان عن الجميع، ما يُنبئ عن خطأ قول من قال: معنى «اليد» في هذا الموضع النعمة، وصحة قول من قال: إن يد الله هي له صفة. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ وقال به العلماء وأهل التأويل»^(١).

ومع أن ابن جرير لم يصرح عقب ذكر هذا الاختلاف، بما يختاره منه، فإن سياقته للقول الأخير وتوسعه في عرضه وشرحه، مما يدل على اختياره له، ثم إن معرفتنا بمنهجه تدلنا على أنه لا يخرج في اختياره عن القول الذي «تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وقال به العلماء وأهل التأويل»، ولهذا قال في بداية تأويله لهذه الآية: «وإنما وصف تعالى ذكره اليد بذلك، والمعنى العطاء؛ لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم، فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضا، إن وصفوه بجد وكرم، أو ببخل وشح وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه... فخطبهم الله بما يتعارفونه

(١) التفسير (٤٥٤-٤٥٦)، وانظر في تمام الاحتجاج لذلك القول: نقض الدارمي على

بشر (٢٥-٤١، ٥٩-٦٣)، الرسالة المدنية لابن تيمية (٤٤-٦٦)، مختصر الصواعق

المرسلة (٤٠١-٤١٧)، الإبانة للأشعري (١٢٥-١٤٢).

ويتحاورونه بينهم فى كلامهم»^(١).

وفى تفسيره لقول الله تعالى، لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ قال: «يقول: لخلق يَدَيَّ، يخبر تعالى ذكره، أنه خلق آدم بيديه، كما حدثنا... عن ابن عمر قال: خلق الله أربعة بيده: العرش، وعدن، والقلم، وآدم، ثم قال لكل شيء: كن، فكان»^(٢).

وهذه المنقبة، خلق آدم بيد الرحمن، تبارك وتعالى، قد ثبتت له صريحة فى غير ما حديث، كحديث الشفاعة، وحديث احتجاج آدم وموسى^(٣).

وأما وصف اليد باليمين، فقد جاء فى قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ الآية، وثبت أيضا فى كثير من الأحاديث، نحو: «يمين الله ملأى»^(٤) إلى غير ذلك من الأدلة.

لكن ثم خلاف حول قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ هل القبضة هنا هى قبضة اليمين المذكورة نفسها، أم هى قبضة يده الأخرى؟

ذكر ابن جرير الخلاف حول ذلك، وروى عن ابن عباس وجماعة غيره أنهم كانوا يقولون: الأرض والسموات جميعا فى يمينه يوم القيامة، ومن ذلك قول ابن عباس رضى الله عنهما: «ما السموات السبع والأرضون السبع فى يد الله إلا

(١) انظر: التفسير (١٠/٤٥١-٤٥٢)، وانظر كلامًا مهما لابن بطة فى الإبانة (٣/٣١٥-٣١٦).

(٢) التفسير (٢٣/١٨٥)، والآخر إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه الدرامى فى النقض (٣٥)، والآجرى فى الشريعة رقم (٨٠١)، والبيهقى فى الصفات رقم (٦٩٣)، وأبو الشيخ فى العظمة رقم (٢١٣) وغيرهم. وقال الذهبى: إسناده جيد اهـ. وانظر مختصر العلو للألبانى ص (١٠٥).

(٣) انظر: صحيح البخارى - مع الفتح - (١٣/٤٠٣)، التوحيد لابن خزيمة (٣٥-٥٧) (٦٣٠٦٤)، وانظر أيضًا البداية والنهاية لابن كثير (١/٧٥ وما بعدها).

(٤) متفق عليه، وقد سبق.

كخردلة في يد أحدكم»^(١).

وروى عن ربيعة الجرشي^(٢) أنه قال: «ويده الأخرى خلَّوْ ليس فيها شيء»، قال: وكان ابن عباس يقول: «إنما يستعين بشماله المشغولة يمينه، وإنما الأرض والسموات كلها بيمينه، وليس في شماله شيء»^(٣).

ثم احتج لذلك بما رواه ابن مسعود قال: «كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه خبر من أحبار اليهود، فجلس إليه، فقال له النبي ﷺ حَدَّثْنَا، قال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، جعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والشجر على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لما قال، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٤).

أما القول الثاني: «السموات في يمينه، والأرضون في شماله» فنسبه ابن جرير إلى ابن عمر، رضى الله عنهما، وذكر فيه ما رواه ابن عمر، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو على المنبر، يقول: «يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيديه،...» الحديث^(٥).

(١) علقه ابن بطة في الأبانة (٣٠٨/٣/٣)، وصحح محققه إسناد ابن جرير، وذكر ابن مندة في الرد على الجهمية ص (٨٦) نحوًا من هذا الأثر عن وهب، وانظر النقض على بشر للدارمي ص (٣٦).

(٢) ربيعة بن عمرو، ويقال: ابن الحارث، الجرشي الدمشقي، مختلف في صحبته، قُتل يوم مرج راهط سنة (٦٤هـ). انظر: تهذيب التهذيب (١٥٥/٢).

(٣) إسناد هذا الأثر عند ابن جرير ضعيف جدًا من طريق العوفيين الضعفاء، وسبق بيان ضعفها.

(٤) رواه ابن جرير من عدة طرق، وهو في البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) رقم (٢٠) وغيرهما.

(٥) التفسير (٢٤/٢٥-٢٨) ط الفكر. والحديث رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٨٨).

وهنا أمور تتعلق بما ذكره ابن جرير في هذه المسألة الأخيرة:

أولاً: أنه، فيما يبدو قد اختار القول الثاني، وإن لم يصرح به، ويؤيد ذلك بيانه لمعنى الآية وإعرابها قبل ذكر هذا الخلاف بقوله: «الأرض كلها قبضته في يوم القيامة...» فالخبر عن الأرض متناه عند قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ والأرض مرفوعة بقوله: ﴿قَبَضَتْهُ﴾^(١). ثم استأنف الخبر عن السموات، فقال: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهي مرفوعة بمطويات^(٢).

ثانياً: أنه - وأيا كان اختياره - لم يتعرض لما يظهر من التعارض بين ما يتأيد به كل فريق من النصوص؛ فحديث ابن مسعود فيه أن «السموات على إصبع، والأرضين...» وفي غيره، كخبر ابن عمر: «يقبض الأرض بيده...» ويطوى السماء بيمينه». ولم أجد من نبه إلى هذا التعارض الظاهري أو حاول تفسيره إلا الإمام ابن خزيمة، حيث قال: «فلعل متوهما يتوهم - ممن لم يتحرر العلم، ولا يحسن صناعتنا في التأليف بين الأخبار - فيتوهم أن خبر ابن مسعود يضاد خبر ابن عمر، وخبر أبي سعيد يضادها»^(٣)، وليس كذلك عندنا بحمد الله ونعمته؛ أما خبر ابن مسعود فمعناه أن الله جل وعلا يمسك ما ذكر في الخبر على أصابعه، على ما في الخبر سواء، قبل أن تبدل الأرض غير الأرض؛ لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء، ثم يبدل الله الأرض غير الأرض، كما خبرنا منزل الكتاب علي نبيه ﷺ في محكم تنزيله، في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وبين على لسان نبيه المصطفى صفة تبديل

= من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(١) هذا على مذهب الكوفيين في أن المبتدأ والخبر مترافعان. انظر ابن عقيل (١/٢٠١).

الأشموني (١/١٤٩).

(٢) التفسير (٢٤/٢٥) ط الفكر.

(٣) يعنى حديث «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يكفوها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم بيده خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة» الحديث، وهو في البخارى (٦٥٢٠)، =

الأرض غير الأرض، فأعلم ﷺ أن الله تعالى ييدلها فيجمعهما مرة واحدة، فيقبض عليهما حينئذ، كما في خبر ابن عمر، ويكفوهما كما أعلم في خبر أبي سعيد الخدري، فالأخبار الثلاثة كلها ثابتة صحيحة المعاني، على ما بيناه^(١).

ثالثاً: ما حكاه في القول الأول من قولي المختلفين عن ابن عباس: «إنما يستعين بشماله المشغولة يمينه» فهو، وإن كان رواه من طريق ضعيفة، إلا أنه قال في حكاية قول الآخرين: «بل السموات في يمينه، والأرضون في شماله»، فقد وقع ذكر لفظ «الشمال» في سياق القولين جميعاً، فهل اتفق الفريقان على إثباتها؟ وإذا كان قد بدا لنا أنه يختار القول الثاني، وقد احتج هو له بحديث ابن عمر السابق، وقد جاء في إحدى رواياته عنده:

«يطوى الله السموات فيأخذهن بيمينه، ويطوى الأرض فيأخذها بشماله» الحديث، فهل معنى ذلك أن ابن جرير يوافق على إثبات هذه اللفظة «الشمال» ووصف «اليد الأخرى بها»؟؟

إن هذه اللفظة قد وقعت عند مسلم في «صحيحه»، في إحدى روايات حديث ابن عمر السابق، إلا أن مدار هذه اللفظة عند ابن جرير، وعند مسلم أيضاً^(٢)، على عمر بن حمزة بن عمر بن الخطاب العمرى المدني، وهذا الراوى ضعفه ابن معين والنسائي، وقال أحمد: أحاديثه مناكير^(٣).

فاختلف العلماء في شأن هذه اللفظة، فبعضهم ضعفها بناء على ضعف راويها - عمر بن حمزة - ومخالفتها لما صح في غير حديث «وكلتا يدي ربي يمين مباركة»

= ومسلم (٢٧٩٢).

(١) التوحيد لابن خزيمة (٧٨-٧٩) وهو جمع حسن محتمل، وانظر تفسير الطبري (١٣/٢٤٩-٢٥٤) ط الفكر.

(٢) انظر صحيح مسلم (٢٤-٢٧٨٨)، تفسير الطبري (٢٤/٢٨) ط الفكر.

(٣) انظر ميزان الاعتدال (٤/١١٢)، والكاشف للذهبي (٢/٣٠٨)، التهذيب لابن حجر (٤/٤).

فهى - على ذلك - شاذة أو منكرة.

وثبتها بعض العلماء، واحتج لها بهذا الحديث، لا سيما وأن بعض علماء الحديث يقوى أمر عمر بن حمزة ويقبل روايته^(١)، واحتج لذلك أيضا بأن ما جاء فى بعض الأحاديث «اخترت يمين ربى . . .»، «بيمينه» يدل على أنها فى مقابلة يده الأخرى التى ذكر هذا الحديث أنها «الشمال»^(٢).

ومهما يكن من أمر ثبوت هذه اللفظة أو عدمه، فإن الفريقين متفقان على أن «اليد الأخرى» هى «كاليمين» فى الكمال والفضل والجلال، لا نقص فيها ولا عيب - حاشا لله - كشمال الخلق، بل لله - تعالى - من الكمال فى كل صفاته أتمه وأحسنه، ثم يبقى النظر فى صحة التوقيف بهذه اللفظة هو الحكم عند أهل السنة فى إثبات ذلك أو نفيه، كفعلهم فى سائر الصفات.

رابعا: أن ابن جرير يثبت لله - تعالى - ما تثبته نصوص الباب على حقائقها، ويرد قول من تأولها بما يخالف ظواهرها، ولهذا يقول:

«وقال بعض أهل العربية من أهل البصرة ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِ﴾ يقول: فى قدرته، نحو ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ أى: وما كانت لكم عليه قدرة، وليس الملك لليمين دون سائر الجسد. قال: وقوله: ﴿قَبْضَتُهُ﴾ نحو قولك للرجل: هذا فى يدك وفى قبضتك. والأخبار التى ذكرناها عن رسول الله وعن أصحابه وغيرهم تشهد

= ٢٧٤-٢٧٥)، والتقريب له (٧١٦).

(١) انظر الموضع السابق من تهذيب التهذيب لابن حجر، ولعله لذلك لم يورد الدارقطنى هذا الحديث فيما تتبع فيه مسلما فى كتاب «الإلزامات والتتبع».

(٢) انظر النقض على بشر (١٥٥-١٥٦)، التوحيد لابن خزيمة (٦٦-٦٧، ٧٢)، الصفات للبيهقى، وقد جود الباحث علوى السقاف عرض القولين فى كتاب «صفات الله» (٢٧٧-٢٨٣).

على بطول هذا القول»^(١)

خامساً: يقرر ابن جرير منهجه فيما يشبهه، والذي هو منهج أهل السنة في عامة ما يشبتون، من أن ذلك لا يستلزم التشبيه بصفات المخلوقين: «وله يدان ويمين وأصابع، وليست جارحة، ولكن يدان مبسوطتان بالنعم على الخلق، لا مقبوضتان عن الخير»^(٢).

والواقع أن دعوى النفاة أن الإثبات يلزم منه التشبيه ما هى إلى شُنعَةٍ على أهل الإثبات، أو وهلة في فهم مذهبهم؛ فأين من التشبيه مَنْ يُثَبِّتُ لِلَّهِ تعالى يدين شريفتين، على ما أخبر به الله ورسوله، من غير تكييف لهما، ولا وصف إلا ما جاء به الوحي، وأين من التشبيه من يقول: «إن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه» أو: «يمين الله ملأى... وبيده الأخرى الميزان» و «أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن». فأين من الخلق من له ذلك حتى يُشَبَّهَ به^(٣). وهذا أمر - لولا كثرة الجدل وتشنيع المخالف - من الواضح بحيث لا يحتاج إلى تقرير.



(١) التفسير (٢٨/٢٤) ط الفكر.

(٢) التبصير ص (١٢٤)

(٣) انظر النقض على بشر (٦١)، التوحيد لابن خزيمة (٨١-٨٥)، تأويل مختلف الحديث

لابن قتيبة (١٩٠)، مختصر الصواعق (٤٠٨-٤١٠).

المبحث الثالث

استهزاء الله - سبحانه - بالمنافقين

ليس للخوض فى شأن هذه الصفة خصوصية فى الفكر الكلامى ، من أجلها اخترناها ضمن النماذج على موقف ابن جرير من الصفات ، وإنما هى مثال لما فيه معنى الصفة والفعل مما نسب إلى الله تعالى^(١).

وهذا النوع من المضافات هو الذى كانت له الخصوصية فى البحث الكلامى ؛ حيث كان أول فارق - فى باب الصفات - بين أهل الحديث والسنة (المحضة) الذين يثبتون جميع ما جاءت النصوص بإثباته ، وبين الكلاية الذين شاركوهم فى إثبات ما عرف فيما بعد بالصفات العقلية ، وشاركهم كذلك المتقدمون من الكلاية فى إثبات الصفات الخبرية ، كالوجه واليدى ، لكن خالفوهم فى هذا النوع من المضافات إلى الله تعالى ، الذى هو أفعاله الاختيارية ، المتعلقة بمشيئته سبحانه ، على ما مرت الإشارة إليه^(٢).

ويبدو أن موقف ابن كُلاب وأتباعه من هذا القسم هو الذى فتح الباب لتأخرى الأشاعرة لإنكار ما سوى الصفات السبع المعنوية ، حتى أنكروا ما كان يثبت شيوخم الأوائل من الصفات الخبرية ، كالوجه واليدى .

وأما ابن جرير ، فإن إثباته لصفات الاستواء ، والنزول ، الجىء ، وهى من أفعال الله - تعالى الاختيارية المتعلقة بمشيئته ، يعطينا تصورًا لموقفه العام من إثبات هذا القسم من المضافات إلى الله تعالى ، على ما تقتضيه النصوص ، ومشى عليه أهل الحديث والسنة ، إلا أن عرض موقفه من هذه الصفة «الاستهزاء بالمنافقين» يبقى له - رغم ذلك - أهمية خاصة ، من حيث يمثل بحثه لها صورة

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٤٤/٦) وما بعدها .

(٢) انظر مبحث أقسام الصفات وأحكامها ، فى الفصل الثانى .

جلية لمنهجه العام في إثبات الصفات، وهو كذلك نموذج ناضج لبحث قضية كلامية، خاصة في باب الصفات: عرض فيه لأهم الآراء حول المسألة، وذكر حججها، ثم عرض رأيه واحتج له، وزَيَّف ما خالفه.

وقد جعل ابن جرير بحثه لهذه المسألة هو تفسيره لقول الله - عز وجل - عن المنافقين: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]. وبدأ هذا البحث بعرض عدة آراء في الخلاف حول المسألة:

الرأي الأول:

يرى أن استهزاء الله عز وجل بالمنافقين على وجهين: وجه في الدنيا، بأن يملى لهم ليزدادوا إثماً، وهم يحسبون أن ذلك الإملاء خير لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّلُ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ووجه في الآخرة «كالذي أخبرنا تبارك اسمه أنه فاعل بهم يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣].

وأما آخرون، فتأولوا ذلك الاستهزاء على وجهين أيضاً:

الأول: توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من المعاصي والكفر بالله، كما يقال: «إن فلانا ليُهْزَأُ به منذ اليوم ويُسَخَّر منه».

والوجه الثاني: أن استهزاءه به إهلاكه إياهم وتدميره بهم، كما قال عبيد بن الأبرص:

سَائِلُ بِنَا حُجَرَ بْنَ أُمِّ قَطَامٍ إِذْ ظَلَّتْ بِهِ السُّمُرُ النَّوَهِلُ تَلْعَبُ
«قالوا: فكذلك استهزاء الله - جل ثناؤه بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به: إما إهلاكه إياهم وتدميره بهم، وإما إملاؤه لهم ليأخذهم في حال

أمنهم عند أنفسهم بغتة، أو توبيخه لهم ولائمتهم إياهم»^(١).

ونحن نلاحظ هنا أن ابن جرير لما أراد «تلخيص» وجوه الاستهزاء عن أصحاب هذا القول جعلها ثلاثة، مع أنه لم يسق في شرحه إلا وجهين، والوجه الثالث الذى زاده «إملاؤه لهم». سبق منه نسبته إلى أصحاب رأى الأول، فلعله انتقل نظره فأدخله هنا، أو أراد تلخيص ما سبق من أوجه الاستهزاء فى الدنيا، دون ما يكون فى الآخرة، وهو الوجه الثانى لأصحاب القول الأول!! وأما آخرون - أيضا - فتأولوا ذلك على وجه الجواب، كقول الرجل لمن كان يخدعه، إذا ظفر به: «أنا الذى خدعتك»، ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه.. والله لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم.

وأما رأى الرابع، مما حكاه ابن جرير، فحمل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾^(٢) الله يستهزئ بهم» وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وما أشبه ذلك على أنه إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فجعل جزاءهم - فى اللفظ والتسمية - مثل فعلهم، وإن اختلفت حقيقة المعنيين؛ ومعلوم أن الأولى من صاحبتها سيئة، إذ كانت منه لله - تبارك وتعالى - معصية، وأن الأخرى عدل، لأنها من الله جزاء للعاصي على المعصية.

وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك، مما هو خبر عن مكر الله عز وجل بقوم، وما أشبه ذلك^(٣).

وليس يخفى أن الرايين الأخيرين هما فى الحقيقة تأويل واحد، إلا أن العبارة عنه مختلفة نوعا ما!! والرأى الأخير يتأول أصحابه استهزاء المنافقين بأنهم

(١) التفسير (١/٣٠١-٣٠٢).

(٢) التفسير (١/٣٠٢-٣٠٣) ط شاكر.

يظهرون للمؤمنين ما يعتقدونه المنافقون باطلا، لا حَقًّا، ويبطنون خلاف ذلك. «قالوا: وذلك هو معنى من معاني الاستهزاء، فأخبر الله أنه يستهزئ بهم، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، كما أظهروا للنبي ﷺ والمؤمنين في الدين ما هم على خلافه في سرائرهم».

وأما اختياره للصواب من القول في تأويل ذلك، فقد بناه ابن جرير على أمرين:

الأول: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: «إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهراً، وهو بذلك - من قبله وفعله به مورثه مساء باطناً، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر»^(١).

الثاني: أن فعل الله عز وجل ذلك بمن فعله به، هو عدل منه - سبحانه - استحققه العبد، جزاءً وفاً على عصيانه ربّه، وإظهاره خلاف ما يبطن. فإذا كان ذلك كذلك، كان معلوماً أن الله عز وجل كان «بهم مستهزئاً، وبهم ساخرًا ولهم خادعاً، وبهم ماكرًا، بما أظهر لهم من إلحاقه أحكامهم في الدنيا بأحكام أوليائه، وهم له أعداء، وحشره إياهم في الآخرة مع المؤمنين، وهم به من المكذبين، إلى الحد الذي ميز به بين الفريقين، دون أن يكون ذلك معناه في حال فيها المستهزئ بصاحبه له ظالم، أو عليه فيها غير عادل»^(٢).

ثم أيد ابن جرير - بعد ذلك - اختياره بما رواه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في قوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: «يسخر بهم لِنَقَمَتِهِ مِنْهُمْ»^(٣).

(١) السابق (٣٠٣/١)، وانظر ما قيل في معنى الاستهزاء هنا: المفردات للراغب (٥٤٢-

٥٤٣)، الكشف للزمخشري (٦٦-٦٧)، تفسير الرازي (٤٤٧-٤٤٩)، وانظر

أيضاً: لسان العرب (٤٦٥٩/٦).

(٢) التفسير (٣٠٤/١) ط شاكر.

(٣) السابق (٣٠٥/١).

وإذا كانت تبدو لنا بعض ملامح منهج ابن جرير العام، فى اختياره ما اختار هنا، من بنائه اختياره على ظاهر اللغة، ثم حمله للصفات على ظاهرها اللائق به - سبحانه - مع دفع توهم النقص عنها، فإنه يعود على مقالة «الذين زعموا أن قول الله - تعالى ذكره-: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إنما هو على وجه الجواب، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة»، يعود على هذه المقالة بالإبطال بأمرين:

الأول: أنهم نافون عن الله عز وجل ما قد أثبتته الله عز وجل لنفسه وأوجبه لها؛ وفى ذلك ما فيه!!

الثانى: أن من نفى ذلك عن الله عز وجل، يلزمه نفى خبر الله - عز وجل - عن قوم أنه أغرقهم، أو آخرين أنه خسف بهم، إذ الباب فى أخبار الله عز وجل كلها واحد، لا فرق بين خبر وخبر. قال: «ويقال لقائل ذلك: إن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم مضوا قبلنا لم نرهم، وعن آخرين أنه أغرقهم؛ فصدقنا الله تعالى ذكره، فيما أخبرنا من ذلك، ولم نفرق بين شىء منه، فما برهانك على تفريقك ما فرقت بينه، بزعمك: أنه قد أغرق وخسف من أخبر أنه أغرقه وخسف به، ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به؟

ثم نعكس القول عليه فى ذلك، فلن يقول فى أحدهما شيئاً إلا ألزم فى الآخر مثله»^(١).

وهذا أيضاً من منهج ابن جرير العام: طرد الباب فى أخبار الله عز وجل جميعها، فمن أثبت شيئاً مما أثبتته الله - تعالى - لنفسه من صفاته وأفعاله، وهو الحق الذى يرتضيه ابن جرير، ويرتضيه أهل السنة طراً، لزمه إثبات جميع ما أخبر الله به عن نفسه، ومن أبى فنفى شيئاً من ذلك، لزمه إما طرد الباب فينفى سائر ما جاءت به الأخبار من الأفعال، والصفات، بل والأسماء أيضاً، وإما

التناقض، أو التحكم الذي لا يعجز عنه أحد!!

وقد رأينا تطبيقه لذلك المنهج في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] حيث قرر أن من أثبت مجيء الملائكة، لزمه إثبات مجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده يوم القيامة، على ما جاءت به الأخبار، بحيث يليق بجلاله^(١).

ورأيناه أيضا يطبقه في رد تأويل مجاهد لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] بأنهم «مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة...»^(٢).

ثم يعود ابن جرير أخيرا إلى شبهة قد تدعو صاحبها إلى تأويل ذلك، ونفى ما أثبتته الله عز وجل لنفسه؛ وذلك أن يظن أن «الاستهزاء عبث ولعب، وذلك عن الله عز وجل منفي...».

ونعم، لا يخالف ابن جرير، ولا غيره، في أن العبث واللعب منفي عن الله عز وجل، إلا أن ابن جرير لا يسلم لخصه المقدمة الأولى: أن الاستهزاء عبث ولعب، بل يفرق - بدقة - بينهما، حيث يثبت ما جاء به النص، وينفي العبث واللعب عن الله عز وجل. ويبني تفريقه هذا على أمرين:

الأول: أن خصمه يُقرُّ معه بجواز إطلاق القول: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ ونحو ذلك، من حيث اللفظ على الأقل، لأن ذلك هو نص القرآن: «فإن قال: لا؛ كذب بالقرآن، وخرج عن ملة الإسلام».

الثاني: أن خصمه، على حين يقر معه بنسبة ما سبق إلى الله عز وجل، فإنه يتفق مع ابن جرير أيضا على أنه لا ينسب اللعوب ولا العبث - ولو في اللفظ فقط - إلى الله تعالى: «... قيل له: أف تقول، من الوجه الذي قلت: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

(١) انظر: التبصير (١٤٤-١٤٥)، سبق الحديث عن صفة النزول لله تعالى.

(٢) انظر قول مجاهد، ورد الطبري عليه فيما سبق في الباب الأول.

بهم ﴿: يلعب الله بهم ويعبث ولا لعب من الله ولا عبث!﴾

فإن قال: نعم، وصف الله بما قد أجمع المسلمون على نفيه عنه، وعلى تحطئه واصفه به، وأضاف إليه ما قد قامت الحجة من العقول على ضلال مضيفه إليه. وإن قال: لا أقول: «يلعب الله بهم» ولا «يعبث» وقد أقول: «يستهزئ بهم» و«يسخر منهم».

قيل: فقد فرقت بين معنى اللعب والعبث والهزاء والسخرية، والمكر والخديعة، ومن الوجه الذي جاز قيلُ هذا، ولم يجوز قيلُ هذا، افترق معنيهما، فعُلِمَ أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر.

ثم يختم ذلك البحث كله بقوله:

«وللكلام في هذا النوع موضع غير هذا، كرهنا إطالة الكتاب باستقصائه، وفيما ذكرنا كفاية لمن وُفِّق لفهمه!»



الفصل الخامس

القضاء والقدر

تمهيد:

لئن كان الإيمان بالقدر، خيره وشره، أحد أركان الإيمان، فلقد كان التعمق فيه ذريعةً للخذلان!!

أما أنه أحد أركان الإيمان، فلقد نص عليه النبي ﷺ في حديث «جبريل» الشهير: «قال: فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره...». وبهذا الحديث نفسه احتج ابن عمر على غلاة القدرية «الذين يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف»، وقال لسائله - يحيى بن يعمر - : «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر...»^(١). هذا فضلاً عما ورد في إثبات القدر والإيمان به، من نصوص في القرآن والسنة^(٢).

وأما أن التعمق فيه ذريعةٌ للخذلان^(٣)؛ فلأن الناظر فيه، بادی الرأي، يبدو له من النصوص جانب يدل على عموم علم الله تعالى بكل شيء، وكتابتة له، ومشيتته وخلقه، وأن أحداً من خلقه لا يخرج، في صغير ولا كبير من أمره، عن

(١) رواه مسلم في صحيحه ح (٨) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١/ ٥٥-٦٢)، الشريعة للأجری (١/ ٣٧٢-٣٧٨).

(٣) يقول الطحاوی في عقيدته (١/ ٣٢٠ - الشرح): «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فاحذر كل الحذر من ذلك: نظراً وفكراً، أو وسوسة...».

ذلك.

وجانب آخر من النصوص يدل على أمر الإنسان ونبيه، ومسئوليته عن فعله، وثوابه على طاعته، وعقابه على معصيته.

كل ذلك، مع ما تقرر من تمام عدل الله تعالى وحكمته، ورحمته بخلقه، فلا يجازيهم إلا بما كسبت أيديهم، ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به.

فمن تعمق في النظر إلى الأول، وغفل عن الثاني، مال إلى الجبر، ومن تعمق في الثاني، وغفل عن الأول، مال إلى نفى القدر^(١)، ومن تحير بينهما، ضرب كتاب الله بعضه ببعض^(٢)، ومن لم يشفه وحى ربه، أو طلب الهدى من عقله، فقد عاذ بغير معاذ، وكلف عقله ما لا يطيق^(٣).

قال أبو المظفر السمعاني: «سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى، اُخْتُصَّ العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول

(١) انظر: مناهج الأدلة لابن رشد (٢٤٤-٢٥٥)، التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين لابن السيد البطلاني (١٣٤ وما بعدها).

(٢) يبدو أن شيئاً من ذلك الخوض قد وقع على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم، فروى ابن ماجه وغيره، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفْقَأُ في وجهه حَبُّ الرُّمَانِ من الغضب، فقال: أبهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم، تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلك الأمم قبلكم». قال: فقال عبد الله بن عمرو: ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفى عنه». هـ سنن ابن ماجه - ح (٨٥)، وقال البوصيري في الزوائد (٥٨/١): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٣) على أن ابن رشد قد ذكر أن أدلة العقول هي الأخرى متعارضة في هذه المسألة. انظر: مناهج الأدلة (٢٢٦-٢٢٧).

الخلق ومعارفهم، لما علمه من الحكمة»^(١).

وهذا «السر» في باب القدر هو ما يعبر به العلماء عادة عن دقة الجمع بين الجانبين^(٢)، وخفائه عن جمهور الناس، فلا تزال نفوسهم «يحوك فيها من هذه المسألة أمر عظيم»^(٣)، مع أن الجمع بين الجانبين وظيفه الإيمان: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ وهذا ما تعبر عنه كلمة مروية عن جعفر الصادق^(٤)، قيل له: قد أجبر الله العباد؟ قال: الله أعدل من ذلك. قيل: هل فوض إليهم؟ قال: الله أغير من ذلك!! لو أجبرهم ما عذبهم، ولو فوض إليهم ما كان للأمر والنهي معنى! قلت: فكيف تقول إذا؟! قال: منزلة بين منزلتين، هما أبعد مما بين السماء والأرض، ولله في ذلك سر لا تعلمونه»^(٥).

ولعله لذلك جاء: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»^(٦) ليُجِجِر العقل والفكر عن دخوله فيما ليس في طوقه، إلى حظيرة العبودية والتسليم، فإنَّ عنَّ له متشابه رده إلى المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعاذ بإيمانه بتمام علم الله، وتفرد بالخلق والأمر، لا منازع له - سبحانه - في سلطانه، ﴿لَا

(١) نقله عن أبي المظفر: ابن حجر في فتح الباري (٤٨٦/١١).

(٢) انظر: التنبيه لابن السِّيد (١٤٥).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٩٧/٨).

(٤) هو: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي، أبو عبد الله، المعروف بالصادق. قال فيه الذهبي: بَرُّ صادقٌ، كبير الشأن. ١. ه انظر: ميزان الاعتدال (٤١٤/١)، تقريب التهذيب، ص (٢٠٠).

(٥) نقله عنه ابن بطال في شرح صحيح البخاري - مخطوط - (٢٠٥/٤)، وذكره بنحوه ابن السِّيد في - التنبيه (١٤٠)، لكن قال: «جعفر الطيار»، وكأنها تحريف، وفي طبعة سابقة:

الصادق، ونقله البلوي - عن ابن السِّيد - في «ألف باء» (٥٢/٢) وثلاثها أندلسية!!

(٦) رواه الطبراني وغيره من حديث ابن مسعود، وحسنه ابن حجر في الفتح (٤٨٦/١١)، وصححه الألباني في الصحيحة، رقم (٣٤).

يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، «لا لمجرد قدرته وقهره، بل لكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته»^(١)، ويكفيه، إن اشتبه على بصره دليل أو نظر، أن يَرُدَّ بصيرته إلى ربه الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.



المبحث الأول

البحث في القدر ومنزلته عند ابن
جرير

على حين لا اختصاص لمؤمن دون آخر بالإيمان بوحداية الله تعالى وعدله، ولا لفرقة دون غيرها ببحث ذلك أو الخوض فيه، فلقد سمي المعتزلة أنفسهم: «أهل العدل والتوحيد» واختصوا بذلك لدى مؤرخيهم^(١)؛ نسبةً إلى أهم أصليين من أصولهم الخمسة، وهما: التوحيد والعدل، واللذان هما محل إجماع بينهم، وإليهما ترجع الأصول الخمسة، وعليهما تنبنى فروع مقالاتهم^(٢). وسموا أنفسهم أيضًا «أهل العدل» و«العدلية»^(٣)، نسبة إلى مذهبهم في عدل الله - سبحانه.

وهذان الأصلان قد قرن ابن جرير بينهما أيضًا، واعتبرهما أصليين عقليين، لا يسع خلاف المخالف فيهما، مجتهدًا كان أو مخطئًا، أو جاهلًا!! قال:

«فأما الذي لا يجوز الجهل به في دين الله.. فتوحيد الله، تعالى ذكره، والعلم بأسمائه وصفاته وعدله..»^(٤).

وإذا كان منهجه في «توحيد الله... وأسمائه وصفاته» مبينا تماما لمنهج المعتزلة وموقفهم من ذلك، فهل تأثر ابن جرير بالمعتزلة في جمعه بين هذين الأصلين بهذه الصورة، أو في استعماله لمصطلح «العدل» للتعبير عن موقفه من

(١) انظر: المنية والأمل لابن المرتضى (٢)، والملل والنحل للشهرستاني (١/٤٣)، العلم الشامخ للمقبلي (٣٦٨)، المعتزلة لزهدى جار الله (٥).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة (١٢٢-١٢٤)، المنية والأمل (٢، ٦)، المعتزلة (٦).

(٣) انظر: المنية والأمل (٢)، منهاج السنة، لابن تيمية (٣/١٤١)، العلم الشامخ (٥١٣).

(٤) انظر: التبصير (١١٦-١١٧).

مباحث القضاء والقدر.

لقد يبدو أن القول بتأثر ابن جرير في ذلك الجانب اللفظي «الاصطلاحي»، أعنى جمعه بين هذين الأصلين، لقد يبدو بعيداً، نوعاً ما، إذا ما عرفنا أن ذلك الجمع كان مستعملاً في الوسط السني الذي ينتمي إليه ابن جرير، ويُعد أحد أعلامه.

وأقدم من وقفت على جمعه بينهما، عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - إذ ورد عنه أنه قال: «القدر نظام التوحيد، فمن وَحَّد الله ولم يؤمن بالقدر، كان كفره بالقضاء، نقضا للتوحيد، ومن وحد الله وآمن بالقدر، كان العروة الوثقى، لا انفصام لها»^(١).

وقريب من عبارة ابن عباس هذه نجده عند أبي حنيفة في الوصية المنسوبة إليه^(٢)، وجمع بينهما كذلك الطحاوي - وهو معاصر لابن جرير (٢٣٩هـ - ٣٢١هـ) في عقيدته^(٣)، وكذلك نجده واضحاً - بعد هؤلاء - عند أبي المظفر السمعاني (٤٨٩هـ)، فيما رواه عنه تلميذه قوام السنة الأصبهاني:

(١) رواه اللالكائي (٢/٦٧٠). وقد ورد بالفاظ متقاربة عند اللالكائي - أيضاً (٢/٦٢٣)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١٢٣-١٢٤)، والآجري (١/٤١٨، ٤١٩، ٤٩٦، ٤٩٧)، وابن بطة في الإبانة (٢/١٥٨-١٥٩)، ونقله ابن تيمية في كثير من كتبه، كالتدمرية (٢١٢)، وابن القيم في طريق الهجرتين (٨١)، وشارح الطحاوية (٣٢٢، ٣٥٨)، وصححه الأخير عن ابن عباس، وحسنه محقق «الشرعية». وانظر: تعليق ابن أبي الخير عليه في «الانتصار في الرد على المعتزلة» (٢/٣٣٠ وما بعدها)، وقارن: التعليق على الطحاوية (٣٥٨).

تبيته: ورد ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، من حديث ابن عباس أيضاً، لكن إسناده ضعيف.

انظر: فيض القدير للمناوي (٤/٦٨٤)، ضعيف الجامع للألباني رقم (٤١٣٢).

(٢) وصية الإمام أبي حنيفة (٣٨).

(٣) العقيدة الطحاوية مع شرحها (٣٥٥).

«... فقد دعا الله الخلق إلى الوحدانية والأقدار معا. فالتوحيد لوحدانيتها، والتقدير لربوبيته، والإذن قدرته، فكما لا يجوز إبطال وحدانيته، كذلك إبطال ربوبيته وقدرته، وهو التقدير والإذن»^(١).

لكن التأكيد على التلازم بين هذين الأصلين، كان يأخذ في بعض الأحيان صورة الدفاع ورد الفعل لموقف المعتزلة (القدرية) منهما، فيما يمكن أن يكون تأثيرا عكسيا لذلك الموقف. وهو الأمر الذي صرح به أحد معاصري ابن جرير من أئمة السنة: ابن خزيمة (٢٢٣-٣١١هـ)؛ حيث يقول، معذرا عن تأليفه كتاب التوحيد:

«... فقد أقي علينا برهة من الدهر، وأنا كاره للاشتغال بتصنيف ما يشوبه شيء من جنس الكلام من الكتب، وكان أكثر شغلنا بتصنيف كتب الفقه التي هي خلوة من الكلام في الأقدار الماضية، التي قد كفر بها كثير من متحلي الإسلام وفي صفات الله - عز وجل - التي قد نفاهها، ولم يؤمن بها المعطلون..»

فلما حدث في أمرنا ما حدث.. كنت أسمع من بعض أحداث طلاب العلم والحديث، ممن لعله كان يحضر مجالس أهل الزيغ والضلالة من الجهمية المعطلة، والقدرية، ما تخوفت أن يميل بعضهم عن الحق والصواب من القول بالبهت والضلال في هذين الجنسيتين من العلم... فيعلم الناظر في كتابنا هذا... صحة مذهب أهل الآثار في هذين الجنسيتين من العلم، وبطلان مذهب أهل الأهواء والبدع... وقد بدأت بكتاب القدر فأملتته، وهذا كتاب التوحيد...»^(٢).

وأما استعمال مصطلح «العدل» في التعبير عن مباحث القدر وما يتعلق به، فهذا لم أقف عليه في استعمال أهل السنة، خاصة المحدثين. إلا أنه، وعلى التسليم

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/٥١-٥٢).

(٢) كتاب «التوحيد» لابن خزيمة (٤٠٥).

بصحة أن استعمال ذلك المصطلح - العدل - معتزلى النشأة، فإن مفهوم ابن جرير - كسائر أهل السنة - للعدل الإلهى، مغاير تماما لمفهوم المعتزلة له. وهو الأمر الذى عبر عنه تلميذ ابن جرير: عبد العزيز بن محمد الطبرى، على وجه الإجمال، بقوله: «وكان يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال فى جميع ما خالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر...»^(١)، وهو ما نحاول تبينه ودراسته فى هذا الفصل إن شاء الله، وإن كان ذلك يظهر من مجرد بيان المراد المصطلح عند كل منهما: فالعدل - المضاف إلى الله تعالى، يعنى عند المعتزلة «أن أفعاله كلها حسنة، وأنه لا يفعل القبيح، ولا يُخِلُّ بما هو واجب عليه»^(٢)، والظلم الذى تنزه الله عنه، وهو نقيض العدل، يعنى - فى حد القاضى عبد الجبار له: «كل ضرر لا نفع فيه، ولا دفع ضرر، ولا استحقاق، ولا الظن...»^(٣).

وأما ابن جرير، فلا يزيد فى شرح هذين اللفظين - العدل، الظلم - على ما هو ما معروف فى اللغة؛ فالعدل هو «الحق والإنصاف»^(٤). «وأصل الظلم فى كلام العرب: وضع الشيء فى غير موضعه... وقد يتفرع الظلم فى معان يطول بإحصائها الكتاب...»^(٥). وعدله فى خلقه يفسره ابن جرير بإنصافه - تعالى - للعاملين فى جزائهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر^(٦).

(١) معجم الأدباء لياقوت (٨٢/١٨).

(٢) شرح الأصول (١٣٢، ٣٠١). والغريب أن التهانوى ينسب ذلك التعريف للشيعة، ولا يسمى المعتزلة، مع أنهم أصله، وعنهم انتقل إلى الشيعة الذين تأثروا بهم. انظر: كشف اصطلاحات الفنون (٣/١٠١٥-١٠١٦)، وقارن: مقالات الأشعرى (١/١١٥).

(٣) شرح الأصول (٣٤٥)، وانظر الحليند: قضية الخير والشر (٢١٥-٢١٧).

(٤) التفسير (٦/٥١، ٦٠، ١٤/١٦٢) ط شاكر، وانظر: شرح فصيح ثعلب للزمخشري (١/٢٦٧).

(٥) التفسير (١/٥٢٣-٥٢٤) ط شاكر، ومواقع كثيرة أخرى.

(٦) السابق (٨/٤٥٦) ط شاكر.

ونذكر هنا مثلاً واحداً للاختلاف بين النظرتين في مفهوم «العدل» المضاف إلى الله تعالى، والظلم المنفى عنه. ففي تفسير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [٤٩] يقول ابن جرير:

«... ليس المزكى من زكى نفسه، ولكنه الذى يزكيه الله، والله يزكى من يشاء من خلقه، فيطهره ويبرئه من الذنوب، بتوفيقه لاجتناب ما يكرهه من معاصيه إلى ما يرضاه من طاعته... ولا يظلم الله هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يزكون أنفسهم، ولا غيرهم من خلقه، فيبخسهم في تركه تركيتهم، وتركية من ترك تركيتهم، وفي تركية من زكى من خلقه، شيئاً من حقوقهم، ولا يضع شيئاً في غير موضعه، ولكنه يزكى من يشاء من خلقه فيوفقه، ويخذل من يشاء من أهل معاصيه، كل ذلك إليه ويده، وهو في ذلك غير ظالم أحداً - ممن زكاه أولم يزكه - فتيلاً»^(١).

في حين أن المعتزلة يفسرون التزكية هنا بأنها وصفهم بالتزكية والإخبار عنهم بذلك^(٢)؛ حيث إن مفهوم «العدل» عندهم يقتضى التسوية بين العباد في أسباب الهداية والتوفيق، وأنه لم يخص أحدا منهم بشيء من ذلك، وهو موقف يظهر بجلاء من تفسير «الزنجشري» المعتزلى لهذه الآية^(٣)



(١) السابق (٤٥٦/٨) ط شاكر.

(٢) الانتصار للخياط (١٨٣). وانظر الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة (٢٤، ٢٩)، منهاج السنة

(٣/١١٨-١١٩).

(٣) الكشف (١/٥٢٠).

المبحث الثاني

العلم السابق والكتابة

تواردت نصوص الكتاب والسنة على إثبات علم الله تعالى القديم بكل شيء، وكتابته له قبل خلق السموات والأرض، وربما جاءت هاتان المرتبتان (العلم والكتابة) في نص واحد، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحج: ٧٠)، وكما في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) وهذه النصوص وسواها كثير، أبين من أن تحتاج إلى ذكر.

وقد أجمع على ذلك الصحابة والتابعون لهم من سلف الأمة وأهل السنة والجماعة^(١)، بل لم يخالف فيه إلا غلاة القدريّة، على ما سبق.

رأى الطبري:

يقرر ابن جرير مُعْتَقَد المسلمين في «سابق علم الله»، وليس بنا الآن أن نعيد ما ذكرناه آنفاً حول صفة العلم، وإنما نذكر هنا ما يقرره ابن جرير من أنه لا خروج لأحد عما سبق له في علم الله تعالى، ومضى به كتابه^(٢). يقول في تفسير

(١) انظر: رسالة الثغر للأشعري (٨١)، أصول السنة لابن أبي زمنين (ق ٣٠ب)، شفاء العليل لابن القيم (٦٣، ٩٨).

(٢) يقول ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١): «... وأما القلم فهو المعروف، غير أن الذي أقسم به ربنا من الأقلام: القلم الذي خلقه الله تعالى ذكره، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة» ا.هـ (٢٩/١٦)،

قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]:

«وقد سبق في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بك أكثرهم للسابق من علمي فيهم»^(١).

وفي قوله تعالى، حكاية عن أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] يقول ابن جرير: «ربنا غلبت»^(٢) علينا ما سبق لنا في سابق علمك، وخط لنا في أم الكتاب»^(٣).

ومن الأهمية بمكان هنا أن نرى ابن جرير في غير موطن من تفسيره يقرره بدقة معنى مُهِمًّا، هو بيت القصيد في ذلك البحث حول (سبق العلم والكتاب)، مَنْ أَغْفَلَهُ إما وقع في الجبر المحض، وإما نفى سبق العلم، والكتاب، وأعنى بذلك أن ما سبق في العلم والكتاب لا يُنال إلا بعمل؛ فأما عباد الله «الذين أخلصهم يوم خلقهم لرحمته، وكتب لهم السعادة في أم الكتاب، فإنهم لا يذوقون العذاب؛ لأنهم أهل طاعة الله، وأهل الإيمان به»^(٤). وأما الذين ذرأهم لجهنم، فإنما «خلقهم» لها «لنفاذ علمه فيهم بأنهم يصيرون إليها بكفرهم بربهم»^(٥).

ثم ذلك العمل، إيماناً كان أو كفراً، إنما يعملُه العامل اختياراً لا اضطرار. يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]:

= وانظر التاريخ (١/٣٢ وما بعدها).

(١) التفسير (١٩/٦٣) ط الفكر، وانظر: ص ٩٠، ٩٢، ١١٥ من نفس الجزء)، وانظر أيضًا: (٨/٥١٦ ط شاكر)، (٣٠/٣٣٠-٣٣١) ط الفكر مهم.

(٢) كذا، ولعلها: غَلَبَ.

(٣) (١٨/٥٦) ط الفكر، وانظر (١٧/٢٠١) ومواطن أخرى.

(٤) التفسير (٢٣/٥٢) ط الفكر.

(٥) السابق (١٢/٢٧٨) ط شاكر.

«فلا تكونن ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأن من يكفر به من خلقه، إنما يكفر به لسابق علم الله فيه، ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به، اختياراً لا اضطراراً»^(١).

وهذه المعانى الدقيقة التى نثرها ابن جرير فى سياقات مختلفة، وحاولنا هنا الإشارة إليها وجمع أطرافها، قد عرض لها ابن جرير فى نص مهم، من كتابه «تهذيب الآثار»، فى غالب الظن، وبسط تقريرها، بما يبين بجلاء موقفه منها. ولقد حفظ لنا هذا النص - بعد ضياع أصله - ابن بطل فى شرحه لصحيح البخارى، ضمن ما حفظ من نفائس نصوص ابن جرير، ونحن ننقله هنا على طوله، جمعاً لنصوصه المهمة، خاصة ما فقد أصلها، وعزاً مصدرها. قال ابن بطل: «قال الطبرى: فى حديث علي^(٢) أن الله لم يزل عالماً بمن يطيعه فيدخله الجنة، وبمن يعصيه فيدخله النار، ولم يكن استحقاق من يستحق الجنة منهم بعلمه السابق فيهم، ولا استحقاقه النار لعلمه السابق فيهم، ولا اضطر أحدًا منهم علمه السابق إلى طاعة أو معصية، ولكنه تعالى، نفذ علمه فيهم قبل أن يخلقهم، وما هم عاملون وإلى ما هم صائرون، إذ كان لا تخفى عليه خافية قبل أن يخلقهم، ولا بعد ما خلقهم...»

فإن قال قائل: فما معنى قوله عليه السلام: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»، إن كان الأمر كما وُصِفَ من أن الذى سبق لأهل السعادة والشقاء لم يضطر

(١) السابق (٣٤٠/١١) نفس الطبعة.

(٢) يشير إلى ما رواه البخارى (٦٦٠٥) من حديث على^{عليه السلام} قال: كنا جلوساً مع النبى^{صلى الله عليه وسلم} ومعه عود ينكت به فى الأرض، فنكس، وقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار أو من الجنة». فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «لا، اعملوا فكل ميسر. ثم قرأ: ﴿قُلْنَا مَنْ أَعْطَى وَاقِيَ﴾ الآية. وقد رواه البخارى أيضاً فى كتاب الجنائز (١٣٦٢) بأنهم من هذا، ورواه مسلم (٢٦٤٧) بنحو منه. وفى رواية لمسلم: «ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها...».

واحدًا من الفريقين إلى الذي كان يعمل ويمهد لنفسه في الدنيا، ولم يجبره على ذلك؟

قيل: هو أن كل فريق من هذين مُسهِّلٌ له العمل الذي اختاره لنفسه، مُزَيِّنٌ ذلك له، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيْنُكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [الحجرات: ٧]. وأما أهل الشقاء، فإنه زين لهم سوء أعمالهم لإيثارهم لها على الهدى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، وكما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ فَراءَهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وهذا يصحح ما قلناه من أن علم الله النافذ في خلقه بما هم به عاملون، وكتابه الذي قبل خلقه إياهم، بأعمالهم، لم يضطر أحدا منهم إلى عمله ذلك، لأن المضطر إلى الشيء لا شك أنه مُكرِهٌ عليه، لا محب له، بل هو له كاره ومنه هارب، والكافر يقاتل دون كفره أهل الإيمان، والفاسق يناصب دون فسقه الأبرار، محاماة من هذا عن كفره الذي اختاره على الإيمان، وإيثارا من هذا لفسقه على الطاعة، وكذلك المؤمن يبذل مهجته دون إيمانه، ويؤثر العناء والنصب دون مَلَأْذِهِ وشهواته، حبًّا لما هو مختار من طاعة ربه على معاصيه، وأنى يكون مضطرا إلى ما يعمل به كانت هذه صفاته؟!

فبان أن معنى قوله: «اعلموا فكل ميسر لما خلق له» هو أن كل فريقى السعادة والشقاوة مسهل له العمل الذي اختاره، مزين ذلك له»^(١) .

بيد أن ثمة حديثا أثار قدرا من الجدل حول نسبة أفعال الإنسان إليه ومسئوليته عنها، واستحقاقه الجزاء عليها. وهو حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال:

(١) شرح ابن بطل لصحيح البخارى (٤/ق ٢٠٣- مخطوط دار الكتب)، وقد نقل ابن الوزير مقتطفات منه فى إيثار الحق (٢٠٢-٢٠٣) عن ابن بطل، ومنه استدلت على موضعه عند ابن بطل.

«احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. قال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى ثلاثاً»^(١).

وموطن الإشكال في الحديث أنه يساعد الجبرية، في بادئ الرأي، على حد تعبير ابن عبد البر^(٢)، على مذهبهم، وأنه لا لوم على من ارتكب ما ارتكب من المعاصي، مع سبق القدر بها؛ لأن موسى لما لام آدم، وذكره آدم بسبق الكتاب، انقطع موسى عن لومه، وحجّه آدم، وهو الأمر الذي أدى بالمعتزلة إلى إنكار هذا الحديث^(٣)، وهي شنيئتهم في سائر ما يخالف مذهبهم، مما لا يقدرون على تأويله، مع أنه «ثابت بالاتفاق» - كما يقول ابن عبد البر^(٤).

وقد نقل «ابن بطلال» احتجاج «الجبرية» بهذا الحديث، فقال: «واحتجت أيضاً^(٥) طائفة من القدرية المجبرة، غير الجهمية^(٦)، بهذا الحديث فقالت: إن كان صحيحاً قول آدم لموسى: أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن أخلق، فلا لوم على كافر في كفره، ولا فاسق في فسقه، ولا يجوز أن يجوز عليهم

(١) البخارى (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) وغيرهما، وانظر البداية والنهاية (١/٧٥-٧٨).

(٢) انظر: فتح البارى (١١/٥١٧).

(٣) انظر: المغنى (٨/٣٣٤)، وقارن: منهاج السنة لابن تيمية (٣/٧٩)، شفاء العليل (٢٨)، فتح البارى (١١/٥١٨).

(٤) كما في فتح البارى لابن حجر (١١/٥١٤). وذكر ابن كثير أنه «متواتر عن أبى هريرة، وناهيك به عدالة وحفظ وإتقان، ثم هو مروي عن غيره من الصحابة». ا. هـ البداية (١/٧٨).

(٥) من الغريب أن ابن بطلال نقل احتجاج «القدرية» بهذا الحديث على أن العباد يخلقون أفعالهم... انظر شرحه (٤/٢٠٥).

(٦) لم أفهم وجه هذا الاستثناء: «غير الجهمية»؟!

ويعذبهم على ما اضطهرهم إليه. . . ثم نقل جواب ابن جرير عن ذلك، فقال: «قال الطبري: فالجواب أنه ليس معنى قول: «أتلومني على أمر كتبه الله على قبل أن أخلق، كما توهمته. وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه، وقد عاقبه الله على خطيئته تلك بإخراجه من الجنة، ولو لم يكن ملوما، لكان وكُنَّا في الجنة، كما أسكنه الله. ولكنه، جل جلاله، أخرجه منها لخطيئته تلك عقوبة عليها، ولم يعاقبه على ما قضى عليه؛ لأنه لو عاقبه عليه لما كان يسكنه الجنة حين أسكنه إياها؛ وذلك أن القضاء عليه بذلك قد كان مضى قبل أن يخلقه، فإنما استحق العقوبة على فعله، لا على ما قضى عليه، وبمثل هذا أقر موسى لآدم بصحة حجته، ولم يقل له، كما زعمت القدرية: ليس الأمر كما تزعم؛ لأن الله لو قضى عليك ذلك قبل أن يخلقك لم يعاقبك، ولكن لما كان من دين الله الذي أخذ بالإقرار به عهود أنبيائه وموآثيقهم، أنه لا شيء كان فيما مضى ولا فيما يحدث إلا قد مضى به قضاؤه، فإنه غير معاقبهم على قضائه، ولكن على طاعتهم ومعاصيهم، وكان ذلك معلوما عند الأنبياء والرسل، أقر موسى لآدم - صلى الله عليهما - بأن الذي احتج به عليه، له حجة، وحقق صحة ذلك نبينا - عليه السلام - بقوله: «فحج آدم موسى»^(١).

والواقع أن طرائق العلماء قد تعددت في الإجابة عن هذا الحديث^(٢) وقد حرَّر ابن جرير هنا - في كثيرين سواء من العلماء - أن اعتذار آدم بسبق الكتاب لم يكن عن معصيته التي وقع فيها، ولم يكن سؤال موسى - من ثم - عنها^(٣)، وإلا لما تم لآدم الفلج عليه في حجاجه؛ ودلل على ذلك بأن آدم قد عوقب على معصيته، لا على سبق الكتاب.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مخطوط، (٤/٢٠٥-١٢٠٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٠٤ وما بعدها)، شفاء العليل (٢٨ وما بعدها)، فتح الباري

(١١/٥١٧-٥٢٠).

(٣) انظر: منهاج السنة (٣/٨١).

إلا أن ابن جرير، حين أراد أن يحرر موطن حجة آدم التي حجج بها موسى لم يتخلص له البحث، وعاد - فيما يبدو لي - ليقرر أن آدم قد احتج بسبق الكتاب بمعصيته، وإن كان العقاب على نفس الفعل، لا على سبق الكتاب، وهو أمر يُقرُّ به موسى، وهذا - فيما يبدو لي - إن لم يزد الحديث إشكالا؛ فإنه لا يُزيله، وكأنه انتقال نظر عن تحرير محل النزاع الذي كان قد سار خطوة نحوه ببيان أن آدم استحق العقوبة على معصيته، لا على الكتاب السابق. وهذا يدل كما أسلفنا، على أن السؤال والجواب لم يكونا عن معصية آدم، صلى الله على نبيينا وعليه وسلم.

ومن يتأمل أجوبة العلماء على هذا الحديث، يجدها، على كثرتها، قد عرَّجت عن مقصود الحديث، على حد تعبير ابن تيمية^(١)، وقل منهم من حرر المقصود منه، ودفع ما يورد من إشكالات عليه^(٢). ولعل أصح ما قيل في معنى الحديث ما انتصر له ابن تيمية، وتبعه عليه بعض تلامذته، وهو «أن موسى لم يُلْمَ آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لا لأجل أن تارك الأمر مذب عاص، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يقل: لماذا خالفت الأمر؟ ولماذا عصيت...»^(٣). وهو نفس المعنى الذي يقرره الداودي من شُراح البخاري^(٤)، وصححه فيما بعد، ابن الوزير^(٥).

(١) السابق (٨٠/٣).

(٢) حتى قال ابن كثير عن هذه التأويلات «ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى، وما فيهم من هو أقوى مسلكا من الجبرية» ا. هـ البداية والنهاية: (١/٧٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٩/٨) وانظر: منهاج السنة (٨٠/٣)، شفاء العليل (٣٥-٣٦)، البداية والنهاية (١/٧٨-٧٩).

(٤) فيما نقله ابن التين عنه، كما في فتح الباري (٥١٩/١١). والداودي هو: أبو جعفر، أحمد بن سعيد الداودي (ت ٩٩؟) انظر: اتحاف القارئ بمعرفة جهود وأعمال العلماء على صحيح البخاري - محمد عصام الحسني (٦٣-٦٤).

(٥) إيثار الحق (٣٠٥-٣٠٦).

المبحث الثالث

المشيئة العامة

جاءت نصوص الكتاب والسنة تترى، تؤكد أن ما أجمع المسلمون على قوله :
 ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن^(١)، هو صحيح على عموميه، يشمل كل «ما»
 في ملك الله، تعالى. فما خير ولا شر، ولا نفع ولا ضرر، ولا هدى ولا
 ضلال... ولا شيء مما كان أو هو كائن، إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته،
 سبحانه وتعالى، ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

فمن نصوص القرآن، وهى كثيرة جدا، قوله - تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
 أَفْتَلَتِ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ
 ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾
 [البقرة: ٢٥٣]، وقوله - تعالى - عن كلمه موسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام
 - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]،
 وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ
 يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ
 يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٢٥] [الأنعام: ١٢٥].

ومن أقوال النبي ﷺ وهى كثيرة أيضا، ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص
 - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن قلوب بنى آدم كلها بين
 إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»، ثم قال رسول
 الله ﷺ «اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك»^(٢).

(١) انظر الإبانة للأشعري (١٦٣)، الفصل (٨٢/٣)، شفاء العليل (٩٣).

(٢) رواه مسلم فى كتاب القدر من صحيحه (٢٦٥٤).

ثم اختلف الناس - ذأْبُهُمْ - فى ذلك، على وضوحه. فالمعتزلة، وقد وَّحَدُوا بين الإرادة والأمر، عندهم أن الله - تعالى - لا يريد القبائح ولا يشاؤها، وإلا كان محبًّا لها، راضيا بها؛ لأن المحبة والرضى والإرادة كلها من باب واحد، أما الطاعات (الواجب والمندوب) فإنه يريدوها ويشاؤها، بمعنى أنه يحبها ويأمر بها (لا أنه يخلقها - كما سيأتى فى المبحث التالى). وتأيدوا من القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَّادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] ونحو ذلك من الآيات^(١).

والأشاعرة، وقد وَّحَدُوا بين الخلق والإرادة^(٢)؛ اتفقوا على أنه لا يحدث فى العالم شيء لا يريد به الله تعالى، ولا ينتفى ما يريده^(٣). ثم منهم من لم يفرق بين الإرادة والمشيئة، والاختيار والرضى والمحبة^(٤)، فالتزم أن كل ما يحدث - وإن كان معصية وكفرا - فهو مرادٌ لله تعالى محبوب له، مرضئٌ عنده^(٥). هى وفكرة بدأت فى المذهب منذ شيخه الأول (أبى الحسن) الذى كان أول من قال ذلك، وأهل السنة قبله على أن الله لا يحب المعاصى^(٦)، وإن كان من الأشاعرة من لا يطلق ذلك ويأباه^(٧).

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (٤٥٩) وما بعدها.

(٢) الجليلند: قضية الخير والشر (٤٦).

(٣) انظر: اللمع للأشعرى (٤٧)، أصول الدين للبغدادى (١٠٢).

(٤) انظر: الإنصاف للباقلانى (٤٠، ٤٤).

(٥) انظر: الإرشاد للجوينى (٢١١، ٢٢٠)، فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٤٠-٣٤١)، موقف ابن تيمية للمحمود (٣/ ١٣١٦-١٣١٧).

(٦) على ما نقله شيخ الإسلام فى الفتاوى (٨/ ٢٣٠) عن الجوينى. وانظر: الإبانة (١٦٦، ١٧٠-١٧١)، اللمع (٥٤)، حيث يقرر أن المعاصى لو كانت، والله - تعالى - يكره أن تكون، لكان ذلك صفة ضعف وافتقار!! وقارن شرح الأصول الخمسة (٤٦٨) حيث يسجل ذلك على الأشعرى.

(٧) انظر: الإرشاد (٢١١)، الأربعين للرازى (١/ ٣٤٥).

وهدى الله أهل السنة، فجمعوا بين النصوص، وحازوا صواب كل فريق، واعتصموا بالنصوص عن خطئه. فوافقوا الأشاعرة على «أنَّ الواقع (في الكون) بمشيئته، وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذه حقيقة الربوبية»^(١). وأما قولهم، أو قول بعضهم: إن ذلك يستلزم محبته لما «يَحْدُثُ» في كونه، ورضاه بما يقع فيه، فقد أباه عليهم أهل السنة، وخالفوهم فيه؛ فإن الكفر واقع بمشيئة الله، والله تعالى ﴿لَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، والفساد ظاهر في الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وإنما يُحِبُّ ما شرعه لهم ويرضاه ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

ووافقوا المعتزلة على أن ما أمر به فقد أحبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وأراده منهم: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]. وأن ما نهى عنه فقد كرهه: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، ولم يرضه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، ولم يرْذه منهم: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. إلا أنهم خالفوهم في نفهم وقوع معاصي العباد وكفرهم بمشيئة الله وإرادته وخلقه: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

ونكتة المسألة أن لفظ «المشيئة» متعلق بخلق الله الكون؛ فما وقع في «كون الله، فهو بمشيئته، طاعة كان أو معصية. ولفظ «المحبة»، وما يشبهه، متعلق بشرع الله، فما شرعه لعباده فقد أحبه، وقع منهم أو لم يقع. ولفظ الإرادة مشترك بين الأمرين، فمرة يطلق ويراد به المشيئة والتقدير، فتكون المعاصي مرادة بهذا المعنى، ومرة يطلق ويراد به ما شرعه الله لعباده وأمرهم به، فيكون بهذا

المعنى مرادفًا للمحبة، ولا تدخل فيه المعاصي...؛ وبهذا يزول الإشكال في هذه المسألة^(١).

رأى الطبري:

عرض ابن جرير لتقرير مذهبه في هذه المسألة عند تفسيره لعدة آيات مما جاء فيها لفظ «المشيئة» أو «الإذن». . . أو ما يتصل بها. وإذا كانت هذه المسألة أحد ما اختلفت حوله الأمة، فطبيعي أن يتناولها أيضًا في رسالتيه «التبصير». و«صريح السنة». ففي هذه الأخيرة يقول: «وأما الصواب من القول لدينا فيما اختلف فيه من أفعال العباد وحسناتهم وسيئاتهم، فإن جميع ذلك من عند الله، والله سبحانه مقدره ومدبره، لا يكون شيء إلا بإذنه^(٢)، ولا يحدث شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر كما يريد^(٣)».

ولا نجد في كلام ابن جرير في كتبه الأخرى خلافا لهذه الجملة التي قررها، وإن كان في بعضها من التقرير والاستدلال والرد على المخالف، ما ليس في الآخر، حسبما يتيح السياق الذي يبحثها فيه.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/١٩٧-١٩٨)، شفاء العليل (١٠٥-١٠٦)، وقارن: (الفصل ٨٠/٣ وما بعدها).

(٢) جاءت هذه الكلمة في «رواية اللالكائي» (١/١٨٥): بإرادته. ومراده في هذه النسخة «الإذن» الكوني القدرى، كما قال في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَاغِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١٠): يعني بقضائه وقدره، كما في تفسيره: (٢٨/١٦)، وانظر (٨/٥١٦) ط شاكر. وقد يرد «الإذن» والمراد به «الشرع والأمر» كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَهْتُمْ فَأْتُمْهُوا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٥). يقول: «فبأمر قطعتم ما قطعتم» (٢٨/٣٥) ط الفكر. وانظر شفاء العليل (٥٥٣-٥٥٤).

(٣) صريح السنة ص (٢١) ط الكويت.

ففى «صريح السنة»، وعقب هذه الجملة، يستدل لها بما يرويه بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»^(١).
وأما فى التفسير فيستخرج ذلك المعنى ويقرره من خلال الآيات الدالة عليه. ففى تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]. يقول: ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل، ولجعلهم أمة واحدة... مجتمعة على دين واحد. ولكن يدخل من يشاء فى رحمته... بتوفيقه إياه للدخول فى دينه...

ولمّا قيل هذا لرسول الله ﷺ تسليّة له عما كان يناله من الهم بتولية قومه عنه، وأمرًا له بترك إدخال المكروه على نفسه...، وإعلامًا له أن أمور عباده بيده، وأنه الهادى إلى الحق من شاء، والمضل من أراد دونه، ودون كل أحد سواه»^(٢).

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] يقول: «ولو شاء يا محمد ربك لأمن من فى الأرض كلهم جميعًا بك، فصدقك أنك لى رسول، وأن ما جئتكم به، وما تدعوهم إليه من توحيد الله، وإخلاص العبودية له حق. ولكن لا يشاء ذلك، لأنه قد سبق من قضاء الله قبل أن يبعثك رسولاً أنه لا يؤمن بك، ولا يتبعك فيصدقك بما بعثك الله به من الهدى والنور، إلّا من سبقت له السعادة فى الكتاب الأول، قبل أن يخلق

(١) ورواه الترمذى أيضًا رقم (٢٢٣١) - تحفة الأحوذى، ومداره عندهما على عبد الله بن ميمون، منكر الحديث، كما فى الميزان ٢٢٦/٣. لكن صح الحديث من طرق أخرى، وله شواهد كثيرة. انظر السلسلة الصحيحة رقم (٢٤٣٩).

(٢) التفسير (١٠/٢٥) ط الفكر.

السموات والأرض وما فيهن . وهؤلاء الذين عجبوا من صدق إيماننا إليك هذا القرآن لتنذر به من أمرتك بإنذاره، ممن قد سبق له عندي أنهم لا يؤمنون بك في الكتاب السابق»^(١).

وإذا كنا قد عرضنا استدلاله النقلي، من الكتاب والسنة، على هذه القضية، فإنه في «التبصير» يجعلها من الأصول العقلية التي لا يستحق الإيمان أحدٌ إلا بأن يُقرَّ بها. قال: «.. فإن قال: فهل يكون عارفاً به من زعم أنه يفعل العبد ما لا يريده ربه ولا يشاؤه؟

قيل: لا. وقد دللنا، فيما وصفناه بالعزة التي لا تشبهها عزة على ذلك. وذلك أنه من لم يعلم أنه لا يكون في سلطان الله - عز ذكره - شيءٌ إلا بمشيئته، ولا يوجد موجود إلا بإرادته، لم يعلمه عزيزاً، وذلك أن من أراد شيئاً فلم يكن، وكان ما لم يُرد، فإنما هو مقهور ذليل. ومن كان مقهوراً ذليلاً فغير جائز أن يكونه موصوفاً بالربوبية»^(٢).

وإذا كان ابن جرير قد جمع بين عموم المشيئة، وعموم القدرة والعزة، وعموم الخلق كذلك^(٣)، فإنه لا يلتزم هنا ما أشرنا إليه من قبل من التزام بعض الأشاعرة، أن يكون كل ما وقع، وإن كان معصية وكفراً، محبوباً لله تعالى. فذلك الالتزام - في واقع الأمر - مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف أيضاً!!^(٤).

يقول في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]: «اختلف أهل التأويل...

(١) السابق (٢١١/١٥) ط شاكر.

(٢) التبصير: (١٣٠).

(٣) انظر: التبصير (١٤٩-١٥٠).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٣٤٠).

فقال بعضهم: ذلك لخاص من الناس. ومعناه: إن تكفروا أيها المشركون بالله، فإن الله غنى عنكم، ولا يرضى لعباده المؤمنين الذين أخلصهم لعبادته وطاعته الكفر...^(١).

وقال آخرون: بل ذلك عام لجميع الناس، ومعناه: أيها الناس، إن تكفروا فإن الله غنى عنكم، ولا يرضى لكم أن تكفروا به.

والصواب من القول في ذلك، ما قاله الله عز وجل: إن تكفروا بالله أيها الكفار به، فإن الله غنى عن إيمانكم وعبادتكم إياه، ولا يرضى لعباده الكفر، بمعنى: ولا يرضى لعباده أن يكفروا به، كما يقال: لست أحب الظلم، وإن أحببت أن يظلم فلان فلا تأ فيعاقب...^(٢). يعنى ابن جرير بذلك، أن الله تعالى، وإن كان لا يحب الكفر والظلم، ولا يحب أن يكفر عباده أو يظلموا، فإن له في وقوع الكفر والظلم في كونه، حكمة محبوبة عنده، سبحانه.

وليس في مخالفة من خالف أمره وإرادته (الدينية) قهر له، كما ذهب إليه الأشعرى ومن تبعه، ولا فيها - كذلك - خروج عن قضائه وإرادته (الكونية) التي نفاها المعتزلة، بناء على ذلك. يقول:

«اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]:

فقال بعضهم: معنى ذلك وما خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي، والأشقياء منهم لمعصيتي...

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وما خلقت الجن والإنس إلا ليدعنوا لي بالعبادة.

(١) انظر هذا التأويل عند بعض الأشاعرة: الإرشاد للجويني (٢٢٠)، موقف ابن تيمية من

الأشاعرة للمحمود (١٣١٩/٣).

(٢) التفسير (٢٣/١٩٧-١٩٨) ط الفكر.

وأولى القولين في ذلك بالصواب... هو: ما خلقت الجن والإنس إلا لعبادتنا والتذلل لأمرنا».

ثم قال: «فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأنَّ قضاءه جار عليهم، لا يقدرّون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه»^(١).

وإذا كان يلتقى - هو وأهل السنة ومن يوافقهم من الأشاعرة - مع المعتزلة في أن مخالفة الأمر والنهي ليست قهراً، فإنه - هو وأهل السنة كذلك - يخالفهم في إثباته عموم القضاء والمشيئة لكفرهم ومعصيتهم هذه، كما في النص السابق، كما يرد عليهم تأويل الإرادة (الكونية) والمشيئة بالأمر والنهي. قال:

«فإن قال: فإن تك المشيئة منه أمراً، فقد يجب أن يكون من لم يهتد لدين الإسلام، لم يدخله الله عز وجل في أمره ونهيه الذي عم به خلقه، وفي عمومه بأمره ونهيه جميعهم، مع ترك أكثرهم قبوله، الدليل الواضح على أن قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ إنما معناه: لو شاء الله لجمعهم على دين الإسلام، وإذا كان ذلك كذلك، كان بينا فساد قول من قال: مشيئة الله - تعالى ذكره - أمره ونهيه»^(٢).



(١) التفسير: (٢٧/١١-١٢) ط الفكر.

(٢) التبصير (١٣١).

المبحث الرابع

خلق أفعال العباد

صارت قضية خلق أفعال العباد واسطة العقد في مباحث القضاء والقدر في زمان ابن جرير؛ بحيث يوشك البحث في تلك القضايا أن يُحتزل إلى سؤال واحد: «هل الإنسان قادر على خلق فعله، أم إن الخالق هو الله سبحانه وتعالى وحده».

ولعله لذلك عني ابن جرير ببحث هذه القضية في رسالتيه «صريح السنة» و«التبصير» اللتين يعرض فيهما موقفه فيما اختلفت حوله الأمة من قضايا أصول الدين، خلا ما نثره في تفسيره من الحديث حولها، كلما سنحت فرصة، إما تقريراً لرأيه، أو ردّاً لرأى مخالفه^(١).

وقد حكى ابن جرير اختلاف الناس في هذه المسألة^(٢) على ثلاث مقالات. قال:

«الثالث بعد ذلك^(٣) الاختلاف في أفعال الخلق:

فقال فرقة ممن ينتحل جملة الإسلام: ليس لله - عز وجل - في أفعال خلقه

(١) وكذلك عني كل فريق بالتصنيف فيها لنصرة مذهبه، فالقاضي عبد الجبار - مثلاً - يخصص لها أحد أجزاء المغنى (ج ٨ - المخلوق)، وأما أهل السنة، فيقول ابن القيم: إن تصانيفهم في الرد على القدريّة أكثر من أن يحصّيها إلّا الله. انظر: شفاء العليل (١٠٩)، وقارن العلم الشامخ للمقبلي ص (٢٨٠) وما بعدها.

(٢) ولم يذكر في رسالتيه شيئاً من الخلاف في مباحث القدر إلّا الخلاف حول هذه المسألة، وهو ما يؤكد ما ذكرناه حول أهمية القضية في زمانه.

(٣) ذكر قبله الخلاف حول «الخلافة» وستأتى في الباب الثالث، إن شاء الله، والخلاف حول مصادر المعرفة (الحجة) وقد سبق في الباب الأول.

صنع غير المعرفة التي أعطاها للفعل، كما أعطاهم الجوارح التي بها يعملون، ثم أمرهم ونهاهم، فمن شاء منهم أطاع فله الثواب، ومن عصى فله العقاب. قالوا: فلو كان لله - جل ثناؤه - صنع في أفعال الخلق غير الذي قلنا، بطل الثواب والعقاب. وهذا قول القدرية^(١).

ومصطلح القدرية الذي أشار إليه ابن جرير هنا، ويشير إليه كثيرا، وإن كان قد ظهر قبل ظهور المعتزلة، في الفترة ما بين سنة خمسين، وسنة سبعين من الهجرة^(٢)، فلقد ورث المعتزلة - على كرهه منهم وإباء - ذلك الاسم عن القدرية الأوائل الذين انقضوا^(٣)، ضمن ما ورثوه من مذهبهم، حتى صاروا هم المعنيين بذلك اللقب عند من يطلقه، خاصة المتأخرين.

ورغم أنهم قد آذأروا في هذا اللقب هم وخصومهم^(٤)، فلقد أدت هذه الوراثة إلى الغلط عليهم في نسبة بعض ما لم يقولوه إليهم^(٥).

ولأن هذا اللقب مرتبط بما روى في الحديث: «القدرية مجوس هذه

(١) التبصير (١٦٧).

(٢) نيلنو: بحوث في المعتزلة - ضمن التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، لعبد الرحمن بدوي - ص (٢٠٢)، وانظر: المعارف لابن قتيبة (٦٢٥)، التنبيه والرد للملطى (١٦٥) وما بعدها، نشأة الفكر للنشار (١/٣١٤ وما بعدها).

(٣) انظر ما مضى في صفة العلم.

(٤) انظر في هذا التلقيب من خصومهم ورفض المعتزلة له: الملع (٩٠-٩١)، والإبانة (١٩٧) وما بعدها) للأشعري، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١٣١)، الانتصار لابن أبي الخير (١/١٥٦-١٥٨)، الفرق بين الفرق للبغدادى (١١٤) الملل والنحل (١/٤٣)، شرح الأصول الخمسة (٧٧٢)، المغنى (٨/٣٢٦-٣٣٢)، حاشية رسائل العدل والتوحيد (١/١٤٤هـ).

(٥) مثل نسبتهم إلى أنهم ينفون العلم السابق. انظر: البدء والتاريخ للمقدسى (٥/١٤٣)، مجموع الفتاوى (٨/٤٢٩)، وما سبق في مبحث العلم.

الأمة...»^(١) الحديث، وهو مشهور متداول، وحتى يصح تنزيل الحديث عليهم، نُسب البعض إليهم أنهم يقولون: إن الطاعة من الله والمعصية من العبد، كما أن المجوس يقولون: إن إله الخير ليس هو إله الشر^(٢)، وهى نسبة برأهم ابن تيمية منها، وهو من خصومهم الذين يلقبونها بذلك اللقب، بل قال: «إن من نقل ذلك عنهم فهو جاهل بمذهبهم؛ فإن هذا لم يقله أحد من علمائهم، ولا يمكن أن يقوله...»^(٣).

على أن موقف القدرية (المعتزلة) من قضية خلق الأفعال، الذى لم تختلف الرواية عنهم فيه، هو إجماعهم على أن الله سبحانه لم يخلق الكفر والمعاصي، بل ولا غيرها من أفعال العباد^(٤). قال ابن المرتضى: «وأجمعوا أن فعل العبد غير مخلوق فيه»^(٥).

ثم هل يقال بعد ذلك: إن العبد هو الذى خلق فعل نفسه؟ ذكر الأشعري

(١) ورد الحديث فى القدرية بروايات كثيرة، تتفق فى مجموعها على ذمهم، لكن طرق هذه الأحاديث لا تخلو جميعها من ضعف. قال ابن القيم: «وبدعة القدر أدركت آخر عصر الصحابة، فأنكرها من كان منهم حيا، كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وأمثالهما رضي الله عنهم الله عنهم. وأكثر ما يجئ فى ذمهم فإنما هو موقف على الصحابة من قولهم فيه». انظر: تهذيب سنن أبى داود (٦١/٧)، وقارن: جنة المراتب - لأبى إسحاق الحوينى حيث نَقَّصَ الروايات الواردة فى ذلك. (٢٩-٥٢).

(٢) ينسب ابن الأثير فى الباب (١٩/٣) إلى القدرية القول بأن الخير من الله والشر من الشيطان. بينما يعزوه الملطى فى التنبيه (١٦٥-١٦٦) إلى صنف منهم. وانظر فتح البارى (٤٩٩/١١)، ويبدو أن ابن الوزير يعميل إلى هذا الرأى المنسوب إلى القدرية. انظر إيثار الحق (٣٢٠، ٣٢٦ وما بعدها).

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١٦/٨).

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة (٣٢٣ وما بعدها)، مقالات الأشعري (٢٩٩/١)، الفصل

لابن حزم (٣٢/٣)، شفاء العليل لابن القيم (١٠٩).

(٥) المنية والأمل (ص٦).

اختلافهم فى ذلك على ثلاث مقالات، فبينَ الجوازِ والمنعِ: التفصيلُ؛ بأن يُمنع من ذلك فى الإنسان لأنَّ مُنْعَنَا منه^(١). بينما يميل القاضى عبد الجبار إلى التعبير عن ذلك «بالإحداث»، بدلا من الخلق^(٢)، وربما كان المنع من القول بأن الإنسان (أو الحيوان عامة) يخلق فعل نفسه، وصعوبة الجمع بين ذلك وبين نفى خلق الأفعال عن الله تعالى، هو الذى أُلْجَأَ بعضهم إلى القول بأن فعل العبد حادث لا محدث له^(٣).

وأما المذهب الثانى الذى حكاه ابن جرير، فهو مذهب الجبرية (الجهمية). قال:

«وقال آخرون منهم جهم بن صفوان وأصحابه: - ليس للعباد فى أفعالهم وأعمالهم صنع، وإنما يضاف إليهم ذلك كما تُضاف حركة الشجرة إذا حركتها الريح إلى الشجرة، وإنما حركتها الريح، وكما يُضاف طلوع الشمس إلى الشمس وليس لها فعل، وإنما أطلعها الله، وكذَهَابِ الحجر إذا رمى به، وليس له عمل، وإنما ذهب بدفع دافع.

وقالوا: لو جاز أن يكون فاعلٌ غير الله، جاز أن يكون خالق غيره. وقالوا: لا ثواب ولا عقاب، وإنما هما طيبتان خلقتا، إحداهما للنار وأخرى للجنة». وهذه «الجبرية» الخالصة التى عزاها لجهم قد أجمع من أرخ لمقالات جهم، على

(١) المقالات (١/٢٨٨)، ويرى الجوينى أن متقدميهم هم الذين كانوا يمنعون من تسمية العبد خالقا، لقرب عهدهم بإجماع السلف على أنه لا خالق إلا الله تعالى، بينما تجرأ المتأخرون وسمّوا العبد خالقا على الحقيقة. انظر الإرشاد (١٧٣)، وقارن: المعتزلة لزهدي جار الله (٥٢).

(٢) شرح الأصول، الموضع السابق، وانظر: فاروق دسوقي: القضاء والقدر (٢/٢٤٩، ٢٦١ وما بعدها).

(٣) انظر: إيثار الحق لابن الوزير (٣١٠-٣١١).

نسبتها إليه^(١).

وقد انتقل منزع الجبر فيما بعد إلى الأشاعرة، بدايةً من شيخ المذهب الذي ينفي أن يكون الفاعل اكتسب الشيء على الحقيقة.. وإنما الذي فعله حقيقةً هو رب العالمين^{(٢)!!}، وهو أمر اعترف به بعض محققهم، كالرازي^(٣)، وإن كانوا ربما انتفوا من الجبر المحض، وأقروا بجبر متوسط، يثبتون معه للعبد كسبًا ما في فعله^(٤).

وأما المذهب الثالث الذي حكاه ابن جرير عن «جمهور أهل الإثبات، وعامة العلماء والمتفهمة من المتقدمين والمتأخرين» فيقول: «إن الله تعالى ذكره وفق أهل الإيمان للإيمان، وأهل الطاعة للطاعة، وخذل أهل الكفر والمعاصي، فكفروا برهم، وعصوا أمره.

قالوا: فالطاعة والمعصية من العباد بسبب من الله تعالى ذكره، وهو توفيقه للمؤمنين، وباختيار من العبد له»^(٥).

وهذا الذي حكاه عن أهل الإثبات «السنة» هو مذهبهم لم يختلفوا فيه. قال

(١) انظر: الاختلاف في اللفظ لا بن قتيبة (٣٠)، مقالات الأشعري (٣٣٨/١)، الغنية للجيلاني (٩٤/١)، شرح الأصول الخمسة (٤٦٣، ٣٢٤)، تاريخ الجهمية للقاسمي (٢٨).

(٢) اللمع (٧٤، ٧٦)، وانظر: الإرشاد (١٨٩)، والمحصل للرازي (١٩٤)، ويرى د/ النشار أن مذهب جهم قريب من هذا الكسب الأشعري (٣٤٣-٣٤٤)، وقارن منهاج السنة (١٣-١٤/٣).

(٣) انظر: فخر الدين الرازي وآراؤه للزركان (٥٣٣-٥٣٢)، وانظر أيضا: منهاج السنة (٣/٢٦٧)، مجموع الفتاوى (٣٠٧/٨)، إيثار الحق (٣٠٨، ٣١٧).

(٤) انظر: الملل والنحل (٨٥-٨٦، ٩٧-٩٩)، التعريفات للجرجاني (٦٥)، وقارن: الفتاوى (١١٨/٨)، مقدمة مناهج الأدلة (١٠٨-١١٢).

(٥) انظر التبصير (١٦٧-١٧٠)، والمخطوط (ق ١١٥-ب).

شيخ الإسلام أبو عثمان الصابونى: «ومن قول أهل السنة والجماعة فى أكساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من ينكر هذا القول وينفيه...»^(١).

وإذا كان الله تعالى، هو خالق كل شىء حقيقة، عند أهل السنة^(٢)، والعبد فاعل - كذلك - حقيقة، وله مشيئة وقدرة واختيار^(٣)، فإن جهة الإضافة إلى الله تعنى أنه خلق أفعال العباد منفصلة عنه، قائمة بالعبد، وجعل العبد فاعلاً لها بقدرته ومشيئته اللتين خلقهما الله فيه، وكل من الإحداثين مستلزم للآخر، لكن جهة الإضافة مختلفة^(٤) وبهذا الاعتبار فى التفريق بين جهتي الإضافة، يزول الإشكال فى الجمع بين القضاء والقدر، والأمر والنهى^(٥).

رأى الطبرى:

ذكر ابن جرير بعد سياقه لثلاثة الأقوال التى ذكرها أن قول أهل الإثبات المخالفين للقدرية والجهمية، هو الحق عنده والصواب، للعلل التى حكاها عنهم. وهو نفس الاختيار الذى نجده فى «صريح السنة»^(٦)، ونجده كذلك - منشوراً فى ثنايا تفسيره؛ فالمقالة إذا مقالته، والأدلة (العلل) هى نفس الأدلة التى

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث - ضمن المنيرية (٢٦/١)، وانظر: خلق أفعال العباد - للبخارى (٣٣-٣٤)، الشريعة للآجرى (٣١٩-٣٢٠)، أصول السنة للالكائى (٣/٥٣٤ وما بعدها)، الفصل (٣٢/٣) شفاء العليل (١٠٩).

(٢) ولم يخالفهم فى ذلك إلا القدرية. انظر مجموع الفتاوى (٨/٤١٥).

(٣) انظر: السابق (٨/١١٧-١١٨)، وقارن الكشاف (٢/٢٠٧)، وحاشية ابن المنيّر عليه، فى نفس الصفحة حاشية رقم ١.

(٤) منهاج السنة (٣/٢٣٩-٢٤٠)، وانظر: الفصل (٣/١٦، ٣٤، ٣٨).

(٥) انظر: شفاء العليل (٢٣٦)، القضاء والقدر: د/ فاروق دسوقى (٢/٢٠٤).

(٦) انظر صريح السنة (٢١).

يرتضيها. وسوف نحاول هنا لم شتات هذه المقالة وعللها التي نثرها في تفسيره، كلما عنت آية يمكنه أن يستدل بها على مقالته، أو تبدو مُتعلِّقًا لخصمه، فيدفع تعلقه بها.

أما أصل المقالة، فقد استدل ابن جرير عليه بآيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] يقول:

«أضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه، ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين، إذ كان جل ثناؤه هو مُسَبِّب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم. ففي ذلك أدل الدليل على فساد قول المنكرين أن يكون لله في أفعال خلقه صنع، به وصلوا إليها. وكذلك قوله لنيبه عليه السلام: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾، فأضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي؛ إذ كان، جل ثناؤه، هو الموصل المرمي به إلى الذين رُمُوا به من المشركين، والمسبب الرمية لرسوله.

فيقال للمنكرين ما ذكرنا: قد علمتم إضافة الله رَمَى نبيه ﷺ المشركين إلى نفسه، بعد وصفه نبيه به وإضافته إليه، وذلك فعل واحد، كان من الله تسببه وتسديده، ومن رسول الله ﷺ الحذف والإرسال. فما تنكرون أن يكون كذلك سائر أفعال الخلق المكتسبة: من الله الإنشاء والإنجاز بالتسبيب، ومن الخلق الاكتساب بالقوى؟ فلن يقولوا في أحدهما قولاً إلا ألزموا في الآخر مثله»^(١).

وإذا كان ابن جرير قد استدل بإضافة الرمي في هذه الآية إلى الله، مع أنه فعل العبد حقيقة، على فساد قول المنكرين...، فثم آية أخرى عكست فيها قضية هذه

(١) التفسير (١٣/٤٤١-٤٤٢) ط شاكر، واستدل ابن حزم بهذه الآية على وقوع الفعل بين

قادرين. انظر: الفصل (٣/٤٥)، وانظر كذلك: حاشية ابن المنير على الكشف (٢/

٢٠٧)، تفسير ابن كثير (٢/٢٩٥).

الآية؛ فأضيف الفعل فيها إلى العبد، رسول الله ﷺ، مع أنه فعل الله تعالى، حقيقة أيضًا؛ ليخرج ابن جرير منها بنفس الدلالة التي استنبطها من آية الأنفال السالفة. وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١] يقول:

«وأضاف، تعالى ذكره، إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خلقه، والموفق من أحب منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهم ما لهم فيه وعليهم. فبيّن بذلك صحة قول أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كسبا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاء وتدييرا، وفساد قول أهل القدر الذين أنكروا أن يكون لله في ذلك صنع»^(١).

وإذا كان في النصين السابقين لون من الاستدلال الإيجابي، إن صح التعبير، فإن ابن جرير ربما عرض لما يمكن أن يتعلق به خصمه - كما ألقينا، فيقند استدلاله به. مثل أن يتعلق القدرى بنسبه بعض الأفعال إلى العبد، لينفى - من تلك النسبة - تعلق فعل العبد بالله تعالى.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. وموطن الشبهة في الآية أن الله تعالى لما أضاف الضلال إلى النصارى بصيغة الفاعل ﴿الضَّالِّينَ﴾، وذكر غضبه على اليهود بصيغة المفعول ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، دل على الفرق بين من وقع منه الفعل - استقلالا - فنسب إليه: ﴿الضَّالِّينَ﴾، ومن وقع عليه الفعل ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وقد بنى الطبري جوابه عن هذه الشبهة، على أن القرآن نزل بلسان العرب،

على ما قدم البيان عنه فى أول الكتاب^(١)، «ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وُجِدَ منه - وإن كان مسببهُ غير الذى وجد منه - أحيانا، وأحيانا إلى مسببه، وإن كان الذى وجد منه الفعل غيره. فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسبا، ويوجده الله جل ثناؤه، عينا منشأة؟ بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه، كسبا له، بالقوة منه عليه، والاختيار منه له. وإلى الله جل ثناؤه، بإيجاد عينه، وإنشائها تدييرا»^(٢).

واستشهد الطبرى لصحة كلامه بقول الله، جل ثناؤه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ﴾ [يونس: ٢٢] - بإضافة الجرى إلى الفلك، وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها -، «مع إيانة الله عز ذكره نصّا فى آي كثيرة من تنزيله أنه المضل الهادى. فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجنّة: ٢٣] - فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادى دون غيره»^(٣).

وإذا كان ابن جرير فى هذه النصوص ينطلق من النص استدلالاً وردّاً، فإن ما ذكره فى «التبصير» من استدلال عقلى لأهل الإثبات، وردّاً على النفاة، نجده كذلك ضمن استنباطه لدلالات النصوص، وهذا مما يزيدنا تأكيداً من أن موقفه العام من هذه القضية هو نفس موقف أهل الإثبات «(السنة)»، وأن هذه القضية هى جزء من منهجه الكلامى الذى ينحو فيه بصفة عامة منحى أهل الإثبات.

(١) راجع ضوابط التأويل فى الباب الأول.

(٢) التفسير (١٩٦/١-١٩٧) ط شاکر.

(٣) السابق (١٩٦/١).

وقد اعتمد ابن جرير «في التبصير» في استدلاله لأهل الإثبات على دليلين عقليين: أولهما خلاصته أنه يُلزَمُ من قول القدرية بالتفويض ارتفاعُ (بطلان) رغبة الخلق إلى الله في إعانتهم على الطاعة، وهو خلاف المشاهد من المؤمنين في كل وقت.

وهذا الدليل بعينه يستنبطه ابن جرير من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، يقول: «وفي أمر الله جل ثناؤه عباده أن يقولوا: «إياك نعبد وإياك نستعين» بمعنى مسألتهم إياه المعونة على العبادة، أدل الدليل على فساد قول القائلين بالتفويض من أهل القدر، الذين أحالوا أن يأمر الله أحدا من عباده بأمر، أو يكلفه فرض عمل، إلا بعد إعطائه المعونة على فعله وعلى تركه. ولو كان الذي قالوا من ذلك كما قالوا، لبطلت الرغبة إلى الله في المعونة على طاعته؛ إذ كان - على قولهم، مع وجود الأمر والنهي والتكليف - حقا واجبا على الله للعبد إعطاؤه المعونة عليه، سأل ذلك عبده أو ترك مسألة ذلك. بل ترك إعطائه ذلك عندهم منه جور. ولو كان الأمر في ذلك على ما قالوا، لكان القائل «إياك نعبد وإياك نستعين» إنما يسأل ربه أن لا يجور.

وفي إجماع أهل الإسلام جميعا - على تصويب القائل: «اللهم إنا نستعينك» وتخطئتهم قول القائل: «اللهم لا تجر علينا» دليل واضح على خطأ ما قال الذين وصفت قولهم. إذ كان تأويل قول القائل عندهم: اللهم إنا نستعينك - اللهم لا تترك معونتنا التي تركتها جور منك»^(١).

وأما الدليل الثاني من أدلة أهل الإثبات فهو قائم على التفريق بين القوة التي تكون بها الطاعة، والقوة التي تكون بها المعصية^(٢). وهذا نوره مفصلا إن شاء الله تعالى، في مبحث «الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق».

(١) التفسير (١/١٦٢-١٦٣) ط شاكر، وانظر (٦/٢١٢) من نفس الطبعة.

(٢) انظر التبصير (١٧١).

وإذا كان ابن جرير قد عني في هذا المبحث، بل وفي سائر مباحث القدر، بالرد على القدرية النفاة، إما تقريراً من عنده، وإما نقلاً عن أهل الإثبات، مع موافقتهم في قولهم، فلقد مر معنا في «إثبات العلم السابق، والكتابة» ما ينفي مقالة الجبرية؛ وذلك بإثبات مسئولية الإنسان عن عمله، وإثبات الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وذلك كله مما ينفي مقالة الجبرية. وهنا أيضاً، وبعد أن نقل ابن جرير «إفساد» أهل الإثبات لمقالة القدرية، ينقل عنهم أن «قول جهنم وأصحابه الذين زعموا أن الله - تعالى ذكره - اضطر عباده إلى الكفر وإلى الإيمان، وإلى شتمه والفريّة، وأنه ليس للعباد في أفعالهم صنع، أبطل وأفسد». وعمدة أهل الإثبات في إفساد مقالة الجهمية، فيما نقله ابن جرير، أن الله تعالى أمر ونهى، فلو كانت الأفعال كلها لا صنع للعباد فيها، لكان لا معنى للأمر والنهي؛ لأن الأمر يأمر غيره لا نفسه، وعلى قولهم يكون أمراً نفسه، لأنه هو الفاعل.

وكذلك إذا أمر أو نهى، فإنما يأمر ليطاع فيما أمر أو نهى. والطاعة فعل المطيع الذي يجذّاه أمر، والمعصية فعل العاصي الذي يجذّاه نهى، وعلى قولهم لا يتصور من العبد طاعة ولا معصية؛ إذ لم يكن له فعل أصلاً.

ثم إنه وعد العبد الثواب على طاعته، فقال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وتوعّده بالعقاب على معصيته، فقال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]. وعلى قولهم لا معنى للثواب ولا للعقاب؛ إذ لا فعل للعبد أصلاً ولا كسب.

قالوا: وفساد هذا القول أوضح من أن يحتاج إلى الإكثار في الإبانة عن جهل قائله^(١).

(١) انظر التبصير (١٧٣-١٧٥).

وفى الواقع، إن مقالة القدرية كانت أكثر إشكالاً، سيما على من لم يجمع أطراف النصوص، أو يُسَلِّم نفسه إلى مُحْكَمَات الشرع «فى هذا المقام الذى تاهت فيه عقول كثير من الخلائق»^(١).

وأما مقالة الجبرية، فلمخالفتها للفطرة والعقل والشرع، لم تحتج إلى الإكثار فى الإبانة عن فسادها وجهل قائلها، ولذا كان الاحتجاج بالقدر على المعاصى حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذى عقل ودين من جميع العالمين^(٢).



(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٩٩).

(٢) انظر: منهاج السنة (٣/ ٥٥ وما بعدها).

المبحث الخامس

الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق

يعتبر هذا المبحث من المواد الكلامية التي انتقلت إلى علم أصول الفقه، ثم صارت فيما بعد مبحثاً مشتركاً بين العلمين^(١). يقول الزركشى: «واعلم أن هذه المسألة تكلم عليها أهل العلمين علم الكلام وعلم أصول الفقه؛ أمّا المتكلمون فلتعلقها بأحكام القدر، وخلق الأفعال، وأمّا الأصوليون فلتعلقها بأحكام التكليف، وما يصح الأمر إلا به (كذا) وما لا يصح»^(٢).

وأصل البحث هنا اختلاف المتكلمين من مثبتة القدر ونفاته حول استطاعة العبد (وهى قدرته وطاقته أيضاً)، هل يجب أن تكون مع الفعل لا قبله، أو يجب أن تكون متقدمة على الفعل، أو يجب أن تكون معه، وإن كانت متقدمة عليه^(٣)!

فذهبت المعتزلة إلى أن الاستطاعة قبل الفعل، وأنها صالحة للضدين (الفعل وضده: الطاعة والمعصية). وأنكروا بأجمعهم أن يكلف الله عبداً ما لا يقدر عليه؛ لأن ذلك قبيح عقلاً^(٤)، وبالفقهاء عبد الجبار، فادعى إجماع الأمة

(١) انظر: البحر المحيط للزركشى (٢٨/١)، وأيضاً: الإحكام للآمدي (٧/١-٨)، وغيره من كتب الأصول.

(٢) الزركشى: سلاسل الذهب (فى أصول الفقه) (١٣٨-١٣٩)، وانظر نموذجاً لبحث المتكلمين فى: شرح الأصول الخمسة (٣٩٠ وما بعدها)، والإرشاد للجويني (١٨٩ وما بعدها). وبحث الأصوليين فى: المعتمد لأبى الحسين (١٦٤/١-١٦٥)، شرح التلويح على التوضيح للفتازانى (٣٧٨-٣٨٨)، وقارن: منهاج السنة (١٠٢/٣-١٠٧).

(٣) انظر الفصل لابن حزم (١٤/٣)، درء التعارض لابن تيمية (٦٠/١).

(٤) انظر: المقالات للأشعري (٢٩٩/١ وما بعدها)، وشرح الأصول الخمسة (٣٩٠ وما بعدها)، وقارن بالإحكام للآمدي (١٣٤/١)، حيث ينقل عن بعض معتزلة بغداد موافقة =

على منع تكليف ما لا يطاق، وشنع على مخالفه بذلك. قال: «فإن ارتكبوا تكليف ما لا يطاق، كان فى ذلك خروج عن الإسلام، وانسلاخ عن الدين، لأن الأمة من لدن النبى ﷺ إلى الوقت الذى وقع فيه الخلاف، لم يجوزوا ذلك على الله تعالى»^(١).

وأما الأشعرى، فذهب إلى أن الاستطاعة مقارنة للفعل، وأن القدرة على الإيمان غير القدرة على الكفر، وربما أطلق جواز تكليف ما لا يطاق، بل واستدل على وقوعه شرعا^(٢)، وذكر الجوينى أن مقتضى مذهبه أن التكاليف كلها واقعة على خلاف الاستطاعة، بناء على قوله بأن الاستطاعة لا تتقدم الفعل، مع أن الأمر إنما يتوجه على المكلف قبل وقوعه، وهو إذ ذاك غير مستطيع. ولأن فعل العبد واقع عنده بقدرة الله تعالى، والعبد مطالب (به) وهو من فعل ربه^(٣).

والقول الثالث الذى عليه محققو المتكلمين وأهل الفقه والحديث والتصوف وغيرهم، هو ما دل عليه القرآن: أن الاستطاعة التى هى مناط الأمر والنهى، وهى المصححة للفعل، لا يجب أن تقارن الفعل، وأما الاستطاعة التى يجب معها وجود الفعل فهى مقارنة له^(٤).

ثم: ما لا يطاق ينقسم إلى ما لا يطاق لذاته، كالجمع بين الضدين، أو للعجز

= الأشعرى فى تجويز تكليف ما لا يطاق، بينما ينقل الزركشى فى البحر (٣٨٨/١) عن معتزلة بغداد التفصيل بين الممتنع لذاته فلا يجوز تكليفه، والممتنع لغيره، فيجوز.

(١) شرح الأصول الخمسة (٣٩٧).

(٢) انظر: اللمع (١١٣-١١٤)، الإبانة (١٩٢-١٩٥).

(٣) انظر: البرهان (٨٩/١). وقد تبعه على هذا الإلزام جماعة، كالآمدى فى الإحكام (١/١٣٣)، وانظر. الاعتراض على هذا الإلزام فى البحر للزركشى (١/٣٩٠-٣٩١).

(٤) انظر: الفصل لابن حزم (٢٠-١٨/٣)، درء التعارض (١/٦٠-٦١).

عنه، كتكليف المُقْعَدِ المشي، ونحو ذلك، فهذا غير جائز تكليفه، ولا هو واقع في الشريعة، وإلى ما لا يطاق للاشتغال بضده، كاشتغال الكافر بكفره الذي يصده عن الإيمان، فهذا واقع في الشريعة، ولا مانع منه عقلا ولا شرعا، وإنما النزاع في تسميته تكليفا لما لا يطاق.

والأشبه بما في الكتاب والسنة وكلام السلف، أن هذا لا يدخل فيما لا يطاق، ولا يُسمَّى به؛ فإنه لا يقال - مثلاً - للمستطيع المأمور بالحج، إذا لم يحج، إنه كُلف بما لا يطيق^(١).

ويبدو أن هذا هو حقيقة مذهب الأشعرى؛ ففي «اللمع»: «فإن قال قائل: ليس قد كلف الله تعالى الكافر الإيمان؟ قلنا: نعم. فإن قال: أفيستطيع الإيمان؟ قيل له: لو استطاع لآمن. فإن قال: أفكُلفه ما لا يستطيع؟ قيل له: هذا كلام على أمرين: إن أردت بقولك أنه لا يستطيع الإيمان لعجزه عنه، فلا، وإن أردت أنه لا يستطيعه لتركه واشتغاله بضده، فنعم...»^(٢).

رأى ابن جرير:

يقرر ابن جرير أن التكليف لا بد فيه من صحة العقل - ليتمكن المكلف من الفهم - وتمكين الجوارح - ليتسنى له الامتثال^(٣). يقول: «الابتلاء إنما هو بصحة الآلات وسلامة العقل من الآفات، وإن عدم السمع والبصر^(٤)، وأما إخباره إيانا أنه جعل لنا أسماعا وأبصارا في هذه الآية - يعني آية [الإنسان: ٢] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٥) -

(١) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة (٣/ ١٠٤-١٠٦)، مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٢) اللمع للأشعرى، ص (٩٩).

(٣) انظر: التفسير (١/ ٦٢، ١٢٨) ط شاكر.

(٤) هذا بالطبع إن تمكن العقل من إدراك التكليف بطريق ما، مع فقدانهما.

فتذكير منه لنا بنعمه، وتنبيه على موضع الشكر، فأما الابتلاء فبالخلق مع صحة الفطرة وسلامة العقل من الآفة^(١).

لكن إن عجزت «الآلة» عن الامتثال، أو كان العقل مئوفا لا يدرك الخطاب، فهذا مما يُحيل التكليف عند ابن جرير.

يقول فى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

«.. ذلك نهى من الله المؤمنين عن أن يقربوا الصلاة وهم سكارى من الشراب، قبل تحريم الخمر...»

فإن قال قائل: وكيف يكون ذلك معناه، والسكران فى حال زوال عقله، نظير المجنون فى حال زوال عقله، وأنت ممن يحيل تكليف المجانين لفقدهم الفهم لما يؤمر وينهى؟!!

قيل له: إن السكران لو كان فى معنى الجنون، لكان غير جائز أمره ونهيه، ولكن السكران هو الذى يفهم ما يأتى ويذر، غير أن الشراب قد أثقل لسانه وأجزاء جسمه وأخدرها، حتى عجز عن إقامة قراءته فى صلاته، وحدودها الواجبة عليه فيها، من غير زوال عقله... وأما من صار إلى حد لا يعقل ما يأتى ويذر، فذلك منتقل من السكر إلى الخبل ومعانى المجانين، وليس ذلك الذى خوطب...»^(٢).

وهذه القوة (المصححة للتكليف)، التى تكون قبل الفعل، قد عم الله - تعالى - بها المؤمنين والكفار^(٣). وهى، وإن كانت شرطا فى حصول الفعل،

(١) التفسير (٢٩/٢٠٥) ط دار الفكر.

(٢) السابق (٨/٣٧٨) ط شاكر.

(٣) انظر التفسير (١/١٢٨) ط شاكر.

فإنها لا توجبُه، بل قد يكون الفعل معها وقد لا يكون^(١). وهذه القوة - فقط - هى التى أثبتتها المعتزلة، ولم يجوز التكليف مع عدمها إلا طائفة من غلاة المبتين للقدر^(٢).

لكن هذه القوة، لكى يتم الفعل بها، لابد أن ينضم إليها قوة أخرى موجبة لهذا الفعل، فإن كان الفعل طاعة، فهذه القوة توفيق من الله تعالى تفضل به على عبده، وإن كان الفعل معصية، فهى خذلان منه لعبده، بَعْدِلَه^(٣). وهذه القوة هى التى لا تكون إلا مع الفعل، توجَدُ بوجوده، وتُعدمُ بعدمه.

فأما أن الفعل لا يتم إلا بهذه القوة، فيستدل عليه ابن جرير بمثل قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. يقول: «وفى هذه الآية دليل واضح على أن طاعة الله جل ثناؤه لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم، وتوفيقه إياهم لها؛ أولا يسمعونَه يقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فأضاف كل ما كان منهم من اهتداء وطاعة وعبادة إلى أنه إنعام منه عليهم؟...»^(٤).

ويعرض ابن جرير لشبهة لنفاة هذه «القوة» عند قوله تعالى: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: «فإن قال قائل: وما معنى أمر الله عباده أن يسألوه المعونة على طاعته؟ أو جائز، وقد أمرهم بطاعته، أن لا يعينهم عليها؟ أم هل يقول قائل لربه: إياك نستعين على طاعتك، إلا وهو على قوله ذلك معان؟ وذلك هو الطاعة، فما وجه مسألة العبد ربه ما قد أعطاه إياه؟»^(٥).

(١) انظر: الفصل لابن حزم (١٩/٣)، منهاج السنة (١٠٣/٣).

(٢) انظر مثالا لذلك كلام الغزالى فى الاقتصاد (١١٢)، وهذا - بصفة عامة - هو قول

الجبرية. وانظر: الفصل (١٤/٣) الفتاوى (٢٩٦/٨).

(٣) الفصل (١٩/٣).

(٤) التفسير (١٧٩/١) ط شاكر.

(٥) السابق (١٦٢/٢). نفس الطبعة.

وهي شبهة متداولة مشهورة، منشؤها الخلط بين القوة المصححة للتكليف «الأولى» وهذه القوة الموجبة للفعل «التوفيق، أو الخذلان»^(١). وينفصل ابن جرير عن ذلك بأن القوة التي دعا المؤمن ربه أن يعينه بها، هي هذا التوفيق الذي هو فضل من الله تعالى على المطيع، وليس المراد بها القوة الأولى «تمكين الجوارح». يقول: «قيل: إن تأويل ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما الداعي ربّه من المؤمنين أن يعينه على طاعته إياه، داعٍ أن يعينه فيما بقى من عمره على ما كلفه من طاعته، دون ما قد تقضى ومضى من أعماله الصالحة فيما خلا من عمره.

وجازت مسألة العبد ربه ذلك، لأن إعطاء الله عبده ذلك - مع تمكينه جوارحه لأداء ما كلفه من طاعته، وافترض عليه من فرائضه - فضلٌ منه جل ثناؤه تفضل به عليه، ولطفٌ منه لطف له فيه. وليس في تركه التفضل على بعض عبيده بالتوفيق، مع اشتغال عبده بمعصيته، وانصرافه عن محبته، ولا في بسطه فضله على بعضهم، مع إجهاد العبد نفسه في محبته، ومسارعته إلى طاعته، فساد في تدبير، ولا جَوْر في حكم، فيجوز أن يجهل جاهل موضع حكم الله في أمره عبده بمسألته عوناً على طاعته...»^(٢).

وأما أن القوة على الطاعة ليست هي القوة على المعصية، فلأن الله تعالى فرق بين القوة التي يعطيها للمؤمن على الإيمان، والقوة التي يعطيها للكافر على الكفر، فقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥]، فلا يجوز التسوية بينهما. يقول ابن جرير:

«وفي هذه الآية أبينُ البيان لمن وُفِّق لفهمها، عن أن السبب الذي به يوصل إلى

(١) قارن: الفصل (١٦/٣)، شرح الأصول الخمسة (٣٩٦ وما بعدها).

(٢) التفسير (١٦٢/١) ط شاكر.

الإيمان والطاعة، غير السبب الذى به يوصل إلى الكفر والمعصية، وأن كلا السبيين من عند الله. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدر من أراد هدايته للإسلام، ويجعل صدر من أراد إضلاله ضيقاً عن الإسلام، حَرَجًا كأنما يَصْعَدُ في السماء. ومعلوم أن شرح الصدر للإيمان خلاف تضيقه له. وأنه لو كان يوصل بتضيق الصدر عن الإيمان إليه^(١)، لم يكن بين تضيقه عنه وبين شرحه له فرق، ولكان من ضُيق صدره عن الإيمان قد شرح صدره له، ومن شرح صدره له، فقد ضيق عنه، إذ كان موصولاً بكل واحد منهما، أعنى من التضيق والشرح، إلى ما يوصل به إلى الآخر، ولو كان ذلك كذلك، وجَبَ أن يكون الله قد شرح صدر أبى جهل للإيمان به، وضيق صدر رسول الله ﷺ عنه. وهذا القول من أعظم الكفر بالله...»^(٢).

وزيادة على هذا الدليل (العقلى الثقلى) الذى يكرره ابن جرير في سياقات مختلفة^(٣)؛ فإنه يقرر في «التبصير» أن القول بأن القوة على الطاعة هى نفس القوة على المعصية، والقوة على الكفر هى نفس القوة على الإيمان، يلزم منه «أن يوجد الكفر والإيمان معا في جسم واحد، في حال واحدة، لأن السبب إذا وجد وجَبَ أن يكون مُسَبِّبُهُ معه؛ كالنار إذا وُجِدَتْ وجب وجود الإسخان مع وجودها، وكالثلج إذا وُجِدَ، وُجِدَ^(٤) التبريد معه... وإذا كان ذلك كذلك، وكان محالاً اجتماع الكفر والإيمان في جسم واحد في حال واحدة، علم أن القدرة على الطاعة غير القدرة على المعصية»^(٥).

(١) يعنى: إلى الإيمان.

(٢) السابق (١٠٨/١٢-١٠٩) نفس الطبعة.

(٣) انظر السابق (٩٢-٩٣، ٣٣٤)، التبصير (١٧١).

(٤) فى المطبوع: وجَبَ، والتصويب من المخطوط.

(٥) التبصير (١٧٢).

وهذه العلاقة «السببية» بين «القوة» و«الفعل» مما يدل - أيضًا - على أن هذه القوة (الموجبة للفعل) يجب أن تكون مقارنة له.

وخلاصة ما سبق أن ابن جرير يُفَرِّق - شأن أهل السنة - بين الاستطاعة التى هى شرط التكليف، وهى سلامة الآلات، وفهم الخطاب، والاستطاعة التى ليست شرطاً فى التكليف، وهى التى توجب الفعل وتقارنه.

ويبقى هنا أننا نجد فى «موضعين» من تفسيره يطلق القول «بتكليف ما لا يطاق» ويردُّ على نفاته. ففى تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] يقول: «وهذه الآية من أوضح الدليل على فساد قول المنكرين تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة الله؛ لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه ختم على قلوب صنف من كفار عباده وأسماعهم، ثم لم يسقط التكليف عنهم، ولم يضع عن أحد منهم فرائضه، ولم يعذره فى شيء مما كان منه من خلاف طاعته بسبب ما فعل به من الختم والطبع على قلبه وسمعه، بل أخبر أن لجميعهم منه عذاباً عظيماً، على تركهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه من حدوده وفرائضه، مع حتمه القضاء عليهم - مع ذلك - بأنهم لا يؤمنون»^(١).

بيد أننا إذا تدبرنا هذا النقل، والموطن الآخر، تجلّى لنا أن مراد ابن جرير بما أثبتته إنما هو تكليف الكافر «أو العاصي» بالإيمان (أو الطاعة) الذى لا يطيقه لاشتغاله بضده، لا أن ما كُلف به مستحيل فى نفسه فلا يطاق، ولا أن آتته عاجزة عنه، بحيث لا يتمكن من امتثاله. وهذا المعنى الذى أثبتته واقع فى الشريعة، كما أسلفنا، وإنما النزاع فى تسميته: «تكليف ما لا يطاق».

وتم نص لابن جرير، سوى ما أسلفنا، يدل على أن مراده من ذلك الإطلاق هو التفصيل الذى نَحْنُناه إياه، فعند قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] يقول: «يعنى - تعالى ذكره - بذلك: لا تُحْمَلُ نَفْسٌ مِنَ الْأُمُورِ إِلَّا

(١) التفسير (٢٦٢/١) ط شاكر، وانظر: (٣٦٣/١) من نفس المصدر.

ما لا يضيق عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت...

والوُسْعُ: الفعل، من قول القائل: وَسِعَنِي هذا الأمرُ يَسْعُنِي سَعَةً...

فمعنى قوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هو ما وصفت من أنها لا تكلف إلا ما يتسع لها بذل ما كُلفتَ بذله، فلا يضيق عليها ولا يَجْهَدُها، لا ما ظن جهلة أهل القدر من أن معناه لا تكلف نفس إلا ما قد أعطيت القدرة عليه من الطاعات؛ لأن ذلك لو كان كما زعمت، لكان قوله تعالى ذكره: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩٠]. إذ كان دالا على أنهم غير مستطيعي السبيل إلى ما كلفوه، واجبا أن يكون القوم في حال واحدة قد أُعطوا الاستطاعة على ما منعوها عليه. وذلك من قائله إحالة في كلامه، ودعوى باطل لا يُجِيلُ بطوله. وإذا كان بينا فساد هذا القول، فمعلوم أن الذي أخبر، تعالى ذكره، أنه كلف النفوس من وسعها، غير الذي أخبر أنه كلفها، مما لا تستطيع إليه السبيل...»^(١).



(١) التفسير (٥/٤٥-٤٦) ط شاكر. وقارن الفصل (٣/٢٠).

المبحث السادس

الهداية والإضلال، والطبع والختم

الهداية والإضلال:

هذا البحث هو لبُّ أبواب القدر ومسائله؛ فإن أفضل ما يقدره الله لعبده الهدى، وأعظم ما يبتليه به الضلال، وكل نعمة فهي دون نعمة الهدى، وكل مصيبة فهي دون مصيبة الضلال^(١)، نسأل الله الهداية، ونعوذ به من سُبُل الضلال.

أما الهداية فقد تعددت معانيها بحسب سياقاتها في النصوص^(٢) والذي يعيننا ذكره هنا: هداية البيان والإرشاد، وهداية التوفيق، وهما أشهر معاني الهداية، وعليهما دار البحث بين مثبتة القدر ونفاته^(٣)، وعليهما - كذلك - مدار الحديث عند ابن جرير.

فهداية البيان، ذكرت في نصوص عديدة، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. يقول ابن جرير: «والهدى في هذا الموضع البيان والإرشاد، كما حدثنا . . عن أبي العالية . . قال: الهدى: الأنبياء والرسل والبيان، وقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يعني: فمن تبع بياني الذي آتيته على ألسن رسل، أو مع رسل»^(٤).

(١) انظر شفاء العليل لابن القيم (١٤١).

(٢) انظر بحثا جيدا في ذلك للراغب في مفرداته (٥٣٨ - ٥٤١)، وانظر أيضًا: شفاء العليل (١٤١ وما بعدها).

(٣) انظر: حاشية ابن المنير على الكشاف (٣٥١/١) هـ (١)، التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون (٣/١٥٤٠-١٥٤٢).

(٤) التفسير (١/٥٤٩، ٥٥١).

وهذه الهداية (البيان) قد عم الله تعالى بها جميع المكلفين من خلقه^(١)، بيد أن الكفار لما لم يهتدوا بما أنزل إليهم، ولم ينتفعوا بدلائله، لم يكن ذلك هدى لهم، في حقيقة الأمر، بل عمى وضلّالاً، وتشيتاً لحجة الله تعالى عليهم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وهذه الهداية لم يُختلف في إثباتها، وهى، وإن لم تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق، فإنها شرط فيه، فلا يحصل التوفيق لمن حُرِمَها. وهى الهداية التى أثبتها الله لرسوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وأثبتها لدعاة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]^(٢).

وأما هداية التوفيق التى يخص بها الله تعالى من يختارهم لطاعته والإيمان به، فضلاً منه ورحمةً، فهى التى أنكرتها المعتزلة والقدرية، ثم تأولوا النصوص التى أثبتتها تارة على الهداية الأولى (هداية البيان)^(٣) ما استقام لهم ذلك، وتارة أخرى على أنه سماهم مهتدين، وتارة على أنه جازاهم بذلك التوفيق (الزائد) لِقَاءَ إيمانهم وطاعتهم^(٤)، وربما اقتصر بعضهم على رد ذلك إلى معنيين: الثواب والنجاة من العذاب، وهُدَى البيان^(٥).

(١) السابق (١٦٧/١) ط شاكر. وانظر: (٢٢٤/١٦)، (١٠٤/٢٤) ط الفكر.

(٢) قارن التفسير (١/٢٣٠ ط شاكر)، مقالات الأشعرى (١/٣٢٤)، الكشف للزمخشري (١/٣٥).

(٣) انظر: المفردات (٥٣٨-٥٣٩)، شفاء العليل (١٦٧-١٦٨٩).

(٤) انظر: الانتصار للخياط (١٨٢)، وأيضاً: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١٢٣) وما بعدها.

(٥) انظر: رسائل العدل والتوحيد (١/٢٩٦-٢٩٧)، وانظر: مقالات الأشعرى (١/٣٢٤-٣٢٥).

رأى الطبري:

تعرض ابن جرير لهذا المعنى في غير موضع من تفسيره، فمن ذلك قوله: «ومعنى قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ في هذا الموضع عندنا: وفقنا للثبات عليه، كما روى ذلك عن ابن عباس...، ومعناه نظير معنى قوله: ﴿وَأَيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في أنه مسألة العبد ربه التوفيق للثبات على العمل بطاعته، وإصابة الحق والصواب فيما أمره به ونهاه عنه، فيما يستقبل من عمره، دون ما قد مضى من أعماله...».

ودلل ابن جرير على صحة ذلك المعنى بوجوده في لغة العرب، وأن «ذلك في كلامهم أكثر وأظهر من أن يحصى عدد ما جاء عنهم في ذلك من الشواهد...»، وساق شاهدين من الشعر عليه.

ثم قال: «ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في غير آية من تنزيله، وقد علم بذلك أنه لم يعن أنه لا يُبَيَّن للظالمين الواجب عليهم من فرائضه. وكيف يجوز أن يكون ذلك معناه، وقد عمَّ بالبيان جميع المكلفين من خلقه، ولكنه عني جل وعز أنه لا يوفقهم، ولا يشرح للحق والإيمان صدورهم...».

وحيث أبطل تأويلها في مثل هذه المواضع بـ «البيان» فإنه يحكى زعم بعضهم أن تأويل ذلك: «زدنا هداية»، ثم يرده بأن البحث باق في «الهداية» المستول زيادتها، فإن فسرها بزيادة البيان، فذلك مالا وجه له؛ لأن الله جل ثناؤه لا يكلف عبدا فرضا من فرائضه، إلا بعد تبينه له، وإقامة الحجة عليه به... وإن فسرها بزيادة المعونة والتوفيق، فلن يخلو ذلك من أن يكون محل المسألة على ما مضى من الأفعال، أو على ما يحدث. قال: «وفي ارتفاع حاجة العبد إلى المعونة على ما قد تقضى من عمله، ما يعلم أن معنى مسألة تلك الزيادة إنما هو

مسألة الزيادة لما يحدث من عمله...»^(١).

وهذا التوفيق ليس هو مجرد جزاء على طاعة المطيع أو إيمان المؤمن، كما يحاول المعتزلة^(٢)، وإنما هو أمر سابق لذلك؛ موجب لطاعته الأولى التى استحق عليها الجزاء والثواب بالتوفيق (الثانى). فطاعة العبد الأولى وهدايته هى أثر فعله سبحانه وتعالى؛ فالله - تعالى - هو الهادى، والعبد مهتدٍ، قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧] ولا سبيل إلى وجود الأثر (هداية العبد) إلا بمؤثره التام، فما لم يحصل فعل الله تعالى بعبد (توفيقه)، لم يحصل فعل العبد (اهتداؤه)^(٣).

وأما الضلال، فهو خذلان الله تعالى لبعض عبيده، وخلق إرادة الشر والضلال فيهم، وإزاغة قلوبهم عن الحق، وتضييق صدورهم عن قبوله... إلى آخر ما جاءت به النصوص، عدلاً منه تعالى فى خلقه، وحكمة بالغة، لا حجة لأحد من خلقه عليه ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]^(٤).

وقد تأولت المعتزلة ذلك كله على التسمية - يعنى: أنه سماهم ضللاً - حيناً^(٥)، أو أنهم ضلوا عن الثواب (!!)^(٦) وقال بعضهم: أضلهم: يعنى أتلهم، وربما انقطعوا فقالوا: لا ندرى ما معنى الإضلال ولا

(١) انظر: التفسير (١/١٦٦-١٦٩) ط شاكر، وانظر: فى هذا المعنى (١/٢٣٠، ٥٤٩-٥٥١) ومواضع أخرى كثيرة.

(٢) انظر: مقالات الأشعرى (١/٣٢٦)، الكشف للزمخشري (١/٣٥، ٤٥).

(٣) انظر: شفاء العليل (١٦٩-١٧١). وانظر أيضاً: الانتصار فى الرد على المعتزلة لابن أبى الخير اليمنى (٢/٢٨٧).

(٤) انظر: الفصل لابن حزم (٣/٢٨).

(٥) انظر: رسائل العدل والتوحيد (١/١١٣، ١١٩)، (٢/٩٠، ١١١).

(٦) انظر: المغنى لعبد الجبار (٨/٣١٨).

الختم...!!^(١).

وأما ابن جرير فقد صرّح لنا مذهبه في ذلك من خلال ما مضى من أبحاث في «خلق الأفعال»، وتفريقه بين «القوة» على «الطاعة» و«القوة» على «المعصية». ولذلك فهو يثبت الإضلال هنا على ما تقتضيه ظواهر النصوص المتكاثرة، كما ألحنا. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرُ ضَيْقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] يقول: «يقول تعالى ذكره: ومن أراد الله إضلاله عن سبيل الهدى يشغله بكفره وصدّه عن سبيله، ويجعل صدره بخذلانه وغلبة الكفر عليه، حرجاً. «والحرج» أشد الضيق، وهو الذي لا يُنفذه شيء من شدة ضيقه، وهو هاهنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخله نور الإيمان، لرين الشرك عليه..»^(٢).

وإضلاله - تعالى - من أضلّ، وإزاغته قلب من أزاغ إنما هو، كما أسلفنا، بعدّ له وحكمته، لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته، لا كما توهم القدريّة أن ذلك - إن كان - ظلمٌ وجور، فنّفوه لما أن الله تعالى مُنزّه عن الظلم، باتفاق المسلمين. وقد رد ابن جرير عليهم هذه المقالة مستدلاً بمدح الله تعالى عباده المؤمنين على دعائهم إياه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]. قال:

«وفي مدح الله جل ثناؤه هؤلاء القوم. بما مدحهم به - من رغبتهم إليه في أن لا يزيغ قلوبهم، وأن يعطيهم - رحمةً منه - معونةً لهم للثبات على ما هم عليه، من حسن البصيرة بالحق الذي هم عليه مقيمون، ما أبان عن خطأ قول الجهلة من القدريّة: إن إزاغة الله قلب من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته وإمالته له عنها، جور. لأن ذلك لو كان كما قالوا، لكان الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا

(١) انظر: الفصل (٢٩/٣)، وقارن: المقالات (٣٢٥/١)، المعتزلة، لجار الله (١٠١).

(٢) التفسير (١٢/١٠٨-١٠٩) ط شاكر.

بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴿١﴾ بالذم أولى منهم بالمدح؛ لأن القول لو كان كما قالوا، لكان القوم إنما سألوا ربهم - بمسألتهم إياه أن لا يزيغ قلوبهم - أن لا يظلمهم ولا يجور عليهم. وذلك من السائل جهل، لأن الله جل ثناؤه لا يظلم عباده ولا يجور عليهم. وقد أعلم عباده ذلك ونفاه عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦]، ولا وجه لمسألته أن يكون بالصفة التي قد أخبرهم أنه بها.

وفي فساد ما قالوا من ذلك، الدليل الواضح على أن عدلا من الله عز وجل: إزاغة من أزاغ قلبه من عباده عن طاعته، فلذلك استحق المدح مَنْ رَغِبَ إليه أن لا يزيغه، لتوجيهه الرغبة إلى أهلها، ووضع مسألته موضعها، مع تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ برغبته إلى ربه في ذلك، مع محله منه وكرامته عليه. . . ﴿١﴾.

وخلاصة ذلك كله، أن هداية الله تعالى مَنْ هَدَاهُ، وإضلاله من أضل، ابتداء وجزاء، إنما هو على علم منه - تعالى - بعباده؛ بمن هو أهل لفضله أو عدله؛ «فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، أصلا وميراثا» ﴿٢﴾.



(١) التفسير (٦/٢١٢-٢١٣) ط شاكر.

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم (٩٧).

الطبع والختم

أخبر الله تعالى في كتابه أنه «ختم» على قلوب أعدائه، و«طبع» عليها . . . إلى آخر ما أخبر من فعله ذلك بقلوبهم^(١)، وأكثر ما جاء في ذلك يدل سياقه على أنه إنما كان «عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحق بعد أن عرفوه»^(٢)، فلم يرفعوا به رأسا.

وقد تناول القدريّة (المعتزلة) ذلك كله بناء على نفس ما توهموه في نفى إضلال الله تعالى لمن أضل من عباده، من أن ذلك يستلزم نسبة الظلم إلى الله تعالى. فتأولوا «الختم» و«الطبع». . . مرة على شهادة الله تعالى، عليهم بذلك، ومرة بأنها علامة يُعلمهم بها لتعرفهم الملائكة^(٣)، وثالثة بأن ذلك كله على المجاز، «ولا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة»^(٤).

رأى الطبري:

يثبت ابن جرير - شأن أهل السنة^(٥) - أن ذلك «الختم» و«الطبع» على حقيقته

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم (١٨١) وما بعدها.

(٢) السابق: (١٨٣).

(٣) قال الراغب: «قال الجُبائي: يجعل الله ختما على قلوب الكفار ليكون دلالة للملائكة على كفرهم، فلا يدعون لهم!! وليس ذلك بشيء، فإن هذه الكتابة (كذا) إن كانت محسوسة فمن حقها أن يدركها أصحاب التشريع، وإن كانت معقولة غير محسوسة فالملائكة باطلاعهم على اعتقاداتهم مستغنية عن الاستدلال» ا. هـ المفردات (١٤٣).

(٤) الزمخشري: الكشف (٤٨/١). وانظر: رسائل العدل والتوحيد (١٩٢/٢، ١٩٤).

مقالات الأشعري (٣٢٣/١)، والمفردات (١٤٢-١٤٣).

(٥) قال الأشعري: «وقال أهل الإثبات: قوة الكفر طبع» ا. هـ المقالات (٣٢٣/١) وانظر: الانتصار لابن أبي الخير (٢٦٤-٢٦٨).

المعروفة في اللغة، وإن كان لكل شيء مما يختم عليه ختم يناسبه: «قلوبُ العباد أوعية لما أُودِعَتْ من العلوم، وظروف لما جُعِلَ فيها من المعارف بالأمور. فمعنى الختم عليها وعلى الأسماع - التي بها تُدرك المسموعات، ومن قبْلِها يوصل إلى معرفة حقائق الأنباء عن المغيَّيات - نظير معنى الختم على سائر الأوعية والظروف».

وكما أن هذه الأوعية والظروف «لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك» الختم عنها ثم حلها. فكَذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضه خاتمه، وحلّه رباطه عنها.

ويؤيد ابن جرير تفسيره ذلك - الذي هو الحق عنده - بأنه «صَحَّ بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثنا به . . . عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تُغلق^(١) قلبه، فذلك «الران» الذي قال الله جل ثناؤه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]».

ويحكى ابن جرير تأويل من تأول ذلك «الختم . . . بالاستكبار والإعراض عن الحق، ثم يردّه بأن ذلك إنما هو فعلهم، والآية تتحدث عن «فعل الله» بهم، فلا يجوز أن يكون ذلك معناه. قال: «فإن زعموا أن ذلك جائز أن يكون كذلك - لأن تكبُّره وإعراضه كانا عن ختم الله على قلبه وسمعه، فلما كان الختم سبباً لذلك، جاز أن يُسمى مُسبِّبه به - تركوا قولهم، وأوجبوا أن الختم من الله على قلوب الكفار وأسماعهم معنى غير كفر الكافر، وغير تكبُّره وإعراضه عن قبول الإيمان والإقرار به. وذلك الدخول فيما أنكروه»^(٢).

(١) تغلق: كذا هنا، وكأنها تصحيف، وفي «المطففين»: «تعلو»، وهو المعروف في الحديث.

(٢) انظر هذه المقتطفات في التفسير (٢٥٨/١-٢٦١) ط شاكر، والحديث رواه الإمام أحمد (٢/٢٩٧) والترمذي (٣٣٩٠ - تحفة)، وابن ماجه (٤٢٤٤). وقال الترمذي: صحيح. =

ولقد أثار هذا الموقف لابن جرير من «الختم، و...» بأخرّة - نوعًا ما - ثلاث حلقات - فيما وقفت عليه - من الجدل المتراكب، بعضها تلو بعض. فلقد حكى «ياقوت» (ت ٦٢٦هـ) في معجمه عن عبد العزيز الطبري - تلميذ ابن جرير - أنه قال: «إن أبا جعفر - يعني الطبري - كان يزعم أن «الله» ختم على قلوب الكفار مجازاة لهم على كفرهم». ثم علق ياقوت على ذلك بقوله: «وهذا الفصل رديء جدًا؛ لأنه إن كان ختم قبل الكفر فقد ظلم، وإن كان بعده فقد ختم على مختوم، وهذا لم يقل به أحد من أهل السنة والجماعة، إنما هو من أقوال الروافض والمعتزلة، قبحهم الله»^(١).

ثم يأتي د/ الحوفي على تلواء ياقوت، وقد أرهبه - فيما يبدو - تعليقه هذا، ليقول: إن هذا الوصف (يعني: من ياقوت) محتاج إلى مناقشة؛ «لأن الذي يظهر من تفسير الطبري ومناقشاته للمعتزلة أنه لا يدين بالجبر. فإذا ما رجعنا إلى ما قال الطبري في تفسير بعض الآيات المتعلقة بالإيمان والكفر، والهدى والضلال، والفجور والتقوى، لتعرف مذهبه، لم نستطع أن نقضى بأنه جبري، ولم نستطع أيضًا أن نقضى بأنه معتزلي، لأن كلامه لا يَشْف عن مذهب واضح، وإن كان يدور على أساس ثابت، هو أن علم الله سابق لأفعال العباد، ويده التوفيق والخذلان، والهدى والضلال...». ثم نقل تفسيره لبعض هذه الآيات^(٢).

ثم يأتي بثالثة الحلق باحث معاصر مشغل بالطبري^(٣)، حيث ينقل كلام

= وحسنه الألباني، كما في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٤). وانظر حول هذه المسألة:

تفسير الطبري: (١٢/٢٢-٢٣، ٢٥) (١٢/٢٠) (٨٧/١٧) ط الفكر.

(١) معجم الأدباء (٨٢/١٨).

(٢) انظر: أحمد الحوفي: الطبري: ص (٢٤٧-٢٥٢).

(٣) هو الباحث محمد محمود شبكة في بحثه عن «الطبري ومنهجه في التفسير»، رسالة

دكتوراه بالمكتبة المركزية لجامعة الأزهر (٢٩٥٣ عام).

ياقوت والخوف، ثم يعلق على ما نقله عبد العزيز الطبري، بأن «هذا هو رأى الجهمية الذين يقولون بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأن الله خالق لأفعال العباد، وهم والمعتزلة على طرفي نقيض..»، ثم قال: ورأى الطبري واضح في هذا المجال، وهو ما يراه أهل السنة من أنَّ أفعال العباد وتضاف^(١) إليهم كسباً (اختياراً)، وتضاف إلى الله سبحانه إنشاءً وتدبيراً..» قال: «ولسنا ندري من أين جاء ياقوت بهذا الكلام المنسوب إلى عبد العزيز الطبري، وهو يتناقض مع ما نقله عنه من أن الطبري كان متمسكاً بما عليه أهل السنة، عنيفاً في الرد على المخالفين والمنحرفين، ويتناقض مع ما قرره الطبري في تفسيره، مما يؤكد لنا استحالة صدور هذا الكلام عن أبي جعفر»^(٢).

وأول ما ناقشه هنا موقف ياقوت الذي يُثير تساؤلات حول حقيقة ما يراه؛ أيثبت «الختم والطبع...» على ما جاءت به النصوص، فيعود عليه سؤاله، أو اعتراضه، حول: متى ختم؟! أم يتأول ذلك كله فيعود قوله إلى قول «المعتزلة، قبحهم الله» (!؟) حتى إن معارضته التي ذكرها: «إن كان قبل الكفر فقد ظلم»، هي مما أورده المعتزلة على خصومهم، واشتهرت لديهم، وهي جارية على أصولهم في هذا الباب^(٣).

ثم إن ابن جرير لم يقل إن الله تعالى ختم على قلوب بعض عباده ابتداءً^(٤)، أو أن الختم يأتي بغتة فيبتهتهم، وإنما يكون ذلك، على ما صح بنظيره الخبر: بتراكم الذنوب وتتابعها، و«الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها

(١) كذا بالأصل: وتضاف، ولعل الصواب حذف الواو.

(٢) انظر البحث المشار إليه ص (٧١)، وانظر أيضاً ص (٢٣٥) وما بعدها من نفس البحث.

(٣) انظر: حاشية ابن المنير على الكشاف (١/٤٩-٥٠).

(٤) في الحديث القدسي: يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء»، الحديث. رواه مسلم

من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل، والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، فذلك هو الطبع والختم^(١).

وبعد، فإن قوله «وهذا لم يقل به أحد من أهل السنة». إن كان يعنى أن أهل السنة لا يقولون بـ «الختم»، فهو خلاف مذهبهم الذى لم ينقل عنهم خلافه^(٢)، ولا ندرى كذلك من أين له أن المعتزلة يقولون: إنه ختم بعد الكفر - يعنى أنه: ختم على مختوم^(٣).

فأما عن بحث د/ الحوفى، فنعم لا نستطيع أن ننسب ابن جرير لا للجبر ولا للاعتزال، لكن ليس لأن كلامه لا يشف عن مذهب واضح، بل لأنه - من غير كلفة - لا هو معتزلى، ولا هو جبرى.

وموطن الإشكال على د/ الحوفى - فيما أظن - أنه لم ينتبه إلى أن ثمة قولاً وسطاً، يجمع صواب ما عند الجبرية من إثبات القدر السابق، والعلم والكتاب...، وصواب ما عند القدرية من إثبات اختيار الإنسان ومسئوليته عن عمله، على ما سبق الإشارة إليه، ثم هو كذلك أعنى: هذا القول الوسط - بمنأى عن شطط كل منهما أو انحرافه عن النصوص، وهو كذلك مذهب أهل الإثبات «السنة».

وأما عن آخر هذه الحلق، وهو بحث د. محمد شبكة، فلئن فهمنا أن ينفى ما نفاه عن أهل السنة متأثراً - ربما - بموقف ياقوت، فليت شعرى أنى له «استحالة صدور هذا الكلام عن أبى جعفر»، مع أنه نصه اليقين، فى تفسيره لأول مرة يُذكر فيها لفظ الختم فى القرآن، والباحث مشغول بتفسيره؟!!!

وبعد، فإن ما ذكرناه من أن ابن جرير ليس قدرياً، لا يحتاج إثباته إلى كبير تعب،

(١) التفسير (٢٦١/١) ط شاكر.

(٢) انظر ما سبق، والمقالات (٣٢٠/١).

(٣) قارن بما فى شفاء العليل لابن القيم (١٨٣-١٨٤).

ويكفى أن هذا الفصل وحده، فضلاً عما سواه، يدل على أن قَصْدَ ابن جرير في غالب ما يورده من أبحاث، إنما كان ردَّ قول المعتزلة القدرية^(١).

وأما أنه ليس جبرياً، رغم ما قرر، فهو صحيح أيضاً، وقد طالما سبب الخلط بين مذهب أهل السنة ومذهب الجبرية من لبس وغلط^(٢).

وليس الأساس الذي أشار د/ الحوفي إلى أن كلام ابن جرير يدور عليه مما يوجب الجبر في شيء؛ فإن المعتزلة أنفسهم قد أثبتوا سبق العلم، مثلاً، وبينهم وبين الجبر بُعدُ المشرقين. وابن جرير نفسه يؤكد ذلك المعنى.

وأن مشيئة الله تعالى وعلمه السابق، وخلقه لأفعال عباده...، كل ذلك مما لا يوجب الاضطرار في شيء.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

يقول: «هؤلاء الذين ذرأهم لجهنم، هم كالأنعام...، فشبهم الله بها إذ كانوا لا يتذكرون ما يرون بأبصارهم من حجة، ولا يتفكرون فيما يسمعون من آى كتابه. ثم قال ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، يقول: «هؤلاء الكفرة الذين ذرأهم لجهنم، أشد ذهاباً عن الحق، وألزم لطريق الباطل، من البهائم، لأن البهائم لا اختيار لها، ولا تمييز فتختار وتميز، وإنما هى مسخرة، ومع ذلك تهرب من المضار، وتطلب لأنفسها من الغذاء الأصلح، والذين وصف الله صفتهم في هذه الآية، مع ما أعطوا من الأفهام والعقول المميّزة بين المصالح والمضار، ترك ما فيه صلاح دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارها، فالبهائم منها أسد، وهى منها

(١) نقل ياقوت عن عبد العزيز الطبري أن ابن جرير «كان يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال فى جميع ما خالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر و...». المعجم (١٨/٨٢).

(٢) انظر: الانتصار فى الرد على المعتزلة لابن أبى الخير اليمنى (١/١٦٥).

أضل، كما وصف ربنا جل ثناؤه^(١)
ولقد أوردنا عند كلامه على «العلم السابق» و«الكتابة»، والرد على الجبرية فى
«خلق الأفعال»، من ذلك ما يغنينا عن إعادة القول فى هذا المقام.



(١) التفسير (١٣/ ٢٨٠-٢٨١) ط شاكر.

الباب الثالث

آراء الطبري في النبوات والسمعيات

الباب الثالث

آراء الطبرى فى النبوات والسمعيات

الفصل الأول

قضايا النبوات عند الطبرى

تمهيد:

يعد الإيمان بالنبوات - من حيث الجملة، - من أصول الدين المشتركة بين أهل الكتب السماوية جميعا، ثم الإيمان برسالة الرسل، إجمالا بمن أجمل ذكره، وتفصيلا بمن فُضِّل، أحد أركان الإيمان التى لا يصح لأحد عقده إلا بها: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثم الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ هو شطر كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، التى هى - بحقها - عصمة الدم والمال، وشرط دخول الإسلام، ومفتاح الجنة.

ولقد عُنى المتكلمون فى بحث قضايا «النبوات» بإثباتها والرد على من أنكرها جملة، كالبراهمة، ثم إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، وهو المقصود الأسنى من هذا الباب، والرد على من ينكرها من كفرة أهل الكتاب والمشركين: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۚ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۚ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۚ﴾ [البينة: ١-٤].

ولئن كان الإيمان بالرسول بهذه المثابة، فلقد صار لترسيخ هذا الأصل، الإيمان بالرسول عامة، ونبينا محمد ﷺ خاصة، وأنه رسول الله إلى الناس كافة: أحمرهم وأسودهم^(١)، الذي لا نبي بعده، ولا يسمع به أحد يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن به إلا أدخله الله النار، صار لترسيخ ذلك أهمية كبرى فى أزمان خلخلة الثوابت، ودعوات الإنسانية، وزمالة الأديان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۖ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

وسوف نعرض فى الصفحات التالية - إن شاء الله - لموقف ابن جرير من قضيتين من قضايا النبوات هما: دلائل النبوة، وعصمة الأنبياء، وهاتان القضيتان من أهم مباحث النبوات بصفة عامة، وهما كذلك القضيتان اللتان أولاهما ابن جرير عنايته، فى نصوصه التى بين أيدينا.



(١) كما فى صحيح مسلم كتاب المساجد ح (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود» الحديث، قال النووى: «قيل المراد بالأحمر البيض من العجم، وبالأسود العرب، لغلبة السمرة فيهم، وغيرهم من السودان»، وقيل: «المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم» وقيل: «الأحمر الإنس والأسود الجن والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم. اهـ. شرح صحيح مسلم (٧/٥).

المبحث الأول

دلائل النبوة

يعد البحث في «دلائل النبوة» أهم مباحث «النبوات» طرأ، فهو أول ما يبحث عنه الباحث عادة في شأن النبوة، ومدخله إلى الإيمان بحقيقة ما جاءت به الأنبياء.

وليست ترجع أهمية النظر في تلك «الدلائل» إلى مجرد إثبات النبوة على من جحدتها أو تشكك في ثبوتها، وإن يكن ذلك أهم مقاصدها، بل إن للنظر فيها أهمية وأثرا بالغاً، حتى فيمن لا يُساوره شك، ولا يَسْنَحُ له تَطَنُّنٌ في صدق نبوة نبيٍّ من الأنبياء، عليهم السلام. وهو أمر يجده من نفسه من عاود النظر في دلائل نبوة نبيينا محمد ﷺ، وتنسم شمائله الشريفة الفَيَّنة بعد الفينة، فما حجة من صدق بالنبي ﷺ ولم يكده يعرف إلا منصبه واسمه، في حجة من لم يغب عن مخيلته شمائله ورسمه؟^(١) بل حتى «نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة»^(٢).

وعلى الرغم من أن الاستدلال بالمعجزات على إثبات «صحة النبوة» هو استدلال مقبول لدى مختلف الفرق الكلامية^(٣)، فإن الاعتماد عليه لم يخل، شأن عامة القضايا التي مرت بنا، من جانبي الإفراط والتفريط؛ إفراط من لا يرى طريقاً لإثبات النبوة إلا المعجزة^(٤)، وتفريط من لا يرى المعجزة دليلاً على إثبات

(١) فَلْيَبْلَاغَةِ أَكْبَادَ لَهَا خُلِقَتْ وَلِلْمَحَبَةِ أَكْبَادَ وَأَجْفَانِ

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١ / ٢١٠)، وانظر: النبوات لابن تيمية (١٥٤).

(٣) انظر: لمحات من الفكر الكلامي لأستاذنا د. حسن الشافعي ص (٣٣٣).

(٤) انظر - على سبيل المثال - : الإرشاد للجويني (٢٧٨). وقارن: النبوات لابن تيمية

(٣٤)، ولمحات للشافعي (٣٣٤).

النبوة، أو يوجب تصديق النبي من غير برهان^(١).

بينما أصح الأقوال في ذلك وأعدلها أن الوقوف على صدق النبي، وكذب المتنبي^(٢)، هو المقصود، وهذا يمكن معرفته بطرق كثيرة جداً ومتنوعة، كما أنه يعرف بالمعجزة. وأما من مال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فلا بد أن يقع في أمور، فيها ضرب من التكذيب بالحق أو التصديق بالباطل^(٣).

رأى الطبري:

يذكر ابن جرير في مقدمة تفسيره أن الله تعالى لما أرسل رسلاً دعاة إليه، أمدهم بعونه، وأبأنهم من سائر خلقه بما دل على صدقهم من الأدلة، وأيدهم به من الحجج البالغة والآي المعجزة، لئلا يقول القائل منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِذْ أَخْبَسُوا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْبَشَرُ مِنْكُمْ إِنْ أَنْتُمْ لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣-٣٤]^(٤).

وقد ألمح في هذه العبارة على إجمالها إلى أن «أدلة» الله تعالى على «صدق» الأنبياء تميزهم عن سائر خلقه. فلا يشتبه ما جاء به النبي بما جاء به غيره، حتى وإن جاء غيرهم بما يعجز عنه أكثر الناس، كفعل الساحر والكاهن، فأيات

(١) حكى البغدادى ذلك عن الإباضية وكثير غيرهم من الخوارج، وأنه تبعهم على ذلك الكرامية. انظر: أصول الدين (١٧٥-١٧٦).

(٢) قال الراغب: «تنبأ فلان، ادعى النبوة، وكان من حق لفظه في وضع اللغة أن يصح استعماله في النبي، إذ هو مطاوع نَبَأَ، كقوله: زينه فتزين...، لكن لما تعورف فيمن يدعى النبوة كذباً، جُنِب استعماله في المُحَقَّق...». المفردات (٤٨٢)، وانظر: لسان العرب (٣٤١٦/٦).

(٣) انظر شرح الأصبهانية ص (٨٨) وما بعدها، وص (١٠٥) وعنه: ابن أبي العزفى: شرح الطحاوية (١٤٠).

(٤) التفسير (٤/١) ط شاكر.

الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل مقدور الإنس والجن قاطبة؛ إذ هي برهان على النبوة مختص به، لا يوجد إلا مع النبوة^(١)، ولذلك يقول: «والأنبياء صلوات الله عليهم لا تحتج على من أرسلت إليه لصدقها»^(٢) فيما ينكره المرسلون إليهم من نبوتها، إلا بما يعجز عنه كثير من البشر، إلا من أيده الله جل ثناؤه بمثل ما أيدهم به من الأعلام والأدلة»^(٣).

وقد كان السحر والكهانة والشعر، أجناسا موجودة في الناس معروفة لديهم، وكل واحد منها يُعرَف بخواصه المستلزمة له، فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها، تعرف بها، ولا تلتبس بغيرها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء؛ فإن ما وجد مع النبوة تارة، ومع عدم النبوة تارة، ليس دليلا على النبوة^(٤).

وحين تشبه صورة ما أتى به النبي، لأول النظر، بصورة ما أتى به غيره من الكهنة أو السحرة ونحوهم، لا يكون وجه الإعجاز هو نفس الفعل الذي قَدَرَ عليه غيرُ الأنبياء، بل في طريق تعاطى ذلك الفعل، أو في مجموعهما معا. يقول ابن جرير في سياق ما تخبر به الأنبياء من الغيب، وما تخبر به الكهنة: «فهكذا فعل الأنبياء وحججها؛ إنما أتى بما أتت به من الحجج، بما قد يُوصلُ إليه ببعض الحيل، على غير الوجه الذي يأتي به غيرها، بل من الوجه الذي يعلم الخلق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة، إلا مِنْ قِبَلِ الله»^(٥).

(١) انظر: النبوات لابن تيمية ص (٥) وما بعدها، وقارن: المغنى لعبد الجبار (٢١٠/١٥) - (٢١٢).

(٢) يعني: لإثبات صدقها.

(٣) تهذيب الآثار - مسند ابن عباس - (٤٥٥/١). وانظر: التفسير (٣٥/١٣) ط شاكر.

(٤) انظر: النبوات ص (٢٨، ٢٠)، وانظر أيضًا: الفصل لابن حزم (٤/٥).

(٥) التفسير (٤٣٤/٦) ط شاكر.

ولذلك لما رأى سحرة فرعون آيات موسى، وعلموا أنها من جنس آخر سوى الجنس الذي عرفوا أطرقه، آمنوا به عن تلك الآيات، وقالوا لفرعون لما تهددهم - : ﴿لَنْ تُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَیِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢].
وبذلك الفهم لآيات الأنبياء، رد ابن جرير على من تأول إسرائ النبي ﷺ ومعجازه بأنه رؤيا نوم لا رؤيا يقظة. قال:

«وأما ما روى عمن روى عنه، أن ما ذكر عن النبي ﷺ من إسرائ الله عز وجل به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وما ذكر عنه أنه عاين هنالك، وفي السماوات السبع من عظيم قدرته، إنما كان ذلك كله رؤيا نوم لا رؤيا يقظة، فقول ظاهر كتاب الله على خلافه دال، والتنزيل على فساده شاهد، والأخبار عن رسول الله ﷺ بغيره متظاهرة، والروايات ببطوله واردة.

فأما دليل ظاهر كتاب الله على خلافه، فقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِزَيَرِهِ مِنْ عَائِنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فأخبر تبارك وتعالى أنه أسرى بعبد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، معلما بذلك خلقه قدرته على ما فعل به، مما لا سبيل لأحد من خلقه إلى مثله، إلا لمن مكنه من ذلك، مثل الذي مكن منه نبيه محمدا ﷺ، ودالا بذلك من فعله على صدقه وحقيقة نبوته، إذ كان ذلك من المعجزات التي لا يقدر من البشر عليه أحد، إلا من خصه الله بمثل ما خصه به. ولو كان رؤيا نوم، لم يكن في ذلك على حقيقة نبوة رسول الله دلالة، ولا على من احتج عليه به من مشركي قوم رسول الله لرسوله حجة، ولا كان لإنكار من أنكر من المشركين مسراه من مكة إلى المسجد الأقصى ورجوعه إليها في ليلة واحدة وجه معقول، إذ كان معقولا عند كل ذى فطرة صحيحة أن الإنسان قد يرى في منامه في الساعة، ما على مسيرة سنة من موضع منامه من البلاد، أو أكثر، وأنه يقضى هنالك أوطارا

وحاجات، فدع ما على مسيرة شهر...

وأما الأخبار عن رسول الله ﷺ فمظاهرة بأنه قال: «أتاني جبريل بالبراق، فحملني عليه فسار بي حتى أتينا بيت المقدس» ولا شك أن الأرواح لا تحمل على الدواب، وإنما تحمل عليه الأجسام ذوات الأرواح وغير ذوات الأرواح»^(١).

لكن ربما يُشكّل على الناظر فتنة الدجال - سلمنا الله من شرها - وما يظهر على يديه من خوارق الأمور وعظائم الفتن، التي تبلغ أن «يخرج إليه رجل هو خير الناس، أو من خير الناس، فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرايتم إن قتلت هذا ثم أحبيته، أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. قال: فيقتله ثم يحياه»^(٢). فهذا الذي يجري على يدى الدجال ربما يقال: إنه دليل على أن الله تعالى قد يعطى آيات الأنبياء، وقلب الأعيان، أهل الكذب على الله، وأشدّ أعدائه فريةً عليه؟

وقد أجاب ابن جرير عن ذلك بقوله: «فنقول: إنه لا يجوز أن تعطى أعلام الرسل أهل الكذب والإفك، في الحال التي لا سبيل لمن عاين ما أتى به الفريقان، إلى الفصل بين الحق منهم والمبطل، فأما إذا كان لمن عاين ذلك السبيل إلى علم الصادق، ممن ظهر ذلك على يديه، من الكاذب، فلا يُنكر إعطاء الله ذلك الكذابين، لعله من العلل، كالذي أعطى الدجال من ذلك فتنة لمن شاهده، ومحنة لمن عاينه، ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين»^(٣).

(١) تهذيب الآثار - مسند ابن عباس - (١/٤٥٤-٤٥٥)، وانظر نفس الفكرة مع زيادات أخرى في التفسير (١٥/١٦-١٧) ط الفكر.

(٢) انظر الحديث بتمامه في البخاري - كتاب الفتن (٧١٣٢)، ومسلم - كتاب الفتن (٢٩٣٨).

(٣) نقل ذلك عنه ابن بطلال في شرح صحيح البخاري (٤/١٦١ب) - مخطوط - وابن حجر

والواقع أن طرائق الناس في الإجابة عن ذلك الإشكال تنوعت، كل حسب أصله؛ هذا فضلا عما لجَّ في نكران الدجال من الأصل، وجحد ما فيه من أحاديث، أو حرفها عن معناها. فذهب البعض إلى أن ما معه إنما هو مخاريق وخيالات لا حقيقة لها، وألجأهم إلى ذلك اعتقادهم أنه لو كان ما معه بطريق الحقيقة لم يوثق بمعجزات الأنبياء. وهذا هو مذهب الجبائي، ومال إليه جمع كابن حبان وابن حزم والطحاوي والبيهقي، وغيرهم^(١).

وأما ابن جرير فقد بنى جوابه على إمكان التمييز بين الصادق والكاذب، فحيث يُقدَّرُ عدم الفرق بينهما، يمتنع ظهور ذلك المعجز على الكاذب، وحيث يمكن التمييز بينهما لكل ناظر، فلا لبس في ظهور ذلك الخارق على يد الكاذب، ولا محذور. وهذا هو الواقع في شأن الدجال الأعور الذي وسم بالكفر، مكتوبا بين عينيه (كافر)^(٢).

وهذا الإشكال إنما يتجه على لفظة في حديث الدجال، رواها ابن ماجه من حديث أبي أمامة مرفوعا: «إنه يبدأ فيقول: أنا نبي، ولا نبي بعدي...»^(٣)، وفي

= في الفتح (١٣/ ١١٠).

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ١١٣)، السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني - حاشية المحقق (٣/ ١١٨٦-١١٨٨).

(٢) انظر في ذلك صحيح البخاري (٧١٣١)، مسلم - كتاب الفتن (٢٩٣١)، وفي مسلم: «يقرؤه كل من كره عمله، أو يقرؤه كل مؤمن».

(٣) سنن ابن ماجه - كتب الفتن - ح (٤٠٧٧)، وهو حديث مطول، لعله أطول ما ورد في شأن الدجال. إلا أن الراوي عن أبي أمامة، يحيى بن عمرو السبائي (وقع في ابن ماجه: الشيباني بالشين المعجمة خطأ، وصوابه بالمهملة) لم يسمع من الصحابة، كما في التقريب (٧٦٦٦) فالسند منقطع، ثم الراوي عنه إسماعيل بن رافع، قال الدارقطني وغيره: متروك الحديث، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها مما فيه نظر، كما في الميزان (١/ ٢٢٧) فالحديث ضعيف بهذا الإسناد.

نفس هذه الزيادة - بتقدير صحتها - الجواب عن ذلك الإشكال، وهو قول النبي ﷺ: «ولا نبي بعدى»؛ وذلك أنه إذا ثبت نبوة النبي ﷺ فدعوى الدجال باطلة في نفسها ولا تقبل، وإن لم تثبت نبوة النبي ﷺ مع ما جاء به الآيات، لم تصح دعوى النبوة لا للدجال ولا لغيره^(١)، وبتقدير ضعف هذه الزيادة فلا إشكال.

وأما سائر ألفاظ قصة الدجال في الصحيحين وغيرهما فإنما فيها دعواه الربوبية، وهى باطلة في نفسها، تدل صفاته: العُور، الفُحج، وسيما الكفر في وجهه، على بطلانها، ولذلك قال النبي ﷺ: «إنه أعور، وإن الله ليس بأعور» إلى آخر ما قال فيه^(٢).

على أن لفتنة الدجال خصوصية ليست لغيرها، أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم من فتنة الدجال»^(٣).

وأما عن آيات النبي ﷺ فقد أشار ابن جرير إلى أعظم آياته باتفاق أهل الإسلام، وهى القرآن الكريم، وتفضيل النبي ﷺ به على من سواه: «من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، حفظه ما حفظ عليهم، - جل ذكره وتقدس أسماءه - من وحيه وتزييله، الذى جعله على

(١) وبنحو ذلك كان يجب العلماء عن يثبت النبوات فى الجملة، ويطعن فى نبوة النبى محمد ﷺ انظر مثلاً: أصول الدين (١٦٢). وأما ابن حجر فأجاب عن ذلك بأنه إنما يظهر الخوارق بعد قوله الثانى - يعنى قوله: «يبدأ فيقول أنا نبي...» ثم يثنى فيقول: أنا ربكم». انظر فتح البارى (١١٣/١٣) - ولا يخفى ما فيه من تحكم.

(٢) انظر شرح الأصهبانية لابن تيمية ص (٩١)، فتح البارى (١١٠/١٣-١١١).

(٣) هو طرف من حديث أبى أمامة المشار إليه سابقاً ولهذا القدر شاهد من حديث عمران بن حصين عند مسلم رقم: (٢٩٤٦).

حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما حُصِّصَ به من الكرامة علامة واضحة، وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرَّق به بينهم وبين كل كافر ومشرِك، الذي لو اجتمع جميع مَنْ بين أقطارها، من جنِّها وإنسها، صغيرها وكبيرها، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^(١).

وهذا العجز من الخلق عن معارضة القرآن أو شيء منه، أو إبطال حجته هو من أدل الدلائل على صدق النبي ﷺ فيما أتاهم به، وصحة نبوته. يقول ابن جرير في تأويل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]:

«وهذا من الله عز وجل احتجاج لنبيه ﷺ على مشركي قومه من العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضلالهم. قال الله جل ثناؤه لهم: فأتوا بحجة تدفع حجته، لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة: أن يأتي ببرهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق. ومن حجة محمد ﷺ على صدقه، وبرهانه على حقيقة نبوته، وأن ما جاء به من عندي، عجزُ جميعكم، وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تأتوا بسورة من مثله. وإذا عجزتم عن ذلك - وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذراية - فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز. كما كان برهان من سلف من رسل وأنبياء على صدقه، وحجته على نبوته من الآيات، ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقى؛ فيتقرر حينئذ عندكم أن محمدا لم يَقُولْهُ ولم يَخْلُقْهُ، لأن ذلك لو كان منه اختلافا وتقوُّلاً، لم تعجزوا وجميع خلقى، عن الإتيان بمثله، لأن محمدا ﷺ لم يَعُدْ أن يكون بشرا مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسم وبسطة الخلق وذراية اللسان، فيمكن أن يظن به اقتدار على ما عجزتم عنه، أو يتوهم منكم

عجز عما اقتدر عليه»^(١).

ومن وجوه الإعجاز القرآني التي تكررت إشارة ابن جرير إليها في غير ما موضع، ما فيه من أنباء الغيب، وعلوم أهل الكتاب الخفية، وقصصهم وقصص أنبيائهم، التي ما كان النبي ﷺ يعلمها هو ولا قومه من قبل أن يوحى إليه هذا القرآن. وفي علمه بذلك، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يدرس الكتب، ولم يجالس أهل العلم، الحجة المبينة عليهم بأنه لله رسول، وأنه لم يعلم ما علم من ذلك، وحاله الحال التي كان بها ﷺ، إلا بوحي من السماء^(٢).

يقول ابن جرير في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]:

«وإنما ذلك خبر من الله عن كذبهم، لأنهم لا يجيئون بذلك أبداً على صحته، فأعلم الله بكذبهم عليه نبيه ﷺ، وجعل إعلامه إياه ذلك^(٣) حجة له عليهم؛ لأن ذلك إذا كان يخفى على كثير من أهل ملتهم، فمحمد ﷺ وهو أمي من غير ملتهم لو لا أن الله أعلمه ذلك بوحي من عنده، كان أحرى أن لا يعلمه. فكان ذلك له ﷺ من أعظم الحجة عليهم بأنه نبي لله ﷺ إليهم، لأن ذلك من أخبار أوائلهم، كان من خفي علومهم الذي لا يعلمه غير خاصة منهم، إلا من أعلمه الذي لا يخفى عليه خافية، من نبي أو رسول، أو من أطلعه الله على علمه ممن شاء من خلقه»^(٤).

وإذ يولى ابن جرير هذا الجانب من جوانب الإعجاز القرآني أهمية ملحوظة،

(١) التفسير (٣٧٣/١) ط شاكر.

(٢) انظر: التفسير (٢٧٤/١٣)، وأيضاً: (٤٢٦/١)، (٤٠٤/٦) ط شاكر.

(٣) الإشارة هنا إلى ما تضمنه أول الآية الكريمة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾.

(٤) التفسير (١٦/٧)، وانظر أيضاً: (٢٥٣-٢٥٤) ط شاكر.

ويكرر الإشارة إليه، فإننا نجده أيضا - شأن سائر من تعرض لدلائل نبوة نبينا محمد ﷺ - يعتمد هذا الجانب (الإخبار بالغيب) واحدا من أهم دلائل النبوة، وأبين خصائصها. فالنبي هو الذى أنبأ عن الله^(١)، «ومن لوازم النبي التى لا بد منها الإخبار عن الغيب الذى نبأه الله تعالى به، فإن من لم يخبر عن غيب لا يكون نبيا»^(٢).

يقول ابن جرير فى قول النبي ﷺ يوم خير: «لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه»^(٣) الحديث، يعنى: عليا:

«وفى حديث على الخبر عن بعض أعلام النبوة، وذلك خبره عن الغيب الذى لا يكون مثله إلا بوحي من الله، وهو قوله: يفتح الله على يديه...»^(٤).

وحيث يتعاطى الكهنة والمنجمون الإخبار عن أمور من الغيب، وقد يصدقون فى بعض أخبارهم، فإن ابن جرير لم يغفل ذلك، بل أورد على نفسه إشكالا يتعلق به، وأجاب عليه:

«فإن قال قائل: وما كان فى قوله [يعنى: عيسى عليه السلام] لهم: ﴿وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]. من الحجة له على صدقه، وقد رأينا الْمُتَنَجِّمَ والمُتَكَهِّنَ تخبر بذلك كثيرا فتصيب؟

قيل: إن الْمُتَنَجِّمَ والمُتَكَهِّنَ معلوم منهما عند من يخبرانه بذلك، أنهما ينبئانه به

(١) حكى ذلك ابن منظور فى «اللسان» مادة: نبأ - بالهمزة - عن الجوهرى، ومادة: نبا - بحرف العلة - عن ابن السكيت.

(٢) ابن تيمية شرح الأصبهانية ص (١٤٨).

(٣) انظر الحديث فى صحيح البخارى - فضائل الصحابة - ح (٣٧٠١)، ونفس الكتاب فى صحيح مسلم ح (٢٤٠٦).

(٤) نقل ذلك عنه ابن بطال فى شرح صحيح البخارى (٢/ ١٦١ب) - مخطوط.

عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك من عيسى، صلوات الله عليه، ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج، ولا طلب لمعرفة باحتيال، ولكن ابتداء بإعلام الله إياه، من غير أصل تقدم ذلك احتذاه، أو بنى عليه، أو فزع إليه، كما يفزع المتنجّم إلى حسابه، والمتكهن إلى رثيته، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على الله، أو المدعية علم ذلك^(١).

وإذا كانت أنباء الغيب من أعظم حجج الرسل على أقوامهم، وكانت أخبارهم بذلك إنما هي عن إعلام الله تعالى إياهم بها ابتداء، لا عن استخراج منهم لها، ولا تسبب إليها، فإن إخبارهم بما يخبرون من ذلك، دق أو جل، لا يكون عن ظن وتحمين، بل عن جزم ويقين، ثم خبرهم لا يتخلف مخبره أبدا؛ ضرورة أنه لا تقوم لهم الحجة إلا بذلك.

يقول ابن جرير في قوله تعالى - عن نبيه يوسف عليه السلام - : ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢]:

«قال يوسف للذي علم أنه ناج منهما»، ثم قال: «وكان قتادة يوجه معنى الظن في هذا الموضع إلى الذي هو خلاف اليقين» قال ابن جرير: «وهذا الذي قال قتادة من أن عبارة الرؤيا ظن، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء، فأما الأنبياء، فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن ثم لا يكون، أو أنه غير كائن ثم يكون، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرت عنه، أنه كائن أو غير كائن، لأن ذلك لو جاز عليها في أخبارها، لم يؤمن مثل ذلك في كل أخبارها، وإذا لم يؤمن، سقطت حجتها على من أرسلت إليه، فإذا كان ذلك كذلك، كان غير جائز عليها أن تخبر بخبر إلا وهو حق وصدق^(٢)».

(١) التفسير (٤٣٢-٤٣٣) ط شاكر.

(٢) السابق (١١١/١٦) ط شاكر.

وقد أشار ابن جرير فى «تاريخه» إلى طرف من دلائل نبوة النبى ﷺ حتى من قبل أن ينزل عليه الوحي، وهو ما يسميه البعض بـ «الإرهاصات». قال: «وكان رسول الله ﷺ من قبل أن يظهر له جبريل عليه السلام برسالة الله عز وجل إليه فيما ذكر عنه يرى ويعاين آثارا وأسبابا من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله. فمن ذلك ما قد ذكرت فيما مضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشقا بطنه، واستخرجا ما فيه من الغل والدنس، وهو عند أمه من الرضاعة، حليلة، ومن ذلك أنه كان إذا مر فى طريق لا يمر - فيما ذكر عنه - بشجر ولا حجر فيه إلا سلم عليه».

ثم قال أيضا بعد رواية تسليم الحجر والشجر بإسناده: «وكانت الأمم تتحدث بمبعثه، وتخبر علماء كل أمة منها قومها بذلك» ثم روى أيضا ما جاء فى إخبار الجن بمبعثه ﷺ وبعض ما جاء فى «خاتم النبوة» بين كفى النبى ﷺ ثم قال: «والأخبار عن الدلالة على نبوته ﷺ أكثر من أن تحصى، ولذلك كتاب يفرد إن شاء الله»^(١). ثم لا نعلم لهذا الكتاب الذى وعد به عينا ولا أثرا، وما إخاله أمكنه منه الأجل.



(١) تاريخ الطبرى: (٢/ ٢٩٤-٢٩٧)، وذكر محقق التاريخ - الأستاذ محمد أبو الفضل - أن هذا الكتاب لم يذكره أحد ممن ترجم لابن جرير. انظر مقدمته للتاريخ (١/ ٢٠).

المبحث الثاني

عصمة الأنبياء

درس المتكلمون هذه القضية في مباحث «النبوة» كل حسب أصله^(١)؛ فمن نزههم عن الوقوع في شيء قبل النبوة أو بعدها -إنما نفاه لأن الوقوع فيه عنده- يحط من على مقامهم، أو يخرم قانون الائتساء بهم^(٢)، ومن نسبهم إلى الإمام بشيء من ذلك - على شرائطه المذكورة عندهم - لم ير فيه خطأ لعالي مقامهم، أو خرما للتأسي بهم، بل ربما عده من تمام كما لهم البشري^(٣).

ثم انتقل ذلك البحث إلى الأصوليين، طَيَّ تقريرهم لما اتفق عليه المسلمون من عصمة الأنبياء مما يخل بالتبليغ، مقدمين ذلك التقرير - كدليل - بين يدي إثبات حجية السنة، كمصدر من مصادر التشريع^(٤).

وما بين إطراء الروافض؛ إذ زعموا أن الأنبياء معصومون من الخطأ والسهو، والمعصية: صغيرها وكبيرها، من أول العمر إلى آخره^(٥) وجفاء من جفا من

(١) انظر: منهاج السنة (٢/٤١٣ وما بعدها).

(٢) انظر: المحصل للرازي (٢١٩-٢٢١).

(٣) انظر: منهاج السنة (٢/٣٩٧، ٤٠٧ وما بعدها) - وراجع تفسير القرطبي (١/٣٠٩)، عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات (١١٠-١١١).

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدی (١/١٦٩)، عبد الغنى عبد الخالق، حجية السنة (٢٧٩).

(٥) وهذا نص ابن المطهر الحلي في: منهاج الكرامة، كما في منهاج السنة (٢/٣٩٣)، وقد حكى الأشعري قولين لهم في ذلك، الثاني: جواز ذلك، بل وقوعه من النبي ﷺ انظر: المقالات (٢/١٢١)، والموضع السابق من منهاج السنة، واقتصر الدهلوي في «التحفة الاثنى عشرية» على حكاية القول الثاني - وقوع المعصية من الأنبياء - عنهم، كذا في مختصر التحفة للالوسي (١١٧-١٢٢) والأول هو المشهور عنهم، حتى جعل بعض

الخوارج^(١) فجوز الكفر فما دونه على الأنبياء، قبل البعثة وبعدها^(٢)، ما بين ذلك الإفراط، وذاك التفريط، تنوعت مقالات الناس حول إثبات شيء من ذلك أو نفيه، وحول طريق تقرير ذلك: هل هو العقل، أو المعجزة، أو السمع؟

وثم أصول عامة نشير إليها هاهنا، قبل أن ندلّف من ذلك إلى

بيان موقف ابن جرير:

أولاً: أن الأنبياء معصومون عن الكفر بالله - تعالى - حاشاهم قبل النبوة، بلّغ بعدها، وعلى ذلك حكى الإجماع غير واحد^(٣)، غير عابئين بخلاف من خالف في ذلك، من الخوارج، أو من قال بوقوعه قبل النبوة من المفسرين، كمجاهد والسدى والكلبي^(٤) أو من سموهم بالحشوية^(٥). قال القاضي عياض: «وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف. والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله تعالى وصفاته، والتشكك في شيء من

= محققهم ما سواه شاذاً مخالفاً لإجماعهم، انظر حجية السنة (١١٥) هامش رقم: ٢٩، ٣٠). وقد حكى ابن السبكي عن أبي إسحاق الإسفرائيني نحواً من القول الأول، واختاره، انظر: طبقات الشافعية (٤/ ٢٦٠) هامش.

(١) وقد نسب ابن حزم ذلك أيضاً إلى أبي جعفر السمناني - تلميذ الباقلاني - من الأشاعرة، انظر الفصل (٤/ ٢).

(٢) نسب ذلك إلى الفضلية والأزارقة منهم، انظر: المحصل للرازي (٢١٩-٢٢٠)، شرح المقاصد للتفتازاني (٥/ ٥٠)، حجية السنة (١١٩).

(٣) كالتفتازاني في: شرح العقائد النسفية (٨٩)، والزركشى في البحر (٤/ ٢٨٩) وغيرهما، وانظر حجية السنة (١١٨-١٢٢).

(٤) انظر حجية السنة (١١٠)، وتأتى الإشارة إلى ذلك عند ذكر موقف الطبرى.

(٥) انظر: المحصل للرازي (٢٢٠)، الإحكام للأمدى (١/ ١٧٠)، وتعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي عليه. وراجع ما أسلفنا في هذه الرسالة حول مصطلح الحشوية.

ذلك . وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة ، مذ ولدوا ، ونشأتهم على التوحيد والإيمان . . ، وأنا أقول :

إن قريشا قد رمت نبينا عليه الصلاة والسلام بكل ما افترته ، وغير كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته ، مما نص الله تعالى عليه ، ونقلته إلينا الرواة ، ولم نجد في شيء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلهته ، وتقريعه بدمه بترك ما قد كان جامعهم عليه ، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين . . . وما سكتوا عنه ، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة^(١) .

ثانيا : أن الأنبياء معصومون من كل ما يخل بالتبليغ ، كالكتمان لشيء من الرسالة ، أو الكذب ، وهذا هو مقتضى دلالة المعجزة والسمع والعقل ، وعليه أجمعت الأمة^(٢) . وما وقع من ذلك خطأ أو سهوا عند من يجيز وقوعه فلا بد أن يبين له ، فيبينه للأمة ، بالإجماع^(٣) .

ثالثا : ما كان على سبيل الحكم والفتوى ، فالإجماع على عصمتهم فيه أيضا ، ولو في حال الغضب ، بل يستدل بشدة غضب النبي ﷺ على تحريم ذلك الشيء^(٤) .
رابعا : أن الأنبياء منزهون عن الكبائر ، فضلا عن الفواحش والفسق والفجور ، وما ذكر الله تعالى عن نبي كبيرة ، فضلا عن الفاحشة ، وعلى هذا إجماع سلف

(١) القاضي عياض الشفاء (٢/ ١٩٩-٢٠١ بشرح القاضي) .

(٢) انظر الشفاء - مع شرح القارى (٢/ ٢٢٢-٢٢٤) ، شرح العقائد النسفية (٨٩) ، ونقل الأمدى اتفاق أهل الشرائع قاطبة عليه ، انظر : الإحكام (١/ ١٧٠) .

(٣) انظر : منهاج السنة (٢/ ٣٩٦-٣٩٧) . وانظر أيضًا : المغنى للقاضي عبد الجبار (١٥/ ٢٨١ وما بعدها) . حجية السنة (٩٩ وما بعدها) .

(٤) البحر المحيط للزركشى (٤/ ١٧٠) ، و انظر عصمة الأنبياء للرازي ص (٥) ومراد من حكى الإجماع هنا ، وفي أكثر مسائل هذا الباب ، الإجماع المنعقد من السلف قبل ظهور الفرق المخالفة فيه ، كما في حجية السنة (١٢٥-١٢٦) ، وانظر حاشية رقم : (٥٩) من نفس المصدر ، وشرح الشفا (٢/ ٢٥٧) .

الامة وجماهيرها. ويلحق بالكبائر، في تنزه الأنبياء وعصمتهم منها، ما يُزرى بمناصبهم كذائل الأخلاق والدناءات، وما يسقط المروءة والحشمة^(١).

خامسا: الصغائر التي لا تزرى بالمناصب ولا تقدح في فاعلها، قد جوزها على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أكثر العلماء وجمهور أهل السنة^(٢). يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر، هو قول أكثر العلماء، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية^(٣)، وهو أيضا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو^(٤) لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول. وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقا، وأعظمهم قولا لذلك الرافضة^(٥)».

وقد استدل الجمهور لوقوع ذلك بما جاء منه في القرآن والحديث. قال القرطبي: «وهذا ظاهر لا خفاء فيه»^(٦).

سادسا: أن من ألم بشيء من ذلك، عند من أجازة، عمدا أو سهوا أو خطأ، فإنه لا بد أن ينبه عليه، فينتهي^(٧). يقول ابن تيمية: «وهو سبحانه وله الحمد لم يذكر عن الأنبياء ذنبا إلا ذكر معه توبته لينزهه عن النقص والعيب، ويبين أنه ارتفعت منزلته، وعظمت درجته، وعظمت حسناته، وقربه إليه بما أنعم الله عليه من التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة التي فعلها بعد ذلك، وليكون

(١) انظر الشفا (٢/٢٥٧) وما بعدها، منهاج السنة (٢/٤١٨) وما بعدها.

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية (٨٩)، شرح الشفا (٢/٢٠٠).

(٣) انظر كلام الآمدي في الإحكام (١/١٧١).

(٤) هو: كذا في الأصل ولعلها زائدة.

(٥) مجموع الفتاوى (٤/٣١٩-٣٢٠)، وانظر الرسل والرسالات للأشقر (١٠٧) وما بعدها.

(٦) تفسير القرطبي (١/٣٠٨).

(٧) شرح النسفية (٨٩)، شرح الفقه الأكبر للقارى (٥٩).

ذلك أسوة لمن يتبع الأنبياء ويقتدى بهم إلى يوم القيامة»^(١).

فموضع التأسي بالأنبياء إنما هو فيما أقروا عليه من مبادرتهم إلى التوبة بعد الذنب، والندم على المخالفة، والاجتهاد في الاستغفار وتعلق القلب بالله سبحانه وتعالى، مع المبالغة في هضم النفس والانكسار بين يدي الثواب الغفور سبحانه. وليس التأسي فيما أنكر عليهم من المخالفة؛ فيرجع العبد مما قدر الله - تعالى - عليه من المعصية، إلى ما أحب الله من عباده وشرعه لهم من التوبة والاستغفار: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ويكون قد تأسى بالأنبياء في ذلك الرجوع. وبهذا ينحل أعظم إشكالات من دفع وقوع الأنبياء في المخالفة، ولو صغيرة، أو سهوا^(٢).

ولا يلزم من ذلك أيضا - وهي شبهتهم الثانية - أن يكون من ألم بشيء من ذلك أنقص ممن لم يُلْمَ، أو يكون النبي بعد وقوعه في شيء من ذلك أنقص منه قبله، فضلا عن أن يلزم منه أن يكونوا أقل درجة من عصاة الأمة، كما قاله من قاله^(٣)، فإن ذلك كله إنما يتصور مع البقاء على الذنب، أو الإصرار وعدم التوبة، فأما مع ما ذكرنا من عصمة الأنبياء عن الإقرار على الذنوب مطلقا، فليس ذلك واردا، لأن التوبة النصوح التي يقبلها الله، يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه^(٤).

سابعا: يبقى البحث فيما ألم به أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - من ذلك مشروعا، ما كان أثناء قول الله عنهم، أو قول نبيه ﷺ وأما أن نبتدئ في ذلك من قبل أنفسنا، فليس بجائز لنا في آبائنا الأذنين، المماثلين لنا،

(١) منهاج السنة (٢/ ٤١١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ١٤٨)، جلاء العينين للألوسی (٤٨٩).

(٣) انظر: المحصل للرازي (٢١٩).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٤)، لوامع الأنوار (٢/ ٣٠٤).

فكيف بأنبياء الله وفيهم أبونا الأعظم آدم، وهم صفوة الله من خلقه^(١).
ثم الحذر كل الحذر من توهم أن ذلك انتقص من فضلهم أو نبوتهم مثقال
ذرة^(٢)، بله أن يطمح جاهل إلى تفضيل نفسه، ولو بوجه ما، على أحد من أنبياء
الله^(٣)، فتلك العثرة، لا لعلها. وقد قيل: إن النبي ﷺ إنما خص يونس عليه
السلام، بالذكر، في قوله: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن
متي»^(٤)، لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكره
سدا للذريعة^(٥).



(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٢٦١).

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم (١٥/١٩٣).

(٣) انظر: السابق (١٥/١٩٤).

(٤) رواه البخاري - أحاديث الأنبياء رقم: (٣٤١٣)، مسلم - الفضائل رقم: (٢٣٧٧) من
حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقد اختلف في مرجع الضمير في قوله: «أنا خير...»
هل هو على العبد، يعني: أنه لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس ﷺ أو هو على
النبي ﷺ؟ يعني: أنه لا ينبغي لأحد منا أن يقول: إن نبينا محمداً ﷺ خير من يونس،
عليه السلام. انظر: شرح النووي وابن حجر للحديث المذكور.

(٥) انظر: فتح الباري (٦/٥٢١)، وأيضاً: شرح مسلم (١٥/١٩٣).

رأى الطبري:

سوف نحاول فيما هاهنا، إن شاء الله تعالى، أن نستنبط مذهب ابن جرير في أهم الأمور التي أشرنا إليها في قضية «عصمة الأنبياء»، وذلك من خلال تقريره لبعض الآيات المتعلقة بذلك.

أولاً: عصمة الأنبياء من الكفر بالله تعالى بعد النبوة:

أما أن الأنبياء معصومون من الكفر بعد النبوة، وفاقا للإجماع الذي ذكرناه آنفاً، فإن ابن جرير يقرره عند غير واحدة من الآيات التي قد تشكل على ذلك، أو تبدو مخالفة له. ومن ذلك قول الله تعالى عن نبيه يونس عليه السلام - : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويله: فقال بعضهم، معناه: فظن أن لن نعاقبه بالتضييق عليه، من قولهم: قدرت على فلان، إذا ضيقت عليه، كما قال الله، جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظن أنه يعجز ربه، فلا يقدر عليه... وقال آخرون: بل ذلك بمعنى الاستفهام» ثم قال بعد حكاية هذا الخلاف: «وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندى بالصواب، قول من قال: عني به: فظن يونس أن لن نجسبه ونضيق عليه، عقوبة على مغاضبة ربه.

وإنما قلنا: ذلك أولى بتأويل الكلمة، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى الكفر، وقد اختاره لنبوته، ووصفه بأنه ظن أن ربه يعجز عما أراد به ولا يقدر عليه، وصف له بأنه جهل قدرة الله، وذلك وصف له بالكفر، وغير جائز لأحد وصفه بذلك...»^(١).

(١) التفسير (١٧/٧٨-٧٩) ط دار الفكر، وانظر فيه رده للقول الثالث: أن ذلك بمعنى =

وهذا القول الذى اختاره ابن جرير هو أشهر وأقوى ما قيل فى تفسير هذه الآية، واختاره أكثر المفسرين والمتكلمين^(١).

وأما ترجيحه أن الصواب فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]: أن ذلك الإشراك كان فى الاسم لا فى العبادة، وأن المعنى بذلك آدم وحواء، فلا يشكل - عند ابن جرير - على مذهبه، لأن هذا شرك فى الاسم (لفظي) بتسمية ولدهما عبد الحارث، لا شرك حقيقى بعبادة غير الله تعالى ولذلك لما رجح أن المراد بقوله تعالى فى تمام الآية: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. تنزيهه سبحانه عن الشرك فى عبادته، ذكر أن المراد بالذين يشركون غير آدم وحواء، وأن الخبر عنهما قد انقضى عند قوله تعالى: ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾. يقول:

«فإن قال قائل: فما أنت قائل، إذا كان الأمر على ما وصفت فى تأويل هذه الآية، وأن المعنى بها آدم وحواء - فى قوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟ أهو استنكاف من الله أن يكون له فى الأسماء شريك، أو فى العبادة؟ فإن قلت: فى الأسماء؟ دل على فساد^(٢) قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [١٩١] [الأعراف: ١٩١]؟ وإن^(٣) قلت: فى العبادة. قيل لك: فكان آدم أشرك فى عبادة الله غيره؟

= الاستفهام.

(١) انظر تفسير القرطبي (١١/ ٣٣٠-٣٣٢)، الشفا للقاضى عياض - مع شرحه - (١٨٩/٢)، عصمة الأنبياء للرازى (٩٣-٩٤).

(٢) هذا اعتراض على تفسير الشرك فى الآية بأنه شرك فى الأسماء فقط بتعبيدها لغير الله كقول: «عبد الحارث» ونحوه. مع أن تعبيد الأسماء لغير الله محرم إجماعاً، على ما نقله ابن حزم فى مراتب الإجماع (١٥٤) - وانظر: بكر بن عبد الله أبو زيد - معجم المناهى اللفظية (٣٨٠ وما بعدها).

(٣) فى ط شاكر: فإن، والتصويب من ط الفكر.

قيل له: إن القول في تأويل قوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ليس بالذي ظننت، وإنما القول فيه: فتعالى الله عما يشرك به مشركو العرب، من عبدة الأوثان فأما الخبر عن آدم وحواء فقد انقضى عند قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾، ثم استأنف قوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

وبناء على ما سبق، فإن ابن جرير يبين معاني سائر الآيات التي قد تشكل على ذلك، بما يدل على أنها لا تتعارض مع عصمة الأنبياء عن الكفر بالله تعالى حاشاهم، أو الشك في أمره. ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، فيتأولها وما أشبهها بأن الخطاب فيها، وإن كان موجها إلى النبي ﷺ، فإن المراد به غيره، ويستشهد على ذلك بنظائره من كلام العرب^(٢).

ثانيا: عصمة الأنبياء من الكفر بالله تعالى قبل النبوة:

الذي يبدو لنا من خلال عدة مواطن من تفسير الطبري، أنه يميل إلى عدم عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة، وهو الأمر الذي سبق حكايته عن بعض المفسرين كمجاهد والسدي والكلبي، ومع أن أحدا - فيما اطلعت عليه - لم يعز ذلك المذهب إلى ابن جرير، فإن كلامه في غير موطن يؤيد ما تبيناه من مذهبه.

ومن أظهر الأمثلة الدالة على ما قلنا ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٨٣]، فقد قال في تفسير الآية الأولى: «أراه ملكوت السموات

(١) التفسير (٣١٥/١٣) ط شاكر - على أن قصة هذه التسمية وصفها ابن حزم بأنها خرافة موضوعة مكذوبة، من تأليف من لا دين له ولا حياء. انظر: الفصل (٤/٤)، وأيضا السلسلة الضعيفة للالباني ج ١ رقم: (٣٤٢).

(٢) انظر: السابق (١٩١/٣ - ١٩٢) و (٤٨٤ - ٤٨٨) ط شاكر.

والأرض؛ وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم... ليكون ممن يقر بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه الله له، وبصره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة...»^(١).

وهذا يدل على أنه يرى أن هذه الآيات تقصص اهتداء إبراهيم عليه السلام، إلى ما لم يكن يعلم من قبل، من توحيد ربه وبطلان ما عليه قومه من الشرك. ولذلك لما جاء إلى قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قال: «وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه لما تبين له الحق وعرفه، شهد شهادة الحق، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله...»^(٢).

وابن جرير يستدل لرأيه هذا بآثار عن ابن عباس وقتادة وابن إسحاق، فيها أنه كان - وقت استدلاله على التوحيد - على دين قومه. وفي الأثر الذي رواه عن ابن عباس تصريح بأنه لما رأى هذه الأشياء «عندها حتى غابت»، فلما غابت أخراها، وهى الشمس، ﴿قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وفى موطن آخر - فى سورة البقرة - يبين أن هذا هو الوقت الذى اصطفاه الله فيه وأمره بالإسلام. قال: «ولقد اصطفيناه فى الدنيا حين قلنا: أسلم. قال: أسلمت لرب العالمين...»، ثم قال:

«فإن قال قائل: وهل دعا الله إبراهيم إلى الإسلام؟

قيل له: نعم، قد دعاه الله.

فإن قال: وفى أى حال دعاه إليه؟

قيل: حين قال: يا قوم إني بريء مما تشركون. وذلك هو الوقت الذى قال

(١) السابق (١١/٤٧٥). ط شاكر.

(٢) السابق (١١/٤٨٠-٤٨٣).

(٣) السابق (١١/٤٨٠).

له ربه أسلم، من بعد ما امتحنه بالكواكب والقمر والشمس»^(١).

وقد نقل ابن جرير عدة تأويلات عن مخالفه تقرر جميعها «أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه»، ثم ينقل عنهم عدة أقاويل في تأويل ذلك...

ثم إنه تعقب هذه الأقوال كلها برد إجمالي للأصل الذي بُنيت عليه، وهو قولهم: «غير جائز أن يكون لله نبي ابتعته بالرسالة، أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ إلا وهو لله موحد، وبه عارف، ومن كل ما يعبد من دونه برىء. فرد ابن جرير ذلك بقوله:

«وفي خبر الله تعالى، عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأن الصواب من القول في ذلك الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه». ثم إنه وصف أهل هذه الأقوال جميعاً بأنهم «قوم من غير أهل الرواية»^(٢).

وإذا تدبرنا موقف ابن جرير هذا، وما أورده من الروايات، لتصحيح قوله ورد قول مخالفه، لم نجد فيها ما يصلح مستنداً لمثل هذا القول الذي يخرج عما عليه جماهير الناس قولاً وفطرة؛ وأصرحها في مدعى ابن جرير أثر ابن عباس وابن إسحاق.

فأما أثر ابن عباس فإنه - على تسليم أن يكون حجة في مثل هذا - لا يصح سنده إلى ابن عباس؛ لأنه من رواية على بن أبي طلحة عنه، وعلى لم يسمع من ابن

(١) التفسير (٣/٩٢-٩٣).

(٢) انظر السابق (١١/٤٨٣-٤٨٥) ط شاكر.

عباس؛ فالأثر ضعيف منقطع بين علي وابن عباس^(١).

وأما قول إبراهيم: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، فأى دلالة فيه على أنه كان في ذلك الوقت وما قبله مشركا يعبد الأصنام، حاشاه؟ ولم لا يكون معنى ذلك: لأكونن من الضالين عما يجب أن يعبد به^(٢). يعنى الجاهلين بأحكام الشرائع، وليس في ذلك تكلف ولا مجافاة لمقتضى السياق، ولو قدر أن فيه ذلك، فقد قرر ابن جرير نفسه نظير ذلك في قوله تعالى، على لسان موسى: ﴿فَعَلَّهَا إِذَا وَاْنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]. قال: «وأنا من الجاهلين، قبل أن يأتيني من الله وحىً بتحريم قتله علي».

ثم أيد ابن جرير ذلك التأويل - هناك - بأن «العرب تضع الضلالة موضع الجهل، والجهل موضع الضلالة، فتقول: جهل فلان الطريق، وضل الطريق: بمعنى واحد^(٣)».

فأى فرق بين الموضعين؟ وأين ذلك كله من تزكية الله تعالى خليله عليه السلام - فى غير ما آية بأنه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥ وغيرها]. يعنى: «لم يكن يشرك فى عبادته أحداً من خلقه»^(٤)، كما يقرر ابن جرير نفسه، «ونفى الكون الماضى يستغرق جميع الزمن الماضى، فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوما ما»^(٥). فأين ما يصلح تخصيصا لهذه العمومات ببعض الأوقات دون بعض؟ ومن أقوى البراهين وأبينها على أن الأمر ليس كما قال ابن جرير، أن الله تعالى

(١) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٤/ ٥٤)، تهذيب التهذيب لابن حجر (٤/ ٢١٣-٣١٤). وكذا لا تقوم الحجة بأثر ابن إسحاق، لأنه معروف بالرواية عن أهل الكتاب. انظر ميزان الاعتدال (٤/ ٣٩٠).

(٢) انظر: تفسير المنار (٧/ ٤٦٨).

(٣) تفسير الطبري (١٩/ ٦٧) ط دار الفكر.

(٤) السابق (٧/ ١٨)، وانظر (٦/ ٤٩٣-٤٩٤) ط شاكر.

(٥) تفسير الشنقيطى - أضواء البيان - (٢/ ١٨٠). وابن جرير يشير فى قوله تعالى: ﴿مَا =

لم يعاتب خليله في شيء من ذلك، ولم يعنفه، ولم يبين أنه كان ضالاً مشركاً قبل أن يقول: ﴿يَقْوَرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. بل صدّقه تعالى في ذلك كله، وجعله حجته التي آتاها إبراهيم على قومه.

فصح أن ذلك لم يكن منه كما وقع لآدم عليه السلام أو غيره، حينما عصى أمر ربه، فعاتبه عليه حتى تاب منه آدم، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه^(١). كل ذلك مع سياق الآية^(٢)، الذي يدل، مع قرائن وأدلة أخرى كثيرة، على أن المراد بذلك هو ما حكاه ابن جرير عن مخالفه أولاً؛ من أن إبراهيم عليه السلام، كان في ذلك مناظراً لقومه، لا ناظراً لنفسه، وهو قول الجمهور^(٣)، وعزاه القاضي عياض إلى «معظم الحذاق من العلماء والمفسرين»^(٤).

ويبقى فيما هاهنا، قبل أن نتخطى عنه، مسألتان:

الأولى: أن ما ذكره ابن جرير عن مخالفه في هذه المسألة من أنهم قالوا، «لو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة؛ لأنه لا معنى فيه، إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بينه وبين أحد من خلقه مناسبة، فيحاييه باختصاصه بالكرامة، قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة»^(٥). فهذا الذي ذكر ليس هو قول كل مخالفه، وإنما هو قول كثير من المعتزلة

= كَانَتْ لَهُمُ الْخَيْرَةُ ﴿ (القصص: ٦٨). إلى قريب مما قرره الشنقيطي هنا في الكون الماضي. انظر: التفسير (١٠١/٢٠) ط دار الفكر.

(١) انظر: الفصل لابن حزم (٦/٤)، عصمة الأنبياء للرازي (٢٩).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (٧/١٩٩)، تفسير المنار (٧/٤٦٥).

(٣) انظر: المصادر السابقة، وكذلك: أحكام القرآن لابن العربي (٢/٧٤١)، ابن كثير (٢/

١٥١).

(٤) انظر: الشفا - بشرح القاري - (٢/٢٠٢-٢٠٣).

(٥) التفسير (١١/٤٨٣) ط شاكر.

والشيعة وغيرهم، ممن يقول بأصلهم فى التعديل والتجوير، وأن الله لا يفضل شخصا على شخص إلا بعمله. فيقول هؤلاء: «إن النبوة أو الرسالة جزاء على عمل متقدم، فالنبي فعل من الأعمال الصالحة ما استحق به أن يجزيه الله بالنبوة»^(١).

ويبقى من مخالفيه من يجوز بعثة كل مكلف، كما حكى عن الجهم والأشعرى، وأتباعهما^(٢).

ويبقى أيضا القول الذى عليه جمهور سلف الأمة وأئمتها، وكثير من المتكلمين، وهو أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فالنبي يختص بصفات، ميزه الله بها على غيره، فى عقله ودينه، واستعد بها لأن يختصه الله بفضل ورحمة^(٣). فهى فضل من الله تعالى - لا جزاء ولا استحقاق - وضعه بحكمته، فيمن هو أهل له^(٤).

الثانية: كأن ابن جرير يرى أن هذه الآيات بدءا من ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَعِزَّنِي﴾ [الأنعام: ٧٤] حتى آخر قصة الحاجة والتعقيب عليها، موجهة إلى النبي ﷺ فى شأن حجاجه لقومه، وخصومته إياهم فى آهتهم. قال: «يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ: واذكر يا محمد، لحجاجك الذى تحتاج به قومك، . . . حجاج إبراهيم خليلي قومه، ومراجعتهم إياهم فى باطل ما كانوا عليه. . . ، فاتخذهم إماما واقتد به، واجعل سيرته فى قومك لنفسك مثالا. . .»^(٥).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة (٢/٤١٥). وقد حكى الأشعرى خلاف المعتزلة حول النبوة: هل هى جزاء أم ابتداء، على مقالتين. انظر: المقالات (١/٢٩٧) و (٢/١٣٧) وقارن: شرح الأصول الخمسة (٤٧٦-٤٧٧).

(٢) منهاج السنة (٢/٤١٤).

(٣) السابق (٢/٤١٦).

(٤) انظر: إشارة الطبرى إلى هذا المعنى فى التفسير (٢٨/٩٧) ط دار الفكر.

(٥) التفسير (١١/٤٦٥)، وسياق الكلام: واجعل سيرته مثالا لنفسك فى قومك. وانظر =

وإذا كان ذلك مما يقوى ما اختاره الجمهور من أن القصة بكاملها مناظرة لقومه وحجاج لهم، فهل يقرر ابن جرير، بناءً على القول الذي اختاره، في شأن نبينا ﷺ (المقتدى) قبل النبوة، نفس ما قرره في شأن إبراهيم عليه السلام (المقتدى به) قبل النبوة، فيلتزم أن النبي ﷺ كان على دين قومه، قبل أن يوحى إليه، خاصة ولم يقل أحد بالفرق بين نبي ونبي في ذلك^(١)؟

لقد قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٦] - وهي أحد ما يتعلق به من يقول: إن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل البعثة - : «وجدك على غير الذي أنت عليه اليوم»^(٢).

ومع أن قوله «غير» يحتمل أن يكون غيره في أمور الشرائع والتعبادات^(٣)، وهذا لا إشكال فيه ولا محذور، فإنه يحتمل أيضا أنه كان على غير الذي هو عليه من توحيد الله تعالى والإيمان به^(٤).

لقد يبدو لنا أن هذا الأخير هو مراد ابن جرير؛ فإنه أعقب ذلك الكلام بقوله «وقال السدى في ذلك كان على أمر قومه أربعين عاما».

= (٥٠٦/١١) ط شاكر.

(١) انظر: ما نقله الشيخ عبد الغنى عبد الخالق في حجية السنة (١٢٩) عن شرح النونية للخيالى.

(٢) التفسير (٢٣٢/٣٠) ط دار الفكر.

(٣) انظر تقرير ابن قتيبة لهذا المعنى، ورده الاحتمال الثانى فى تأويل مختلف الحديث (١١٤-١١٧).

(٤) ونفس الاحتمال نجده فى تفسيره لآية الشورى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ - انظر (٤٦/٢٥) ط الفكر، وقارن: تفسير القرطبى (٥٥/١٦) وما بعدها. وقد ذكر القاضى عياض فى «الشفاء» (٢/٢٠٤ شرحه) أن الطبري قال فى ذلك: «ضالًّا عن النبوة» اهـ. وهذا كما ترى، لم يصرح به الطبري. فإن كان فهمه من عبارته فهو محتمل، إلا أنه يُضْعَفُ أن يكون هو مراد ابن جرير ما ذكرته فى المتن.

نعم، لم يقدم لهذا الأثر بما يذكره عادة بين يدي الروايات التي يتأيد بها، فيقول: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال... أو نحو ذلك، ثم إنه يبدأ بالواو العاطفة (وقال) مما يشعر بأنه قول آخر سوى الذي اختاره، إلا أنه يرشح ما بدا لنا ما ذكره في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]. قال: «يقول: وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها...» ثم قال: (وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل). ثم كان من هذا الذي هو «نحو» ما قاله، ما رواه عن الضحاك قال: «يعنى: الشرك الذي كان فيه»^(١).

والواقع أن هذا القول هُجَنَةٌ من قائله، يقف لذكرها الرأس، فلا جرم أنكره عليه الإمام أحمد غاية النكر؛ قال حنبل:

«قلت لأبي عبد الله، يعني: أحمد،: من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يبعث؟

قال: هذا قول سوء، ينبغي لصاحب هذه المقالة [أن] يحذر كلامه ولا يجالس.

قلت له: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه المقالة؟ قال: قاتله الله؟ وأى شيء أبقى إذا زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه، وهم يعبدون الأصنام؟ قال الله تعالى، حاكيا عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. ثم قال (يعنى: الإمام أحمد): ماذا يحدث الناس من الكلام؟ هؤلاء أصحاب الكلام؟ [من أحب الكلام] لم يفلح، سبحان الله لهذا القول... وذكر أن أمه حين ولدت رأت نورا أضاء له قصور الشام، أو ليس هذا عندما ولدت رأت هذا، وقبل أن يبعث كان طاهرا مطهرا من الأوثان؟ أو ليس كان لا يأكل ما ذبح على النصب؟ ثم قال: احذروا أصحاب الكلام، فإن

أصحاب الكلام أمرهم لا يؤول إلى خير»^(١).

ثالثاً: مذهب ابن جرير في عصمة الأنبياء من الصغائر (بعد

النبوة):

ذكر النقلة لمذهب ابن جرير في هذه المسألة أنه ممن «يجوز الصغائر غير المنفرة على الأنبياء»^(٢)، وهو ما سبق نقله عن جمهور أهل السنة. وما نقل هنا عن ابن جرير هو الذى تدل عليه عدة نصوص من كلامه في تفسيره، فمرة يقرر أن الأنبياء داخلون في عموم «خلق الله» الذين لا يخلو الواحد منهم - فيما بينه وبين ربه - مما يجب عليه التوبة منه، والتوبة بداهة لا تكون إلا عن ذنب^(٣). يقول في تفسير قول إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]:

«أما التوبة، فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه، أوبته مما يكره الله منه، بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عودُهُ عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلاً عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

(١) ذكره ابن رجب فى «لطائف المعارف» (٨٢-٨٣) وعزاه إلى أبى بكر بن عبد العزيز فى كتاب السنة، ونقله عن ابن رجب السفارنى فى «لوامع الأنوار» (٣٠٦/٢) وما بين المعكوفات منه. وانظر حول الآيات التى ذكرها الإمام أحمد وغيرها: البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٦٦-٢٦٨)، الصحيح المسند من دلائل النبوة، لمقبل الوداعى (١٨٠).

(٢) انظر: الشفا للقاضى عياض - بشرحه - (٢/٢٥٧)، تفسير القرطبى (١/٣٠٨).

(٣) انظر حول هذه المسألة: رسالة فى التوبة، لشيخ الإسلام ابن تيمية - ضمن جامع الرسائل (١/٢١٧ وما بعدها).

قيل: إنه ليس أحد من خلق الله، إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة^(١).

ويؤكد دخول الأنبياء عنده في عموم الخلق - في هذه المسألة - ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ [النمل: ١٠-١١].

قال: «إلا من ظلم منهم فعمل بغير الذي أذن له في العمل به. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ثم روى عن الحسن قال: «كانت الأنبياء تذب فتعاقب»، وروى قبله نحوه منه عن ابن جريج^(٢).

إلا أن ابن جرير ينزه الأنبياء عما لا يليق بعالى مقامهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - من الكبائر ورذائل الأخلاق، كالبخل والحسد، ونحو ذلك. ومن شواهد ذلك ما جاء في تفسيره لقول الله تعالى على لسان سليمان، عليه السلام -: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] قال:

«أما رغبته في ربه فيما يرغب إليه من الملك فلم تكن، إن شاء الله، به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما يرغب إليه فيه، وقبول توبته وإجابته دعاءه.

وأما مسألته ربه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فإننا قد ذكرنا فيما مضى قبل قول من قال: إن معنى ذلك: هب لي ملكًا لا أسليه كما سلبته من قبل... وإنما

(١) التفسير (٨١/٣) ط شاكر.

(٢) التفسير (١٣٦/١٩) ط دار الفكر، وقد حكى أيضًا اختلاف أهل العربية في معنى الاستثناء، إلا أنه رجح تفسير الحسن وابن جريج. وانظر: أمثلة أخرى لموقفه من هذه القضية (١١١/١٦) ط شاكر، (٧٨-٧٦/١٧)، (٧٢-٧١/٢٣)، (٩٩/٢٣) ط دار الفكر.

معناه عند هؤلاء: هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى أن يسلبنيه.

وقد يتجه ذلك أن يكون بمعنى: لا ينبغي لأحد سوى من أهل زمانى، فيكون حجة وعلماً على نبوتى، وأنى رسولك إليهم مبعوث؛ إذ كانت الرسل لا بد لها من أعلام تفارق بها سائر الناس سواهم، ويتجه...»^(١).

وقد ذكر ابن جرير إشكالا يتعلق بهذه المسألة سببه توهم أن وقوع مثل هذه الصغائر نجاف لمقام النبوة، على ما سبق ذكره فى الأصل السادس، فى أول هذا المبحث، والغفلة عما لله تعالى فيه من حِكم. قال:

«فإن قيل: وكيف يجوز أن يوصف يوسف بمثل هذا^(٢) وهو لله نبي؟

قيل: إن أهل العلم اختلفوا فى ذلك:

فقال بعضهم: كان من ابتلى من الأنبياء بخطيئة، فإنما ابتلاه الله بها ليكون من الله عز وجل، على وجل إذا ذكرها، فيجد فى طاعته إشفاقاً منها، ولا يتكل على سعة عفو الله ورحمته.

(١) التفسير (١٦٤/٢٣) ط دار الفكر، وانظر: ما ذكره (١٥٦/٢٣) حول ما ذكر عن مسح سليمان عليه السلام بسوق الخيل وأعناقها.

(٢) يعنى أن يوسف عليه السلام هم بمواقعة امرأة العزيز، على ما رجحه وذكره من الروايات حول هذه الآية. وذهب كثير من المحققين إلى أن يوسف ما ألم بذنب أصلاً، ولا فعل ما يستحق أن يلام عليه أو يتوب منه، بل صرف الله عنه السوء والفحشاء، فلم يَضْبُ إليها ولا إلى غيرها؛ إذ كان من عباده المخلصين. حتى نقل الرازى عن القاضى أبى طاهر الطوسى قوله: «شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك، وادعى يوسف ذلك، واعترف له خصمه بصدق ما قاله مرتين، وشهد بذلك رب العالمين الذى هو أصدق القائلين، واعترف إبليس؟! فكيف يلتفت إلى هؤلاء الحشوية!؟». وعصمة الأنبياء (٥٥)، وانظر: الفصل (٤/١٠-١١)، منهاج السنة (٤١١-٤١٢)، وانظر ما حققه الشيخ رشيد رضا والشيخ الشنقيطى فى تفسيريهما حول هذه القصة.

وقال آخرون: بل ابتلاهم الله بذلك ليعرفهم موضع نعمته عليهم، بصفحه عنهم وتركه عقوبته عليه في الآخرة.

وقال آخرون: بل ابتلاهم الله بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب، في رجاء رحمة الله، وترك الإيلاس من عفوه إذا تابوا^(١).

رابعاً: عصمة الأنبياء مما يخل بالتبليغ:

لقد قرر ابن جرير - بحق - عصمة الأنبياء مما يخل بالرسالة^(٢)، كعدم الصدق في أخبارهم، ولو لم يكن ذلك الخبر عن الله، فإنه متى جرب الكذب على شخص في خبر، أى خبر، لم يؤمن كذبه في سائر أخباره^(٣).

وإذا كان الرسل على ذلك الكمال في التبليغ، وإليهم المنتهى في صدق الحديث والخبر، فهم أولى الناس باليقين به، والاتعاد بما فيه من عدات.

يقول ابن جرير - معقبا على من وجه معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، إلى: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظنت الرسل أنهم قد كذبوا فيما وعدوا من النصر - : «وهذا تأويل وقول غيره من التأويل أولى عندى بالصواب، وخلافه من القول أشبه بصفات الأنبياء. والرسل وإن جاز أن يرتابوا بوعد الله إياهم ويشكوا في حقيقة خبره، مع معاينتهم من حجج الله وأدلتها ما لا يعانیه المرسل إليهم، فيعذروا في ذلك، فإن المرسل إليهم لأولى في ذلك منهم بالعذر. وذلك قول إن قاله قائل لا يخفى أمره»^(٤).

(١) التفسير (٣٧/١٦-٣٨) ط شاكر.

(٢) انظر: الأصل الثاني في أول هذا المبحث، وكذلك حجية السنة ص (٩٦) وما بعدها.

(٣) انظر: منهاج السنة (٢/٤٢٧).

(٤) التفسير (٣٠٦/١٦) ط شاكر.

إلا أنه ثم إشكال حول رواية ابن جرير لقصة الغرائق (المشهورة) وهي أحد ما احتج به من جوز الكذب - خطأ - في التبليغ، كما نسب إلى الكرامية^(١)، وابن جرير قد صدر هذه الروايات التي ساقها لهذه القصة، بما قد يشعر بضعفها عنده، أو على الأقل بعدم جزمه بها، فقال: «قيل: إن السبب الذي من أجله أنزلت هذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾» [الحج: ٥٢]. أن الشيطان كان ألقى على لسانه في بعض ما يتلوه، مما أنزل الله عليه من القرآن، ما لم ينزله الله عليه فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به، فسلاه الله مما به من ذلك، بهذه الآيات^(٢).

على أنه، وبتقدير أن تكون القصة صحيحة عند ابن جرير، فلقد ذكر ابن العربي أن تأويلها حينئذ: «أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ قاله؛ وذلك أن النبي كان إذا قرأ، تلا قرآنا مقطعا، وسكت في مقاطع الآي سكوتا محصلا، وكذلك كان حديثه مترسلا فيه متأنيا، فيتبع الشيطان تلك السكتات التي بين قوله: ﴿وَمَنْزُورَ النَّالَةِ الْأُخْرَى﴾ [النجم: ١٩] وبين قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ [النجم: ٢٠] فقال يحاكي صوت النبي ﷺ: «وإنهن الغرائقة العلاء، وإن شفاعتهن لترجي»؛ ثم ذكر ابن العربي أنه ما هدى لهذا إلا الطبري بجلالة قدره وصفاء فكره؛... قال: «وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصَوَّبَ على هذا المرمى فَقَرَّطَسَ، بعد ما ذكر في ذلك روايات كثيرة كلها باطلة لا أصل لها»^(٣).

(١) انظر: الفصل (٢/٤) ولم يقيد تجويزهم بالخطأ، بل أطلقه؛ بينما قال البغدادى: «وفيه من يجيز الخطأ في التبليغ» اهـ، أصول الدين (١٦٨)، وانظر حجية السنة ص (١٠٠) هـ رقم (٤٦) - وقد أفرد الشيخ الألباني لبيان بطلان هذه القصة رسالة «نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق» فانظرها.

(٢) التفسير (١٧/١٨٦) ط دار الفكر.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٣٠٣) وهذا المعنى هو الذي اختاره القاضي عياض =

وكلام ابن جرير الذى اشار إليه ابن العربى هو قوله: «الآيات التى أخبر الله جل ثناؤه أنه يحكمها لا شك أنها آيات تنزيله؛ فمعلوم أن الذى ألقى فيه الشيطان هو ما أخبر الله تعالى ذكره أنه نسخ ذلك منه وأبطله، ثم أحكمه بنسخه ذلك منه.

فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأه، أو حدث وتكلم ألقى الشيطان فى كتاب الله الذى تلاه وقرأه أو فى حديثه الذى حدث وتكلم فيذهب الله ما يلقى الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله... ثم يخلص الله آيات كتابه من الباطل الذى ألقى الشيطان على لسان نبيه...»^(١).

وأياً ما كان الأمر من تثبيت ابن جرير لهذه القصة أو تأويله لها فإن من أجاز سهر الأنبياء أو خطأهم فى البلاغ، ومن لم يجز ذلك - على ما أشرنا إليه من قبل - أجمعوا على أن المحكم الذى استقر عند الأمة لا يكون إلا شرع الله المنزل^(٢).

خامساً: اجتهاد النبى ﷺ وقضية التأبير:

ثم إشكال فيما يتعلق بإخبار الأنبياء بالظن، والذى نفاه ابن جرير ألبتة، على ما مر بنا فى المسألة السابقة وهذا الإشكال أثاره، أو أثير فيما أثير، حول حديث تأبير النخل، ووقعته الشهيرة.

فقد روى ابن جرير فى تهذيب الآثار هذا الحديث، من حديث طلحة بن عبيد

= وشيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن حجر، وغيرهم. انظر: نصب المجانيق ص (٣٤) لكن ذكر الشيخ عبد الله الغمارى - رحمه الله - وجوهاً قوية فى إبطال هذا التأويل، وعول على ما هو الحق من ضعف القصة. انظر: بدع التفاسير (١٠٣-١٠٤).

(١) التفسير (١٧/١٩٠) ط دار الفكر، إلا أن قوله: «ما يلقى الشيطان على لسان نبيه» يُبْعَدُ حملة على ما وجهه إليه ابن العربى.

(٢) راجع: الأصل الثانى فيما سبق.

الله ﷺ قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخل المدينة فرأى ناسا في رؤوس النخل يلحقون. فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى؛ يلحقون؟ قال: «ما أظن ذلك يغني شيئا؟» فبلغهم فتركوه، فآزَلُوا عنها! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما هو ظن ظنته إن كان يغني شيئا فليصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، إنما هو ظن ظنته والظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم: قال الله، فلن أكذب على الله جل وعز»^(١).

وقد كانت نسبة الظن في هذا الحديث إلى النبي ﷺ أحد ما أعل به «بعضهم» هذا الحديث - من حيث المتن؛ فقد قال ابن جرير بعد روايته له: «وهذا خبر عندنا صحيح سنده وقد يجب أن يكون على مذهب الآخرين سقيما لعل، فذكر اثنتين من علل الإسناد، ثم قال: «والثالثة: أنه غير جائز عند بعضهم أن يقول النبي ﷺ قولا على وجه الظن، لأن الظن ربما كان غير الحق والأنبياء لا تقول إلا حقا».

ولقد يظن بادی الرأي، أن ما حكاه ابن جرير هنا عن «الآخرين» من نفى «الظن» عن الأنبياء، هو نفس ما قرره آنفا حينما رد على قتادة تأويله الظن، في تعبير يوسف عليه السلام رؤيا صاحبيه بأنه «خلاف اليقين». إلا أن ابن جرير في الواقع إنما نفى هناك أن تخبر الأنبياء عن شيء من الغيب، مع شهادتها على حقيقة ما أخبرت عنه أنه كائن أو غير كائن ثم يكون ذلك الخبر عن ظن ظنوه، من غير وحى من الله.

وسواء أكان ذلك الخبر الذي أخبر به النبي خبرا عن أمر غيبي «من الأمور العلمية» أم كان خبرا عن شرع شرعه الله لعباده «أمر ونهى، حلال وحرام» أم

(١) تهذيب الآثار مسند طلحة والزبير - «المفقود» حديث رقم (٦٢١)، والحديث رواه مسلم أيضًا رقم (٢٣٦١) وهو في باب «وجوب امتثال ما قاله شرعًا، دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي» - من كتاب الفضائل.

كان خبرا لخاص من الناس، أم كان غير ذلك كله، فهذا الذى دلت قواطع الشرع، وعلم بالضرورة من دين الإسلام أنه لا يكون إلا عن وحى، دون ما كان من أمر الدنيا وأسباب المعاش، فهذا مما قد يتحدث فيه النبى ﷺ ويعمل بوصفه بشرا مثلنا؛ يخبر فيه بيقين إن كان عنده، أو يظن فيجتهد فى التدبير. وهذا هو الذى دل عليه قول النبى ﷺ: «إن كان يغنى شيئا فليصنعوه..». الحديث، وقوله فى الرواية الأخرى التى ساقها ابن جرير: «أما ما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم بدنياكم، وأما ما كان من أمر دينكم فإلى»^(١).

يقول ابن جرير فى بيان ما فى هذا الخبر من الفقه:

«وفى ذلك أيضا من قوله إبانة عن خطأ قول من قال: إن رسول الله ﷺ لا يعمل شيئا ولا يقوله إلا عن وحى من الله به إليه كان عمله ذلك وقوله فى أمر الدين أو الدنيا ودلالة على قول من قال: قد يجوز أن يفعل رسول الله ﷺ أفعالا كثيرة، ويقول أقوالا - فى غير أمر الدين - ولكن فى أمور الحرب وأسباب المعاش بما يحضره من رأى صادف ذلك صوابا أو غيره. وإنما الذى لا يكون منه على وجه الرأى ما كان من أمر الدين الذى يلزم العباد العمل به أو الدينونة به وذلك أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر مثلكم، وإنما هو ظن ظنته، والظن يخطئ مرة ويصيب». وكان قيله ذلك فى أمر من أمر بالمعاش»^(٢).

ولعل منشأ التوهم عند مخالفى ابن جرير، ظنهم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، يعم أمور المعاش والمعاد غافلين عما دل عليه هذا الحديث وغيره كثير: من جريان أمثال ما ذكره من أمور

(١) السابق رقم (٦٢٢) ورواه مسلم أيضا فى الموضوع السابق بعده برقم (٢٣٦٢) بنحوه من حديث رافع بن خديج.

(٢) تهذيب الآثار مسند طلحة والزبير (المفقود) ص (٣٣٢)، وانظر حول هذه المسألة - الشفا للقاضى عياض (٢/ ٢٠٩ وما بعدها - بشرح القاري) - شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٦٩ -

المعاش - على مقتضى الطبيعة البشرية . وأما الآية فالمراد بها أن النبي ﷺ لا يبلغ عن الله تعالى إلا شيئاً أوحى إليه ^(١) ، والمراد بها القرآن خاصة كما هو اختيار ابن جرير ^(٢) .

وقد استدل ابن جرير بهذا الحديث أيضاً على الإبانة عن خطأ قول من يقول : إن الأنبياء قد كانت علمت كل ما بالخلق إليه الحاجة في أمر الدين والدنيا ^(٣) ، وهو قول ينسب إلى الشيعة ^(٤) .

والواقع أن الجدل حول هذا الحديث قديم جديد ^(٥) ، كما يقال . ولئن كان ابن جرير معنيّاً على من لم يقبل هذا الحديث ، بناءً على ما ظنه من عموم الوحي لأمر المعاش والصناعات فضعف هذا الحديث من أجل ظنه ذلك ، فما كان عساه يقول لو سمع - كما سمعنا في زماننا - من رام بتحريف هذا الحديث إضلال الناس عن الحكم بشرع رب العالمين ، وهو مقتضى إيمانهم : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

ولئن ظن بعض القدماء - خطأ - أن الوحي ومقتضى الرسالة يشمل حتى دقائق المعاش وأمر الصناعات ، فلقد تجاهل الجدد أن سياسة الناس بشرع رب

(١) انظر أضواء البيان للشنقيطي (٧/٧٠٢) . وقارن : القرطبي (١٧/٨٤-٨٥) .

(٢) التفسير (٢٧/٤٢) ط دار الفكر ، وانظر : التسهيل لابن جزي (٦٦٥) .

(٣) تهذيب الآثار (٣٣٢) .

(٤) انظر : شرح الشفا للقراري (٢/٢٠٩) .

(٥) ومن ذلك القديم ما نقل من تخطئة الغزالي ، ومن قبله أبو حامد الإسفرائيني وابن سريج من أئمة الشافعية ، للنبي ﷺ في هذه الحادثة (١٩) انظر : جلاء العينين للألوسي (٤٩٣-٤٩٤) مع أن قول النبي ﷺ لم يكن خبراً ، بل ظناً ظنه ﷺ ، ثم هو لم ينههم عن التلقيح ، لكنهم غلطوا في فهم مراده . انظر شرح صحيح مسلم (١٥/١٧٠) ، مجموع الفتاوى (١٢/١٨) .

العالمين هي من وظائف النبوة العظيمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال النبي ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى..»^(١).

وما كان يمكن أن يفوه، من يفوه ويتنفخ، بهذا الهرف، لولا أنا في أزمان ترؤس الروبيعة، والخلل في الثوابت، والجدل حول البدهيات. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.



(١) الحديث رواه البخاري - أحاديث الأنبياء رقم (٣٤٥٥)، مسلم - الإمارة (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة.

الفصل الثاني

مسائل الإيمان

المبحث الأول

حقيقة الإيمان

ثمة نصوص كثيرة تدل على أن إيمان القلب هو أصل الإيمان، نحو قول الله تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقول النبي ﷺ في التثريب على من يؤذون المؤمنين: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تؤذوا المسلمين»^(١) الحديث. وقوله ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٢).

ونصوص أخرى، وهي كثيرة أيضا، قد دلت على وجوب «الإيمان باللسان»، وأن ذلك الإيمان القلبى يبقى لا حكم له حتى يظهر إقرارا باللسان: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤/٤٢١) وأبو داود، رقم (٤٨٥٩-عون المعبود) من حديث أبى برزة الأسلمى. ورواه الترمذى أيضا وحسنه، رقم (٢١٠١-تحفة الأحوذى) من حديث ابن عمر. وصححه الألبانى فى صحيح الجامع، رقم (٧٩٨٤) والذى بعده.

(٢) هذه الجملة هى آخر حديث النعمان بن بشير المعروف «الحلال بين..»، والحديث فى البخارى (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) وغيرهما. وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ١٩٧-٢٠١).

عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(١).

وطائفة ثالثة من النصوص، هي أعظم من الأوليين، تدل على أن الإيمان، بشرط العمل الصالح، أو العمل الصالح، بشرط الإيمان، هو الإيمان المرضي عند الله، الذى هو مفتاح نجاة العبد وفوزه^(٢)؛ وهو العروة الوثقى، لا انفصام لها^(٣)، وهو الشجرة الطيبة؛ ثابتة الأصل، دائمة الأكل^(٤)، ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

فأما أهل السنة فآمنوا بذلك كله، وأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص^(٥) ومرادهم بالقول: قول القلب، وهو تصديقه، وقول اللسان،

(١) الحديث متفق عليه من حديث أبى هريرة وغيره، وحكم السيوطى بتواتره فى الأزهار المتناثرة، رقم (٤)، وانظر المجلد الأول من السلسلة الصحيحة للألبانى، الأرقام (٤٠٧-٤١٠).

(٢) انظر: تحقيق كلمة الإخلاص، لابن رجب ص (١٣) وما بعدها، تحقيق الألبانى.

(٣) كما فى قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦].

انظر: تفسير الطبرى (٤٢١/٥) ط شاكر، وابن كثير: (٣١١/١)، وانظر هذا المعنى فيما نقله بعد عن الأوزاعى.

(٤) كما فى قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ (ابراهيم: ٢٤-٢٥) انظر: الطبرى (٥٦٦/١٦) وما بعدها (ط شاكر، وأيضا: تعظيم قدر الصلاة،

للمروزي (٧٠٣/٢) وما بعدها.

(٥) نقل هذا الإجماع جمع من أئمة أهل السنة. انظر: شرح أصول أهل السنة للالكائى (١) (١٦٦، ١٧٦) (١٧٦/٥)، الشريعة للآجرى (٢٧٤/١) وما بعدها، الإيمان لابن تيمية =

وبالعمل: عمل القلب: محبته وخشيته...، وعمل الجوارح^(١).

ومن أجل ذلك ربما عبر بعضهم عن الإيمان بأنه: قول وعمل ونية، كما قال الإمام الشافعي رحمته الله «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين ممن أدركناهم: أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزى واحد من الثلاثة إلا بالآخر»^(٢).

وإذا كان ذلك هو مذهب أهل السنة، لا اختلاف عليهم في نقله، فلقد شاركهم في إدخال العمل، عمل القلب والجوارح، مع تصديق القلب وإقراره، في حقيقة الإيمان، كل من الخوارج والمعتزلة^(٣). لكن مع اختلاف حقيقى بين مذهب أهل السنة، ومذهبي الخوارج والمعتزلة، واختلاف - أيضا - وإن يكن لفظيا في حقيقته - بين المعتزلة والخوارج. وسوف يوضح ذلك في مسألتى زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم مرتكب الكبيرة إن شاء الله.

ثم توزعت الفرق ثلاثة الأركان:

فمن قائل: إنما الإيمان إيمان القلب، لا قول اللسان، ولا عمل الجوارح. ثم افترق هؤلاء أيضا (!!) فالجهم ومن وافقه يرون أن إيمان القلب هو المعرفة فقط، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل، لا ظاهر ولا باطن^(٤).

= (٢٩٢ وما بعدها)، تفسير ابن كثير (١/٤٠-٤١).

(١) انظر: الإيمان، لابن تيمية (١٦٣)، وأيضًا: ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى، لسفر الحوالى (١/٢٢١ وما بعدها).

(٢) انظر نص الشافعى عند: اللالكائى (٥/٨٨٦-٨٨٧) وابن تيمية فى الإيمان (١٩٧) والفتاوى (٧/٥١١)، وابن القيم فى زاد المعاد (٣/٦٠٧).

(٣) انظر، شرح الأصول الخمسة (٧٠٧) وما بعدها، المنية والأمل (٦)، وأيضًا: الفصل (٣/١٠٦)، شرح المقاصد - للتفتازانى - (٥/١٧٩).

(٤) انظر: الإيمان لأبى عبيد (٣١، ٥٠)، مقالات الإسلاميين (١/٢١٣-٢١٤). وقارن: طبقات الشافعية، لابن السبكي (١/٩٦) حيث يقول: إنه لا يُدْرَى مذهبُ الجهم فى عمل الجوارح. وانظر أيضًا: نشأة الفكر (١/٣٤٤-٣٤٦).

وأما الأشعري - في أشهر قوليهِ^(١) - وجمهورُ أصحابهِ^(٢) والماتريدي وبعض الأحناف^(٣)، فيرون أن إيمان القلب هو التصديق، وليس مجرد المعرفة. إلا أن إخراج جنس العمل، حتى عمل القلب، وجنس القول، حتى الشهادتين، من حقيقة الإيمان^(٤)، وتفسير التصديق - بأنه: قول النفس^(٥) - يعنى: المعنى القائم بالنفس - كما هو أحد قولى الأشعري، كل ذلك عاد بالمذهب في حقيقته إلى قول الجهم، حتى إن الأشعري نفسه فسر التصديق - في قوله الثانى - بأنه: المعرفة. ولهذا اعتبر ابنُ حزم وغيره مقالة الجهم والأشعري - في معنى الإيمان - مقالة واحدة، وذكر التفتازانى مذهب الجهم، ثم قال: «وقد يميل إليه الأشعري»^(٦).

وأما آخرون فقالوا: إنما الإيمان إيمان اللسان، وهو نطقه بالشهادتين، ولا عبرة بما وقر في القلب أو عملته الجوارح. وهذه هى مقالة ابن كرام الوحيدة - فيما

(١) انظر: اللمع (١٢٣)، وهو قوله فى الموجز، كما ذكر ابن تيمية، فى الفتاوى (٥٥٠/٧). وقوله الثانى موافق لأهل الحديث، أنه: قول وعمل، كما فى الإبانة (٢٧)، والمقالات (١/٣٤٧، ٣٥٠)، وانظر فتاوى ابن تيمية (٥٠٩/٧).

(٢) انظر: الإنصاف، للباقلانى (٥٥-٥٧)، المحصل للرازى (٢٣٧)، المواقف للإيجى (٣٨٤).

(٣) انظر: التوحيد للماتريدي (٣٧٣) وما بعدها، خاصة (٣٧٨-٣٨٠)، شرح الفقه الأكبر، للقارى: (٨٦).

(٤) انظر: الإنصاف، للباقلانى (٢٢)، قواعد العقائد، للغزالى - ضمن الإحياء - (١/١١٨)، العز ابن عبد السلام: معنى الإيمان والإسلام (٩-١١) وانظر أيضا: شرح الجوهرة لليحورى (٤٨-٥٠، ٥٦)، نظم الفرائد، لشيخ زاده (٥٠).

(٥) انظر: الإرشاد للجوينى (٣٣٤)، وانظر قولى الأشعري فى معنى التصديق عند الشهرستانى فى نهاية الإقدام (٤٧٢) ابن تيمية فى: الإيمان (١٤٠)، وابن السبكي فى الطبقات (٩٧/١).

(٦) شرح المقاصد (١٧٧/٥)، وانظر: الفصل (٣/١٠٥-١٠٦)، الإيمان لابن تيمية (١٣٩، ١١٥ وما بعدها)، وأيضا: ظاهرة الإرجاء (٢/٤١١-٤١٢).

يرى ابن تيمية - التي ابتدعها، وانفرد بها، وأما سائر أقواله فنقلت عن قبله^(١).

وقال آخرون: إن الإيمان هو تصديق القلب، وقول اللسان، وأما عمل الجوارح - وإن يكن مأمورا به العبد - فليس من حقيقة الإيمان في شيء. وهي مقالة الإمام أبي حنيفة، وجمهور أصحابه، وهي أيضا مقالة ابن كلاب وغيره، وهم المعروفون - في هذا الباب - بـ «مرجئة الفقهاء»^(٢).

رأى الطبري:

يُجمل ابن جرير قوله في بيان حقيقة الإيمان في رسالته «صريح السنة» بأن «الصواب فيه قول من قال: هو قول وعمل...»^(٣)، وهو الأمر الذي نجده فيما بين أيدينا من مؤلفاته الأخرى، وهو كذلك الذي حكاه عنه من نقل مذهبه^(٤). ومراده بأنه قول وعمل، هو ما سبق من مراد أهل السنة به، وأن ذلك يشمل أصل الإيمان الباطن في القلب، وظاهره على اللسان والجوارح. ولذلك فهو يقول في عبارة أخرى - مجملة أيضا - : «... إذ كان الإيمان عندنا معرفة وقولا

(١) انظر: الإيمان لابن تيمية (٣٧٠)، وانظر أيضا حول ابن كرام ومقالته: مقالات الأشعرى (٢٢٣/١)، مسائل الإيمان، لأبي يعلى (١٥٩-١٦١)، أصول الدين للبغدادى (٢٥٠-٢٥١)، وميزان الاعتدال للذهبي (١٤٦/٥).

(٢) انظر: الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة (٨٥) وما بعدها - مع شرح القارى، نظم الفرائد (٤٩). وانظر أيضا: مقالات الأشعرى (٢١٩-٢٢١)، الإيمان الأوسط لابن تيمية، ضمن الفتاوى (٥٠٨/٧)، ظاهرة الإرجاء (٣٧١/٢) وما بعدها.

(٣) صريح السنة ص (٢٥).

(٤) انظر: شرح أصول أهل السنة للالكائى (١٨٥/٢)، اعتقاد السلف، للصابونى - ضمن المنيرية - (١٢٣/١)، الإيمان لابن تيمية (٣٣٣).

وعملا . . .»^(١).

ويعتمد ابن جرير في تقرير مُعْتَقِدِهِ في ذلك، على أدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف، من الصحابة فمن بعدهم، والنظر الصحيح.

فأما دليله القرآني فهي الآيات التي تدل على أن الإيمان المطلق إنما يستحقه صاحبه بالأتيان بالعمل الظاهر، مع العمل الباطن. وقد ذكر من ذلك في تهذيب الآثار قول الله، تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]. قال: «فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن إنما هو من كانت هذه الصفة صفته، دون من قال ولم يعمل، ولكنه ضيع ما أُمر به وفرط»^(٢).

وأما من السنة، فاستدل بالنصوص التي جاءت في ذم «المرجئة»، وبيان سوء مذهبهم، مثل ما رواه عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب، المرجئة والقدرية»^(٣)، وما شاكل ذلك من الأحاديث. وبعد أن ذكر الخلاف في تفسير «المرجئة»، قال:

«والصواب من القول في المعنى الذي من أجله سُمِّيَتِ المرجئة «مرجئة» أن يقال: إن الإرجاء معناه ما بينا من قبل، من تأخير الشيء، فمؤخر أمر على وعثمان رضي الله عنهما إلى ربهما، وتارك ولايتهما والبراءة منهما، فهو مرجئ. ومؤخر العمل والطاعة عن الإيمان، مرجئهما عنه، فهو مرجئ. غير أن

(١) تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٢/٦٦٦، ٦٥١)، وانظر: التبصير ص (١٩٠).

(٢) السابق (٢/٦٨٢-٦٨٣). وانظر تفسير الطبري لهذه الآيات (١٣/٣٨٥-٣٨٩) وأيضا:

الإيمان لأبي عبيد ص (١٨) وقارن الكشف للزمخشري (٢/١٩٥-١٩٦).

(٣) السابق (٢/٦٥٣) وانظر الروايات التي أوردها عقبه.

الأغلب من استعمال أهل المعرفة بمذاهب المختلفين في الديانات في دهرنا هذا، هذا الاسم، فيمن كان من قوله: «الإيمان قول بلا عمل»، وفيمن كان مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون العمل المصدق بوجوبه»^(١).

وقد استدل أيضا - طئ شرحه للحديث السابق - بنصوص أخرى تصرح بأن «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وتصديق بالعمل». وأن الإيمان قول وعمل، ولا يستقيم هذا إلا بهذا، ولا هذا إلا بهذا»^(٢).

بيد أن هذه النصوص وإن كانت صريحة فيما ذهب إليه ابن جرير، فليس فيها من الصحيح شيء، ولا ما يقاربه، بل هي إما أحاديث موضوعة، أو شديدة الضعف وصنعة المذهب بادية عليها؛ ولذا قال الموصلي: «لا يصح في هذا الباب شيء عن رسول الله ﷺ»^(٣).

ولعله، لما ذكرنا من ضعفها، أعرض ابن جرير عن الاعتماد عليها في رسالته صريح السنة، وبني استدلاله هناك على أن ذلك هو المأثور عن السلف. قال: «وأما القول في الإيمان هل هو قول وعمل، وهل يزيد وينقص أم لا زيادة فيه ولا نقصان، فإن الصواب فيه قول من قال: هو قول وعمل، يزيد وينقص. وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وعليه مضى أهل الدين والفضل. ثم روى أثرا في زيادته ونقصانه، ثم قال بعده:

(١) تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٢/٦٦١)، وقارن: الملل والنحل (١/١٣٩).

(٢) السابق (٢/٦٨٣-٦٨٤).

(٣) المغنى عن الحفظ والكتاب ص (٢٥-جُنة المرتاب). وانظر حول هذه الأحاديث: تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم (٧/٥٩)، الفوائد المجموعة للشوكانى (٤٥٢-٤٥٤)، السلسلة الضعيفة للألبانى، أرقام (٢٢٤٥، ٦٦٢، ٤٦٤-٢٢٧١، ٢٢٤٧) وضعيف الجامع، له (٣٤٩٦ ٣٤٩٨).

«حدثنا علي بن سهل الرملي، حدثنا الوليد بن مسلم، قال: سمعت الأوزاعي ومالك بن أنس وسعيد بن عبد العزيز، رحمهم الله، ينكرون قول من يقول: إن الإيمان إقرار بلا عمل، ويقولون: لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بإيمان»^(١). وأما احتجاجه النظري على مذهبه، فهو قائم على أن الإيمان في لغة العرب معناه التصديق، وهذا محل اتفاق بين ابن جرير وخصومه - المرجئة - وربما كان محل اتفاق من جميع الناس^(٢)، ثم هو كذلك عمدة من أخرج العمل من مسمى الإيمان^(٣). بيد أن ابن جرير، وإن وافقهم على أن الإيمان معناه التصديق، فهو يخالفهم في إخراج العمل من حقيقة ذلك التصديق، ويرى أن التصديق - من حيث اللغة - يعم تصديق القلب: معرفةً وعقداً، وتصديق اللسان: إقراراً ونطقاً، وتصديق الجوارح: انقياداً وعملاً، ليعود ابن جرير بمفهوم التصديق - من حيث اللغة أيضاً - إلى مفهوم أهل السنة للإيمان، واعتبارهم ثلاثة الأركان فيه^(٤).

ومن ثم فهو يقول بعد ما ذكر بعض أدلته على مذهبه من الكتاب والسنة: «وأما من حيث النظر، مما^(٥) لا يدفع صحته ذو فطرة صحيحة، وذلك

(١) صريح السنة ص (٢٥).

(٢) يقول الإمام الأزهرى: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق». ١. تهذيب اللغة (١٥/٥١٣). وقارن: الإيمان لابن تيمية (٢٧٤) وما بعدها، حيث ينكر الترادف بين الإيمان والتصديق.

(٣) انظر: مسائل الإيمان لأبي يعلى (٢٤٩)، الفصل لابن حزم (١٠٦/٣)، الإيمان لابن تيمية ص (١١٥ وما بعدها)، شرح المقاصد (٥/١٨٣-١٨٤).

(٤) وقريب من ذلك قول الراغب: «والإيمان يُستعمل تارة اسماً للشيعة التي جاء بها محمد، وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق القلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب الجوارح» ١. المفردات (٢٦) وانظر ص (٢٧٧) من نفس المصدر.

(٥) كذا في الأصل، ولعل الصواب فما - بالفاء -.

الشهادة لقول قائل قال قولاً ، أو وعد عدةً ، ثم أنجز وعده ، وحقق بالفعل قوله : صَدَّقَ فلانُ قوله بفعله . ولا يدفع ذو معرفة بكلام العرب صحة القول بأن الإيمان التصديق ، فإذا كان الإيمان في كلامها التصديق ، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح ، وكان تصديق القلب العزم والإذعان ، وتصديق اللسان الإقرار ، وتصديق الجوارح السعى والعمل ، كان المعنى الذى به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين ، هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة^(١) .

وإذا كان المعنى الثالث تصديق الجوارح هو أصل الخلاف بين أهل السنة ، والمعتزلة والخوارج ، من جانب ، وفرق المرجئة جميعها من جانب آخر ، فإن عناية ابن جرير بهذا المعنى من معاني الصدق ، وبيان منزلته من تحقيق الإيمان وتصحيحه ، كل ذلك يظهر في تناوله لبعض الآيات التى تعرض لوصف المؤمنين بالصدق .

ومن ذلك ما جاء في تفسيره لآية : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧] . قال : «يعنى تعالى ذكره بقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، من آمن بالله واليوم الآخر ، ونعتهم النعت الذى نعتهم به فى هذه الآية . يقول : فمن فعل هذه الأشياء ، فهم الذين صدقوا الله فى إيمانهم ، وحققوا قولهم بأفعالهم ، لا من ولى وجهه قبل المشرق والمغرب ، وهو يخالف الله فى أمره ، وينقض عهده وميثاقه ، ويكتم الناس بيان ما أمره الله ببيانه ، ويكذب رسله . . وبمثل الذى قلنا فى قوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، كان الربيع بن أنس يقول ؛ حَدَّثْتُ عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه ، عن الربيع : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ، قال : فتكلموا بكلام الإيمان ، فكانت حقيقته العمل ، صدقوا الله . قال : وكان الحسن يقول : هذا كلام الإيمان

(١) تهذيب الآثار مسند عمر (٢/٦٨٥) ، وانظر : التبصير (١٩٠-١٩٣) ، وأيضاً : التفسير

(١/٢٣٥) ، (٣/١٦٩) ، (٧/٤٨٢) ط شاكر .

وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل، فلا شيء»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ بِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] يقول: «مع الصادقين: في الجنة، يعنى: مع من صدق الله الإيمان به، فحقق قوله بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه الذين يكذب قيلهم فغلهم»^(٢).

وما ذكره في الآية الثانية من أن أهل النفاق يكذب فغلهم قولهم، يشبه ما رواه في تهذيب الآثار «عن حذيفة رضي الله عنه أنه قيل له: من المنافق؟ قال: الذي يتكلم بالإسلام ولا يعمل به»^(٣).

ويشهد لذلك المعنى الذي يقرره ابن جرير هنا - أعنى: دخول عمل الجوارح في مفهوم التصديق - زيادة على ما ذكرنا، قول النبي ﷺ: «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(٤).

ويؤيده - كذلك - من حيث اللغة: أن أصل الصدق: قُوَّةٌ في الشيء، قولاً وغيره^(٥)؛ ومن ثم يُستعمل في كل ما فيه تحقيق^(٦)، ومنه: الصَّدِّيق - مثال:

(١) التفسير (٣٥٦/٣) ط شاكر، وإسناد أثر الربيع ضعيف: لم يصرح ابن جرير بشيخه فيه، وكذلك الراوى عن الربيع، وهو أبو جعفر الرازى، عيسى بن ماهان، صدوق سىء الحفظ، كما فى «التقريب» لابن حجر. والأثر رواه أيضا الآجرى فى الشريعة، رقم (٢٧٨) من طريق أبى جعفر الرازى، وانظر تعليق المحقق (١/٢٨٥).

(٢) التفسير (٥٥٨/١٤) وانظر أيضا: (١٤٥/٢١-١٤٨) ط الفكر.

(٣) تهذيب الآثار مسند عمر (٢/٦٤٢) ورواه أيضا: ابن بطة فى الإبانة الكبرى (١/٦٩٦، ٧٦٤) وفى إسناده ضعف.

(٤) رواه بطوله: البخارى - الاستئذان - ح (٦٢٤٣)، ومسلم القدر ح (٢٦٥٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٥) انظر: المقاييس لابن فارس (٣/٣٣٩).

(٦) انظر: المفردات للراغب (٢٧٨).

الفَسِيْق - : الدائم التصديق، ويكون الذى يصدق قوله بالعمل^(١) ومنه قول كُثَيِّر
عزة، يمدح أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:
وَقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالَّذِي عَمَلْتَ فَأُضْحَى رَاضِيَا كُلُّ مُسْلِمٍ^(٢)
وفى ضوء ذلك يمكننا فهم مراد ابن جرير بتفسير الإيمان بالتصديق حيث
يفسره بذلك^(٣).

واعتبار «العمل» تصديقا لمعرفة القلب وتصديقه، وإقرار اللسان، الذى هو
تصديقه، فكرة دائرة لدى علماء السنة، يُقرِّرونها فى معرض بيان حقيقة الإيمان
والرد على المرجئة^(٤). ومن ذلك قول الإمام الأوزاعى: «... وكان من مضى
من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل... فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه،
وصدق بعمله، فتلك العروة الوثقى التى لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم
يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله، لم يقبل منه، وكان فى الآخرة من الخاسرين»^(٥).
ثم يعود ابن جرير ليقرر أن العمل ركن فى الإيمان. وكما أن المعرفة والإقرار

(١) الصحاح للجوهري (٢٠٧١/٥) ونقله ابن منظور فى اللسان (٢٤١٧/٤).

(٢) البيت نقله المروزي، فى تعظيم قدر الصلاة (٧١٧/٢) وبلغظ قريب عند ابن الجوزي،
فى: مناقب عمر بن عبد العزيز (٣٣٢)، ونسباه لكثير.

(٣) انظر على سبيل المثال - : التفسير (٤٣٥/١٣) (١٦٧/١٤) (١٩/٢٨، ٦٤) ط الفكر.

(٤) ويُقرِّر كذلك عند الحديث على حكم مرتكب الكبيرة. انظر: تهذيب الآثار (٢/٦٥٠، ٦٤٣).

(٥) رواه عنه ابن بطة فى «الإبانة» (٨٠٧/٢/١)، واللالكائى (٨٨٦/٥)، وانظر حول هذه
الفكرة: الإيمان لأبى عبيد (٢٨-٢٩)، الشريعة للأجرى (٢٧٥/١)، وانظر أيضا:
الصارم المسلول لابن تيمية ص (٥٢٤-٥٢٥)، كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم
(٤٤-٤٥)، ظاهرة الإرجاء (٣٢٠-٣٢٦). وانظر حول مسالك العلماء فى الجواب
عن احتجاج المرجئة باللغة: تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٧١٦/٢) وما بعدها الإيمان
لابن تيمية ص (١١٦) وما بعدها، ٢٧٤ وما بعدها).

ركنان و«لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر، وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه، أنه لا يستحق اسم «مؤمن». وأنه لو عرف وعلم وجحد بلسانه، وكذَّب وأنكر ما عرف من توحيد ربه، أنه غير مستحق اسم «مؤمن» فينبغى أن يكون «كذلك غير مستحق ذلك بالإطلاق، العارف المُقِرُّ غير العامل، إذ كان ذلك أحد معاني الإيمان التي بوجود جميعها في الإنسان يستحق اسم «مؤمن»، بالإطلاق»^(١).

ويرد ابن جرير على من يرى أن الإيمان هو التصديق، والتصديق إنما يكون بالقول، ويتعلق في ذلك بأن ذلك هو معناه في اللغة، ويخرج - من أجل ذلك - العمل عن حقيقة الإيمان - يرد ذلك ردا جدليا، يلزم مخالفه فيه إما الحكم بالإيمان «لكل من لا يعرف ربه بقلبه، ولكل من اعتقد بقلبه أن الله ثالث ثلاثة» إذا كان مقرا بلسانه بالإيمان، «وذلك خلاف نص حكم الله في خلقه»^(٢). وإما أن يقول: «بل هو غير مؤمن حتى يصدق بالقول ما هو معتقد حقيقة بقلبه» وحينئذ يترك قوله، ويخالف ما ادعاه من أن الإيمان هو التصديق بالقول والإقرار باللسان فقط، وحينئذ - أيضا - يقال له: «فإذا كان التصديق بالقلب ومعرفة الرب به، من الإيمان الذى لا يستحق أحد عندك اسم الإيمان إلا بإتيانه بهما، فما أنكرت أن يكون العمل بسائر الجوارح الذى هو لله طاعة، من معاني الإيمان التى لا يستحق أحد التسمية بأنه مؤمن، إلا بإتيانه به، مع التصديق باللسان، والمعرفة بالقلب؟ وهل بينك وبين من قال: إنما الإيمان الإقرار باللسان والعمل بالجوارح، دون المعرفة بالقلب، أو قال: إنه العمل بالجوارح والمعرفة بالقلب، دون الإقرار باللسان، فرق؟ فلن يقول فى شيء من ذلك قولا، إلا ألزم فى الآخر مثله»^(٣).

(١) تهذيب الآثار (٢/٦٨٥-٦٨٦).

(٢) انظر قريبا من هذا المعنى عند ابن حزم فى الفصل (٣/١١١).

(٣) تهذيب الآثار (٢/٦٨٦-٦٨٧).

وهذا الإلزام من ابن جرير قائم على إبطال الأصل الذى اشتركت فيه سائر الطوائف المفارقة لأهل السنة فى مفهوم الإيمان، وهو قولهم: إن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص ولا يتبعص^(١).

وقد سبقه بعض أئمة السنة، كالإمام أحمد وأبى ثور، إلى هذا المنهج فى رد هذا الأصل، وإلزام المخالفين. قال الإمام أحمد: «... من زعم أن الإيمان الإقرار، فما يقول فى المعرفة؟ هل يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما أقر؟ - وفى رواية: وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما عرف؟ - فإن زعم أنه يحتاج إلى المعرفة مع الإقرار، فقد زعم أنه من شيئين، وإن زعم أنه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف، فهو من ثلاثة أشياء.

فإن جحد وقال: لا يحتاج إلى المعرفة والتصديق، فقد قال قولا عظيما، ولا أحسب أحدا يدفع المعرفة، قال المروزي: ولا أحسب أحدا يدفع المعرفة والتصديق، فكذلك العمل مع هذه الأشياء»^(٢).

ويبدو أن ابن جرير إنما يتوجه بالجدل هنا إلى من يرى أن الإيمان هو الإقرار، بشرط المعرفة، كما هو قول ابن كُلاب، أو من يرى الإيمان هو الإقرار والمعرفة معا، وهم مرجئة الفقهاء^(٣).

(١) انظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية ضمن الفتاوى (٥١٠/٧)، وانظر أيضا: ظاهرة الإرجاء (٤٠٢/٢)، وما يأتى حول زيادة الإيمان ونقصانه.

(٢) الرسائل والمسائل المروية عن الإمام أحمد فى العقيدة، لعبد الإله الأحمدي (٦٨/١) وعزاه إلى السنة للخلال (ق: ١٠٨)، ونقله أيضا أبو يعلى فى كتاب: مسائل الإيمان ص (١٥٤-١٥٥) وعزاه محققه إلى كتاب الإيمان للإمام أحمد مخطوط (ق ١٠٤ ب)، وانظر كلام أبى ثور عند اللالكائى (٨٤٩-٨٥١)، وانظر تعليق ابن تيمية على كلام أحمد وأبى ثور فى: الإيمان (٣٧١) وما بعدها.

(٣) انظر ما حكاه البغدادى عن ابن كلاب وأبى حنيفة فى: أصول الدين (٢٤٩)، وانظر أيضا: الإيمان الأوسط ضمن فتاوى ابن تيمية (٥٠٨/٧).

وأما ابن كرام ومن تحذاه في حصر الإيمان في القول فقط، ولو مجرداً عن المعرفة، وكذا الجهم وغيره من أصحاب المقالات الشاذة، فلم يعرج ابن جرير على حكاية مقالاتهم أو ردها، إذ كان ذلك خارجاً عن مقصود الكتاب - تهذيب الآثار - الذي يُعنى فقط بالآثر وما دار حوله. يقول:

«وأما الذين قالوا: إن الإقرار والعمل هو الإيمان، دون المعرفة بالقلب^(١)، والذين قالوا: إن المعرفة بالقلب هي الإيمان، دون الإقرار باللسان والعمل بالجوارح، والذين قالوا: إن الإيمان هو الإقرار دون المعرفة والعمل، فإن لليبان عن خطأ قولهم كتاباً يُفردُ إن شاء الله، إذ كان كتابنا هذا مخصوصاً بالبيان عن آثار رسول الله ﷺ على مذاهب السلف من أهل النقل، دون أقوال أهل الجدل، وكانت هذه المذاهب الثلاثة الأخر من مذاهب أهل الجدل»^(٢).

وهذه الفكرة، أعنى: حصر خلاف أهل العلم في مقاليتين فقط، هما مقالة أهل السنة، ومقالة مرجئة الفقهاء، نجدّها قبل ابن جرير أيضاً عند أبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧-٢٢٤) في كتابه «الإيمان»؛ حيث ذكر في أوله «أن أهل العلم والعناية بالدين اختلفوا في هذا الأمر فرقتين: فقالت إحداهما: الإيمان بالإخلاص لله بالقلوب، وشهادة الألسنة، وعمل الجوارح، وقالت الفرقة الأخرى: بل الإيمان بالقلوب والألسنة، فأما الأعمال فإنما هي تقوى وبر

(١) هذه فرقة مجهولة، ولم أقف على تسميتها، وذكر صاحب ظاهرة الإرجاء (٤٠٦/٢) أن هذا قريب مما حكاه الأشعري والشهرستاني عن غسان (الغسانية) ١. هـ، وهو وهم منه؛ فالذي نقله عامة أصحاب المقالات عن غسان أن الإيمان هو الإقرار مع ما في القلب؛ إما الإقرار والمعرفة على ما حكاه الشهرستاني والمقريري، أو الإقرار مع المحبة والتعظيم وترك الاستكبار، كما حكاه الأشعري وغيره. انظر: مقالات الإسلاميين (١/٢٢١) الفرق بين الفرق (٢٠٣) التبصير في الدين (٩١) الملل والنحل (١/١٤١) الخطط (٢/٣٥٠).

(٢) تهذيب الآثار (٢/٦٨٧-٦٨٨).

وليست من الإيمان». ثم قال: «وإننا نظرنا في اختلاف الطائفتين فوجدنا الكتاب والسنة يصدقان الطائفة التي جعلت الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا، وينفيان ما قالت الأخرى»^(١). ثم قال بعد أن فرغ من الاستدلال لما اختاره ورد القول الآخر:

«قد ذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيانا في أن العمل من الإيمان. على أنهم، وإن كانوا لنا مفارقين، فقد ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله. ثم حدثت فرقة ثالثة شذت عن الطائفتين جميعا، ليست من أهل العلم ولا الدين؛ فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب بالله وحده، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل!! وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية، لمعارضته لكلام الله ورسوله ﷺ بالرد والتكذيب»^(٢).

على أننا لم نعدم من ابن جرير - رغم موقفه هذا - إشارة إلى بعض هذه المقالات «الجدلية»، واستدلالاتها على بطلانها، على حد تعبيره. ومن ذلك ما جاء في تأويل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. قال:

«وأما تأويل قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ونفيه عنهم جل ذكره اسم الإيمان، وقد أخبر عنهم أنهم قد قالوا بألسنتهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، فإن ذلك من الله جل وعز، تكذيب لهم فيما أخبروا عن اعتقادهم من الإيمان والإقرار بالبعث، وإعلام منه نبيه ﷺ أن الذي يبدون له بأفواههم خلاف ما في ضمائر قلوبهم، وضد ما في عزائم نفوسهم.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان ما زعمته الجهمية: من أن الإيمان هو

(١) كتاب الإيمان ومعالمه.. لأبي عبيد (٩-١٠).

(٢) السابق (٣١) وانظر أيضا آخر كتابه، ص (٤٩-٥١). وهذه الفكرة يلحح إليها كلام الإمام

أبي ثور وأحمد المشار إليه آنفا، وانظر الإيمان لابن تيمية (٣٧٣).

التصديق بالقول، دون سائر المعاني غيره. وقد أخبر الله جل ثناؤه عن الذين ذكرهم في كتابه من أهل النفاق، أنهم قالوا بألستهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ﴾، ثم نفى عنهم أن يكونوا مؤمنين؛ إذ كان اعتقادهم غير مُصدِّقٍ قِيلهم ذلك^(١).

على أن نسبته ذلك القول إلى الجهمية وهم منه - فيما يبدو - وإنما هذه هي مقالة الكرامية التي سبق ذكرها، ولا خلاف في نسبتها إليهم.

وبعد، فقد تلخص من ذلك المبحث أن ابن جرير يرى أن الإرجاء هو إخراج الشرائع - يعني: عمل الجوارح - من مسمى الإيمان، وأن الإيمان هو التصديق بالقول دون العمل المصدق بوجوبه.

وتلخص لنا أيضا أن الذي يختاره ابن جرير من الخلاف حول معنى «الإيمان» أن الإيمان قول وعمل، وأن التصديق أعم من كونه بالقلب أو باللسان، أو بهما فقط؛ بل يشمل - معهما - تصديق الجوارح. وهذا المعنى هو الذي تتفق عليه نصوصه التي أشرنا إليها آنفا في كتبه التي بين أيدينا، لاسيما حين يبحث تلك القضية من الوجهة الكلامية. لكن يبقى النظر - في ضوء ذلك - في عدة نصوص يفسر فيها ابن جرير الإيمان بالإقرار فقط^(٢) أو بالتصديق والإقرار^(٣).

فالإقرار هنا هو «الإذعان للحق، والاعتراف به»^(٤)، وليس هو مجرد «اعتراف بالحق» وإخبار به، وإن كان قد يراد به ذلك أحيانا، وإنما هو - كذلك «إذعان» لذلك الحق، على وجه القبول والانقياد والطاعة، ولهذا يفسر الإيمان بالإقرار -

(١) التفسير (٢٧٢/١) ط شاكر، وانظر أيضا: (٣٨٣/١) من نفس الطبعة.

(٢) انظر: التفسير (١٥٨/١٤) ط شاكر، (٢١٧/٢٦) (١١٦/٢٦) (١٣٧/٣٠) ط الفكر.

(٣) انظر: السابق (٤٢/١٢) (١٧٤/١٤) (١٧٦/١٤) ط شاكر.

(٤) لسان العرب (٣٥٨٢/٥)، وانظر: فتاوى ابن تيمية (٥٣٠-٥٣١)، ظاهرة الإرجاء

وحده - ويعد ردّه، أو نقضه بعد الالتزام به، نقضا لميثاق الله، وخروجا من دينه وطاعته^(١) فلا بدّع - من ثمّ - فى الاقتصار على «الإقرار» فى تفسير الإيمان، ولهذا قيل فى تعريف الإيمان: هو الإقرار والطمأنينة، واشتقاقه من الأمن الذى هو القرار والطمأنينة^(٢).

وأما حيث يجمع بين التصديق والإقرار فى تفسير الإيمان، فمدلولهما جميعا حينئذ هو - فيما يبدو لنا - نفس مدلول كل كلمة منهما، حينما يجعلها بمفردها مرادفة للإيمان. وآية ذلك أنه على حين يقرر أن الإيمان فى كلام العرب هو التصديق، كما سبق نقله عنه، يذكر فى بعض السياقات أن الإيمان، فى كلام العرب أيضا، هو التصديق والإقرار^(٣). ثم إنه ربما خص الإقرار بالقول، والتصديق بالعمل، فيكون تعبيره بالتصديق والإقرار، مرادفا للتعبير عن الإيمان بأنه قول وعمل.

ومن النصوص التى تدل على ذلك: ما جاء فى تفسيره لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، قال: «ومعنى الإيمان عند العرب: التصديق، فيُدعى المصدق بالشئ قولاً، مؤمناً به، ويدعى المصدق قوله بفعله، مؤمناً. . وقد تدخل الحشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالفعل»، ثم قال: «والإيمان كلمة جامعة الإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل»^(٤).

(١) انظر: تفسير الآيتين (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة عند الطبرى (٢/ ٢٩٩) وما بعدها، خاصة (٢/ ٣١٤) وأيضاً: تفسير الآيتين (٨١، ٨٢) من سورة آل عمران (٦/ ٥٥٠) وما بعدها، خاصة (٢/ ٥٦٢، ٥٦٠).

(٢) انظر: الصارم المسلول لابن تيمية ص (٥١٩)، وأيضاً: فتاواه (٧/ ٥٣٠)، ومن ذلك ما نقله فى لسان العرب (١/ ١٤٢): قال النضر: وقالوا للخليل: ما الإيمان؟ قال: الطمأنينة. ١. هـ وانظر أيضاً: التنبيه والرد للملطى، ص (٤٤).

(٣) انظر: التفسير (٩/ ٥٢٣-٥٢٤-٥٩٣-٥٩٤) ط شاكر.

(٤) السابق (١/ ٢٣٥) ط شاكر.

المبحث الثانى

تفاضل الإيمان، والاستثناء فيه

أولاً: زيادة الإيمان ونقصانه:

دلت غير آية فى كتاب الله تعالى، على زيادة الإيمان، وليس شىء يزيد إلا وهو ينقص، كما قال سفيان بن عيينة^(١). فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا...﴾ الآية [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وأمثال ذلك من الآيات.

وأما الأحاديث فقد دل الكثير منها على هذا الأصل، مثل قوله ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن بُرّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفى قلبه وزن ذرة من خير»^(٢). وقد بَوَّب الإمام البخارى على هذا الحديث فى كتاب «الإيمان» من «صحيحه»: «باب زيادة الإيمان ونقصانه»^(٣).

(١) روى ذلك عنه الأَجْرَى فى الشريعة، رقم (٢٦٤)، وابن بطة فى الإبانة، رقم (١١٤٢)، وقال محقق الشريعة: «إسناده صحيح». ا.هـ، وانظر هذا المعنى عند الجيلانى فى الغنية (١/٦٢)، وابن حجر فى: فتح البارى (١/٦٢)، والبيجورى فى «شرح الجوهرة»، ص (٥٥).

(٢) رواه البخارى - كتاب الإيمان ح (٤٤)، مسلم كتاب الإيمان ح (٣٢٥-١٩٣)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والمراد بقوله «من خير»: «من إيمان»، كما جاء مصرحاً به فى رواية أخرى، علقها البخارى بصيغة الجزم عقب رواية الحديث، وانظر: فتح البارى (١/١٢٩).

(٣) انظر: صحيح البخارى، مع شرحه: فتح البارى (١/١٢٧)، وانظر أيضاً: باب تفاضل

وأما آثار الصحابة - رضى الله عنهم - فى ذلك فهى كثيرة جدا، مثل قول أبى هريرة رضي الله عنه : «الإيمان يزداد وينقص»^(١)، وقول ابن مسعود رضي الله عنه فى دعائه : «اللهم زدنى إيمانا ويقينا وفقها»^(٢). قال ابن تيمية : «وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه - يعنى : فى الإيمان - عن الصحابة، ولم يُعرف فيه مخالف من الصحابة»^(٣).

وأما التابعون فمن بعدهم من أهل السنة، فقد سبق أن حكينا إجماع أهل السنة على أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص^(٤).

وأما سائر المخالفين لأهل السنة فى ذلك : المرجئة بفرقها من جانب، والمعتزلة والخوارج من جانب آخر، فمع بُعد ما بينهما، قد اجتمعوا على أن الإيمان شئ واحد، لا يزيد ولا ينقص، فإذا ذهب بعضه، ذهب كله. وهذا الذى اجتمعوا عليه، قد اعتبره ابن تيمية الأصل الذى تفرعت عنه البدع فى مسائل الإيمان^(٥).

= أهل الإيمان (١/٩١)، وهذا المعنى يشير إليه البخارى فى غير موطن من كتاب الإيمان من صحيحه.

(١) رواه عنه عبد الله بن أحمد فى السنة (٧٥) والآجرى فى الشريعة (١/٢٦٠) وغيرهما. وقال محقق الشريعة : «إسناده لا بأس به».

(٢) رواه عبد الله بن أحمد فى السنة، ص (٩٧) والآجرى، رقم (٢٤٢)، وابن بطة، رقم (١١٣٢)، واللالكائى، رقم (١٧٠٤)، وقال ابن حجر فى «الفتح» (١/٦٣) : «إسناده صحيح».

(٣) الإيمان لابن تيمية : ص (٢١١).

(٤) انظر ما مضى فى أول المبحث الأول، وانظر آثارا أخرى عن السلف، واستدلّاهم لذلك عند البخارى فى البابين المشار إليهما آنفا، وأول باب من كتاب الإيمان، مع شرحه فتح البارى (١/٦٠-٦٣)، وأيضا : الإيمان لأبى عبيد (٢٤-٢٦)، الإيمان لابن أبى شيبة (٤١).

(٥) الإيمان، لابن تيمية : (٢١٠)، وانظر أيضا : الإيمان الأوسط، ضمن الفتاوى، (٧)

فأما من قال: إن الإيمان هو التصديق - كما هو مذهب المرجئة، ومُختارُ الأشاعرة، على ما سبق - فعنده أن التصديق متى انخرم منه أدنى شيء بطل الإيمان^(١). وربما قالوا: التصديق عرض، والعرض لا تجوز عليه الزيادة والنقصان، وإنما الذى يزيد وينقص هى الأجسام^(٢).

وهذا، وإن كان هو المشهور عند الأشاعرة^(٣) واختاره من أئمتهم الباقلاني والجويني، فقد رجح كثير من محققهم أن نفس التصديق يقبل التفاوت؛ فيزيد وينقص^(٤). وهذا هو منصوص الأشعري في «الإبانة»، ونقل إجماع السلف عليه^(٥).

وأما المعتزلة فقد حُكى عنهم أنهم ينفون زيادة الإيمان ونقصانه، كما ألحنا إليه، وهو ظاهر على قولهم بزوال الإيمان عمن قارف كبيرة واحدة، على ما يأتى، إن شاء الله.

لكن يبقى أنهم موافقون للسلف على إدخال العمل في مسمى الإيمان، وقد قال البغدادي: «كل من قال: إن الطاعات كلها من الإيمان، أثبت فيه الزيادة

= ٥١٠) وما بعدها، ظاهرة الإرجاء (٤٠١/٢) وما بعدها، وقد صرح ابن أبى الخير باجتماع مَنْ عدا أهل السنة على ذلك. انظر: الانتصار فى الرد على المعتزلة، (٣/٧٦٣).

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني (٥٧)، وانظر أيضا: المواقف للإيجي (٣٨٨)، نظم الفرائد (٥٢).

(٢) انظر: الحجة، للأصبهاني (٤٠٥/١)، مسائل الإيمان لأبى يعلى (٣٩٩)، وقارن: الإرشاد للجويني (٣٣٦، ٣٣٥).

(٣) انظر: طبقات الشافعية، لابن السبكي، (١/١٣١) وانظر أيضا: رسالة السجزي، (١٧٩).

(٤) انظر: طبقات الشافعية (١/١٣١-١٣٣)، المواقف (٣٨٨)، شرح الجوهرة (٥٦).

(٥) انظر: الإبانة، ص (٢٧)، رسالة أهل الثغر (٩٣).

والنقصان»^(١). وقد صرح غير واحد بنسبة القول بالزيادة والنقصان إلى المعتزلة. قال الرازي: «... وعند المعتزلة، لما كان اسما لأداء العبادات، كان قابلا لهما»^(٢). وهذا - في الواقع هو الذي يقرره القاضي عبد الجبار نفسه، فيقول: «الكلام في أن الإيمان هل يزيد وينقص؟» قال: «وجملة ذلك أن المرجع بالإيمان إذا كان إلى أداء الفرائض منها والنوافل، واجتناب المُقْبَحَات، فإن ذلك مما يدخله الزيادة والنقصان، بلا إشكال...»، ثم ذكر بعض النصوص الدالة على الزيادة والنقصان، والنصوص الدالة على دخول الأعمال فيه^(٣).

(١) أصول الدين: (٢٥٢).

(٢) المحصل (٢٣٩)، وقد صرح بذلك أيضا: ابن حزم في الفصل (١٠٦/٣)، وأبو يعلى في مسائل الإيمان: (٣٨٣).

(٣) شرح الأصول: (٨٠٢)، وذكر أيضا في «المختصر في أصول الدين»، وجهها آخر في الزيادة والنقصان، وهو أنه قد يجب على مكلف ما لا يجب على الآخر. انظر: رسائل العدل والتوحيد (١/٢٤٧). وقد ظن بعض الباحثين - متأثرا بقول من نقل عدم الزيادة والنقصان عن المعتزلة - أن المعتزلة ينفون زيادة الإيمان ونقصانه بالطاعات والمعاصي. انظر تعليق الباحث سعود الخلف على مسائل الإيمان لأبي يعلى (٣٩٧-٣٩٩) وتعليقه أيضا على: الانتصار، لابن أبي الخير (٣/٧٦٤). ومع أنه وقف على نص القاضي في «المختصر» وهو تقرير للزيادة والنقصان، ولو بوجه ما، فإن موقفه هذا أداه إلى العبث بعبارة لأبي يعلى: «الإيمان هو الطاعات كلها وترك المنهيات، فتحصل الزيادة بوجودها، والنقصان بتركها، وهو قول المعتزلة»، فجعلها المحقق (!!) : «وهو خلاف قول المعتزلة». واستظهر أن تكون كلمة «خلاف» سقطت من الناسخ!! انظر ص (٣٩٧). ومع أنه أيد صنيعة بأن أبا يعلى نفسه، قد نص في كتاب آخر، وهو مختصر المعتمد ص (١٨٩)، على أن المعتزلة خالفوا أهل السنة «في قولهم: لا يزيد ولا ينقص، لا ثوابه ولا نفسه»!! فإن نص أبي يعلى في نفس الكتاب المحقق مسائل الإيمان ص (٣٨٣) على أن المعتزلة «وافقونا على أنه يزيد وينقص...»، وهو الموافق لما يصرحون به، يجعل هذا التصرف عبثا غير مقبول، واختلاف القول بين كتابين لمؤلف واحد أولى - بلا شك من تناقضه في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة من المخطوط أو ورقتين متتابعتين.

وكذلك يقرر الزنجشى فى غير موطن من «كشافه»: «زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحى، والعمل به»^(١)، ويشير أيضا إلى تفاوت اليقين القلبى. وإذا كان السلف يقررون زيادة اليقين القلبى ونقصانه، ويقررون، كذلك، زيادة جملة الإيمان، الذى هو هيئة مركبة من اليقين والقول والعمل، بزيادة العمل، الذى هو أحد أركان هذه الهيئة. فإن الفارق الحقيقى بين المذهبين يظهر فى معرفة حقيقة الإيمان المتبقى عند الشخص، من بعد ما نقصه بارتكاب ما ارتكب من الكبائر، هلبقى معه شيء، ولو مثقال ذرة، ينفعه فى النجاة من النار يوما ما، وإن عُدَّ فيها ما عُدَّ، كما هو قول أهل السنة؟! أم لم يبق معه شيء ينفعه فى النجاة من الخلود فى النار، كما تقول المعتزلة، وقبلهم الخوارج.

رأى الطبرى:

حكى ابن جرير فى «التبصير» الاختلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه على ثلاثة أقوال: قول من يقول: الإيمان يزيد وينقص، وزيادته بالطاعة ونقصانه بالمعصية، وقول من يقول: يزيد ولا ينقص^(٢)، وقول من يقول: لا يزيد ولا ينقص. ثم قال:

«والحق فى ذلك عندنا أن يقال: الإيمان يزيد وينقص^(٣)؛ لما وصفنا قبل من أنه معرفة وقول وعمل، وأن جميع فرائض الله، تعالى ذكره، التى فرضها على عباده من المعانى التى لا يكون العبد مستحقا اسم مؤمن بالإطلاق إلا بأدائها.

(١) الكشف (٢/٣٢٤). وانظر أيضا: (١/٤٤٢، ٣٠٩)، (٢/١٩٦)، (٤/٣٣٤) من نفس المصدر.

(٢) وهذا مروي عن الإمام مالك. والقول الثانى عنه أنه يزيد وينقص كالجمهور. انظر: شرح صحيح مسلم للنووى (١/٢٠٨).

(٣) فى المطبوع: ويتنقص، والمثبت من المخطوط.

وإذا كان ذلك كذلك، وكان لاشك أن الناس متفاضلون في الأعمال؛ مُقَصَّر، وآخر مقتصدٌ مجتهدٌ، ومن هو أشد منه اجتهدا، كان معلوما أن المقصر أنقص إيمانا من المقتصد، وأن المقتصد أزيد منه إيمانا، وأن المجتهد أزيد إيمانا من المقتصد والمقصر، وأنهما أنقص منه إيمانا؛ إذ كان جميع فرائض الله من الإيمان^(١) كما قلنا من قبل^(٢).

وابن جرير يشير في هذا النص إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذَنْ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]. وقد اختار في تفسيرها أن المصطفين من عباده هم مؤمنو أمته، وأما الظالم لنفسه، فإن الأشبه بمعنى الآية عنده أن يكون من أهل الذنوب والمعاصي التي هي دون النفاق والشرك؛ لأن الله - تعالى - عم بدخول الجنة جميع الأصناف الثلاثة^(٣).

وقد بنى ابن جرير اختياره في هذه المسألة على مفهومه للإيمان؛ ولذا قال في رد القولين الآخرين اللذين حكاها في المسألة: «وقد دللنا على خطأ قول من زعم أن الإيمان معرفة وإقرار، دون العمل، وعلى فساد قول الزاعم أنه المعرفة، دون الإقرار والعمل، وقول الزاعم أنه الإقرار دون المعرفة والعمل، بما أغنى عن تكراره في هذا الموضع. وفي فساد ذلك القول، فسادُ علة الزاعمين أنه لا يجوز الزيادة والنقصان في الإيمان، وصحة القول الذي اخترناه»^(٤).

وأما في «صريح السنة» فقد بنى قوله في هذه المسألة على استدلال أثرى، يتبع فيه ابن جرير «أهل الدين والفضل»، ويحتج لصحته بآثار الصحابة. قال:

(١) من الإيمان: سقط المطبوع، وأثبتها من المخطوط.

(٢) التبصير (١٩٧-١٩٨).

(٣) انظر: التفسير (٢٢/١٣٦-١٣٧) ط الفكر.

(٤) التبصير (١٩٩).

«وأما القول في الإيمان: هل هو قول وعمل، وهل يزيد وينقص، أم لا زيادة فيه ولا نقصان؟ فإن الصواب فيه قول من قال: هو قول وعمل، يزيد وينقص. وبه جاء الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وعليه مضى أهل الدين والفضل:

حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: سألنا أبا عبد الله أحمد بن حنبل، رحمه الله، عن الإيمان في معنى الزيادة والنقصان، فقال: . . عن عمر بن حبيب^(١)، قال: الإيمان يزيد وينقص. فقليل وما زيادته وما نقصانه؟ فقال: إذا ذكرنا الله فحمدناه وسبحناه^(٢) فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا، فذلك نقصانه^(٣).

وأما في «التفسير»، وحيث يعرض للآيات التي تنص على زيادة الإيمان، مما ألحنا إلى بعضه آنفاً فإنه لم يُعرج على إثبات القضية من حيث الأصل، وتأيد اختياره بنصوص القرآن، وإنما تخطى ذلك ليقف قارئه على مفهوم الزيادة والنقصان عنده.

ومن ذلك ما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ

(١) هو: عمر بن حبيب بن حباشة، وقيل حُماشة، الخطمي الأنصاري، صحابي هو وأبوه يقال: إنه ممن بايع تحت الشجرة، وليس له رواية في الكتب الستة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، (٢٨٩/٤-٢٩٠) تقريب التهذيب رقم (٥٢١٥).

(٢) في طبعة الكويت: سبحانه، وهو خطأ، والتصويب من مخطوطة دار الكتب، وطبعة الهند.

(٣) صريح السنة، ص (٢٥) ط الكويت، وقد روى الأثر عبد الله بن أحمد، في السنة (٨١، ٧٥) وابن أبي شيبة في الإيمان، رقم (١٤)، والآجري في الشريعة، رقم (٢٣٩، ٢٤٠) وغيرهم. قال محقق الشريعة: «إسناده لا بأس به» ١. هـ، وانظر: تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم (٧/٥٦-٥٧).

يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]. قال:

«فإن قال قائل: أو ليس الإيمان في كلام العرب، التصديق والإقرار؟

قيل: بلى!

فإن قيل: فكيف زادتهم هذه السورة تصديقًا وإقرارًا؟

قيل: زادتهم إيمانًا حين نزلت، لأنها قبل أن تنزل السورة لم يكن لزمهم فرض الإقرار بها والعمل بعينها، إلا في جملة إيمانهم بأن كل ما جاءهم به نبيهم، ﷺ، من عند الله، فَحَقُّ. فلما أنزل الله السورة، لزمهم فرض الإقرار بأنها - بعينها من عند الله، ووجب عليهم فرض الإيمان بما فيها من أحكام الله وحدوده وفرائضه، فكان ذلك هو الزيادة التي زادتهم نزول السورة حين نزلت، من الإيمان والتصديق بها»^(١).

وليست هذه الزيادة التي أشار إليها ابن جرير هنا - زيادة التفصيل بعد الإجمال - هي المعنى الوحيد لزيادة الإيمان عنده، كما أنها ليست - كذلك المعنى الوحيد لها عند أهل السنة، حين يقررون تفاضل الإيمان، وإن يكن ذلك أحد معانيها^(٢). إلا أن ما يذكره ابن جرير حينما يعرض لهذه الآيات في تفسيره، هو «المعنى السياقي» - إن صح التعبير - لهذه الزيادة. يعنى أن ذلك معناها في هذا الموضع، وقد يكون لها معنى، أو معان أخرى، في سياقات مختلفة.

ومن هذه المعاني ما ذكره في تفسير قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣]: قال: «فزادهم ذلك.. يقينا إلى يقينهم، وتصديقا، لله ولوعده

(١) التفسير (٥٧٧/١٤) ط شاكر، وانظر نحوه من ذلك المعنى فى التفسير أيضا: (٣٨٥/١٢)

ط شاكر، (٧١/٢٦) ط الفكر.

(٢) عرض ابن تيمية لزيادة الإيمان على ثمانية وجوه. انظر: الفتاوى (٥٦٢-٥٧٤)،

وأيضا الإيمان (٢١٩-٢٢٤).

ووعده رسوله، إلى تصديقهم...»^(١).

ومن ذلك أيضا، ما ذكره في النص السابق نقله عن «التبصير»، من أن «المقصر أنقص إيمانا من المقتصد، وأن المقتصد أزيد منه إيمانا...».

والواقع أن ذلك التفاوت بين درجات «العاملين» في الإيمان، ليس فقط لأن الأعمال ركن من أركان الإيمان، أو لأنها وحدها تسمى إيمانا^(٢)، فمن كان أكثر عملاً، كان أكثر حظاً من ذلك الإيمان «العملي» ومن فرط وضع، كان أبخس حظاً؛ بل لأن العمل الظاهر - عمل الجوارح - يؤثر، سلباً وإيجاباً، في إيمان القلب، الباطن، : تصديقه، ورغبته، ورهبته...، وكما أن التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، فكذا يزيد بزيادة الطاعات، لكونها لوازم له، ومقويات ومتممات، وحافظات له^(٣). قال مالك بن دينار^(٤): «الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً، كالبقلة. فإن صاحبه تعاوده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو ويزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمره وظل إلى ما لا يتناهى، حتى يصير أمثال الجبال. وإن صاحبه أهمله ولم يتعاوده، جاء عزز ففتتتها، أو صبي فذهب بها، أو كثر^(٥) عليها الدغل فأضعفها، أو أهلكها، أو أيسها»^(٦).

(١) التفسير (٤٠٥/٧) ط شاكر، وانظر: (٤٩٢/٥) نفس الطبعة.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: الصلاة من الإيمان (١/١١٨)-فتح الباري).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (٢٠٨/١)، فتاوى ابن تيمية (٧/٤٥١-٤٥٢). وانظر أيضاً: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ص (١٤٣).

(٤) مالك بن دينار البصري الزاهد، أبويحيى، صدوق عابد، مات سنة ثلاثين ومائة أونحوها. انظر: تقريب التهذيب، رقم (٦٤٧٥).

(٥) في الأصل: وأكثر، ولعل الصواب ما أثبت.

(٦) نقله ابن تيمية في كتاب الإيمان، ص (٢١٣).

ثانياً: الاستثناء في الإيمان:

المقصود بهذه المسألة هو ما يخبر به المرء عن نفسه من وصف الإيمان، هل يثبت ذلك فيقول: أنا مؤمن؟ أو يعلقه فيقول: مؤمن إن شاء الله، أو نحو ذلك؟
اختلف الناس حول هذه المسألة، بناءً على اختلافهم في حقيقة الإيمان:

أما السلف، وقد أطبقوا على أن الإيمان قول وعمل، فذهب عامتهم إلى الاستثناء؛ فإن العبد وإن كان يعلم من نفسه التصديق والإقرار، فإنه لا يعلم هل قبل عمله أم لا، ولا يعلم - مِنْ ثَمَّ - حقيقة ماله عند الله، تعالى^(١). وسوف يأتي نقل مأخذهم في ذلك عند ذكر اختيار ابن جرير، إن شاء الله.
وأما المرجئة فعندهم أن الاستثناء لا يجوز، لأنه شك، والشك في الإيمان لا يجوز^(٢)، بل غلا بعضهم حتى كفر القائل به^(٣).

وأما المعتزلة، فمع موافقتهم للسلف في دخول العمل في الإيمان، قد حُكي عنهم موافقة المرجئة في ترك الاستثناء.

قال الطوسي^(٤): «المعتزلة ومن تبعهم يقولون: اليقين لا يحتمل الشك والزوال، فقول القائل: أنا مؤمن إن شاء الله، لا يصح إلا عند الشك أو خوف الزوال، وما يوهم أحدهما لا يجوز أن يقال للتبرك»^(٥).

(١) انظر: الشريعة للأجري (٢٩٧/١)، الإبانة لابن بطة، (١/٢/٨٦٢)، وما بعدها.

(٢) انظر: الفصل، لابن حزم (١٢٧/٣)، الإيمان لابن تيمية (٤١٠).

(٣) انظر: شرح الفقه الأكبر، للقاري (١٣٨).

(٤) محمد بن محمد بن الحسن، نصير الدين، المعروف بالخواج (٥٩٧-٦٧٢هـ)، برع في

علوم الأوائل، وكان ذا منزلة وحرمة عند هولاء، حتى وزله. انظر: البداية والنهاية

(٢٨٣/١٣)، مقدمة د/ سليمان دنيا لتحقيق الإشارات لابن سينا (٨١-٨٤).

(٥) تلخيص المحصل بهامش المحصل (٢٤٠). وقد نقل عنهم المنع من الاستثناء أيضاً

أبو يعلى، في: مسائل الإيمان (٤٤٥)، الجيلاني، في الغنية (٦٣/١)، ابن تيمية، في =

إلا أنه قد حُكِيَ عنهم أيضا جواز الاستثناء بل وجوبه^(١). وهذا هو ما يقرره القاضي عبد الجبار، ولا يذكر فيه خلافا في المذهب: «الكلام في أن أحدنا هل يجوز أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى؟ والأصل فيه أنه يجوز، بل لا يجوز خلافه. وقد خالفنا في ذلك جماعة من الكرامية...»^(٢)!!

وأما الأشاعرة فمع قولهم: إن الإيمان هو التصديق دون العمل، وفاقا للمرجئة، وافقوا السلف على الاستثناء، وإن خالفوهم في مأخذه. قال الجويني: «... الإيمان ثابت في الحال، قطعاً لا شك فيه. ولكن الإيمان الذي هو عَلمُ الفوز وآية النجاة، إيمان الموافاة. فاعتنى السلف به، وقرنوه بالمشيئة، ولم يقصدوا التشكك في الإيمان الناجز»^(٣).

رأى الطبري:

يرتبط البحث في هذه المسألة، في فكر ابن جرير، كما هو في واقع الأمر، ارتباطاً وثيقاً بالبحث في حقيقة الإيمان، والبحث في زيادته ونقصانه، ولذلك تداخل البحث في ثلاثتها في كتابيه «تهذيب الآثار»، «والتبصير»، تداخلاً شديداً.

أما في «التهذيب»، وحيث يقرر أن الإرجاء هو إخراج العمل عن حقيقة الإيمان، فإنه يورد على نفسه إشكالا يتعلق بمن شهد لنفسه بالإيمان من السلف،

= الفتاوى (٦٦٦/٧).

(١) حكاها الماتريدي في التوحيد (٣٩٠).

(٢) شرح الأصول (٨٠٣) وانظر أيضا (٧٢٨-٧٢٩)، وقارن: الكشف، للزمخشري (٢/١٩٦).

(٣) الإرشاد (٣٣٦)، وانظر: الإنصاف للباقلاني (٦٠)، شرح المقاصد (٢١٤-٢١٧) وغيرها من كتبهم. وانظر أيضا: الإيمان، لابن تيمية (٤١٠ وما بعدها).

أو نهى عن الاستثناء فيه، حيث يجعل ذلك دليلاً لخصمه من المرجئة على صحة مذهبه في إخراج العمل من حقيقة الإيمان؛ وذلك أنه لو كان العمل من الإيمان لم يجوز ترك الاستثناء فيه لأحد، لأنه لا يخلو أحد من التفريط في شأن العمل:

«... هؤلاء جِلَّةُ العلماء وأئمة السلف، يشهدون لأنفسهم بأنهم مؤمنون، ولا شك عندنا وعندك أنه لا أحد من بنى آدم لزمته فرائض الله تعالى ذكره، ثم أتت عليه سنون بعدها حيا، خلا من تفريط في بعض الأزمنة، من^(١) فرائضه، وتقصير في بعض الواجب عليه من طاعته، أو ركوب بعض ما قد نهاه عن ركوبه من معاصيه، إلا خاصاً من خلقه. فإن كان الإيمان كما قلت بالإطلاق، إنما هو المعرفة بالقلب والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، واجتناب الكبائر، وترك الصغائر، فقد أخطأ الذين ذكرنا قولهم، في قولهم: إنا مؤمنون، بغير وصل ذلك بما قلت: الحق فيه الوصل به من الشرط، وخالف الحق فيه من أنكر الاستثناء فيه. فإن كان جائزاً عندك إنكار ما رويناه عن هؤلاء، فما أنت قائل فيما حدثني أحمد بن بُدَيْل اليامي... قال رسول الله ﷺ: «إذا سئل أحدكم أمؤمن أنت فلا يشك؟!»^(٢).

ولرد هذا المذهب، الذي يستدل بترك مَنْ تَرَكَ من السلف الاستثناء، على إخراج العمل من حقيقة الإيمان، يحتج ابن جرير بمن ذهب إلى الاستثناء من السلف؛ فإن هؤلاء الذين تركوه «من أشكاهم مخالفين، وللحديث الذي رُوي عن رسول الله ﷺ، الذي استدلت به على حقيقة ما حكيت عنهم، تأويل هو

(١) من: كذا، ولعلها: في.

(٢) تهذيب الآثار مسند ابن عباس (٢/٦٦٦-٦٦٧). وشيخ ابن جرير، أحمد بن بُدَيْل، لينه الدارقطني وغيره، وقال ابن عدي: حدث عن حفص بن غياث وغيره أحاديث أنكرت عليه. انظر ترجمته في: «الميزان» و«التهذيب». والحديث ضعفه الألباني في: ضعيف الجامع، رقم (٥٣٦). ولا تخفى صناعة المذهب في الحديث.

أولى به من تأويلك . . .».

وأما في «التبصير» فقد عكس البحث في ذلك؛ حيث عرض لذكر «الاختلاف فيمن يستحق أن يُسمى مؤمنا، وهل يجوز أن يُسمى أحد مؤمنا على الإطلاق، أم ذلك غير جائز إلا موصولا بمشيئة الله، عز وجل»^(١)، ثم جعل القول في حقيقة الإيمان أصلا للقول بالاستثناء، عند من جعل العمل داخلا في حقيقة الإيمان، أو أصلا للمنع منه، عند سائر من أخرج العمل من حقيقة الإيمان. وإذا كنا قد وقفنا على حقيقة الإيمان عند ابن جرير، وأنه «معرفة وإقرار وعمل»، فإننا نقف من ذلك على اختياره في هذه المسألة. فإنه لما «كان العبد مأمورا بالقيام بجميعها - المعرفة والإقرار والعمل - كما هو مأمور ببعضها، وإن كانت العقوبة على تضييع بعضها أغلظ، وفي تضييع بعضها أخف، كان بيننا أنه غير جائز تسمية أحد مؤمنا ووصفه به، مطلقا من غير وصل، إلا لمن استكمل معاني التصديق، الذي هو جماع أداء فرائض الله»^(٢).

ويستدل ابن جرير في «التهذيب» لذلك المعنى لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۚ﴾^(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿[الأنفال: ٢-٤]﴾. قال: «فأخبر جل ثناؤه، أن المؤمن إنما هو من كانت هذه صفته، دون من قال ولم يعمل، ولكن ضيع ما أمر به وفرط»^(٣).

وإذا كان المؤمن حقا هو من «استكمل معاني التصديق»، فإن ابن جرير يرى أن «من لم يكن جامعا ذلك، فإنما له ذلك الاسم بالخصوص. فغير جائز وصف

(١) انظر: التبصير (١٨٧) وما بعدها.

(٢) التبصير (١٩١).

(٣) التهذيب ابن عباس (٢/ ٦٨٢-٦٨٣).

من كان له من صفات الإيمان خاصٌّ، ومن أسمائه بعضٌ، بصيغة العموم، وتسميته باسم الكل...».

ثم يفرق ابن جرير في التسمية بالإيمان بين صنفين من الناس: صنف «عرف، وأقر، وفرط في العمل» وهؤلاء هم أصحاب المعاصي والكبائر - فهذا يسميه ابن جرير: «مؤمن بالله ورسوله»؛ فيوصل - يعنى: يُقَيِّدُ - الاسم بما هو «مؤمن» به - بالله ورسوله^(١). وأما من «أقر بعد المعرفة بلسانه، وصدق، وعمل، ولم تظهر منه موبقة، ولم تُعرف منه إلا المحافظة على أداء الفرائض»، فهذا يقال له: مؤمن، إن شاء الله!!

إلا أنه يبقى النظر في شأن هذا الصنف الثاني، لم لم يوصف بوصف «المؤمن» مطلقاً، من غير قيد، وما وجه الاستثناء في حقه، وقد أتى بأركان الإيمان الثلاثة، التي من استكملها فقد استكمل الإيمان: تصديق، وإقرار، وعمل؟! هنا يجيب ابن جرير بأنا «إنما وصلنا تسميتنا إياه بذلك بقولنا: إن شاء الله؛ لأننا لا ندري: هل هو مؤمن ضيع شيئاً من فرائض الله عز ذكره، أم لا. بل سكون قلوبنا إلى أنه لا يخلو من تضييع ذلك، أقرب منها إلى اليقين بأنه^(٢) غير مُضييع شيئاً منها ولا مفرط»^(٣).

وهذا المأخذ الذي ذكره ابن جرير في الاستثناء، وربطه بالعمل الذي هو جزء من حقيقة الإيمان، هو مأخذ السلف والأئمة في الاستثناء. قال الإمام أحمد: «أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان^(٤)؛ لأن الإيمان قول

(١) انظر المبحث التالي.

(٢) في المطبوع: فإنه، والتصويب من المخطوط.

(٣) التبصير: (١٩٢).

(٤) يعنى قوله: «من شهد أنه مؤمن، فليشهد أنه في الجنة» رواه ابن جرير في «التهذيب» رقم (٩٩٦)، وغيره.

[وعمل]، والعمل الفعل، ونخشى أن نكون قد فرطنا في العمل، فيعجبني أن نستثنى في الإيمان، نقول: أنا مؤمن إن شاء الله^(١).

وإذا كان ترك الاستثناء مرتبطاً عند ابن جرير، وعند أئمة السنة، بالإرجاء، حتى روى عن عبد الرحمن بن مهدي^(٢) قوله: «أصل الإرجاء من قال: إني مؤمن»^(٣)، فإنما كان ذلك الارتباط لأنه لا أحد يشهد لنفسه بأنه عمِلَ حَقَّ العمل، وأدى ولم يُفَرِّط، فإذا جزم لنفسه، أو لغيره، بالإيمان فلم يبق لذلك معنى إلا أنه يُخْرِجُ العمل عن حقيقة الإيمان، ويرى أنه لا يزيد ولا ينقص.

ولهذا روى ابن جرير عن الفضيل بن عياض^(٤) قوله: «ياسفيه، ما أجهلك!! لا ترضى أن تقول: أنا مؤمن؛ حتى تقول: مستكمل الإيمان! لا والله لا يستكمل العبدُ الإيمان حتى يؤدي ما افترض الله عليه، ويحتب ما حرم الله عليه، ويرضى بما قسم الله، ثم يخاف مع ذلك أن لا يُتَقَبَّلَ منه»^(٥). وقد روى ابن جرير أثرى عبد الرحمن بن مهدي، والفضيل، فيمن قال بالاستثناء وعاب من تركه من السلف.

فأما من كان مذهبه أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، إلا أنه لم يستثن،

(١) السنة للخلال، رقم (١٠٦٥)، وكلمة (العمل)، سقطت منه، واستدركتها من الإيمان

لابن تيمية (٤٢٨) حيث نقل النص عن نفس المصدر.

(٢) هو: عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، مولا هم أبو سعيد البصري (١٣٥-

١٩٨هـ)، ثقة ثبت حافظ، عالم بالرجال والحديث. قال ابن المديني، ما رأيت أعلم

منه. انظر: الكاشف للذهبي (١٨٧/٢)، التقريب رقم (٤٠٤٤).

(٣) «التهذيب»، مسند ابن عباس، رقم (١٠٢٣)، وذكره الآجري، رقم (٣١٣) وابن بطة،

رقم (١١٨٨)، ورواه الخلال، رقم (١٠٦١) لكن بلفظ: «أول الإرجاء».

(٤) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، الإمام الزاهد المشهور، توفي (١٨٧هـ)

وقيل قبلها. انظر: البداية والنهاية (٢٠٦/١٠)، التقريب، رقم (٥٤٦٦).

(٥) التهذيب (١٠١٦). وانظر: السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد (٩٩).

فليس هذا من المرجئة، كما قال الإمام أحمد وغيره، ولهذا رخص كثير من أئمة السنة في ترك الاستثناء، لمن كان هذا مذهبه، إذا كان يقول ذلك على وجه الإقرار^(١). قال الفضيل: «.. وقولك: أنا مؤمن تكلف لا يضر أن لا تقوله، ولا بأس إن قلته على وجه الإقرار، وأكرهه على وجه التزكية.»^(٢).

وعلى هذا الوجه، من مخالفة المرجئة، ترك الاستثناء من تركه من أئمة السلف، ممن حكى عنهم ذلك ابن جرير وغيره. قال أبو عبيد: «.. مذهب الفقهاء الذين كانوا يتسمون بهذا الاسم بلا استثناء، فيقولون: نحن مؤمنون، إنما هو عندنا منهم على الدخول في الإيمان، لا على الاستكمال.. فأما على مذهب من قال: كإيمان الملائكة والنبين، فمعاذ الله! ليس هذا من طريق العلماء، وقد جاءت كراهيته مفسرة عن عدة منهم..»^(٣).



(١) انظر الإيمان لأبي عبيد ص (٢١)، السنة، للخلال (١٠٥٩) الرسائل والمسائل.. لعبد الإله الأحمدى (١٢٠/١-١٢٢) وأيضا: الإيمان، لابن تيمية (١٣٩) وما بعدها، (٤٢٩) وما بعدها.

(٢) السنة، لعبد الله بن أحمد، ص (١٠١).

(٣) الإيمان، لأبي عبيد، ص (٢٢).

المبحث الثالث

حكم مرتكب الكبيرة

جاءت النصوص بالتغليظ على أهل الجرائم والذنوب، على أنواع^(١):

فمنها ما فيه نفى الإيمان عن مُقَارِفِ الذنب، كقوله ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٢)، أو البراءة منه، كقوله ﷺ: «من حَلَفَ بالأمانة فليس منا»^(٣).

ومنها ما فيه إطلاق الشرك أو الكفر على الذنب، أو نسبة الفاعل إلى أنه «أشرك» أو «كفر» كقول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٤)، وقوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(٥).

ومنها ما فيه توعّد صاحبه بالنار، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. أو

(١) اقتصرنا هنا على الإشارة إلى ستة منها، وإن كان يمكن بالتتبع الوقوف على أكثر من ذلك. وأما الإمام أبو عبيد، فذكر أنها أربعة أنواع، فذكر ما أشرت إليه هنا، سوى الآخرين: الحرمان من الجنة، والتوعّد بالنار. انظر الإيمان، لأبي عبيد (٣٦-٣٨).

(٢) هو الحديث (٢٤) من مسند ابن عباس من تهذيب الآثار (٢/٦٠٥). ورواه البخاري وغيره من حديث ابن عباس، ورواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة. وانظر تعليق الشيخ محمود شاكر على تهذيب الآثار.

(٣) رواه أبو داود - الإيمان والنذور - رقم (٣٢٣٧-عون المعبود) وغيره، من حديث بريدة، وصححه النووي في «رياض الصالحين»، رقم (١٧٠٩).

(٤) رواه البخاري الأدب رقم (٦٠٤٤)، ومسلم الإيمان رقم (٦٤) من حديث ابن مسعود.

(٥) رواه أحمد (٢/١٢٥، ٦٩) وأبو داود، رقم (٣٢٣٥-عون) من حديث ابن عمر. ورواه الترمذي، وحسنه، (١٥٧٤-تحفة) بلفظ: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك».

وانظر السلسلة الصحيحة للألباني ج (٥) رقم (٢٠٤٢).

حرمانه من الجنة، كما في قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»^(١).

وفي مقابل ذلك وردت نصوص كثيرة في بيان سعة رحمة الله، وعظيم مغفرته، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وما يشبه ذلك من الآيات والأحاديث. وفي كثير منها أن من مات على التوحيد دخل الجنة، كائنا ما كان عمله. ومن ذلك ما رواه ابن جرير من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»، قاله أربع مرات، ثم قال في الرابعة: «وإن رغم أنف أبي ذر»^(٢). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا.

أما الخوارج والمعتزلة، فغلبوا جانب الوعيد، حتى غلبوا فيه. وحتموا بالنار، خالدًا أبدًا، لكل من مات على كبيرة، من غير توبة. فجعلوا ذنبا واحداً غير شرك، مُحْبِطاً كُلَّ ما عمل من حسنة، حتى التوحيد. ثم اختلفوا، بعد اتفاقهم على حكمه، خلافاً لفظياً، في اسمه؛ فالخوارج أخرجته من الإيمان، وأنزلته الكفر؛ إذ هو ضِدُّه. والمعتزلة أخرجته من الإيمان، ولم تُنْزِلْهُ الكفر، وإنما أنزلته منزلةً بين المنزلتين، ابتدعتها، وانفردت بها دون سائر فرق الإسلام^(٣).

(١) رواه البخارى الأدب رقم (٦٠٥٦)، ومسلم الإيمان رقم (١٠٥)، والقتات هو النمام، كما فى لفظ لمسلم.

(٢) تهذيب الآثار مسند ابن عباس رقم (٩٣٣)، والحديث فى البخارى الرقاق (٦٤٤٤)، مسلم الزكاة (٩٤)، وقوله «وإن رغم..» فى البخارى اللباس (٥٨٢٧).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة: ص (١٣٩) وأيضاً: ص (٦٢٣) وما بعدها، خاصة (٦٤٧-٦٥٠). وانظر أيضاً فى حكاية ابن جرير مذهب الخوارج والمعتزلة: التبصير (١٧٧-١٧٩) وهى المرة الوحيدة، فيما وقفنا عليه، التى يذكر المعتزلة بهذا الاسم. وانظر أيضاً: الإيمان، لأبى عبيد (٤٩-٥٠)، تعظيم قدر الصلاة، لابن نصر المروزي (٢/٥٥٢-٥٥٣، ٦٢٤)، مقالات الأشعرى (١/٢٠٤).

ثم إنهم إما ردُّوا أحاديث الرجاء، بحجة ضعفها، أو كونها آحاداً...، وإما تأولوها بما يوافق المذهب؛ كحملها على التائب، أو صاحب الصغيرة... أو غير ذلك^(١).

وأما المرجئة، فغلبت جانب الرجاء، حتى غلت فيه - بدورها - وزعمت أن مرتكب الكبائر مؤمن مستكمل الإيمان، بل حكى عنهم ابن جرير وغيره أنهم قالوا - في مرتكب الكبائر: «... مؤمنون بإيمان جبريل وميكائيل، وهم من أهل الجنة. وقالوا: لا يضرهم مع الإيمان ذنب، صغيرة كانت أو كبيرة، كما لا ينفع مع الشرك عمل»^(٢).

وهذا الذي حكى عنهم أنهم قالوا: «لا يضرهم...»، وإن كان حكاية غير واحد ممن أرخ للمرجئة، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «... إن قالوا: لا يضره ترك العمل، فهذا كفر صريح، وبعض الناس يحكى هذا عنهم...، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد. لكن ما علمت مُعيَّناً أحكى عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله»^(٣).

ولم يكن صنيع الوعيدية فيما يخالفهم من الآثار، حِجْراً على هؤلاء المرجئة؛ فردَّتْها طائفة منهم، وأنكرتها، قلة علم منهم بها، وعياً عن وجوها وتأويلها. وطائفة أخرى تأولتها، بما يُشبه ردها؛ فحملتها على النهي عن هذه الأفعال، لا أنها خبر عن جزاء أهلها. وثالثة تأولتها فيمن استحل ما فعل، فأما من فعل ذلك وهو مُقِرُّ بتحريمه، فهو عندهم مؤمن مستكمل الإيمان^(٤)!!

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة، (٦٧٢) وما بعدها.

(٢) التبصير (١٧٩)، وانظر: شرح الطحاوية (٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٨).

(٣) الإيمان، لابن تيمية (١٧٢)، وانظر أيضاً: الفتاوى (٥٠٢-٥٠٤).

(٤) انظر حول مقالة المرجئة: التنبيه والرد (٤٣)، (١٤٦) وما بعدها، وأيضاً: الفصل (٣)/

وأما سلف هذه الأمة، من الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة، فأجمعوا على أن صاحب الكبيرة من أهل التوحيد لا يُخلد في النار، بل إما يُعذبه الله تعالى في النار بما أوعده على ما اكتسب، ثم يدخله الجنة بعد ذلك، خالدا أبدا. وإما يدخله الجنة ابتداء، من غير أن يعذبه في النار، إما بشفاعته، أو حسنات ماحية، أو غير ذلك من أسباب عفو الله ورحمته، سبحانه^(١).

لكن مع ذلك لا بد أن يدخلها مَنْ يدخلها منهم، مِنْ غير تعيين، إلا من عينه نصُّ من الشارع.

وأجمعوا - كذلك - على أن صاحب الكبيرة لا يكفر الكفر المخرج من الملة، ولا يأخذ في الدنيا أسماء الكفار ولا أحكامهم، ولا يخرج من الإيمان والإسلام جميعا.

ثم اختلفوا بعدُ، خلافا لفظيا، فيما يستحقه من الأسماء، وقد نقص إيمانه بما ارتكب من الكبائر؛ فبعضهم يقول: مسلم، ولا يقول: مؤمن. وبعضهم يقول: مؤمن بالله ورسوله - هكذا مقيدا - ولا يطلق له الاسم. وبعضهم يقول: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وبعضهم يقتصر على أحد شِقَي العبارة الأخيرة،

= (١٢٧)، وقارن: مقالات الأشعري (١/٢٢٣، ٢٢٩-٢٣٠). وانظر حول موقفهم من أخبار الوعيد: الإيمان لأبي عبيد (٣٨-٤٠)، تعظيم قدر الصلاة، للمروزي (٢/٦٤١ وما بعدها) مقالات الأشعري (١/٢٢٥-٢٢٨).

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، هي: التوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب الدنيوية، ودعاء المؤمنين واستغفارهم له، وعذاب القبر، وما يهدي إليه بعد الموت من ثواب صدقة، ونحوها، وأهوال يوم القيامة وشدائده، والقصاص يوم القيامة، وشفاعة الشافعين، ورحمة أرحم الراحمين. انظر: منهاج السنة (٦/٢٠٥-٢٣٩)، مجموع الفتاوى (٧/٤٨٧-٥٠١)، وعنه شارح الطحاوية (٤٥١-٤٥٦).

مع ملاحظة الآخر؛ فإما قال: مؤمن، مع ملاحظة فسقه العملي، وإما قال: فاسق، مع اعتبار أصل إيمانه^(١).

رأى الطبري:

بحث ابن جرير هذه القضية في ثلاثة من كتبه: «التفسير» و «التهذيب» وهما أهم ما وصلنا من تراثه، بل لعلهما أهم ما كتب على الإطلاق، وبحثها أيضا في رسالة «التبصير» التي أجمل فيها مذهبه فيما يستحقه مرتكب الكبيرة من «الأسماء» و «والأحكام». أما التهذيب فقد ذكر فيه مذهبه فيما يستحقه من «الأسماء» طيَّ شرحه لحديث: «لا يزني الزاني وهو مؤمن...». وأما «التفسير» فقد قرر في غير موطن منه مذهبه في «حكم» مرتكب الكبيرة في الآخرة، إما مقررًا استدلاله بآية تؤيد مذهبه، أو معارضًا خصمه في تعلقه بآية أخرى، يتأيد بها لمذهبه.

فأما عن تسمية صاحب الكبيرة، من أهل التوحيد، وهي التي بدأ بتقريرها في «التبصير»، فعنده: «أنهم مؤمنون بالله ورسوله، ولا نقول: هم مؤمنون بالإطلاق، لعل سنذكرها بعد^(٢). ونقول: هم مسلمون فسقة، عصاة لله ورسوله...»^(٣).

فابن جرير يذهب هنا إلى حرمان صاحب الكبيرة من وصف الإيمان المطلق،

(١) انظر حول هذه الجملة من قول أهل السنة: تعظيم قدر الصلاة، ٥٠٦/٢ وما بعدها، ٦٢٣، رسالة الثغر، للأشعري (٩٣-٩٥)، عقيدة السلف، للصابوني ضمن المنيرية (١٢٤/١-١٢٥). العقيدة الواسطية، لابن تيمية مع شرح الهراس (١١٣-١١٦)، شرح الطحاوية (١٢٤-١٢٥).

(٢) هذه العلل ذكرها في مبحث الاستثناء في الإيمان، وقد ذكره في «التبصير» بعد هذا مباشرة، فانظر رأيه فيما سبق.

(٣) التبصير (١٨٣)، وانظر: التهذيب مسند ابن عباس (٦٥٠-٦٥١).

لأنه اسمٌ مدح، وهو - بما اقترف من الكبيرة - حقيقٌ بالذم؛ لتفريطه في العمل الذى هو أحد معانى المدح، لكن مع ذلك يبقى له من وصف الإيمان ما يستحقه على ما معه من «التصديق» و «الإقرار». وهذا هو ما يشرحه في «التهذيب»، بقوله:

«فإن قال لنا قائل: أفتريل عنه اسم «الإيمان» بركوبه ذلك؟

قيل له: نزيله عنه بالإطلاق، وتُثبت له بالصلة والتقيد.

فإن قال: وكيف تزيله عنه بالإطلاق، وتُثبت له بالصلة والتقيد؟

قيل: نقول: مؤمن بالله ورسوله، مُصَدِّقٌ - قولاً - بما جاء به محمد ﷺ.

ولا نقول مطلقاً: هو مؤمن؛ إذ كان الإيمان عندنا معرفة وقولاً وعملاً.

فالعارف المُقر المخالف - عملاً - ما هو به مُقَرَّر قولاً، غير مستحق اسم الإيمان بالإطلاق؛ إذ لم يأت بالمعانى التى يستوجب بها ذلك، ولكنه قد أتى بمعانٍ يستحق التسمية به^(١) موصولاً فى كلام العرب. ونسميه^(٢) بالذى تسميه العرب فى كلامها، ونمنعه الآخر الذى تمنعه دلالة كتاب الله، وآثار رسول الله ﷺ وفطرته العقل^(٣).

وهذا الذى اختاره هنا من أنَّ صاحب الكبيرة يُعطى الاسم المقيد دون المطلق، وإن كان أحد الأقوال التى قالها من قالها من أهل السنة، فى اختلافهم اللفظى - حول هذه المسألة، وقد حكى هو ذلك واحداً من أقوالهم، كما حكاه غيره^(٤)، فقد قال به المعتزلة أيضاً. يقول القاضى عبد الجبار: «ونحن، وإن منعنا

(١) كذا، ولعلها: بها.

(٢) كذا، ولعلها فنسميه، تفريقاً على ما سبق.

(٣) تهذيب الآثار (٢/٦٥١).

(٤) التبصير (١٨٨). وقد رُوى ذلك القول عن ابن مسعود، ومحمد بن سيرين وإبراهيم

النخعى، وغيرهم. انظر: الإيمان لابن أبى شيبة (٢١-٢٢)، الإيمان لأبى عبيد (٢٠-٢١).

من إطلاق هذا الاسم على صاحب الكبيرة، فلا نمنع من إطلاقه عليه مقيدا، فيجوز وصفه بأنه مؤمن بالله ورسوله، لأنه لا يمنع أن يفيد هذا الاسم بإطلاقه مالا يفيد إذا قيد..^(١).

وكذلك ما اختاره من أنه «يزول عنه الاسم الذي هو معنى المدح إلى الاسم الذي هو بمعنى الذم، فيقال له: «فاسق، فاجر، زان، سارق»، وتعليله ذلك بأنه «لا خلاف بين جميع علماء الأمة أن ذلك من أسمائه، ما لم يظهر منه خشوع التوبة مما ركب من المعصية، فذلك اسمه عندنا، حتى يزول عنه بظهور التوبة من الكبيرة»^(٢)، فهذا نجد أيضا عند المعتزلة في تقرير مذهبهم في منع تسمية مرتكب الكبيرة مؤمنا: «.. قد ثبت أنه يستحق بارتكاب الكبيرة الذم واللعن والاستخفاف والإهانة، وثبت أن اسم المؤمن صار بالشرع اسما لمن يستحق المدح والتعظيم والموالة، فإذا ثبت هذان الأصلان، فلا إشكال في أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى مؤمنا»^(٣). وتعليله بأنه «لا خلاف..» قريب من تعليل المعتزلة قولهم في الفاسق، بأن واصل بن عطاء، وهو الذي اخترع لهم المنزلة، «وجد الأمة مجمعة على تسمية أهل الكبائر بالفسق والفجور، مختلفة فيما سوى ذلك من أسمائهم، فأخذ بما أجمعوا عليه، وأمسك عما اختلفوا فيه»^(٤). وأما القول بأنهم «مسلمون - بالإطلاق -» فهذا مما تفارق فيه المعتزلة أهل

(١) شرح الأصول الخمسة (٧٠٢). بل ذهب الجبائي إلى أنه يسمى: مؤمنا من غير قيد لكن من جهة اللغة، لا من جهة الشرع؛ فيثبت له ذلك الاسم لغة حال قيامه بالطاعة، التي هي إيمان، وينتفى عنه عند نقيضها. وهو ما لم يقل به أحد من المعتزلة قبله. انظر مذهبه في: مقالات الأشعري (١/٣٣١) مذاهب الإسلاميين، لعبد الرحمن بدوي (١/٢٩٨-٢٩٩).

(٢) تهذيب الآثار (٢/٦٥٠-٦٥١).

(٣) شرح الأصول (٧٠١-٧٠٢).

(٤) الانتصار للخطا (٢٣٧)، وانظر: شرح الأصول، (٧١٦-٧١٧).

السنة، في هذه المسألة، مسألة تسمية صاحب الكبيرة؛ فعند المعتزلة أن الإسلام مرادف للإيمان، فإذا سلب عنه اسم «الإيمان»، الذى هو اسم مدح، فكذا يسلب عنه اسم «الإسلام»^(١). وأما أهل السنة، حتى من قال منهم بأن الإسلام والإيمان مترادفان، فمتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام جميعاً^(٢).

ومراد ابن جرير بذلك أن الإسلام هو الخضوع والإذعان، وهذا يثبت لصاحبه بمجرد الكلمة، كلمة الشهادة، التى تعنى الإقرار بصدق ذلك والخضوع له، وهذا أيضاً هو معنى قوله: آمنا بالله، أو: مؤمن بالله، فهما عبارتان مترادفتان عنده، وأما الإيمان المطلق فإنما يثبت لصاحبه بالعمل المصدق إقراره ذلك.

وهذا المعنى يقرره ابن جرير بوضوح فى تفسيره لقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، فقد حكى اختلاف أهل التأويل حول ذلك، هل «لأن القوم كانوا صدقوا بألسنتهم، ولم يصدقوا قولهم بفعلهم، فقليل لهم: قولوا أسلمنا، لأن الإسلام قول، والإيمان قول وعمل»، كما قال الزهرى: إن الإسلام الكلمة، والإيمان العمل، أو: لأنهم أرادوا أن يتسموا بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا...، أو لأنهم منوا على رسول الله ﷺ إسلامهم...، ثم قال:

«وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك، القول الذى ذكرناه عن الزهرى، وهو أن الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا فى الملة، إقراراً منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم، أن يقولوا بالإطلاق - : آمنا، دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا: آمنا بالله ورسوله، ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذى لا يشكل على سامعيه، والذى قائله فيه محق، وهو أن يقولوا: أسلمنا، بمعنى: دخلنا فى

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة، ص (٧٠٥-٧٠٧).

(٢) انظر: شرح الطحاوية (٤٤٢).

الملة، والأموال، والشهادة الحق»^(١).

وأما عن حكم صاحب الكبيرة، فإن ابن جرير يقول - في تمام بحثه السابق في «التبصير»:

«ونقول: هم مسلمون، فسقة، عصاة لله ولرسوله. ولا ننزلهم جنة ولا نارا، ولكننا نقول كما قال الله تعالى ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، فنقول: هم في مشيئة الله تعالى ذكره؛ إن شاء أن يعذبهم عذبهم، وأدخلهم النار بذنوبهم، وإن شاء عفا عنهم بفضلله ورحمته، فأدخلهم الجنة. غير أنه إن أدخلهم النار فعاقبهم بها، لم يخلدهم فيها، ولكنه يعاقبهم فيها بقدر إجرامهم، ثم يخرجهم بعد عقوبته إياهم بقدر ما استحقوا، فيدخلهم الجنة.»^(٢).

وتقرير ابن جرير هنا ظاهر في أن مرتكب الكبيرة لا يستحق الخلود في النار، كما تقوله الخوارج والمعتزلة، بل هو داخل في عموم «الوعد» بالجنة على ما معه من التوحيد والعمل الصالح. ثم هو كذلك حقيق بما جاء في أهل الكبائر من «الوعيد» بالعذاب في النار من غير أن يخلد فيها أبداً - . ومع أنه لا يُحكم لأحد - بعينه - من أهل التوحيد بجنة ولا نار، فإنه من المقطوع به أن أناسا من أهل التوحيد يعذبون في النار قبل دخولهم الجنة، خلافاً للمرجئة الذين يقولون إن النار لا يدخلها أحد من أهل التوحيد، أو الذين لا يجزمون بوقوع ذلك أو نفيه. والواقع أن استحقاق الشخص الواحد للمدح وأسماء الثناء، من جانب، واستحقاقه للعذل وأسماء الذم من جانب آخر. واستحقاقه - من ثم - للثواب والنعيم من وجه، واستحقاقه - كذلك - للعذاب والنكال من وجه آخر،

(١) انظر: التفسير (٢٦/١٤١-١٤٣) ط الفكر.

(٢) التبصير (١٨٣-١٨٤)، وانظر تفسيره لآية النساء المذكورة: (٨/٤٥٠)، (٩/٢٠٦) ط

واجتماع دَيْنِكَ الوجهين في شخص واحد، كان هو بيت القصيد في الخلاف بين أهل السنة وَمَنْ سواهم من الفرق، التي ضاق عَظْمُهَا عن ذلك الجمع.

وقد نثر ابن جرير تقرير ذلك الأصل الأصل في غير ما موطن من تفسيره، إما تقريراً لقوله، أو ردّاً لقول خصمه. ومن ذلك أنه لما ساق الخلاف في معنى الاستثناء في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [١٠٦] خَلَّدِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ [١٠٧] ﴿[هود: ١٠٦، ١٠٧]، رجح قول قتادة والضحاك أن «هذا استثناء استثناء الله في أهل التوحيد، أنه يخرجهم من النار إذا شاء، بعد أن أدخلهم النار». ثم قال:

«وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصحة في ذلك، لأن الله جل ثناؤه أوعد أهل الشرك به الخلود في النار، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ فغير جائز أن يكون استثناء في أهل الشرك. وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قوماً من أهل الإيمان به، بذنوب أصابوها النار، ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة، فغير جائز أن يكون ذلك استثناء في أهل التوحيد قبل دخولها، مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا. وأنا إن جعلناه استثناء في ذلك، كنا قد دخلنا في قول من يقول: «لا يدخل الجنة فاسق، ولا النار مؤمن»، وذلك خلاف مذاهب أهل العلم، وما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ. فإذا فسَدَ هذان الوجهان، فلا قول قال به القُدوة من أهل العلم إلا الثالث»^(١).

(١) التفسير (٤٨٥/١٥) ط شاكر. وعن تقريره لكون الوعيد الوارد في أهل المعاصي ليس حتماً في حق كل شخص، وإنما هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء أنفذه في حقه، انظر: التفسير (٧٠-٦٩/٩) ط شاكر وهو موضع مهم، وأيضاً: (١٠٢/٦) ط شاكر، (٤٠، ١٩/٢٨) ط الفكر.

وأما الاستثناء في الآية بعدها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨]، فهو في حق من دخل النار من أهل التوحيد؛ فاستثنى من خلودهم في الجنة قدر مُكثهم في النار، من لَدُنْ دخولها، إلى أن أُدخلوا الجنة. وتكون الآية معناها الخصوص في بعض الذين سَعِدُوا، وإن كان لفظها عاما في جميعهم^(١).

وإذا كان ابن جرير يقرر هذا المذهب عند تفسيره للعديد من الآيات التي تدل على عموم أهل التوحيد، بمن فيهم أصحاب الكبائر، بالوعد بالجنة والمغفرة بإذن ربهم^(٢)، ويؤيد ذلك بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ الدالة على أن قوما من أهل التوحيد يدخلون النار ثم يخرجهم الله منها إلى الجنة، فإنه لا يَدْعُ - أيضا أن يرد مذهب «الوعيدية» - الخوارج والمعتزلة - القائم على أن حسنات العامل، مهما عَظُمَتْ، بما فيها توحيد، تبطل بكبيرة واحدة اجترحها، يرد ذلك بأن «الله، جل ثناؤه، وعد على الطاعة الثواب، وأوعد على المعصية العقاب، ووعد أن يحو بالحسنة السيئة، ما لم تكن السيئة شركا.

فإذا كان ذلك كذلك، فغير جائز أن يُبطل بعقاب عبد على معصيته إياه، ثوابه على طاعته؛ لأن ذلك محو بالسيئة الحسنة، لا بالحسنة السيئة، وذلك خلاف الوعد الذي وعد عباده، وغير الذي هو به موصوف من العدل، والفضل، والعفو عن الجرم.

والعدل: العقاب على الجرم، والثواب على الطاعة. فأما المؤاخذه على الذنب، وترك الثواب والجزاء على الطاعة، فلا عدل ولا فضل، وليس من

(١) السابق (٤٨٩/١٥)، وانظر: إثار الحق، لابن الوزير: (٣٨٨)؛ حيث يقرر أن الاستثناء في هذه الآية من الشر للنقصان، ومن الخير للزيادة.

(٢) انظر: تفسير الآية (٣٢) من سورة فاطر (٢٢/١٣٦-١٣٧) ط الفكر، والآية (٥٣) من سورة الزمر (٢٤/١٦-١٧) ط الفكر.

صفته أن يكون خارجا من إحدى هاتين الصفتين»^(١).

وإذا تعلق المعتزلة في قولهم بخلود الفاسق في النار، بمثل قول الله تعالى ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، وقالوا: السيئة التي توجب ذلك الوعيد هي الكبيرة من الكبائر^(٢)، قال ابن جرير: إن هذه الآية، وإن كان ظاهرها في التلاوة عاما، فإنما عني بها بعض السيئات دون بعض، وهي سيئة الشرك؛ لأن الخلود في النار لأهل الكفر بالله، دون أهل الإيمان، كما تظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ.

فأما كون «السيئة» الموجبة للخلود، تعم الكبائر - كما هو ظاهرها - فليس للمعتزلة أن يتعلقوا به؛ فإن الآية كما تعم الكبائر، تعم الصغائر أيضا، وهو ما لا تقول به المعتزلة ولا أهل السنة. فلما «صح أن الصغائر غير داخلية فيه، وأن المعنى بالآية خاصٌّ دون عام، ثبت وصح أن القضاء والحكم بها غير جائز لأحد على أحد، إلا على من وقفه الله عليه بدلالة من خبر قاطع عذر من بلغه. وقد ثبت وصح أن الله تعالى ذكره قد عني بذلك أهل الشرك والكفر به، بشهادة جميع الأمة، فوجب بذلك القضاء على أن أهل الشرك والكفر ممن عناه الله بالآية، فأما أهل الكبائر، فإن الأخبار القاطعة عذر من بلغته، قد تظاهرت عندنا بأنهم غير معنيين بها».

فابن جرير يلزم خصمه إذا ادعى أن أهل الصغائر غير معنيين بهذه الآية، لما دل الدليل على أنهم لا يخلدون في النار، بل صغائرهم مكفَّرةٌ باجتناّب الكبائر، يلزمه أن يقول: إن أهل الكبائر غير معنيين بها، لدلالة الدليل على عدم خلودهم في النار.

(١) التبصير: ص (١٨٤).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة (٦٧٨)، الكشف للزمخشري (١/١٥٨).

فأما إن كان مخالف ابن جرير ممن ينكر حجية الأخبار المستفيضة، والأنباء المتظاهرة، فلا أقل من أن يترك القطع على أهل الكبائر بالخلود في النار، بناء على ما في هذه الآية ونظائرها من العموم، لاحتمال ذلك العموم أن يكون مراداً به الخصوص، وهو ما لا يدرك إلا ببيان من جعل الله إليه بيان القرآن. ثم يكون البحث معه - في تثبيت ما أنكر - كالبحث مع سائر من أنكر ما تواترت به الأخبار، وأجمعت عليه الأمة، كرجم الزاني المحصن، وزوال فرض الصلاة عن الحائض في حال الحيض؛ فإن السؤال عليهم، نظير السؤال على هؤلاء، سواء^(١).



(١) انظر: التفسير (٢/ ٢٨١-٢٨٣) ط شاكر. وفي تفسيره للآية (١٣) من سورة النساء؛ حيث يقرر أن وعيد العاصي المتعدى حدود الله في المواريث بالخلود في جهنم، ليس على مجرد معصيته، وإنما هو في حق من جمع إلى معصيته محادةً لله ورسوله، أو شكاً في حكمه...، فصار كافراً بذلك الشك أو الاستنكار. انظر: التفسير (٨/ ٧٢-٧٣).

الفصل الثالث

مسائل السمعيات عند الطبرى

المبحث الأول

عذاب القبر

حكى ابن جرير اختلاف الناس فى عذاب القبر، وهل يُعَذَّبُ الله تعالى أحداً فى قبره أو ينعمه فيه؟، فى رسالة «التبصير»، على ثلاث مقالات: «فقال قوم: جائز أن يكون الله جل ذكره يعذب فى القبر من شاء من أعدائه وأهل معصيته.

وقال آخرون: بل ذلك كائن لا محالة، لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن الله، جل جلاله، يعذب قوماً فى قبورهم بعد مماتهم. وقال آخرون: ذلك من المحال ومن القول خطأ»^(١).

وحكاية الخلاف حول هذه المسألة على ثلاث مقالات، نجده كذلك عند الأشعرى، عَصْرِيَّ الطبرى، فى المقالات، إلا أن عنده، بدل المقالة الأولى، قول: «من زعم أن الله يُنْعِمُ الأرواح ويؤلمها، فأما الأجساد التى فى قبورهم، فلا يصل ذلك إليها وهى فى القبور»^(٢). وأما القول «بتجويز» عذاب القبر، دون القطع بوقوعه، والذى حكاه ابن جرير عن «قوم»، فلم أقف على حكايته أو نسبته لقائل معين عند غير الطبرى^(٣).

(١) التبصير (٢٠٥-٢٠٦).

(٢) مقالات الإسلاميين (١١٦/٢).

(٣) ذكر القرطبى عن صالح قُبَّة -من المعتزلة- أنه قال: عذاب القبر جائز، وأنه يجرى على الموتى من غير رد الأرواح. انظر: التذكرة (١٤٧). وقوله: «إنه يجرى...» يدل على أن

وأما نفى وقوع ذلك وإحالة فعزاه أصحاب المقالات إلى الخوارج، وضرار ابن عمرو، وبعضهم عزاه -أيضاً- إلى بشر المريسي^(١)، وعزاه المَلْطِي إلى جهم^(٢). وعزاه الأشعري إلى المعتزلة، ثم شاع ذلك عنهم لدى خصومهم، حتى ادعى الإسفرائيني اتفاقهم عليه^(٣). مع أن الذي في كتبهم إثباته، وفاقاً للأمة، والتبرؤ من نسبة نفيه إليهم^(٤). وهو ما أنصفهم فيه ابن حزم^(٥)، وشنع المقلبي والصنعاني على من حكى النفي عنهم^(٦).

وبعد حكاية ذلك الخلاف، قال ابن جرير: «والحق في ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «استعينوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»^(٧). وهذا هو نفس القول الذي نجده في «تهذيب الآثار»، حيث يروى حديث البراء بن عازب الطويل فيما يكون بعد الموت،

= مراده بقوله «جائر» أنه «كائن».

(١) انظر: الفصل (٤/٥٥-٥٦)، فتح الباري (٣/٢٧٥)، العلم الشامخ للمقبلي (٤١٧).

وقارن: الروح لابن القيم (٧٤).

(٢) التنبيه والرد، (١٢٤)، ونسبه البغدادي إلى الجهمية. انظر: أصول الدين (٢٤٥).

(٣) التبصير للإسفرائيني (٦١)، وانظر: نسبة ذلك إلى المعتزلة عند الأشعري في: الإبانة

(٢٤٧)، والمقالات (٢/١١٦)، ابن أبي الخير، في: الانتصار (٣/٧٠٨)، النووي في

شرح مسلم (٣/٢٦٠)، القاري في شرح الفقه الأكبر (١٠١).

(٤) شرح الأصول (٧٣٠)، وصرح به الزمخشري في الكشف (١/٤٤٨-٤٤٩)، (٤/

٦٢٠)، وألمح إليه في مواطن أخرى.

(٥) الفصل (٤/٥٦)، وانظر: فتاوى ابن تيمية (٤/٢٦٢، ٢٨٤).

(٦) انظر: العلم الشامخ (٤١٤-٤١٧)، جمع الشيت، للصنعاني (٣٣-٣٤، ٥٤-٥٥).

(٧) التبصير: (٢٠٧). والحديث المذكور رواه أحمد (٦/٨١) من حديث عائشة رضى الله

عنها، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، كما قال الألباني في الصحيحة (٣/٣٦٥)،

وأصله في الصحيحين.

وفى أوله أن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر»، ثلاثاً^(١). فأخذ منه «البيان البين عن القول بأن الله عز وجل يعذب في القبور، قبل قيام الساعة، أهل عداوته، والكافرين به -كانوا- في الدنيا، وتكذيب مقالة من أنكر ذلك»، ثم قال: «وبنحو الذى رواه البراء بن عازب فى ذلك عن رسول الله ﷺ تظاهرت الأخبار عنه». ثم روى فى ذلك نحواً من ستين رواية، عن النبي ﷺ، يؤيد بها مقالته^(٢).

وأما فى التفسير، فإنه يعرض لإثبات ذلك عند تفسيره لبعض الآيات التى تمسه، كما فى قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]، قال: «يعنى: حتى صرتم إلى المقابر، فدُفِنتم فيها. وفى هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر أنهم سيعلمون ما يَلْقَوْنَ إذا هم زاروا القبور، وعيدا منه لهم وتهذُّداً»^(٣). وهو استدلال دقيق روى قبل ابن جرير عن على وابن مسعود رضى الله عنهما^(٤). ثم إنه نثر تقريره لهذه القضية، كما ألحنا، فى مناسبات عدة فى تفسيره، وفى بعضها

(١) الحديث رواه ابن جرير مطولاً ومختصراً، من طرق عن البراء وأبى هريرة، وغيرهما، تهذيب الآثار - مسند عمر - (٢/ ٤٩١ وما بعدها)، ورواه أيضاً فى مواضع من التفسير (١٣/ ٤٢٤-٤٢٥)، (١٦/ ٥٨٩-٥٩٩) ط شاكر، (٣٠/ ٩٦). ورواه أيضاً الطيالسى (٧٤٣ منحة المعبود)، أبو داود - السنة - (٤٧٢٤-عون المعبود)، وغيرهما، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين... وفى هذا الحديث فوائد كثيرة لأهل السنة، وقمع للمبتدعة...». اهـ نقلاً عن التعليق على تفسير الطبرى (١٢/ ٤٢٤) وقال ابن تيمية فى الفتاوى (٤/ ٢٩٠): «وهو حديث حسن ثابت» اهـ، وانظر رد ابن القيم على من ضعفه فى تهذيب سنن أبى داود (٧/ ١٣٩-١٤٦).

(٢) انظر: التهذيب - مسند عمر - (٢/ ٥٧١-٦٠٣).

(٣) التفسير (٣٠/ ٢٨٤) ط الفكر.

(٤) السابق نفسه، وأيضاً: القرطبي (٢٠/ ١٧٢).

يعضد استدلاله بما جاء في إثبات عذاب القبر من آثار^(١).

غير أن رسالة «التبصير» تنفرد بحكاية شبهة منكرى عذاب القبر: «... وذلك أن الميت قد فارق الروح، وزايلته المعرفة، فلو كان يَأْلَمُ وَيَنْعَمُ لكان حيًّا لا ميتًا، والفرق بين الحى والميت الحس، فمن كان يحس الأشياء فهو حى، ومن كان لا يحسها فهو ميت.

قالوا: ومحال اجتماع الحس وفقد الحس في جسم واحد، فلذلك كان عندهم محالاً أن يعذَّبَ الميتُ في قبره»^(٢).

ومدار هذه الشبهة التى حكاها ابن جرير عن النفاة، على أن الحس الذى يدرك به النعيم والعذاب، لازم للحياة ومعلول لها، فإذا انتفت الحياة، وانتفى الحس تبعاً لها، امتنع أن يقع نعيم أو عذاب على جُثَّةٍ لا تدرك شيئاً. ويبدو أن هذا هو مراد النفاة باحتجاجهم بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَيْنِ﴾ [غافر: ١١]. ونحوها من الآيات؛ فإن العذاب - لو كان - يقتضى إحياءهم ليجدوا ألم العذاب، أو نعيم الثواب، ثم إمامتهم بعد ذلك، فيكون الله تعالى قد أمانتنا ثلاثاً، وأحيانا ثلاثاً، وهذا باطل^(٣).

ويعتمد ابن جرير في الجواب عن ذلك، على إبطال التلازم بين الحياة

(١) انظر: التفسير (١٤/٤٤١-٤٤٥)، (١٦/٥٨٩-٦٠٢) ط شاكر (٣٧/٢٧) ط الفكر.

(٢) التبصير (٢٠٦-٢٠٧).

(٣) انظر: الفصل (٤/٥٦)، وأيضاً: التنبيه والرد (١٢٤). وثمة شبهة أخرى، وهى التى يتناقلها عامة من يحكى مقالة النفى، تعتمد على ما «يشاهدونه» من أن الميت لا تتغير حاله عما وضع عليه، ولا يظهر عليه أثر لنعيم أو عذاب، فدل ذلك على انتفاء أن يكون ثَمَّ نعيم أو عذاب. انظر حكايتها والرد عليها فى: شرح الأصول، لعبد الجبار (٧٣٣)، والإرشاد للجويني (٣١٧-٣١٨)، والتذكرة للقرطبي (١٣٩)، والروح لابن القيم (٧٩-٨٠)، وجمع الشئيت للصنعاني (٤٤) وما بعدها.

والحس؛ فإذا كنا نجد أحياء «لا مطيعين ولا عاصين» كالأطفال والمجانين، فكذلك - فيما يرى ابن جرير - ينبغي أن نُجَيِّزَ وجودَ حيٍّ لا حاسٍّ ولا مدرك (!؟) «فإن أبوا سئلوا الفرق بينهما»، وإن أجازوا ذلك بطل التلازم بين «الحس» (الإدراك)، «والحياة». وحينئذ يَسَلِّمُ لمن يثبتُ عذابَ القبر دعواه أن الميت يحس بما جرى عليه في قبره، حتى «مع ارتفاع الحياة منه».

وإذا كان ابن جرير قد استدل بتسليم خصمه بشيء ما (وجود الحياة من غير إحساس) على عكس ذلك الشيء (وجود الإحساس من غير حياة)، فإنه يعتمد في ذلك على إبطال الفرق بين الأمرين، وإبطال مطلق التلازم بين الحس والحياة، فليس كل مُحَسٍّ حيًّا، كما ليس كلُّ حيٍّ مُحَسًّا.

فإن لجأ الخصم إلى التفريق بين وجود الحياة من غير إحساس، كما يفترض ابن جرير تسليم خصمه به، وعكس ذلك الذي هو وجود الإحساس من غير حياة، كما يدعى ابن جرير، بقياس «الغائب على الشاهد»، فقالوا: «الفرق أنا لم نجد عالما إلا حيا، وقد نجد حيا لا عالما^(١). قيل لهم: أَوَكُلُّ ما لم تُشاهدوه أو تعاینوه، أو مثله، فغير جائز كونه عندكم؟».

فعاد ابن جرير بالبحث أخيراً، إلى ما كان يكفى البدء به أولاً، وهو أن عذاب القبر من قضايا الغيب التي يُرْجَعُ فيها إلى الخبر، ولا مُعَوَّلٌ على قياسها على ما نجد في «الشاهد»، كما أن من قضايا «الغائب» التي لا نظير لها في الشاهد، وجود جسم حي له حياة، لكن لا تفارقه هذه الحياة بالاحتراق بالنار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. فإن أنكروا ذلك «خرجوا من ملة الإسلام بتكذيبهم لحكم القرآن»، وإن أقروا به في «الغائب» مع خلافه لما يجدون في «الشاهد»، لزمهم أن يجوزوا «وجود العلم، وحس الألم واللذة، مع فقد الحياة»، وإن كان ذلك

(١) الظاهر أنه يعنى بالعلم هنا مطلق الإدراك، لا العلم المخصوص.

خلافًا للشاهد، ثم يكون الخبر مُحَقَّقًا وقوع ما اتفق على جوازه^(١).

وإذا كان ابن جرير يثبت عذاب القبر، شأن سائر أهل السنة، فهل تجرى أحوال القبور - فيما يرى ابن جرير - على النفس والبدن جميعًا أم على أحدهما فقط؟

ذكر ابن حجر في شرحه لقصة اطلاع النبي ﷺ على القلب، قلب بدر، وقوله لناسٍ من المشركين: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أوجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا؟» فقال عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها؟ فقال: «ما أنتم بأسمع منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يَرُدُّوا»^(٢)، ذكر ابن حجر في شرحه لهذه القصة أن ابن جرير، وجماعة من الكرامية، قد أخذوا منها أن السؤال في القبر يقع على البدن فقط^(٣). وهو أمر نُسِبَ إلى بعض المعتزلة^(٤)، وذكر ابن تيمية أن فيه قولين لأهل الحديث والسنة والكلام^(٥).

ونحن لا نجد في شرح ابن جرير لهذه القصة، والتي رواها وتوسع في شرحها في «تهذيب الآثار»، ذكرا لذلك، وإنما ذكر في شرحها إثبات سماع الأموات،

(١) انظر: كلام ابن جرير بطوله في التبصير: (٢٠٨-٢١١).

(٢) هذا جزء من القصة برواية ابن جرير في «تهذيب الآثار» - مسند عمر - (٢/٤٨٥) والحديث أصله في البخاري - المغازي - رقم (٣٩٧٦)، مسلم - الجنة - رقم (٢٨٧٣).

(٣) انظر: فتح الباري (٣/٢٧٧) وكذلك نسب هذه المقالة إلى الطبري كل من: الأمدى، في: «أبكار الأفكار»، على ما نقله ابن الألويس في «الآيات البينات» (٨٩، ٩١)، والنووي في شرح مسلم (١٧/٢٩٣)، وابن رجب الحنبلي في «أحوال القبور»، على ما نقله الألباني في تعليقه على «الآيات البينات» ص (٨٩) هامش (١)، وليس فيهم من ذكر أن ابن جرير أخذ ذلك من قصة القلب.

(٤) نسبه القرطبي إلى «صالح قبة». انظر: التذكرة (١٤٧).

(٥) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٤/٢٦٣، ٢٨٢).

كما تأتى الإشارة إليه إن شاء الله، وذكر أيضًا «تصحيح القول بأن الله عز وجل يعذب في القبور قبل قيام الساعة أهل عداوته، والكافرين به -كانوا- في الدنيا»^(١) وتكذيب مقالة من أنكر ذلك» كما هو مذهبه الذى قررناه من قبل. ثم لم يعرض لكون ذلك على البدن فقط، أو غير ذلك بشيء.

وكان ينبغى أن يكون مستند من ينسب ابن جرير إلى ذلك، كلامه في «التبصير» ومعارضته الجدلية للنفاة، والتي عرضناها فيما سبق، وخاصة قوله في آخرها: «فأجيزوا كذلك أن عذاب الله تعالى ذكره، ألما ولذة وعلمًا»^(٢)، في جسم لا حياة فيه، وإن لم تكونوا عاينتم مثله فيما شاهدتم...»^(٣).

ومما يرجح أن ابن جرير يرى أنه لا تلازم بين «الحياة» و«الإدراك»، ختامه لذلك الفصل في التبصير بأن المسألة (المعارضة) على من أنكر منكرًا ونكيرًا، وما جاءت به الأخبار من سماع الميث خفق نعالهم^(٤)، وما أشبه ذلك من الأخبار الواردة عن رسول الله ﷺ في الموتى، كالمسألة على من أنكر عذاب القبر سواء،

(١) قد توهم هذه العبارة أن ابن جرير يخص عذاب القبر بالكفار فقط، كما حُكى عن الجبائي وغيره، إلا أن الأحاديث التي رواها لإثبات عذاب القبر، كلها تنفى ذلك الإيهام؛ ففيها استعاذة النبي ﷺ منه، وأمره أمته بالاستعاذة منه، وإخباره أن أمته تفتن في القبور، قريبًا من فتنة الدجال، وأن سعد بن معاذ لم يُنَجَّ من ضغطة القبر، وغير ذلك مما يؤكد أن مذهبه في ذلك أن مذهب عامة العلماء: أنه يعم الكافرين، ومن شاء الله من عصاة المسلمين.

(٢) هكذا جاء في المخطوطة والمطبوعة بالنصب في ثلاثتها، ولا أدري هل هو على لغة من ينصب معمولي «أن» أو نصبها على الحال، أو هو تحريف، أو ماذا؟!.

(٣) التبصير (٢١١).

(٤) روى ابن جرير هذا المعنى في حديث البراء المشار إليه آنفا، ورواه أيضًا في «التهذيب» رقم (٧٢٩، ٧٣٠) من حديث أبي هريرة، ورق-م (٧٣١) من حديث جابر. والمعنى ثابت في البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس.

قال: «لأن علتهم في جميع إنكار ذلك علة واحدة، وعلتنا في الإيمان بجميعه والتصديق به علة واحدة، وهو تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ به، مع جوازه في العقل وصحته فيه؛ وذلك أن الحياة معنى، والآلام واللذات، والمعلوم^(١) معان غيره. وغير مستحيل وجود الحياة مع فقد هذه المعانى، ووجود هذه المعانى مع فقد الحياة، لا فرق بين ذلك»^(٢). وهذا تصريح منه بأنه رأى الذى بنى عليه ما ذهب إليه.

لكننا مع ذلك كله نجد ابن جرير ذكر أيضا في تفسيره ما يبدو لنا مغالفا لما ذكره هنا من عدم التلازم بين الحياة والإدراك. ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] يقول:

«... ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت؛ فإن الميت من خلقى من سلبته حياته، وأعدمته حواسه، فلا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيما، فإن من قتل - منكم ومن سائر خلقى - في سبيل، أحياء عندى في حياة ونعيم...»، فجعل عدم إدراك اللذة والنعيم فرعا على سلب الحياة، وإعدام الحواس (مُسببا عنه). ثم إنه أورد على نفسه سؤالا حولا الفرق بين هذه الحياة التى أثبتها الله للشهداء، وحياة من سواهم من أهل القبور، مؤمنهم وكافرهم (١؟) فقال:

«فإن قال لنا قائل... فما الذى خُصَّ به القتل في سبيل الله، مما لم يُعمَّ به سائر البشر غيره من الحياة، وسائر الكفار والمؤمنين أحياء في البرزخ؛ أما الكفار فمعذبون فيه بالمعيشة الضنك، وأما المؤمنون فمنعمون بالروح والريحان ونسيم الجنان؟!».

ثم أجاب عن ذلك بأن «الذى خُصَّ الله به الشهداء في ذلك... أنهم

(١) المعلوم، كذا في المخطوطة والمطبوعة، ولعلها: العلوم.

(٢) التبصير (٢١٢-٢١٣).

مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم...» ثم ذكر أن المقصود بذكر الخبر عن حياتهم، إنما هو الخبر عما هم فيه من النعمة^(١). وهذا النص واضح الدلالة في ربطه بين الحياة وإدراك النعيم ووجود الحواس، وبين الموت وعدم ذلك، وهو ما يخالف ما جاء في «التبصير».

وحسبنا من ذلك أن نسجل -تأريخاً لرأيه - ذينك الوجهين المتقابلين، فيما بدا لنا، دون أن نملك دليلاً مقنعاً في ترجيح أحدهما، أن يكون هو رأى ابن جرير الذي استقر عليه، دون الآخر، أو تفسير ما بدا لنا من ذلك التقابل. وعلى العَلَّات، فإننا نجد بإزاء القول الذي حُكي عنه، بأن عذاب القبر على البدن فقط، موقفاً مقابلاً لابن حزم، يرى أن عذاب القبر إنما هو على الروح فقط، وأنه بذلك تجتمع الأدلة^(٢).

وأما عامة السلف وأهل السنة، فعندهم أن أحوال القبور تحصل للروح والبدن جميعاً. قال ابن تيمية: «مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن، منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، فيحصل له معها النعيم والعذاب. ثم إذا كان يومُ القيامة الكبرى أُعيدت الأرواح إلى أجسادها، وقاموا من قبورهم لرب العالمين»^(٣).

(١) انظر: التفسير (٢١٤-٢١٨/٣) ط شاكر، وانظر: أيضاً: (٣٨٤-٣٨٥/٧) من نفس الطبعة. وقد حكى القرطبي هذا التفريق بين الشهداء وغيرهم عن ابن العربي المالكي، وذكر أن ابن العربي نقل إجماع الأمة على أنه لا يُتَعَجَّل الأكل والنعيم لأحد إلا الشهداء في سبيل الله، وغير الشهداء يملأ عليه قبره خضراً ويفسح له فيه. انظر التذكرة (١٧٦) وانظر أيضاً: فتاوى ابن تيمية (٣٣٢/٢٤).

(٢) انظر: الفصل (٥٦-٥٧/٤)، وقارن: الروح لابن القيم (٥٥) وما بعدها.

(٣) الفتاوى (٢٨٤/٤)، وانظر: التذكرة للقرطبي (١٣٧)، الروح لابن القيم (٦٥) وما بعدها.

سماع الأموات:

يبقى أن نشير هنا إلى أن ما نقل عن ابن جرير من القول بأن عذاب القبر إنما هو على البدن فقط، ربما أوهم أن مذهبه -من ثم- أن الموق لا يسمعون، أو أن ذلك لازمٌ مذهبه. وهذا -فعلاً- ما صرح الألوسي بنسبته إليه، فقال عقب حكايته ما نقل عنه في شأن عذاب القبر: «وتبين أيضاً منه موافقة ابن جرير الطبري المجتهد وغيره، للحنفية في عدم السماع؛ لأنه لما نفى الحياة، فمن الأولى أن ينفي السماع أيضاً، كما لا يخفى على كل ذي فهم، غير متعصب»^(١).

ولا يخفى أن الألوسي لم ينقل هنا مذهب ابن جرير صريحاً، وإنما ظن ذلك مذهبه لاعتقاده أنه لازم له، وهو في الواقع إنما كان يلزمه لو كان يرى أن الإحساس بدون الحياة ممتنع^(٢)، فأما حيث يقول: إن الله تعالى يخلق في البدن إدراكاً، بحيث يسمع ويعلم، ويلذ ويألم، من غير عود الروح إليه، على ما نُقل عنه في بيان مذهبه^(٣)، فإن ذلك لا يلزمه. فكيف إذا كان قد صرح بانتفاء التلازم بين «الحياة» و «الإدراك» كما سبق في كلامه الذي نقلناه عن التبصير؟! فكيف -أيضاً- إذا كان قد صرح بإثبات سماع الأموات، وجعل إثبات ذلك كإثبات سائر ما جاءت النصوص بذكره، من أحوال القبور، على ما نقلناه عن «التبصير».

وقد عاد ابن جرير لبحث هذه المسألة عند شرحه لحديث «القليب» المشار إليه آنفاً، في كتابه «تهذيب الآثار» وذكر «من قال بتصحيح هذه الأخبار من السلف،

(١) الآيات البيئات على عدم سماع الأموات (٩٢).

(٢) انظر: السابق (٦١).

(٣) انظر: فتح الباري (٢٧٧/٣). والغريب أن الألوسي نقل كلام ابن حجر هنا بتمامه ص

(٧٢)، وهو صريح في إثبات سماع الموتى وعلمهم، لكن من غير عود الروح إليه، وأنه

لا تلازم بين «السمع» و «الحياة». لكن كأنه ذهل عنه!!

وقالوا: إن الموقى يسمعون كلام الأحياء، ويتكلمون ويعلمون». وحكى ذلك المعنى عن أبي هريرة وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من السلف. ثم ذكر بعده قول من قال بتصحيح هذه الأخبار، ولكن قال: إن معنى قوله ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»: ما أنتم بأعلم بما أقول، أنه حق، منهم. ورووا عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنتم بأعلم بما أقول منهم». ويعنى بهؤلاء عائشة رضى الله عنها، ومن وافقها على ذلك، وحكى عنهم تعلقهم بقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. ثم قال: «والصواب من القول في ذلك أن كلنا الروایتين اللتين ذكرتهما عن رسول الله ﷺ^(١) في ذلك صحيحة، عدول نقلتها، فالواجب على ما^(٢) انتهت إليه، وقامت عليه حجة خبر الواحد العدل، الإيمان بها، والإقرار بأن الله يسمع من شاء من خلقه من بعد مماته، ما شاء من كلام خلقه من بنى آدم وغيرهم على ما شاء، ويفهم من شاء منهم ما شاء، وينعم من أحب منهم بما أحب، ويعذب في قبره الكافر ومن استحق منهم العذاب، كيف أراد، على ما جاءت به عن رسول الله ﷺ الآثار، وصحت به الأخبار».

وأما الآيتان اللتان تعلق بهما نفاة ذلك، فإنهما لا تعارضان ما أثبتته النبي ﷺ من سماع الميت قرع نعالهم، ونحو ذلك مما صحت به الأخبار، إذ كان ما تعلقوا به «محملاً من التأويل أوجها سوى التأويل الذى تأوله الموجه تأويله إلى أنه لا ميت يسمع من كلام الأحياء شيئاً». ثم ذكر ابن جرير وجهين قويين من محامل هاتين الآيتين:

(١) يعنى رواية: «ما أنتم بأسمع لما أقول»، ورواية: «ما أنتم بأعلم بما أقول»، وانظر: فتح البارى (٢٧٧/٣).

(٢) ما: كذا، ولعلها: من.

الأول: أن يكون معناه: فإنك لا تسمع الموتى بطاقتك وقدرتك، إذ كان خالق السمع غيرك، ولكن الله تعالى ذكره، هو الذى يُسْمِعُهُمْ إذا شاء، إذ كان هو القادر على ذلك دون من سواه...

الثانى: أن يكون معناه: فإنك لا تسمع الموتى إسماعاً ينتفعون به، لأنهم قد انقطعت عنهم الأعمال، وخرجوا من دار الأعمال إلى دار الجزاء...، ثم قال:

«إذا كان محتملاً من المعانى ما وصفنا، فليس لموجهه إلى أنه معنى به أنه لا يسمع ميت شيئاً بحال حجة...».

وأما تأويل عائشة رضى الله عنها لذلك، فإنه لا ينفى وقوع السماع؛ لأن علمهم بذلك لا يخلو من أن يكون حدث لهم عن سماع منهم خفق نعال مُشيعيهم، أو غيره من كلامهم، أو يكون علمهم بذلك عن خبر أُخبروا به فى قبورهم، قال: «وأى ذلك كان، فإنه محقق قولنا فى أن الله تعالى ذكره، يسمع من شاء من الأموات ما شاء من كلام الأحياء...»^(١).

وما قرره ابن جرير هنا من سماع الموتى، من حيث الجملة، هو الظاهر الذى تقتضى الأدلة رجحانه^(٢)، وهو كذلك مذهب الجمهور^(٣)، وكما لا يعنى ذلك أن الموتى يسمعون سماعاً مطلقاً، كما تسمع الأحياء؛ فإن هذا لم يقل به أحد، ولم يرد فى شيء من النصوص^(٤)، فكذلك الآيات التى استدلت بها نفاة السماع،

(١) انظر: تهذيب الآثار - مسند عمر - (٢/ ٥١٠-٥٢١)، وانظر أيضاً تفسيره للآيتين المذكورتين فى: التفسير (١٢/ ٢٠)، (١٢٩/ ٢٢) ط الفكر.

(٢) انظر: شرح صحيح مسلم (١٧/ ٣٩٩)، أضواء البيان، للشنقيطى (٦/ ٤٢١).

(٣) انظر: فتح البارى (٣/ ٢٧٧).

(٤) انظر: مقدمة الألبانى للآيات البيّنات...، للألوسى (٣٧)، وإذا كان محل النزاع فى الحقيقة: هو سماع الأموات فى الجملة، لا مطلق السماع، كما حرره الشيخ الألبانى نفسه، فلا شك أن قوله قبل ذلك (ص ٢٠): «فهل جاء نص يثبت للموتى صفة السمع، =

لا توجبُ نفى مطلق السماع عن الموتى، ولو كان سماعاً على غير الوجه المعتاد لنا، وإنما تُحمل - جمعا بين النصوص - على نفى السماع الذى ينفع صاحبه، أو ما شابه ذلك مما تحتمله النصوص^(١).

ولهذا، فإن ابن جرير يرد على من تعلق بأن نفى السماع فى هذا الآيات، ظاهره العموم «فى كل من فى القبور، وفى جميع الموتى»، يرد ذلك بأن «الله جل ثناؤه جعل بيان ما نزل إلينا من كتابه إلى رسوله ﷺ، وقد بين لنا عليه السلام بقوله ﷺ، إذ ذكر حال المؤمن والكافر فى قبورهما حين يُسألان عن دينهما، أنهما يسمعان خفق نعال مُتبعي جنازتهما إذا ولوا عنهما مدبرين. فكان معلوماً بذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾، معنًى به إسماع بعض الأشياء دون جميعها، ودليلاً على أن قول من قال: قد يسمعون بعض الأشياء فى بعض الأحوال، أولى بالصحة من قول من خالف ذلك»^(٢).

وأما أن الاعتقاد بأن الموتى يسمعون، أو قد يسمعون، كان السبب الأقوى فى وقوع كثير من جهال المسلمين فى دعاء الأولياء، وعبادتهم من دون الله عز وجل، كما يقول الشيخ الألبانى^(٣)، رحمه الله، فليس من اللازم لو سلمنا

= أى أن من طبيعة الميت أن يسمع الكلام، كما كان قبل موته...، هو حيدة بالبحث عن محل النزاع، وإلزام للخصم بما لا يلزمه!!

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٢٩٨/٤)، أضواء البيان (٤٢١/٦)، وانظر تأويل ابن جرير للآيات فيما سبق. على أن سياق هذه الآيات يدل على أن المراد بالموتى المنفى سماعهم هنا الكفار، لا أصحاب القبور. انظر تحرير ذلك فى: أضواء البيان (٤١٦/٦-٤٢١)، وغيره من كتب التفسير. وقد اعترف بذلك الشيخ الألبانى، بل ذكر أنه لا يعلم فيه خلافاً بين علماء التفسير!! انظر: مقدمة الآيات الينيات... (٢١-٢٢).

(٢) تهذيب الآثار مسند عمر - (٥٢٠-٥٢١).

(٣) انظر: مقدمة الآيات... ص (١٠).

ذلك - أن يكون القضاء على ذلك بتحقيق أن الموتى لا يسمعون، كما يرى^(١)؛ فإن إنكار الباطل لا يكون برد الحق الثابت. وإذا كان تحقيق سماع الموتى أو عدمه هو عين مورد النزاع، فلا ينبغي النظر في الفرع قبل البحث في ثبوت الأصل، فإذا ثبت الأصل عدنا للنظر في الفرع وحكمه، في ضوء ما تقتضيه أدلة الشرع. وههنا نقول، على وجه الإجمال: إن «سؤال الخلق هو في الأصل محرم؛ لأن فيه أنواع الظلم الثلاثة: الظلم في حق الله بالشرك، والظلم للمستأول، فإن فيه إيذاء له، وظلم الإنسان نفسه لما فيه من تعييدها لغير الله، وقد أبيح من ذلك - من سؤال الحى - ما دل الشرع على إباحته، وأما سؤال الميت والغائب، فلم يأذن الله به قط»^(٢).

وسواء قُدر أن الميت يسمع الخطاب، أو قدر أنه لا يسمع، فإن مجرد سماع الميت للخطاب لا يستلزم أنه قادر على ما يطلب الحى منه، وكونه قادرا لا يستلزم أنه شرع لنا أن نسأله ونطلب منه كل ما يقدر عليه. بل ليس لنا أن نسأل الرُّسل، وهم أحياء، كل ما يُمكنهم فعله، ولا أن يسألوا لنا ربنا كل ما يقدر عليه، كما قال قوم موسى: أرنا الله جهرة، وسألوا المسيح إنزال المائدة...^(٣)، وإنما الدعاء عبادة شرعية يتبع فيها ما جاء به الشرع.

وتأمل كيف قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، فقال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، ليدلك على أن الدعاء عبادة كانوا يصرفونها لغير الله، تعالى.

(١) السابق: (١٥).

(٢) الرد على البكرى الاستغاثه لابن تيمية (١/٢٢٤).

(٣) السابق (١/٩٥).

ويكفى فى رد صنيع هؤلاء قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقول النبى ﷺ «الدعاء هو العبادة»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] ^(١).



(١) رواه أبو داود (١٤٦٦ عون) وابن ماجه (٣٨٢٨) والترمذى (٣٤٣٢ تحفة)، من حديث النعمان بن بشير، رضى الله عنهما، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وجوّد ابن حجر إسناده فى الفتحة (٦٤/١).

المبحث الثانى

الشفاعة والميزان

أولاً: الشفاعة:

لا خلاف بين الأمة فى إثبات شفاعة النبى ﷺ، لا حرماناً الله منها، وإنما الخلاف فىمن يشفع له النبى ﷺ، أو -بعبارة أخرى- فى أى شىء تكون الشفاعة^(١).

ولقد وردت النصوص بإثبات أنواع عديدة من شفاعة النبى ﷺ، وبيان ما تكون فيه الشفاعة؛ كشفاعته العظمى ﷺ فى أهل الموقف ليقضى الله -تعالى- بينهم، ويرجيهم من كرب الموقف، وشفاعته ﷺ فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، وشفاعته ﷺ فى أقوام آخرين أن يرفع الله درجاتهم فى الجنة إلى آخر ما وردت به الآثار من ذلك^(٢).

ومع أن المعتزلة لم توافق أهل السنة والجماعة إلا فى إثبات شفاعته ﷺ، فى رفع درجات بعض من يدخل الجنة، أن ينزلوا فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، دون سائر ما جاءت به النصوص وأثبتته أهل السنة^(٣)، فلقد كاد الخلاف بين

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (٦٨٧ - ٦٨٨)، الرد على البكرى الاستغاثة لابن تيمية (٤١٢/١).

(٢) انظر أنواع الشفاعة وأدلتها فى: تهذيب سنن أبى داود، لابن القيم (١٣٣/٧ - ١٣٤)، شرح الطحاوية (٢٨٣ وما بعدها)، فتح البارى (١١ / ٤٣٦).

(٣) انظر: شرح الطحاوية (٢٨٨ - ٢٨٩) وأيضاً: المقالات للأشعرى (١٦٦/٢)، التوسل والوسيلة، لابن تيمية (١٢)، وقارن: شرح الأصول الخمسة (٦٨٩، ٦٩١) حيث يقرر هذه الفكرة، وأصرح منه فى الكشف (٢٩٩/١).

الفريقين، نفياً وإثباتاً، ينحصر في شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أمته؛ فمن حكى عن المعتزلة نفى الشفاعة، فمراده ذلك المعنى^(١)، ومن أراد من أهل السنة إثباتها، فأكبر همه ذلك المعنى أيضاً، حتى إن الراوى ربما روى الحديث في الشفاعة العظمى، فانتقل منه إلى ذلك النوع: الشفاعة في أهل الكبائر^(٢).

ولأن قول النفاة -الخوارج والمعتزلة- في هذه الشفاعة فرعٌ مذهبهم في تخليد صاحب الكبيرة في النار، وهو ما يناقص إخراجهم بالشفاعة^(٣)، فلقد أشار ابن جرير إلى إثبات الشفاعة في آخر بحثه لحكم «صاحب الكبيرة»، وجعل إثباتها، على ما تظاهرت به الأخبار، أحداً ما استدل به على عدم كفر صاحب الكبيرة، أو تخليده في النار.

قال: «وبعد، فإن الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ، متظاهرة بنقل من يمتنع في نقله الخطأ والسهو والكذب، ويوجب نقله العلم، أنه ذكر أن الله جل ثناؤه يخرج من النار قوما بعدما امتحشوا وصاروا حمماً، بذنوب كانوا أصابوها في الدنيا، ثم يدخلهم الجنة^(٤)، وأنه، ﷺ، قال: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وأنه عليه السلام، يشفع لأمته إلى ربه، عز وجل ذكره، فيقال: «أخرج منها منهم من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»^(٥)، في نظائر لما ذكرنا من

(١) انظر: الفصل (٤/٥٣، ٥٤)، الرد على البكري (١/٤١٣)، الكشف، وحاشية ابن المنير عليه، (١/١٣٦).

(٢) انظر ما نقله ابن حجر عن الداودي - من شُرَّاح البخارى - على حديث أنس في الشفاعة (١١/٤٤٦)، وانظر أيضاً: شرح الطحاوية (٢٨٥ ٢٨٦).

(٣) انظر: بيان القاضى عبد الجبار لوجه إدخال الشفاعة فى باب «الوعيد». شرح الأصول (٦٨٧).

(٤) انظر: صحيح البخارى -الرقاق- رقم (٦٥٦٠)، مسلم -الإيمان- رقم (١٨٤).

(٥) سبق فى مبحث زيادة الإيمان ونقصانه.

الأخبار، التى إن لم تثبت صحتها، لم يصح عنه خبر عليه السلام ^(١).

ويعرض ابن جرير لتقرير هذا المعنى عند عرضه لكثير من الآيات المتصلة به فى تفسيره، حتى فى بعض الآيات التى قد يحتج بها منكرو الشفاعة، كقول الله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المائدة: ٤٨]. يقول:

«فما يشفع لهم الذين شفّعهم الله فى أهل الذنوب» ^(٢) من أهل التوحيد، فتتفعهم شفاعتهم. وفى هذه الآية دلالة واضحة على أن الله، تعالى ذكره، مُشَفِّعٌ بعض خلقه فى بعض» ^(٣).

وهذه الأدلة على إثبات الشفاعة، والآثار المتظاهرة بورودها، تبين أن الشفاعة المنفية، أو المنفّية نفعها، إنما هى الشفاعة فى حق الكفار: أن يخرجوا من النار، أو شفاعة من لا يرضى الله شفاعته ولا يأذن بها. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]. يقول ابن جرير:

«وهذه الآية، وإن كان مخرجها عاما فى التلاوة، فإن المراد بها خاصٌّ فى التأويل» ^(٤)، لتظاهر الأخبار عن رسول الله عليه السلام، أنه قال: «شفاعتى لأهل

(١) التبصير (١٨٤ ١٨٦).

(٢) الشفاعة فى أهل الذنوب ليست من خصائص النبى عليه السلام، بل هى ثابتة أيضًا لمن شاء الله تعالى من الملائكة والمؤمنين، انظر ما أورده الطبرى من الآثار فى تفسير هذه الآية، وانظر أيضًا: شرح الطحاوية (٢٩٠)، الشفاعة، لمقبل بن هادى الوداعى (١٦٨) وما بعدها.

(٣) التفسير (١٦٦/٢٩) ط الفكر، وانظر حكاية ابن حزم لاحتجاج النفاة بها فى: الفصل (٥٣/٤)، وأما الزمخشري فجعلها دليلا على مذهبه فى أن الشفاعة للزيادة فى درجات المُرتَضِينَ. انظر: الكشاف (٦٥٥/٤).

(٤) العام الذى يراد به الخصوص: هو اللفظ الذى يريد به قائله -من حيث الأصل- بعض ما يتناوله، كالشفاعة المنفية هنا، فإن المراد بنفيها نفي بعض أنواعها. وقد منع الأصوليون

الكبائر من أمتي»^(١)، وأنه قال: «ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة، وإنى اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهى نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً»^(٢). فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد ﷺ، لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم، وأن قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ إنما هى لمن مات على كفره، غير تائب إلى الله عز وجل»^(٣).

وأما الشفاعة العظمى فى أهل الموقف كلهم، فقد جاءت الأحاديث الصحيحة بإثباتها، وهى المقام المحمود لنبينا ﷺ، الذى قال الله فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، صح ذلك عن النبي ﷺ، وأصحابه، وهو اختيار ابن جرير فى هذه الآية^(٤).

= التعلق بعمومه، لأن دلالة على العموم مجازية، ولأن المراد به يكون أقل مما لم يُردّ، عند بعضهم. انظر فى تعريفه، والفرق بينه وبين العام المخصوص: البحر المحيط، للزركشى (٢٤٩/٣ - ٢٥١)، إرشاد الفحول، للشوكانى (١٤٠ - ١٤١).

(١) أبو داود (٤٧١٥-عون)، والترمذى (٢٥٥٢-تحفة) وغيرهما من حديث أنس. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه، وانظر: الشفاعة، لمقبل بن هادى: ص (٨٥) وما بعدها.

(٢) رواه مسلم بنحوه -الإيمان- رقم (١٩٩) من حديث أبى هريرة.

(٣) التفسير (٣٣/٢) ط شاكر. وانظر تقرير ابن جرير لهذا المعنى (٢٨٣/٥ - ٢٨٥) ط شاكر، وأيضاً: (١٦١/١٣)، (١٤/٢ - ٥)، (١٠٥/٢٥) ط الفكر.

(٤) انظر التفسير (١٤٣/١٥ - ١٤٥)، وأيضاً: البخارى، مع شرحه (٢٥١/٨)، تفسير ابن كثير (٣/٥٥ - ٥٨)، الشفاعة، لمقبل بن هادى (٣٠٣١). على أن ابن جرير ذكر قولاً آخر لمجاهد فى تفسير هذه الآية، أن المقام المحمود هو أن يجلسه معه على عرشه، وتكلف ابن جرير فى توجيهه. وهو قول -لو صح عن مجاهد- مهجور عند أهل العلم، كما يقول ابن عبد البر، ويكفى فى رده ثبوت الأحاديث والآثار بخلافه فى تفسير المقام المحمود. وانظر: تفسير القرطبى (٣٠٩/١٠ - ٣١٢).

ثانيا ميزان الأعمال:

ثبت ذكر الميزان الذى توزن به أعمال العباد يوم القيامة فى عدة نصوص من الكتاب والسنة، أما الكتاب فمثل قول الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩) [الأعراف: ٨، ٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣] وأمثال ذلك من الآيات. وأما السنة، فكقول النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقلتان فى الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١).

وقد ذهب إلى إثبات الميزان على حقيقته عامة أهل السنة، وحكى الأشعرى وغيره إجماعهم عليه^(٢).

وذكر الأشعرى وغيره أن أهل البدع، أنكروا الميزان^(٣)، ونسبه الملطى إلى جهم^(٤)، ونُسب إنكاره أيضًا إلى بعض المعتزلة^(٥)، بل نسبه ابن فورك^(٦) وغيره

(١) هو آخر حديث فى صحيح البخارى، رواه من حديث أبى هريرة، وبوب عليه: باب قول الله تعالى: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة»، وأن أعمال بنى آدم وقولهم يوزن «ا. هـ» ورواه أيضًا مسلم (٢٦٩٤).

(٢) رسالة الثغر: (٩٦)، وانظر: فتح البارى (٥٤٨/١٣).

(٣) مقالات الأشعرى (١/١٦٤)، وانظر: الفصل (٤/٥٤).

(٤) التنبيه والرد: (١١٠)، ونسبه البغدادى إلى الجهمية: أصول الدين: (٢٤٥).

(٥) شرح المقاصد (١٢٠/٥).

(٦) هو: محمد بن الحسن بن فورك، أبو بكر الأنصارى الأصبهانى، من كبار مشايخ الأشاعرة، ت (٤٠٦هـ). انظر: تبیین كذب المفترى (٢٣٣-٢٣٣)، طبقات الشافعية (٤/

إلى المعتزلة^(١)، هكذا على العموم، وغلا الإيجي، فقال: «وأما الميزان، فأنكره المعتزلة عن آخرهم»^(٢). مع أن الذى ذكره القاضى عبد الجبار أنه حق يجب اعتقاده والإقرار به، وأنه الميزان المعقول المتعارف فيما بيننا، دون العدل، ولم يحك فى ذلك خلافاً لأصحابه^(٣).

وقد حكى ابن جرير اختلاف أهل التأويل فى ذلك، فقال بعضهم: فمن ثقلت موازينه، معناه: فمن كثرت حسناته، ورَوَى ذلك عن مجاهد. وقال آخرون: ذلك هو الميزان الذى يعرفه الناس، له لسان وكِفَّتَان، ورواه عن عمرو ابن دينار، ثم قال:

«والصواب من القول فى ذلك عندى، القول الذى ذكرناه عن عمرو بن دينار، من أن ذلك هو الميزان المعروف الذى يوزن به، وأن الله جل ثناؤه يزن أعمال خلقه، الحسنات منها والسيئات...، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ، بقوله: «ما وضع فى الميزان شىء أثقل من حُسْنِ الخلق»^(٤)، ونحو ذلك من الأخبار التى تحقق أن ذلك ميزان يوزن به الأعمال، على ما وصفتُ».

ثم حكى شبهتين يمكن أن يحتج بهما المنكر للميزان:

الأولى: أنه ليس «بالله حاجة إلى وزن الأشياء، وهو العالم بمقدار كل شىء

= (١٢٧).

(١) نقل كلام ابن فورك القرطبى فى: التذكرة (٣٦٤). وانظر: الانتصار، لابن أبى الخير

(٣/٧٢٠)، فتح البارى (١٣/٥٤٨)، شرح الفقه الأكبر، للقرارى (٩٦).

(٢) المواقف: (٣٨٤).

(٣) شرح الأصول (٧٣٥) وغاية ما هنالك أن الزمخشري حكى فى «وضع الموازين» قولين،

على نحو ما حكاه الطبرى وغيره من المفسرين، انظر: الكشف (٢/٨٩)، (٣/١٢٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٧٨-عون) والترمذى (٢٠٧٠، ٢٠٧١-تحفة) من حديث أبى الدرداء،

وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

قبل خلقه إياه وبعده، وفي كل حال.

الثانية: «كيف توزن الأعمال، والأعمال ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة، وإنما توزن الأشياء ليعرف ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها».

ثم أجاب ابن جرير عن الشبهة الأولى بأن ذلك نظير إثباته أعمال العباد في أم الكتاب، واستنساخه ذلك في الكتب، من غير حاجة به إليه، ومن غير خوف نسيانه، وهو العالم بكل ذلك في كل حال ووقت، قبل كونه، وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه...، فكذلك وزنه تعالى أعمال خلقه بالميزان حجة عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتميم».

وأما كيف توزن، فبأن «يوضع العبد وكتب حسناته في كفة من كفتي الميزان، وكتب سيئاته في الكفة الأخرى، ويحدث الله تبارك وتعالى ثقلاً وخفة في الكفة التي الموزون بها أولى»^(١)، ويحتج لهذا بأثر رواه عن عبد الله بن عمرو.

ويرد ابن جرير على المنكرين بأنه ليس في العقل ما يمنع ذلك، ولا في كونه «خروج من حكمة، ولا دخول في جور قضية»، وحيث لا دليل مع المنكر «من حجة عقل أو خبر» على دعواه، ففي ذلك «وضوح فساد قوله، وصحة ما قاله أهل الحق في ذلك»^(٢).



(١) ثم يذكر ابن جرير هنا ما يصلح تكميلاً للوجه الأول، وأن ذلك احتجاج من الله على

خلقته، كفعله بكثير منهم: من استنطاق أيديهم وأرجلهم، واستشهادته بذلك عليهم، وما

أشبه ذلك من حججه.

(٢) انظر بحث ابن جرير لذلك في التفسير (١٢/٣٠٩ ٣١٤) ط شاكر.

الفصل الرابع

مسائل الإمامة، وتفضيل الصحابة

تمهيد:

على الرغم من أن البحث في قضية الإمامة وما يتعلق بها، هو بحث فرعى (فقهى) فى أصله، فلقد توارد المتكلمون، على اختلاف مشاربهم، على إدخاله فى مصنفاتهم الكلامية.

أما الشيعة - خصوصًا الرافضة - وهم الذين تعمَّقوا فى الخوض فى ذلك البحث، وهم - كذلك - أول من صنف فيه تصنيفاً علمياً، فيما يرى بعض الدارسين^(١)، فلأن الإمامة عندهم: «أهمُّ المطالب فى أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين... وهى أحد أركان الإيمان، المُستَحَقُّ بسببه الخلود فى الجنان، والتخلص من غضب الرحمن...»^(٢)!!

وأما المنتسبون إلى السنة - بفرقهم -^(٣) فكان وكدهم من ذلك الرد على المخالف

(١) انظر: محمد ضياء الدين الرئيس، النظريات السياسية الإسلامية: (٩٥)، وأيضاً: نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى لأستاذنا د / مصطفى حلمى (٣٧٥-٣٧٦)، الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، لمحمد عمارة (١٨٧-١٨٨).

(٢) انظر ما نقله ابن تيمية فى منهاج السنة (٧٤/١) عن ابن المطهر الشيعى، وانظر أيضاً: مقدمة ابن خلدون (١٩٠)، نظام الخلافة (١٩١).

(٣) يطلق مصطلح أهل السنة فى هذا المبحث خاصة بمعناه الأعم، فى مقابلة «الشيعة»، فيشمل كل من يقول بإمامة الخلفاء، كالمعتزلة، مع أهل الحديث والسنة المحضة. وأما فى سائر الأبواب فالأكثر أن يراد به أهل الحديث والسنة المحضة. انظر: منهاج السنة (٢١/٢) وأيضاً: منهج الأشاعرة فى العقيدة، لسفر الحوالى (٩) موقف ابن تيمية من الأشاعرة للمحمود (٧٠٢-٧٠٣)، وقارن: إيثار الحق، لابن الوزير (٨٦).

لا انتشار الخوض وخطر الزلل فيه . يقول التفتازاني في بدء حديثه عن الإمامة : «... وأحكامه^(١) في الفروع؛ إلا أنه لما شاعت من أهل البدع اعتقادات فاسدة نحلة بكثير من القواعد، أدرجت مباحثها في الكلام»^(٢). ثم تتابع على ذلك المتكلمون، حتى ربما ذكرها بعضهم - على كره منه - لا لشيء، إلا الجرى على المؤلف: «... المعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض، بل وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ! ولكن إذا جرى الرسم باختتام المعتقدات به، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد، فإن القلوب عن المنهج المخالف للمألوف شديدة النفار»^(٣).

وإذا كان ابن جرير قد أرخ لهذه القضية في رسالته الكلامية «التبصير» باعتبارها أول اختلاف وقع في الأمة بعد وفاة نبيها ﷺ، فلقد نبه على هذا المأخذ في النظر إليها، أعني: أنها ليست من أصول الدين، بقوله: «أول اختلاف حدث بعد رسول الله ﷺ بين الأمة فيما هو من أمر الدين، مما ليس بتوحيد ولا هو من أسبابه، مما ثبت الاختلاف فيه بين الناس من لدن اختلفوا فيه إلى يومنا هذا: الاختلاف في أمر الخلافة وعقد الإمامة»^(٤).

ويتشعب البحث فيها إلى جانب نظري: يبحث في حقيقتها، وشروطها، وأحكامها المختلفة. وآخر تطبيقي يبحث في إمامة الخلفاء الراشدين، وبيان صحتها^(٥)، والمفاضلة بينهم، وربما تطرق ذلك الجانب إلى تناول ما جرى من

(١) كذا، ولعل الصواب: وأحكامها.

(٢) المقاصد، مع شرحها (٢٣٢/٥) وانظر: الإرشاد، للجويني (٣٤٥)، «الانتصار» لابن أبي الخير (٨١٥/٣) وغاية ما وقفت عليه عند أهل السنة في ذلك، قول القرطبي بعدما استدلل على وجوبها بفعل الصحابة، وإجماعهم: «فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين» اهـ التفسير (٢٦٥/١).

(٣) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (١٤٧).

(٤) التبصير (١٥٤-١٥٥)، والشاهد فيه قوله: «مما ليس بتوحيد ولا هو من أسبابه».

(٥) انظر: لمحات من الفكر الكلامي، د. حسن الشافعي (٣٥١).

فتن بين الصحابة حول هذه القضية.

والإمامة في حقيقتها: «رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا...»^(١). فالنظرة العامة عند أهل السنة، تجمع لها وظيفتين رئيسيتين، هما: سياسة الدنيا، وحفظ الدين. وليست الوظيفتان منفصلتين، أو متباينتين، بل متلازمتين، حتى كأنهما وجهان لعملة واحدة؛ «إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»^(٢).

وإذا كانت هذه هي حقيقة الإمامة وغايتها، فلا جرم أن إقامة الأمة إماماً عليها، يرعى شئونها، هو من الواجبات الكفائية الظاهرة على الأمة، بإجماع الصحابة والتابعين، فمن بعدهم، وعلى ذلك أيضاً دلت عدة نصوص من الكتاب والسنة، ثم هو كذلك مقتضى النظر الصحيح^(٣). خلافاً لمن شذ فأنكر وجوبها، كالنَّجَدَات من الخوارج، والأصم من المعتزلة - أو قال: إنها واجبة على الله، لا على الأمة، كالإمامية، أو مَنْ قال: إنها واجبة عقلاً لا شرعاً من الرافضة والمعتزلة^(٤). ومع أن بحث ابن جرير لمسائل الإمامة، فيما وقفنا عليه من تراثه، لم يكن مستوعباً لأى من الجانبين: النظرى، أو التطبيقى، فلقد بقى لنا من بحثه عدة مسائل تمس الجانبين كليهما، سوف نحاول عرضها فيما يلي، إن شاء الله.

(١) الجوينى: غياث الأمم (الغياثي) (٥٥)، وانظر أيضاً: الأحكام السلطانية للماوردي (٥)،

فخر الدين الرازى وآراؤه، للزركان (٥٩٤).

(٢) مقدمة ابن خلدون (١٧٠-١٧١) وانظر: النظريات السياسية، للريس ص (١٢٠) وما بعدها.

(٣) انظر: الفصل (٧٢/٤)، السياسة الشرعية، لعبد الوهاب خلاف (٥٣-٥٤) وأيضاً:

النظريات السياسية للريس (١٢٨) وما بعدها.

(٤) انظر آراء المخالفين فى المصادر السابقة، وأيضاً: المحصل للرازى (٢٤٠).

المبحث الأول

شروط الإمامة

أولاً: القرشية:

ليس من شك في أن الإمام، أيَّ إمام، والرئيس، أيَّ رئيس، لا بد أن يتحلى من الصفات بما يؤهله للنهوض بأعباء ولايته، وأداء مهمته. وفيما يخص إمام المسلمين، فقد ذكر له الفقهاء والمتكلمون من الشروط والصفات ما يؤهله لذلك المنصب الخطير. وهذه الصفات، على تنوعها، يمكن أن تُردَّ إلى شيئين اثنين، هما: الاستقلال والنسب. فالاستقلال يدخل تحته: الكفاية، والعلم، والورع، والحرية، والذكورة أيضاً^(١).

وأما شرط القرشية وهو الذي دار عليه بحث ابن جرير هنا، فهو ثابت بالسنة الصحيحة والإجماع.

أما السنة فمنها قول النبي ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقى منهم اثنان». وفي رواية لمسلم: «ما بقى من الناس اثنان»^(٢). ومنها قول النبي ﷺ: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه، ما أقاموا الدين»^(٣). إلى غير ذلك من الأحاديث التي بلغت حدَّ التواتر، فيما قال

(١) انظر: الغياثي (٩٧)، وأيضاً: الأحكام السلطانية (٦)، مقدمة ابن خلدون (١٧٢-١٧٣)، والإمامة العظمى عند أهل السنة لعبد الله بن عمر الدميحي، ص (٢٣٣) وما بعدها.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب: الأمراء من قريش، رقم (٧١٤٠) ومسلم، كتاب الإمامة، باب الخلافة في قريش، رقم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر. قال ابن حجر: «ليس المراد حقيقة العدد، وإنما المراد به انتفاء أن يكون الأمر في غير قريش». اهـ فتح

الباري (١٢٦/١٣).

(٣) رواه البخاري في الموضع السابق رقم (٧١٣٩).

ابن حزم، وابن تيمية وغيرهما^(١).

وأما إجماع الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل السنة، فقد نقله غير واحد ممن صنف في «الإجماع»، كابن حزم وغيره، ونقله كذلك الفقهاء والمتكلمون عند إثبات هذا الشرط^(٢)، قال النووي في شرحه لبعض أحاديث هذا الباب في صحيح مسلم، باب: الناس تبع لقريش، والخلافة في قريش: «هذه الأحاديث وأشباهاها دليل ظاهر أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدها لأحد من غيرهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك بعدهم...»^(٣).

وقد كان اختلاف الصحابة في «السقيفة» فيما يرى ابن جرير - إنما هو على هذا الشرط. يقول: «وكان الاختلاف الذي اختلفوا فيه من ذلك بعد فراق رسول الله - ﷺ - إياهم، الاختلاف الذي كان بين الأنصار وقريش عند اجتماعهم في السقيفة، سقيفة بني ساعدة، قبل دفن رسول الله ﷺ وبعد وفاته، فقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال خطيب قريش: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فأقرت الأنصار بذلك، وسلموا الأمر لقريش، ورأوا أن الذي قال خطيب قريش صواب، ثم لم ينازع ذلك قريشا أحد من الأنصار بعد ذلك [اليوم] إلى يومنا هذا».

وإذا كان اختلاف الصحابة في السقيفة قد انتهى إلى إجماعهم على تسليم الإمرة

(١) انظر الفصل (٧٤/٤) منهاج السنة (٣١٥/٨) الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة، للسيوطي رقم (٨٨).

(٢) انظر: مراتب الإجماع، لابن حزم (١٢٥)، الأحكام السلطانية (٦)، الغياني (٩٣) وأيضا: الإمامة العظمى للدميحي (٢٧٢-٧٤).

(٣) شرح صحيح مسلم (٢٧٦/١٢)، وانظر ما نقله عن القاضي عياض، وانظر أقوال المخالفين في هذا الشرط عند البغدادى في: أصول الدين (٢٧٥)، والريس، في النظريات السياسية (٢٩٧-٢٩٨).

لقريش، وبقي العمل على ذلك، إلى زمان ابن جرير، من غير نزاع، «وكان الخبر قد تواتر بالذي ذكرناه من فعل المهاجرين والأنصار، من غير إنكار منهم، إلا من شذ وانفرد.. كان معلومًا بذلك أن لاحظ لغيرها فيها»^(١).

وابن جرير يقرر وجه هذا الاستدلال، بأن الإمامة وشروطها قضية سمعية^(٢). وإذا كان الحق إنما يعرف في القضايا السمعية، وتقوم الحجة به، إما بالسمع شفاها من القائل، وهو هنا الرسول ﷺ، وإما بالنقل المتواتر عنه، وهو يقوم مقام السماع المباشر، وإما بالإجماع العملي على التزام مثل هذا الشرط، فقد توافر لشرط القرشية النقل المتواتر به عن النبي ﷺ، والإجماع العملي من الصحابة فمن بعدهم، «فإذا كان صحيحا أن ذلك كذلك، فلا شك أن من ادعى الإمامة، وحاول ابتزاز جميع قريش الخلافة، فهو للحق في ذلك مخالف، ولقريش ظالم»^(٣).

وإذا كان الخوارج هم أول من غَضَّ من شأن «القرشية» ونبذها، كشرط من شروط الإمامة^(٤)، ثم تبعهم بعض المعتزلة^(٥)، فإن هذا المذهب - فيما يبدو -

(١) التبصير (١٥٥-١٥٦) وكلمة (اليوم) سقطت من المطبوع، وهي في المخطوط. وهو يشير في قوله: «إلا من شذ...» إلى خلاف سعد بن عباد، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي قيل إنه لم يبايع أبا بكر، إلا أن ذلك لو ثبت، فإنه لا يقدح في الإجماع، إذ إنه لم يعارض حجتهم، ولم يدفع حقا، ولا أعان على باطل، وإنما كان يرجو الخلافة لنفسه، فإذا فاتته بقى في نفسه ما يبقى في نفوس البشر، على حد تعبير ابن تيمية. على أنه قد جاء في مسند الإمام أحمد أنه سَلَّمَ لأبي بكر قوله، وأذعن له بالإمارة. انظر منهاج السنة (١/٥٣٦)، البداية لابن كثير (٧/٣٤) الإمامة العظمى للذمي (١٤٥) هامش (٤).

(٢) قارن: المغنى، لعبد الجبار (٢٠/٢٣٥)، والغياثي (٩٤).

(٣) التبصير (١٥٧).

(٤) انظر: مصطفى حلمي: نظام الخلافة، ص (٣٧٥)، وأيضا: أحمد صبحي: النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية (١٦٩) - بحث منشور في مجلة عالم الفكر.

(٥) انظر: الفصل (٤/٧٤)، نظام الخلافة (٣٧٨) وقارن: المغنى (٢٠/٢٣٤) وما بعدها.

قد استحسنة بعض الأشاعرة، بعد أن كان المذهب على اعتباره^(١)، فيما ألح إليه الجويني، بقوله: «ومن شرائطها عند أصحابنا، أن يكون من قريش...» ثم قال: «ولاحتمال فيه عندي مجال»^(٢)، وهو نفس المعنى الذي يذكره الآمدي - فيما بعد - في بعض كتبه^(٣). ثم جاء ابن خلدون بنظريته في أن ذلك الشرط إنما كان من أجل العصية اللازمة لانتظام أمر الملك، وأن العلة التي يجب طردها في القائم بأمر المسلمين هي «أن يكون من قوم أولى عصية غالبية على من معها»^(٤). وتزداد نزعة التفلت من هذا الشرط، كلما ضعف أمر قريش، وتلاشت عصيتهم، وازداد تَفَلُّتُ الأمور من أيديهم، وتحوَّل أزمَتُها عنهم إلى الأعاجم^(٥)، حتى إذا كان العصر الحديث، وقد دالت دولة المسلمين، ولم يعد لهم خلافة لا من قريش ولا من باهلة (!!) تزايدت حَيَصَةُ الدارسين عن هذا الشرط، وصار أكثرهم لا يعأ به^(٦)، وربما تعجب البعض من اشتراطه، مع اعترافه بثبوت النصوص الدالة عليه^(٧).

- (١) انظر: الزركان: فخر الدين الرازي (٥٩٩-٦٠٠).
- (٢) الإرشاد (٣٥٩)، مع أنه عاد فنص على اشتراطه في الغيائي (٩٢). وقد نقل ابن خلدون عن الباقلاني أنه وافق الخوارج في نفى اشتراط القرشية. أما ابن حجر فَنَقَلَ عنه اشتراطها، وهذا هو الذي صرح به في «الإنصاف» ص (٦٩) و «التمهيد» (١٨١). وانظر: المقدمة (١٧٤)، فتح الباري (١٣/١٢٧).
- (٣) في غاية المرام، مع أنه اشتراطه في «الأبكار». انظر: الشافعي: لمحات (٣٦٢-٣٦٣).
- (٤) انظر: مقدمة ابن خلدون: (١٧٤-١٧٥) وأيضا: السياسة الشرعية لخلاف (٥٦).
- (٥) انظر: المقدمة (١٧٣)، فتح الباري (٦/٦١٨).
- (٦) انظر مثلا: العقاد: الديمقراطية في الإسلام (٧٠)، عبد الوهاب خلاف، السابق نفسه، عبد العظيم الديب: فقه إمام الحرمين (٤٧٧) وما بعدها، أحمد صبحي: النظريات السياسية (١٤٥)، وقارن: الإمامة العظمى، للدميحي (٢٧٥-٢٧٦).
- (٧) انظر: النظريات السياسية، للرئيس (٢٩٩)، ومال إليه الزركان في: الرازي وآراؤه (٥٩٩) هامش (٤).

وليت شعري، هل كانت مصادفة تلك النظرة المعاصرة لهذا الشرط، مع تواتر الأخبار به، في حين يزداد الميل إلى التأكيد على ما سواه من الشروط كالعلم - بدرجة معينة - والشجاعة، وسلامة الحواس... مع أنه لم يرد في شيء منها دليل بخصوصه^(١)، حاشا أن تكون «الذكورة»، وقد وجد أيضا أخيرا من يميز إمامة المرأة!!^(٢)

إلا أننا نعود لنذكر أن هذه الخِصِيصة لقريش مقيدة بإقامتهم الدين، فإن فرطوا في ذلك، وكاعوا عنه، فإنَّ مفهوم الشرط «ما أقاموا الدين» أن الخلافة لا تبقى فيهم، وغيرُهُم ممن يطيع الله وينفذ أوامره أولى منهم^(٣). ويوشك الله أن يسلط عليهم من يبالغ في أذيتهم، وينزع الأمر منهم فَيُلْحَاحُهم كما يُلْحَى القضيب، على ما جاءت به الأخبار^(٤)، وصدَّقَه التاريخ. ومن أبطأ به عمله، لم

(١) انظر: الفصل (٤/١٢٩).

(٢) انظر: رأى الشيخ محمد الغزالي في ذلك في كتابه: «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»، ص (٤٧) وما بعدها، خاصة (٥٠). فضلا عن ثبوت الحديث في ذلك، في البخاري وغيره: «لا يفلح قوم ولوا قومهم امرأة»، فقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد كابن حزم، في: مراتب الإجماع (١٢٦)، والفصل (٤/١٢٩)، ووافقه ابن تيمية في: نقد مراتب الإجماع، وانظر: أضواء البيان، للشنقيطي (١/٥٥)، وجعله الجويني في الغياثي (٩٤) مما لا يحتاج إلى إقامة دليل!!

أليس من المضحك المبكى (!!) بعد ذلك أن يصرح شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوي لوكالات الأنباء الأندونيسية (!!) بأن الإسلام لا يحرم أن تتولى المرأة منصب الرئاسة، وإن كان يفضل أن يُعهد بالقيادة للرجال (!!)، ثم قال: «إن مسألة الرئاسة للرجل أو للمرأة، لم تعد ذات بال (!!)، وإنما العبرة بالأخلاق...».

وقد نشر ذلك في مجلة الأزهر، عدد جمادى الآخرة ١٤٢٠ هـ (ص ٩٤٣)، حينما كانت

الرئيسة الأندونيسية «ميجاواتي سوكارنو» في المشهد السياسي الرياسي!!

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (١/٥٢).

(٤) انظر: فتح الباري (١٣/١٢٤-١٢٥) أضواء البيان (١/٥٢-٥٥) الإمامة العظمى (٢٨٥-٢٨٥)

يسرع به نسبه!

إلا أن ذلك العقاب القدرى لا يُعفيهم من واجبهـم نحو ذلك الأمر: أن لا يزال
فيهم من ينهض به، ما بقى من الناس اثنان^(١). ولا يبيح للناس حيثذ أن
يُنازعوهـم ما حباهم الله، ويعادوهـم عليه...



= (٢٨٦).

(١) إلزامهم بهذا هو من باب «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ».

ثانيا: إمامة المفضول:

اختلف الفقهاء والمتكلمون حول هذه المسألة: هل تصح بيعة المفضول، وتنعقد إمامته، مع وجود من هو أفضل، وأولى بالإمامة منه؟

فذهب بعضهم إلى أن من شروط الإمامة أن يكون أفضل زمانه، وأنه لاحق فيها للمفضول مع وجود الفاضل، وعلى ذلك إجماع الرافضة، وبعض المعتزلة، وبعض المتكلمين من غيرهم، كالأشعري، والباقلاني، وغيرهما^(١).

وذهب آخرون إلى أن الإمامة وإن كانت حق الفاضل، ويجب بيعته ابتداء، إلا أنه إذا بويع المفضول صحت بيعته وانعقدت إمامته، وهو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين، وطوائف من المعتزلة^(٢). وهو كذلك قول الإمام زيد بن علي، ونفر من أتباعه، بينما مال أكثرهم بعده إلى القول الأول^(٣).

ومن غرائب النقل عن أهل السنة في هذه المسألة أنه على حين ينقل ابن عبد البر إجماع العلماء^(٤) على أن الإمام يجب أن يكون أفضل أهل وقته حالا، وأكملهم

(١) وهو كذلك قول بعض الفقهاء: انظر: الفصل (٤/١٢٦)، أصول الدين للبغدادى (٢٩٣-٢٩٤)، الأحكام السلطانية (٧-٨).

(٢) انظر: المصادر السابقة، وأيضا: مصطفى حلمي: نظام الخلافة (٤٣٩-٤٤٠) الإمامة العظمى للدميجي (٣٠٠).

(٣) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٥٥-١٥٧) وأيضا: التنبيه والرد للملطي (٣٣-٣٥) نظام الخلافة لمصطفى حلمي (٢٥٩-٢٦١). وهذا التفصيل - فيما يبدو - أدق من نسبة قول الإمام زيد إلى جميع الزيدية بعده، كما يفهم من «الغياثي»: (١٣٩) والمقدمة (١٧٦) ونص عليه في الفصل (٤/١٢٦)، وهو كذلك أدق من نفي قول الإمام زيد عن جميع الزيدية من بعده، كما جزم به د. أحمد صبحي في: الزيدية (٧٤) هامش (١٢).

(٤) مراده بالعلماء هنا أهل السنة: (أهل الأثر والتفقه فيه) على حد تعبيره، وإلا فقد نقل هو إجماع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار على أن أهل الكلام أهل بدع وزيف، ولا يعدون في العلماء، فلا يصح - من ثم - الطعن بخلافهم فيما حكاه من الإجماع. انظر =

خصالا^(١)، فإن تلميذه وبلديّه ابن حزم ينقل إجماع أهل السنة على أن الإمامة جائزة لمن غيره أفضل منه^(٢)!! وكأن ابن عبد البر أراد حال ابتداء البيعة اختياراً، وأراد ابن حزم ما سوى ذلك، من استيلاء المفضل، أو العهد له من سلفه، أو ما أشبه ذلك.

رأى الطبري

وأما ابن جرير فقد روى في «تهذيب الآثار» حديث جعل عمر الأمر شورى في الستة بعده: «إن عَجَل بى أمر، فالشورى في هؤلاء الستة الذى^(٣) توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، يعنى: عثمان وعلياً، والزبير وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص». ثم قال، عقب روايته وبيان صحته: «والذى فى هذا الخبر من الفقه، الدلالة على أن عمر كان من مذهبه أن أحق الناس بالإمامة، وأولاهم بعقد الخلافة، أفضلهم ديناً، وأنه لاحق للمفضل فيها مع الفاضل، ولذلك جعلها غير خارجة، من بعد مضيه لسبيله، فى نفر الستة الذين سماهم، الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، إذ لم يكن فيمن ينسب إلى الإسلام يومئذ، بعده، أحد له منزلتهم فى الدين، فى الهجرة والسابقة والفضل والعلم، والمعرفة بسياسة الأمة»^(٤).

ووجه دلالة الأثر على ما يراه ابن جرير، أن عمر إنما أدخل هؤلاء الستة فى

= جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/٩٥-٩٦). وانظر خلاف الأصوليين فى

الاعتداد بخلاف المبتدع للإجماع، فى: البحر المحيط (٤/٤٦٧-٤٦٩).

(١) نقله ابن الوزير فى العواصم (٨/١٦٣) عن التمهيد لابن عبد البر.

(٢) الفصل (٤/١٢٦).

(٣) الذى: كذا هنا، وفى البخارى (١٣٩٢): الذين.

(٤) تهذيب الآثار - مسند عمر - (٢/٩٣١).

الشورى، للمشاورة والاجتهاد في النظر للأمة، إذ كان واثقا عند نفسه منهم بأنهم لا يألون للمسلمين نصحا فيما اجتمعوا عليه، وأن المفضلون منهم لا يُترك والتقدم على الفاضل، ولا يسلم له طلب منزلة غيره أحق بها منه». وبهذه النظرة لصنيع عمر رضي الله عنه يجيب ابن جرير على من يستشكل استدلاله بالقصة، ويرى أن عمر وغيره لا يشكون في أن هؤلاء الستة متفاوتون في الفضل، ليسوا جميعا على رتبة واحدة منه، «وقد أدخل المفضلون فيهم، وفي إدخاله إياهم معهم الدلالة الواضحة على أنه قد كان من مذهبه أن المفضل قد يصلح للخلافة، ويجوز له عقد الإمامة»^(١).

وليس ذلك مذهب عمر رضي الله عنه وحده فيما يرى ابن جرير، بل «على ذلك من المنهاج مضى من كان قبله، وخلفه الراشدون من الأئمة بعده»، ثم استشهد لذلك بقول الصديق، لما كلمه طلحة في استخلافه عمر رضوان الله عليهم جميعا: «... إذا لقيت ربي فسألتني قلت: استخلفْتُ على أهلك خيرَ أهلك»، وقول ابن مسعود فيبيعة عثمان: «ما ألونا عن أعلاها ذا فوق، فبايعناه»^(٢).

قال ابن جرير، بعد شرح مفردات هذا الأثر: «وإنما أراد عبد الله، فيما نرى بقوله هذا، والله أعلم: ما قَصَرْنَا ولا تركنا الجهد عن الاختيار للأمة أفضلها وأرفعها سهما ونصيبا وحظا في الإسلام والسابقة والخير والفضل»^(٣).

وتقرير ابن جرير لكون ذلك منهاج الخلفاء الراشدين قبل عمر، وبعده، مما يدلنا على أن ذلك هو اختيار ابن جرير نفسه في حقيقة الأمر، لأن أهل الشورى والخلفاء من باب أولى كانوا للناس أئمة وقادة، والناس لهم تبع يرضون بمن

(١) انظر: التهذيب (٢/ ٩٣١-٩٣٢).

(٢) انظر: السابق (٢/ ٩٢٥-٩٣١). والفوق، جمع فُوقَة، وهى مجرى الوتر فى السهم، ومراده: ما قَصَرْنَا عن اختيار أرفع الأمة سهما فى اختياره. انظر شرح ابن جرير لغريب هذا الأثر فى التهذيب (٢/ ٩٣٥-٩٣٨).

(٣) انظر: السابق (٢/ ٩٢٥-٩٣١).

اختاروه لأمرها، وقلدوه سياستها^(١).

والواقع أننا أمام مسألتين يثيرهما بحث ابن جرير لهذه القضية:

أما أولاهما: فدعوى أن ذلك مذهب عمر رضي الله عنه، ثم دعوى أن ذلك منهاج الخلفاء الراشدين طُرًا، وهذا أمر لا يكاد يسلم لابن جرير استدلاله عليه، والإشكال الذي أورده على نفسه ما زال باقيا، وجوابه عنه لا يخفى ما فيه من مصادرة، فإن الجزم بأن المفضول من الستة لا يُترك والتقدم على الفاضل، يبنى على أن يُثبت - أولا - أنه لم يكن من مذهبهم جواز تقديم المفضول مع وجود الفاضل، وهذا هو عين مورد النزاع، ومحل البحث، وحينئذ لا يمكن الاستدلال بهذه القصة على ما ادعاه ابن جرير.

بل لو قيل: إنها تدل على الرأي الآخر، أعنى: جواز إمامة المفضول، لم يكن بعيدا. ولهذا كان عامة من يرى ذلك القول الثاني يستدل بصنيع عمر على أن ذلك كان مذهبه، وعلى أنه الراجح في المسألة^(٢). لاسيما وقد قال عمر في أهل الشورى: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًا لوليته عليكم^(٣).

وبنفس الوجهتين المتباينتين في النظر إلى صنيع عمر رضي الله عنه في الشورى، ينظر الفريقان أيضا إلى قوله لأبي عبيدة، في قصة البيعة: «هلم أبياعك!! فقال أبو عبيدة: ما رأيت منك هفوة في الإسلام قبلها، أتبايعني وفيكم الصديقُ ثاني اثنين^(٤)؟!؟» فإذا استدل ابن جرير على مذهبه بقول أبي عبيدة، ورأى أن ذلك

(١) انظر: السابق (٩٣٢/٢)، وانظر أيضا: التفسير (١٧١/١) ط شاكر.

(٢) انظر: الفصل (١٢٧/٤)، الانتصار، لابن أبي الخير (٨٢١/٣)، وما نقله ابن حجر عن ابن بطال، في: فتح الباري (٨٦/٧) شرح الفقه الأكبر، للقارى (١٨٤).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢٢٧/٤) وانظر: أصول الدين، للبغدادى (٢٩٤)، والإمامة العظمى للدميجي (٢٧٧).

(٤) تهذيب الآثار (٩٢٦/٢) وانظر: المغنى لعبد الجبار (٢٠/٢١٩)، الانتصار لابن أبي

حكم عام، فلمخالفه أن يستدل بقول عمر، وعزمه على مبايعة أبي عبيدة، مع أن الصديق - على الأقل - أفضل منه بيقين، وله أيضا أن يقول إن ما جرى واقعة عين، وكلام أبي عبيدة يحتمل الخصوصية بالنظر إلى الصديق - رضى الله عنهم جميعا - فلا يتسنى قياس غيره عليه. ويقوى ذلك أيضا أن أبا عبيدة الذى قال هنا ما قال فى بيعة الصديق، عاد فعتب على أبي بكر استخلافه لعمر، مع أن عمر كان أفضل الناس، بعد أبي بكر. وإن عاد ابن جرير ليستدل بقول أبي بكر: «استخلفت على أهلك خير أهلك»، عارضه مخالفه بما رواه هو أعنى: ابن جرير - فى قصة السقيفة من قول أبي بكر للمجتمعين: «هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا»^(١).

والحاصل أنه لا يكاد يسلم لابن جرير دليل على مذهبه فى المسألة، إلا وهو مُعارضٌ بمثله، حتى بالغ ابن حزم، فقال: «وما نعلم لمن قال: إن الإمامة لا تجوز إلا لأفضل من يوجد حجة أصلا، لا من قرآن ولا من سنة ولا من إجماع، ولا من صحة عقل، ولا من قياس ولا من قول صاحب، وما كان هكذا، فهو أحق قول بالاطراح»^(٢).

على أنه قد يبدو للباحث أن عدم الاتفاق على ماهية «الفضل» الذى يقع فيه التفاوت، كان له أثر كبير فى اتساع الخلاف حول هذه المسألة، وتباين الآراء فيها، حتى حُكِيَ الإجماع - إجماع أهل السنة فقط - على القول ونقيضه!! فالقول بأن الأفضل هو الأكثر ثوبا، أو الأرفع منزلة فى الآخرة^(٣)، يجعل معرفة ذلك

= الخير (٣/ ٨٢١).

(١) تاريخ الطبرى (٣/ ٢٢١) وانظر: صحيح البخارى، كتاب الحدود، باب رجم الحُبلى ح (٦٨٣٠) وانظر: أيضًا فتح البارى (١٢/ ١٦٢).

(٢) الفصل (٤/ ١٢٦).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (٧٦٦)، المغنى (٢٠/ ب/ ١١٦)، الاقتصاد للغزالي (١٥٣)، نظام الخلافة لمصطفى حلمي (٤٣٩).

«الأفضل» ضرباً من المحال الممتنع، على حد تعبير ابن حزم، إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالسمع^(١)، وأين السمع في كل خليفة يريد الناس اختياره؟! ثم هو كذلك نظر إلى وجه واحد من وجوه استحقاق الإمامة والأهلية لها، فهو تفضيل وجهي لا مطلق، ومن أجل ذلك المفهوم للأفضل قال من قال: إن المفضول الأقل علمًا وعملاً، ربما كان أعرف بمصالح الإمامة ومفاسدها، وأقدر على القيام بمواجهها، من الفاضل^(٢).

والواقع أنه ينبغي النظر إلى ما يكون به التفاضل في ضوء مجموع الأوصاف التي تؤهل صاحبها لاستحقاق ذلك المنصب الخطير، والنهوض بأعبائه، أما النظر إليه باعتبار كثرة الثواب، أو الرفعة في الآخرة (!!)، فهو مما يخرج بالبحث عن مجاله.

وهذا ما أشار إليه الإمام أحمد، لما سئل عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، وأحدهما قوى فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يُغزى؟ فقال: «أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين، يغزى مع القوى الفاجر»^(٣). وهذا لأن الأصلح في كل ولاية بحسبها، «فلو فرضنا مستجمعا للشرائط بالغا في الورع الغاية القصوى، وقدّرنا آخر أكفأ منه، وأهدى إلى طريق السياسة والرياسة، وإن لم يكن في الورع مثله، فالأكفأ أولى بالتقديم»^(٤).

لكن ربما نظرنا إلى حكم الوقت، وما تقتضيه أحوال الدولة، فيقدم الأفقه - مثلاً - حين انتشار البدع واختباط الآراء، ويقدم الأشجع الأحزم عند ثوران

(١) انظر: الفصل (١٢٧/٤) وقارن: شرح الأصول، والاقتصاد، الموضعين السابقين.

(٢) انظر: شرح الفقه الأكبر للقارى (١٤٧).

(٣) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية ص (٢٨).

(٤) الغيathi (١٤١-١٤٢)، وانظر أيضاً: السياسة الشرعية ص (٢٥) وما بعدها.

الفتن، وتربص الأعداء، وهكذا^(١).

ويبقى النظر فيما إذا تغلب المفضول بشوكته، أو عقدت له البيعة دون الفاضل، هل تصح بيعته أم لا؟ فهذا ينبغي على الخلاف السابق، وعامة أهل السنة يقولون بصحة بيعته، إما لجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل^(٢)، وإما احتمالاً لمفسدة تولى المفضول، وهى يسيرة فى جانب ما ينجم عن عزله من فتن وثورات، وإراقة دماء، وانتهاك حرمان^(٣).



(١) انظر: الأحكام السلطانية (٧)، الغياثي (١٤٢).

(٢) انظر: الأحكام السلطانية (٨) شرح الفقه الأكبر للقارى (١٤٧-١٤٨).

(٣) انظر: التمهيد للباقلانى (١٨٤)، الغياثي (١٤١)، الاقتصاد للغزالي (١٥٠)، الاعتصام

للساطبي (١٢٧/٢-١٢٩).

المبحث الثاني

تولية الإمام، والخروج عليه

تولية الإمام:

يستدل ابن جرير بنفس القصة السابقة، قصة الشورى وبيعة عثمان، على بطلان مبدأ الوصية، الذي بنى عليه الشيعة مذهبهم في الإمامة^(١)، والدلالة على أنها مصلحة من مصالح الخلق، يجتهدون لأنفسهم - في اختيار من يستكمل شرائطها. يقول: «وفيه أيضًا الدلالة على بطول ما قاله أهل الإمامة من أنها في أعيان وأشخاص قد بُيِّنَتْ، ووقَفَ عليها رسولُ الله ﷺ أمته فلا حاجة بهم إلى التشاور فيمن تقلده أمرها، وتولية سياستها، لبيان رسول الله ﷺ لهم أهلها المستحقين لها في كل وقت وزمان بأعيانها»^(٢). ووجه الدلالة على ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لو كان عندهم بذلك نص في شخص بعينه، لما كانت بهم حاجة إلى التشاور فيمن يكون له الأمر. وفي جعل عمر رضي الله عنه الأمر شورى في السنة، و«تسليم جميعهم له ما فعل، ورضاهم بما صنع، وتركهم النكير عليه، أيبُنُ البيان، وأوضح البرهان على أن القوم لم يكن عندهم من رسول الله ﷺ في شخص بعينه عهد في ذلك الوقت...»^(٣).

وهذا الذي يقرره ابن جرير هنا، هو أمر متفق عليه بين أهل السنة: أن رسول الله ﷺ لم ينص على أحد من هؤلاء الستة، ولا من غيرهم، ولم تكن خلافة عثمان

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٤٦)، مقدمة ابن خلدون (١٧٥-١٧٦)،

النظريات السياسية لأحمد صبحي (١٤٩-١٥٢).

(٢) تهذيب الآثار (٢/٩٣٢). وقوله: بأعيانها، كذا في الأصل، ولعلها: بأعيانهم.

(٣) تهذيب الآثار (٢/٩٣٢).

ولا أحد بعده بنص ولا وصية، وكذلك كانت خلافة عمر باستخلاف الصديق له، رضى الله عنهم جميعاً.

وإنما اختلفوا فقط في خلافة الصديق: هل كان فيها نص بتعيينه أم لا؟ ولعل ابن جرير يلمح إلى ذلك الخلاف، وما يختاره منه بقوله: «في ذلك الوقت»، كما نشير إليه في المبحث التالى إن شاء الله.

وإذا بطل القول بالنص - فيما عدا أبي بكر على الأقل - بإجماع أهل السنة، فإن ابن جرير يعود ليستنبط من قصة «الشورى» وبيعة عثمان رضي الله عنه أنه لا يشترط لصحة بيعة الإمام إجماع الأمة، بل ولا إجماع أهل الحل والعقد؛ «وذلك أن عمر أفرد بالنظر في الأمر الستة، ولم يجعل لغيرهم فيما فعلوا وعقدوا من عقد الاعتراض، وسلم ذلك من فعله جميعهم، فلم ينكره منهم منكر...».

ثم إن «الجماعة الموثوق بأديانهم ونصيحتهم الإسلام وأهله، إذا عقدوا عقد الخلافة لبعض من هو أهلها، عن تشاور منهم واجتهاد ونظر لأهل الإسلام، فليس لغيرهم من المسلمين حل ذلك العقد، ممن لم يحضر عقدهم وتشاورهم، إذ كان العاقدون قد أصابوا الحق فيه»^(١). والجماعة الذين يشير ابن جرير إليهم هنا أنهم الموثوق بأديانهم ونصيحتهم الإسلام وأهله، هم الذين عَرَفَهُمْ غَيْرُهُ من الفقهاء والمتكلمين بأنهم «أهل الحل والعقد».

ولاشك أن من نظر إلى بيعة الخلفاء جميعاً، أبي بكر فمن بعده، علم أن إمامته لم تكن توقف على بيعة جميع أهل الإسلام، بل ولا حتى جميع أهل الحل والعقد، في سائر الأقطار، ولو اشترط ذلك لكان تكليف ما لا يطاق، على حد تعبير ابن حزم^(٢). ولهذا قطع الجويني بأن «الإجماع ليس شرطاً، بالإجماع»^(٣).

(١) السابق (٢/٩٣٢-٩٣٣).

(٢) الفصل (٤/١٢٩).

(٣) الغياني (٨٥).

وحيث سقط اشتراط الإجماع، فكذلك مَنْ شرط لصحة البيعة عددًا معينًا من أهل الحل والعقد لا تحصل إلا به، فإنما هو تحكم محض وليس واحد من أقوالهم بأولى من الآخر. والمعتبر فى ذلك أن تحصل للإمام بيعة من بايعه، شوكةً وعصيةً تنظم له عقد الملك، وتُسَلِّس له قياد الأمور، بحيث لو فرض ثورانُ خلاف لما غلب على الظن أن تُخَصَّد شوكة الإمام، أو يفشل أمره. وهذه الشوكة، وإن كانت تحصل عادة بموافقة جمهور أهل الحل والعقد، لو قُدِّر حصولها بمبايعة رجل واحد مرموق، كثير الأتباع والأشياء، صحت بيعة الإمام وتمت إمامته.

وقد غنى الجوينى بتقرير هذه الفكرة والانتصار لها، وتبعه عليها تلميذه الغزالى، وقررها ابن تيمية، وحكاها عن أهل السنة^(١)، وهذه الفكرة هى أصل فكرة العصية عند ابن خلدون، والتى جعل دوران الملك عليها^(٢).

وبقى هنا أن نشير إلى أن هذه الطريق هى إحدى طريقين تنعقد بهما إمامة الإمام عند أهل السنة، والثانية هى استخلاف من قَبْلَهُ له. أما إمارة الاستيلاء فهى حالة استثنائية، وإنما لزمّت طاعة الإمام - حينئذ - تَسْكِينًا للفتنة، ودفعًا لأعلى المفسدتين بارتكاب أدناهما^(٣).

فإذا بايع أهل الحل والعقد الإمام العدل، مرضى السيرة، وتبعهم الناس، صارت هذه الجماعة، جماعة المسلمين مع إمامهم «العدل»، هى الجماعة التى يجب لزومها، ويحرم مخالفتها والخروج عليها. ويجب معاونة الإمام فى رد من شق العصا إلى حظيرة الجماعة.

(١) انظر: الغياثى (٨٧-٨٩) وأيضاً: الاقتصاد للغزالى (١٤٩-١٥٠)، منهاج السنة لابن تيمية (٥٢٧/١).

(٢) انظر: المقدمة (١٣٩) وما بعدها، أيضاً: نظام الخلافة (٤٥٨) وما بعدها، وقارن: مقدمة تحقيق الغياثى (٢٥).

(٣) ولم نعرض بالبحث لهاتين المسألتين، لعدم تعرض ابن جرير لهما.

وهذه الأحكام يقررها ابن جرير عند بحثه اختلاف أهل العلم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم - بلزوم الجماعة، ونفيه عن الفرقة، وصِفَةُ الجماعة التي أمرنا بلزومها^(١). فحكى عن بعضهم أن الجماعة هنا هي السواد الأعظم من أهل الإسلام، وما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق الذي لا يجوز خلافه؛ فمن خالفهم في حكم من الأحكام، أو خالفهم في إمامهم القيم بأمرهم وسلطانهم، فهو للحق مخالف، وروى عن آخرين أن الجماعة هي جماعة العلماء...، وعن آخرين أنها جماعة الصحابة الذين قاموا بالدين بعد مضيهِ ﷺ...، وقال آخرون: الجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بلزومها هي جماعة أهل الإسلام، ما كانوا مجتمعين على أمر فوجب اتباعها، فإذا كان فيهم مخالف منهم فليسوا بمجتمعين، ويجب تعرُّف وجه الصواب فيما اختلفوا فيه. ثم قال:

«والصواب في ذلك أنه أمر منه (بلزوم إمام جماعة المسلمين، ونهى عن فراقهم فيما هم عليه مجتمعون من تأميرهم إياه، فمن خرج من ذلك فقد نكث بيعته، ونقض عهده بعد وجوبه، [لأن فراقهم لا يعدو إحدى حالتين: إما للنكير عليهم في طاعة أميرهم والطعن عليه في سيرته المرضية لغير موجب، بل بالتأويل في إحداث بدعة في الدين، كالحرورية التي أمرت الأمة بقتالهم، وسماها النبي ﷺ مارقة من الدين، وإما لطلب إمارة من انعقاد البيعة^(٢) لأمر الجماعة]. وقد قال ﷺ: «من جاء إلى أمتي ليفرق جماعتهم فاضربوا عنقه، كائنا ما كان»^(٣).

(١) لم أقف على هذا البحث في شيء من كتب ابن جرير التي بين أيدينا، وإنما نقله عنه ابن بطال في شرحه للبخاري، والشاطبي في «الاعتصام»، ولخصه ابن حجر في «الفتح».

(٢) قوله: وإما لطلب...، هكذا وردت في الاعتصام، ولا تخلو من شيء.

(٣) إلى هنا انتهى ما نقله ابن بطال في شرحه - مخطوط (٤/ق ١٥٦)، وذكر الشاطبي البحث

في هذا الخلاف (٢/٢٦٠-٢٦٥) بنحو ما ذكر الطبري، ثم أعقبه باختيار الطبري، وما بين المعكوفين منه (٢/٢٦٠)، وانظر فتح الباري (١٣/٤٠-٤١). والحديث المذكور

رواه مسلم بنحوه رقم (١٨٥٢).

وإذا كان ابن جرير لم يشترط إجماع أهل الإسلام، بل ولا إجماع أهل الحل والعقد لصحة بيعة الإمام، فإنه هنا يعتبر الأكثرية (السواد الأعظم) في مفهوم الجماعة التي يجب لزومها، ويحرم الخروج على إمامها، يقول:

«وأما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضى بتقديم أمير كان المفارق لها ميتة ميتة جاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصارى^(١)، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهم السواد الأعظم». قال: «وقد بين ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فروى عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر حين طعن لصهيب: صَلِّ بالناس ثلاثاً، وليدخل عَلَى عثمانُ وَعَلِيٌّ وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن، وليدخل ابنُ عمر، وليس له من الأمر شيء؛ فقم يا صهيب على رءوسهم بالسيف، فإن بايع خمسةً ونكص واحد، فاجلد رأسه بالسيف، وإن بايع أربعةً ونكص رجلان فاجلد رءوسهما، حتى يستوثقوا على رجل»، قال: «فالجماعة التي أمر رسول الله ﷺ بلزومها وسمى المنفرد عنها مفارقاً لها نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه، وأمر صهيباً بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف، فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته، وقلة العدد المنفرد عنهم»^(٢).

وإذا كان هذا هو مفهوم الجماعة عند ابن جرير، وحكم تاركها، فإن من

(١) نقل ابن جرير عن أبي مسعود رضي الله عنه القول الأول، وانظر: الاعتصام (٢/٢٦١).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢/٢٦٤-٢٦٥) وختمه بأن الخبر الذي فيه: لا تجتمع الأمة على الضلالة، معناه أن الأمة لا تفضل جميعاً عن الحق حتى لا يوجد من يعلمه، ثم قال الشاطبي: «هذا تمام كلامه، وهو منقول بالمعنى، وتحرف في أكثر اللفظ». والرواية التي ذكرها هنا في قصة الشورى عزاها ابن حجر إلى ابن أبي شيبه والحاثر وابن سعد، بلفظ: «فإذا اجتمعوا على رجل، فمن خالف فاضربوا عنقه»^١. هـ فتح الباري (٧/٨٤، ٧٦) وسكت عنها، وليس فيها أيضاً الخلاف بين الستة. وانظر: منهاج السنة، لابن تيمية (١٧٣/٦) وما بعدها، حيث ينكر صحة ذلك.

خرج عن هذه «الجماعة»، ونازع السلطان حقه، خارجي يجب على المسلمين معونة إمامهم «العدل» على دفعه، ما أطاقوا ذلك؛ ومن ذلك أن يخرج «خارجي» من غير قريش، ينازع الإمام «القرشي» الإمارة التي هي حقه. يقول بعد حديثه عن شرط «القرشية»:

«فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن من ادعى الإمارة وحاول ابتزاز جميع قريش الخلافة، فهو للحق في ذلك مخالف، ولقريش ظالم، وأن على المسلمين معونة المظلوم على الظالم، إذا دعاهم إلى الحق لمعونة المظلوم ودفع الظالم عنه، ما أطاقوا. وإذا كان ذلك كذلك فلا شك أن الخوارج من غير قريش»^(١). وهكذا الحكم في القرشي إذا نازع الإمام الذي تمت بيعته، فهو ظالم، يجب معونة الإمام عليه.

وأما حيث يكون الإمام أو نائبه ظالماً لأحد «الرعية» فخرج عليه المظلوم يريد دفع ظلامته، حيث لم يجد بُدّاً لدفعها من الخروج، فهنا يجب على المسلمين نصرته ذلك المظلوم، حتى ينتصف من ظالمه. يقول:

«... إلا أن يكون خروجه عليه بظلم رُكِبَ منه في نفس أو أهل أو مال، فطلب الإنصاف فلم ينصف، فيجب على المسلمين حينئذ الأخذ على يد إمامهم المرضية إمرته عليهم لإنصافه من نفسه، إن كان هو الذي ناله بالظلم، أو أخذ عامله بإنصافه، إن كان الذي ناله بالظلم عاملاً له، ثم يكون على الخارج عليه، لما وصفنا أن يفى إلى الطاعة، طاعة إمامه، بعد إنصافه إياه من نفسه أو من عامله، فإن لم يفى إلى طاعته حينئذ، كان على المسلمين هنالك معونة إمامه «العادل» حتى يثوب إلى طاعته»^(٢).

إن هذه الفكرة عند ابن جرير، فكرة إيجاب نصرته المظلوم على الظالم، أي كان

(١) التبصير (١٨٥).

(٢) التبصير (١٥٩).

المظلوم أو الظالم، هي نفس الفكرة التي بنى عليها موقفه من «القتال في الفتنة». وهو موضع تشبه فيه الأدلة، وتتعارض على الناظر، وتتفاوت فيه اجتهادات العلماء والمجاهدين^(١).

وقد بحث ابن جرير هذه القضية، وحكى الخلاف حولها عند بيانه لمعنى قول النبي ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى خير من الساعى، ومن تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذاً فليعذ به»^(٢). وهل المراد بذلك كل فتنة بين المسلمين، أو بعض الفتن؟ وإذا كان المعنى به كل الفتن، فكيف نهض، فيما مضى من الفتن خيار المسلمين؟ وإذا كان بعضها فأيتها المعنية به؟ وما الدليل على ذلك؟

وقد عوضنا ابن بطلال، رحمه الله، عن فقدان المصدر الذي تكلم فيه ابن جرير في ذلك، وهو تهذيب الآثار، في أغلب الظن، فحفظ لنا كلام ابن جرير برأيه نصاً بارعاً^(٣)، ساق فيه اختلاف السلف في المراد بذلك، هل هو جميع الفتن، وغير جائز للمسلم النهوض في شيء منها، فإذا استسلم للقتل إن أريدت نفسه، ولم يدفع عنها عند بعضهم، وإما اعتزل، فإن أريدت نفسه دفع عنها؟ أو الواجب في ذلك معونة الحق وقتال المخطئ حتى يرجع إلى حكم الله؟ أو الفتنة المأمور باعتزال القتال فيها هي حيث لا يكون للمسلمين إمام يأخذ للمظلوم حقه من الظالم؟! ثم أعقب ابن جرير ذلك بقوله:

«الفتنة في كلام العرب الابتلاء والاختبار، فقد يكون ذلك بالشدة والرخاء

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٤/٤٤٢).

(٢) الحديث رواه البخاري - الفتن (٧٠٨١)، مسلم - الفتن (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) بلغ هذا النص أكثر من أربع صفحات من المخطوط (٤/١٥٣-١٥٥ب)، وهو في إحدى عشرة صفحة من المطبوع (١٠/٢٠-٣٠)، وعليه اعتمدت في نقل النص.

والطاعة والمعصية. و [لما]^(١) كان حقا على المسلمين إقامة الحق ونصرة أهله، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾^(٢). [الحج: ٤١]. كان معلوماً أن من أعان في الفتنة فريق الحق على فريق الباطل، فهو مصيب أمر الله تعالى...». وبعدها يقرر رأيه، ويرد على مخالفه من النظر، يقول: إن الحديث السابق «غير معنيّ به القتال الذي هو معونة المسلمين للمحق، والقتال الذي يكون من المسلمين لأهل السفه والفسق، للأخذ على أيديهم ومنعهم من السعي في الأرض بالفساد». وإنما «هذه حالة لها ثلاث منازل:

أحدها: أن يكون الفريقان المقاتلان مبطلين، وسائر المسلمين مقهورون بينهما^(٣)، لا طاقة لمن أراد الأخذ على أيديهما على النهوض في ذلك، فإن هو نهض عرّض نفسه للهلاك، ولم يرجُ إصلاحًا، فهذه حالة هو فيها معذور بالتخلف، والسلامة له في الهروب وكسر السيوف^(٤).

والحالة الثانية: أن يكون أحد الفريقين مخطئا والآخر مصيبا، وأمرهما مشكل على كثير من الناس، لا يعرفون المحق فيها من المبطل، فمن أشكل عليه

(١) كلمة (لما) ليست في الأصل، واستظهرت زيادتها ليكون قوله «كان معلوما...» جوابا للشرط.

(٢) كذا وردت الآية، وموطن الشاهد منها قوله تعالى: ﴿وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، لكنه لم يذكر في الأصل.

(٣) في الأصل: مقهورين، والصواب ما أثبت.

(٤) سبق أن علق ابن جرير بإيجاب دفع الظالم ومعونة المظلوم، على الطاقة، وكررها أيضا في إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال بعد حكايته الخلاف في معنى حديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند ملك جائر»: «والصواب: أن الواجب على كل من رأى منكر أن ينكره إذا لم يخف على نفسه عقوبة لا قبل له بها»، كذا نقله ابن بطال (١٠/٥٠-٥١) - مطبوع، ولخصه ابن حجر (٥٧/١٣).

أمرها، فوجب عليه اعتزال الفريقين ولزوم المنازل، حتى يتضح له الحق، ويتبين الحق منهما، وتنكشف عنه الشبهة، فيلزمه من معونة أهل الحق ما لزم أهل البصائر.

وأما المنزلة الثالثة: «فأن يكون مخرج الكلام كان في خاص من الناس...». ثم قال ابن جرير تبييناً لمذهبه: «ولو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل وكسر السيوف، لما أقيم لله تعالى حق، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ونسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديهم عنهم، بأن يقولوا: هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكف الأيدي والهرب منها، وذلك مخالف لقوله ﷺ: «خذوا على أيدي سفهائكم»^(١). ولقوله: «مثل القائم والمتهك والمدّهن في حدود الله مثل ثلاثة نفر اصطحبوا في سفينة، فقال أحدهم: نحفر لناخذ الماء، وقال الآخر: دعه فإنما يحفر مكانه، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا جميعاً...»... الحديث^(٢).

وأما فعل الصحابة واختلافهم في النهوض في الفتنة أو القعود عنها، فإنما كان لأنها قضية اجتهادية، سبيلها سبيل كل ما احتاج من أمر الدين إلى الاستنباط بالعقول والاستخراج بالقياس، و«قعود من قعد عنها لما كان بتأويل، ونهوض من نهض فيها بمثله، رجا العالمون بالله للمصيب منهم الثواب الجزيل، وعذروا الخطي في خطئه؛ إذ كان خطؤه بالتأويل، لا بالخلاف للنص»، ثم صوب فعل من نهضوا فيها، واحتج به لصحة مذهبه^(٣).

(١) رواه الطبرى وغيره، وضعفه الألبانى. انظر: السلسلة الضعيفة ج - (٥) رقم (٢٢٨٤).

(٢) أصله فى البخارى (٢٤٩٣، ٢٦٨٦)، ولم أقف على اللفظ المذكور، وانظر: فتح البارى (٣٤٨/٥).

(٣) ابن بطال (١٠/٢٨-٣٠) المطبوع.

والواقع أن النظر إلى «القتال في الفتنة» و«الخروج على أئمة الجور» باعتباره فقط نُصرةً للمظلوم، ودفعاً للظالم، لا يخلو من تسطيح للقضية، لا يتلاءم ومكانتها في التاريخ والفكر، وذلك يظهر بالنظر في أسبابها وآثارها.

فأما أسبابها فهي غالباً ما تكون مشتركة بين شهوة في منازعة السلطان سلطانه، وشبهة في دفع جوره، وإنكار ما يأتي من المنكر الذي يزيده ضخامة، ويزيد النفوس نفاراً منه شهوة المنازعة في النفوس^(١)، عين السخط تبدى المساويا. لكن لأن أسباب هذه الفتن تكون مشتركة، يرد على القلوب من الواردات ما يمنع من معرفة الحق أو قصده^(٢).

وأما آثارها، فلو سلمنا تمحُّض أسبابها للخير، وطلب المصالح الشرعية المعبرة، فيبقى النظر فيما تجره هذه الفتن والخوض فيها من مفاصد، تنغمر في لججها المصالح الموهومة. ومن تدبر أحوال الثوار، وتاريخ ثوراتهم، عرف أنه «قل من خرج على إمام ذي سلطان، إلا كان ما تولد عن فعله من الشر، أعظم مما تولد من الخير»^(٣).

ومن هذا الباب الذي افترضنا تمحُّضه لطلب المصالح الشرعية، ما يذكره ابن خلدون المؤرخ الفقيه، عن الثوار الذين يذهبون إلى القيام على أمراء الجور، وتغيير المنكر، من العامة والفقهاء، رجاء في الثواب عليه من الله (!!) قال: «فيكثر أتباعهم... وأكثرهم يهلكون في هذا السبيل، مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه»^(٤).

ولهذا استقر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة، للأحاديث الصحيحة الثابتة

(١) انظر: منهاج السنة (٤/٥٤٠-٥٤١)، وأيضاً: مقدمة ابن خلدون (١٤٣-١٤٤).

(٢) انظر: منهاج السنة (٤/٥٣٨).

(٣) السابق (٤/٥٢٧-٥٢٨).

(٤) المقدمة (١٤٤)، وانظر أيضاً: الإمامة العظمى للدميجي (٥١٤-٥١٨).

عن النبي ﷺ، ولأن الفاسد الناشئ من القتال في الفتنة، أعظم من فساد ظلم ولاية الأمر، فلا يُزال أخف الفسادين بارتكاب أعظمهما، ولا تُطلب أدنى المصلحتين بتفويت أعلاهما، كمن يبنى قصرًا ويهدم مِصرًا!! ولتقرّر ذلك المعنى صار أهل السنة يذكرونه في عقائدهم^(١).

أما آية الحجرات: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، وهي عمدة من قال بقتال المتأولين^(٢)، فليس فيها البدء بقتالهم، وإنما فيها الأمر بالإصلاح بين الطائفتين، وهو أمر لا يتأتى لمن كان مشاركاً في القتال. لكن إذا ركبت إحداهما متن اللجاج، وأبت الفئنة، فهنا يكون الأمر بقتال الباغية.

وأما الاستدلال بعمومات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، فهو مردود بالأدلة الواردة بخصوص النهي عن القتال في الفتنة، والأدلة الواردة في الصبر على جور الأئمة^(٣).

وكذلك قياس القتال في الفتنة أو الخروج على الأمراء، على وجوب دفع «من غصب امرأة نفسها للفجور بها»، أو من يُريد قتل رجلٍ ظلماً وعُدواناً، كما فعل ابن جرير^(٤)، هو قياس «فاسد الاعتبار» كما يقول الأصوليون، إذ هو

(١) انظر: منهاج السنة (٤/٥٢٩-٥٣٠). وانظر في نصوص الأئمة على ذلك في عقائدهم:

شرح السنة، للبرهاري (٤٧)، العقيدة الطحاوية، مع شرحها (٥٣٩-٥٤٤)، شرح أصول

أهل السنة، للالكائي (٢/١٦٧-١٧٦)، عقيدة السلف، للصابوني (١/١٢٩).

(٢) انظر: الفصل (٤/١٣٤) أحكام القرآن لابن العربي (٤/١٧١٧) وقارن: فتاوى ابن تيمية (٣٥/٥٦-٥٧).

(٣) القول بتقديم النص الخاص على العام، عند تقدير التعارض بينهما، هو قول جمهور الأصوليين. انظر البحر المحيط للزركشي (٣/٤١٠-٤١٢)، التعارض والترجيح عند الأصوليين، محمد الحفناوي (٣٣٨-٣٣٩).

(٤) انظر: ما نقله عنه ابن بطال في ذلك (١٠/٢٤-٢٥). وانظر حول فساد الاعتبار في

القياس: الإحكام للآمدي (٤/٧٢)، إرشاد الفحول للشوكاني (٢٣٠).

مصادم للأدلة الواردة بالأمر بالصبر على «جور الأئمة» و«استئثارهم بالأمر»، إلا أن يدْعُوا إقامة الصلاة، أو إقامة كتاب الله والحكم به، أو يظهروا كفرا بواحا، يَبَيِّنُ: «تسمع وتطيع للأمر، وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك»^(١)، «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم. وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل: يا رسول الله إلا فلا ننازدهم بالسيف؟ فقال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدا من طاعة»^(٢)، «لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا»^(٣).

وفي رواية: «ما قادكم بكتاب الله»^(٤). «بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان»^(٥).

ولذلك كان الحسن ينهى أباه عليه السلام عن ذلك، وكان أبو الحسن عليه السلام في آخر أمره، لما رأى ما صار إليه الأمر يقول: لله در مقام قامه عبد الله بن عمر وسعد ابن مالك، إن كان براً إن أجره لعظيم، وإن كان إثماً إن خطره ليسير، وكان

(١) رواه مسلم - الإمارة (٥٢-١٨٤٧) من حديث حذيفة عليه السلام، وأصله في البخاري - الفتن (٧٠٨٤).

(٢) رواه مسلم - الإمارة (١٨٥٥) من حديث عوف بن مالك عليه السلام، وعند مسلم أيضا (١٨٥٤): «لا ما صلوا».

(٣) رواه مسلم - الإمارة (١٨٣٨)، والنسائي - الجهاد (١٥٤/٧) من حديث أم الحُصَيْن الأحمسية عليها السلام.

(٤) هذا لفظ الحديث عند ابن ماجه - الجهاد (٢٨٦١) وعند الترمذي - الجهاد (١٧٥٨): «ما أقام لكم كتاب الله»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٥) رواه البخاري - الفتن (٧٠٥٦) مسلم - الإمارة (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت عليه السلام.

يقول «يا حسن يا حسن، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ إلى هذا، ودَّ أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة»^(١).

وهذا مما يبين رُجْحَانَ فعل من ترك القتال في هذه الفتنة، على فعل من شارك فيها، رضى الله عنهم جميعاً، وإن كان المختار في ذلك عند أهل السنة الكفَّ عما شجر بينهم^(٢).



(١) انظر: منهاج السنة (٢٠٩/٦).

(٢) انظر فتاوى شيخ الإسلام (٤٣٤/٤).

المبحث الثالث

خلافة الراشدين، وتفضيل الصحابة

يعتبر البحث فى إمامة الخلفاء الراشدين، وتفضيل الصحابة، أحد متممات البحث فى قضايا «الإمامة»، باعتباره نظرة تطبيقية «عملية» لما ذكر من شروط «الإمامة» و «كيفية تنصيب الإمام، وحكم «الخروج عليه». ثم استتبع ذلك البحث فى فضائل الصحابة بصفة عامة^(١).

إلا أن أهمية ذلك البحث الكبرى تنبع من كونه أحد الأصول الكبار التى تفرق بين أهل السنة والشيعة، لاسيما الرافضة منهم.

وقد عرض ابن جرير إلى بعض القضايا المتعلقة بذلك البحث، وجعلها أحد الأصول الكبار التى تدور عليها عقيدته «صريح السنة». ويبدو أنه كان ينظر إلى هذين الجانبين - النظرى والتطبيقى - فى بحث قضايا الإمامة، وارتباطهما معا فى النظر إلى تلك القضية؛ وذلك أنه على حين يرى فى «التبصير» أن أول اختلاف حدث بين الأمة، كان اختلافهم فى أمر الخلافة وعقد الإمامة، ويعرض للبحث فى «قرشية» الإمام، وحكم الخروج عليه، على ما ذكرناه من قبل، فإنه يقتصر فى «صريح السنة» على البحث فى هذا الجانب التطبيقى، عكس ما فعل فى «التبصير». ويمهد فى مقدمة رسالته لبحث ذلك بأنه «كان من قديم الحادثة بعد رسول الله ﷺ من^(٢) الحوادث التى تنازعت فيه^(٣) أمته، اختلافها فى أفضلهم

(١) انظر فيما سبق الإشارة إلى هذه العلاقة، وانظر أيضا ما ذكره الحافظ العلاتى حول ذلك، فى: تحقيق مُنيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة ص (٦٠).

(٢) ط الكويت: فى، والتصويب من مخطوط دار الكتب وطبعته الهند وبيروت.

(٣) فيه: كذا فى جميع النسخ، وأشار محقق طبعة بيروت (ص ٢١) إلى أن فى نسخة خطية: «فيها». ولعلها أقرب.

بعده عليه السلام وأحقهم بالإمامة وأولاهم بالخلافة»^(١). ثم إنه قال فى بيان متعقده فى ذلك :

«وأما القول فى اختلافهم فى أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فما جاء عنه صلى الله عليه وآله وتتابع على القول به السلف، وذلك ما حدثنى... عن جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله جل وعلا اختار أصحابى على جميع العالمين، سوى النبيين والمرسلين، واختار من أصحابى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله عليهم، فجعلهم خير أصحابى: القرن الأول والثانى والثالث ترى، والقرن الرابع فرداً»^(٢).

ثم قال ابن جرير :

«وكذلك نقول، فأفضل أصحابه صلى الله عليه وآله الصديق أبو بكر رضي الله عنه ثم الفاروق - بعده - عمر، ثم ذو النورين عثمان بن عفان، ثم أمير المؤمنين وإمام المتقين على ابن أبى طالب، رضوان الله عليهم أجمعين»^(٣).

وعلى الرغم من عدم صحة الحديث الذى اعتمد عليه ابن جرير هنا، فإن فضل أصحاب النبى صلى الله عليه وآله جملة على من سواهم^(٤)، وكذا تفاضلهم فيما بينهم،

(١) صريح السنة: ص (١٧) ط الكويت والمخطوط (ق ١٦٥).

(٢) الحديث رواه أيضاً: الأجرى فى الشريعة (١٢١٣) والخطيب فى تاريخ بغداد (١٦٢/٣) - كما عزاه إليه محققاً الشريعة «وصريح السنة». وهو حديث موضوع، كما ذكره الذهبى فى الميزان (١٥٦-١٥٧/٣) عن النسائى وغيره، وذكره ابن حبان فيما استنكر على عبد الله بن صالح، أحد رواة. انظر: المجروحين (٤١/٢). وذكره أيضاً ابن طاهر المقدسى فى: تذكره الموضوعات رقم (١٥٥). وقال الذهبى: «وقد قامت القيامة على عبد الله بن صالح بهذا الخبر» ١. هـ الميزان (١٥٦/٣).

(٣) صريح السنة (٢٣-٢٤) ط الكويت.

(٤) مذهب الجمهور أن فضل الصحابة لا يدانيه فضل لمن بعدهم، كائناً ما كان، وأن كل فرد من الصحابة أفضل ممن بعدهم. وقيل: إن التفضيل للمجموع. انظر: تحقيق منيف

ثابت بالكتاب والسنة والإجماع^(١). ثم هو كذلك مقتضى النظر الصحيح والفطرة السليمة؛ فإن الدين الذى يعجز أن يخرج للناس جيلا يحمل رسالته فى سموها، ويعيش معانيه، واقعيا عمليا، فى سُمُوقها، وهو فى أيام داعيه الأول، غَضَّةُ تعاليمه، حديثٌ عهدهم بخبر السماء، عن صنع ذلك فيما يستقبله من الزمان أعجز، وعن دعوة الناس إلى الإيمان والعمل به أعبأ^(٢).

والمسألة التى عنى بها ابن جرير بتقريرها فى هذا المبحث هى أن ترتيب الأربعة الخلفاء، رضى الله عنهم، فى الفضل هو على ما وقع من ترتيبهم فى الإمامة: أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلى. واستدل لذلك بالحديث الذى ذكره، وتتابع السلف على القول به. وقد ثبت أن أصحاب النبى ﷺ كانوا - على عين النبى ﷺ - يرتبون الثلاثة الأول فى الفضل. قال ابن عمر رضي الله عنهما: «كنا نخير بين الناس فى زمن النبى ﷺ فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، رضى الله عنهم»^(٣). وفى رواية: «ثم نترك أصحاب النبى ﷺ لا نفاضل بينهم»^(٤). والصحابى إذا قال: كنا نقول أو نفعل كذا، وأضافه إلى زمن الرسول ﷺ، فالصحيح أنه مرفوع^(٥)، وقد ورد فى بعض روايات الحديث ما يقطع برفعه إجماعا، وهو قوله

= الرتبة، للعلائى (٦٦) وما بعدها خاصة (٧٤) حيث جزم بأن الأول هو الحق.

وانظر أيضا: منهاج السنة (٦/٢٢٣-٢٢٧)، فتح البارى (٧/٨-٩).

(١) انظر الكتب المصنفة فى فضائل الصحابة مفردة أو ضمن كتب السنة. وانظر أيضا: رسالة

الثغر، للأشعرى (١٠٠-١٠١) العقيدة الواسطية لابن تيمية - مع شرح الهراس (١١٧)،

لوامع الأنوار، للسفارينى (٢/٣٧٧).

(٢) انظر: أبو الحسن الندوى: صورتان متضادتان... ص (٧-١١).

(٣) البخارى - فضائل الصحابة - رقم (٣٦٥٥).

(٤) البخارى - فضائل الصحابة - رقم (٣٦٩٧).

(٥) كذا قال النووى فى «التقريب»، وذكر السيوطى فى شرحه - تدريب الراوى - (١/١٥٠)

أنه الذى قطع به الجمهور من أهل الحديث والأصول. اهـ وجزم به الباجى فى: إحكام

في آخر الحديث: «فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره»^(١).

بل نفس قول الصحابي: كنا نفعل كذا، هو حكاية لإجماعهم عند بعض الأصوليين^(٢)، وكأنه لذلك، قال أيوب السخّتيّاني وغيره من الأئمة: «من قدّم عليّاً على عثمان، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»^(٣).

لكن كان بين السلف خلاف قديم في عثمان وعلى: هل يُقدّم عثمان، كما هو المشهور، أو يُقدّم على؟ أو يُتوقف؟ ثم استقر الأمر على تقديم عثمان، وانعقد الإجماع عليه^(٤).

ويبقى أن لقب «إمام المتقين» الذي ذكره لعلّ هنا، الأصل فيه حديث موضوع في فضائل على: «أنه سيد المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين». قال ابن تيمية: «هذا كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، وكل من له أدنى معرفة بالحديث يعلم أن هذا كذب موضوع... وذلك أن سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، هو رسول الله ﷺ باتفاق المسلمين»^(٥).

= الفصول (٣٢٠)، واقتصر عليه ابن قدامة في «الروضة» (١/٢٤١-٢٤٢)، ومثّل له بحديث ابن عمر المذكور.

(١) عزاها ابن حجر في الفتح (٧/٢٠) إلى الطبراني وخليفة بن سليمان في فضائل الصحابة، وعزاها السيوطي في «تدريب الراوي» (١/١٥١) إلى الطبراني وحده.

(٢) انظر: روضة الناظر (١/٢٤٢).

(٣) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٤/٤٣٥-٤٣٦). وأيوب هو: ابن أبي تيمية كَيْسَان، السخّتيّاني، الإمام أبو بكر البصري، ثقة ثبت حجة، من كبار الفقهاء العباد ٦٦هـ - ١٣١هـ انظر: التقريب، رقم (٦١٠).

(٤) انظر: الواسطية لابن تيمية (١١٨-١٢٠).

(٥) منهاج السنة (٧/٣٨٦-٣٨٧) وأيضاً: (٥/٧٨-٨٠)، والمنتقى منه، للذهبي (٤٩٧)، والسلسلة الضعيفة، للألباني رقم (٣٥٣)، معجم المناهي اللفظية، لبكر أبو زيد (١٤٦).

وأما ترتيب الصحابة في الخلافة، فقال عنه ابن جرير: «وأما أولى الأقوال بالصواب عندنا فيما اختلفوا فيه^(١): مَنْ أَوْلَى الصحابة بالإمامة، فنقول بما حدثني^(٢) . . . عن سَفِينَةَ مولى رسول الله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم بعد ذلك ملك». قال سَفِينَةُ: أمسك: خلافة أبي بكر سنتان، وخلافة عمر عشر، وخلافة عثمان اثنتا عشرة، وخلافة علي ست، قال: فنظرت فوجدتها ثلاثين سنة^(٣).

وحيث أثبت ابن جرير ما أجمع عليه أهل السنة من إمامة الخلفاء الراشدين جميعا، واحتج في ذلك بما ذكر، فإنَّ أهل السنة اختلفوا - فقط - في استخلاف أبي بكر رضي الله عنه: هل كان عن نصٍّ من النبي ﷺ بتعيينه لهذا المنصب، جليًّا كان أو خفيا، أو كانت خلافته باختيار المهاجرين والأنصار، وبيعتهم له؟

أما ابن جرير فقد نقل عنه ابن حجر الجزم بأن النبي ﷺ استخلف أبا بكر رضي الله عنه^(٤). وقد سبق ابن جرير إلى تلك المقالة بكرُّ ابن أخت عبد الواحد بن زيد^(٥)، ثم انتصر له، بعدهما ابنُ حزم، وبالع في تقريره^(٦)، وهو قول طائفة من الحنابلة وأهل الحديث، ورُوِيَ عن بعض السلف، كالحسن البصري وغيره^(٧).

(١) فيه: سقطت من المخطوط وطبعة الكويت، وأثبتها من طبعتي الهند وبيروت.

(٢) فنقول بما حدثني: اضطربت النسخ في هذه العبارة، والمثبت من المخطوط.

(٣) صريح السنة (٢٤) ط الكويت، والحديث رواه أبو داود - السنة - رقم ٤٦٢٢ - عون المعبود) والترمذي وحسنه - الفتن - رقم (٢٣٢٦) وغيرهما. وتتبع الألباني طُرُقَهُ ونقل تصحيحه عن جمع من الأئمة. انظر: السلسلة الصحيحة ج- (١) رقم (٤٥٩). وقوله: أمسك، يعني: إحييت.

(٤) نقل ذلك عنه في «الفتح» (٢٢٠/١٣) بواسطة ابن بطلال، ولم أره فيما وقفت عليه من كتاب ابن بطلال.

(٥) السابق نفسه، وأيضا: تفسير القرطبي (٢٦٨/١)، منهاج السنة (٤٨٧/١).

(٦) انظر: الفصل (٨٨-٨٩).

(٧) انظر: القرطبي (٢٦٨/١)، منهاج السنة (٤٨٦/١)، وأيضا: نظام الخلافة لمصطفى =

واحتجوا في ذلك بإجماع الناس على تسمية أبي بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ. قالوا: والخليفة هو الذي يستخلفه المرء، لا الذي يَخْلُفُهُ دون أن يستخلفه هو^(١). وذكر ابن حجر أن ابن جرير احتج أيضا بما أخرجه بسند صحيح من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم: «رأيت عمر يُجْلِسُ الناسَ، ويقول: اسمعوا لخليفة رسول الله ﷺ»^(٢).

وذهب عامة الفقهاء والمتكلمين إلى أن تولية أبي بكر رضي الله عنه كانت اختيارًا من الصحابة له، لا تعيينًا بالنص، حتى حكى النووي إجماع أهل السنة على ذلك. ومن أقوى أدلتهم على ذلك قول عمر رضي الله عنه لما قيل له: ألا تستخلف؟ قال: «إن أُسْتَخْلِفَ فقد استخلف من هو خير مني، أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني، رسول الله ﷺ»^(٣).

وأما احتجاج من قال بالنص، باشتقاق «الخليفة»، من حيث اللغة فهو مُعَارَضٌ بأن الخليفة، في اللغة أيضا، هو مَنْ جاء خلف آخر، وقام مقامه بعده، وإنما سُمِّيَتِ الخلافة خلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول، قائمًا مقامه^(٤). فكما يكون الخليفة: «فعليل» بمعنى: «مفعول»؛ يعني: أنه مستخلف ممن قبله، فكذلك يكون: «فعليل» بمعنى: «فاعل»، يعني: أنه خلف غيره^(٥). وهذا في الواقع هو نفس ما يقرره ابن جرير في معنى «الخليفة»، في «تفسيره»: «قيل

= حلمي (٣١-٣٣).

(١) انظر: الفصل (٤/٨٨).

(٢) فتح الباري (١٣/٢٢٠) وهذا في حقيقته يعود إلى الدليل الأول.

(٣) البخاري - الأحكام - رقم (٧٢١٨)، مسلم - الإمارة رقم (١٨٢٣)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: المقاييس، لابن فارس (٢/٢١٠)، المفردات للراغب (١٥٥)، القاموس المحيط (١٠٤٤).

(٥) انظر: منهاج السنة (١/٥١٦)، فتح الباري (١٣/٢٢٠).

للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خَلَفَ الذي كان قبله، فقام. بالأمر مقامه، فكان منه خلفا. يقال منه: خَلَفَ الخليفةُ، يَخْلُفُ خلافةً، وَخِلَيْفِي^(١).

ثم إن ما ذهب إليه ابن جرير هنا، فيما نقل عنه، من القول بالنص على أبي بكر رضي الله عنه معارض بما عارض هو به «أهل الإمامة» في قولهم بالنص على عليّ، من أنه لو كان عندهم نص في ذلك، ما تنازعوا في أمر الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولا احتاجوا إلى التشاور فيمن يكون الخليفة بعده، وهل كان يمكن أن يذهب علم ذلك عن الأنصار بجملتهم، ثم عن كل من حضر الأمر من المهاجرين، وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة؟^(٢).

ومع أن القول بأن خلافة أبي بكر رضي الله عنه إنما كانت بيعة من الصحابة، عن اختيارٍ منهم له، هو قول جمهور أهل السنة، كما أسلفنا، فإنهم يقولون، مع ذلك، إن النبي صلى الله عليه وسلم قد دل أمته على استخلاف أبي بكر دلائلٍ عديدةً قوية، بقوله وفعله، وأخبر عنها إخبار راض بها، حامد لها، وعلى ذلك المعنى يحملون كل ما احتج به القائلون «بالنصبة» من الأخبار^(٣).



(١) التفسير (٤٤٩/١) ط شاكر.

(٢) وهذا مما بين ضعف جواب ابن حزم عن أثر عمر، وما جاء نحوه عن عائشة، بأنهما لم

يكن عندهما علم بذلك. انظر: الفصل (٨٩/٤).

(٣) انظر: منهاج السنة (٥٠٨/١) فتح الباري (٢٢٠/١٣).

ميراث النبي ﷺ:

ثم إشارات وردت ضمن ما نقله ابن بطل عن ابن جرير من النصوص، تتعلق بمسألة «ميراث النبي» ﷺ وهي أحد ما تعلق به الرافضة للطعن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، حيث عمل فيها - بالحق - بقول النبي ﷺ: «لا نُورَث، ما تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»^(١). وقضى فيه بذلك على العباس وفاطمة لما جاءه يسألانه ميراث النبي ﷺ. قال ابن جرير: «وفيه من الفقه أن أبا بكر قضى على العباس وفاطمة بقول رسول الله ﷺ: «لا نورث». ولم يحاكمها في ذلك إلى أحد غيره».

ثم إن ابن جرير جعل فعل أبي بكر ذلك أصلاً عاماً في حكم الحاكم بعلمه، يحتذى به مَنْ بعده. يقول: «فكذلك الواجب أن يكون للحكام والأئمة الحكم بعلومهم، لأنفسهم كان ذلك أو لغيرهم، بعد أن يكون ما حكموا فيه بعلومهم مما يَعْلَمُ صحته أمره رعيته، أو يعلمه مَنْ إن يحتاجوا إلى شهادته، إن أنكر بعض ما حكموا به من ذلك عليهم، بعض رعيته، كان في شهادتهم لهم براءة ساحتهم، وثبوت الحجة لهم على المحكوم عليهم بذلك»^(٢).

وأما فعل عثمان في صدقة النبي ﷺ، فروى ابن جرير بإسناده عن عمر بن العزيز أن عثمان جعل «فَدَك» لمروان، وأن عمر بن عبد العزيز ردها لما كانت عليه في عهد النبي ﷺ. وذكر أن عثمان كان يرى في ذلك أنه لَيَقِيمُ أمر المسلمين أن يصرفه فيما رأى صرفه فيه، ولذلك أقطعه مروان، بناء على ما رواه ابن جرير، أن النبي ﷺ قال: «إذا أطعم الله نبياً طعمة، فَقَبِضْ فهو للذي يقوم

(١) انظر: صحيح البخارى - الفرائض (٧/١٢).

(٢) ابن بطل (٢/١٨٥) - مخطوط - وذكر بعده (٢/١٨٦) قولين للعلماء في بيوت

أزواج النبي ﷺ. وانظر: حول قضاء الحاكم بعلمه: الطرق الحكمية، لابن القيم (٢٠٤-

بعده»^(١).

وأما عَلِيُّ فَرَوَى الطبري عنه أنه سلك في سهم ذوى القربى طريق أبي بكر وعمر^(٢).

وخلاصة هذه المسألة أن ابن جرير يخالف الرافضة في مسألة الميراث هذه^(٣)، بل يرى أن النبي ﷺ لم يُخْلَفْ ميراثاً أصلاً، وأن قوله: «لا تقسم ورثتي ديناراً ولا درهما» ليس بمعنى النهي؛ لأنه لم يترك عليه السلام ديناراً ولا درهما يُقَسَّمُ، لأنه مات وذرعه مرهونة بوسقٍ من شعير، ولا يجوز النهي عما لا سبيل إلى فعله، وإنما يُنْهَى المرء عما يمكن وقوعه منه. ومعنى الخبر أنه ليس تقسم ورثتي ديناراً ولا درهما، لأنى لا أخلفهما بعدى»^(٤).

وجملة ما تبينه من مسائل ذلك الفصل أن الطبري يذهب فيها إلى ما ذهب إليه غيره من أئمة السنة، من مخالفة الشيعة، وخاصة الرافضة منهم، في سائر ما تقلدوه من آراء؛ فإما صرح بخلافهم والرد عليهم، كما رأينا في مسألة «النص على الإمام»، وإما كان ذلك مقتضى اختياره، وإن لم يصرح بخلافهم، وهذا مما

(١) ابن بطال (٢/١٨٧ق). وفي إسناده إلى عمر، محمد بن حميد الرازي، واهى الحديث. والحديث ذكره ابن طاهر في تذكرة الموضوعات رقم (١٥٠)، وقال: فيه سيف ابن مسكين، لا يحتج به اهـ وسيف هذا ذكره ابن حبان في «المجروحين» وقال: يأتي بالمقلوبات والأشياء والموضوعات، لا يحل الاحتجاج به اهـ ثم ذكر له هذا الحديث. انظر: «المجروحين» (١/٣٤٣).

(٢) السابق (٢/١٨٧-أ).

(٣) انظر كلام الرافضة حول هذه المسألة، وجواب شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٤/٢٢٦-٢٦٤)، (٦/٣٤٥-٣٤٧)، وانظر أيضاً: البداية والنهاية، لابن كثير (٥/٢٤٩-٢٥٢).

(٤) السابق (٢/١٨٥). وانظر أيضاً: (٢/١٨٨)، وانظر ما ذكره ابن كثير من أحاديث تؤيد ذلك في البداية والنهاية (٥/٢٤٧).

ينبغى أن يضاف إلى ما ذكرناه في الباب الأول من هذا البحث من الأدلة على تبرئة ابن جرير من تهمة التشيع، والرفض خاصة، ولم نشر إليها فيما هناك اكتفاء بدراستها هنا.



الخاتمة، ونتائج الدراسة

لم يكن من خطة هذه الدراسة أن توعب كل ما يتعلق بموقف الإمام الطبرى من مسائل أصول الدين، من شاذة وفادة، وما إخال مثل ذلك المطلب، إن طلبه أحد، في طوق صاحبها^(١)، وحسبها من ذلك أن حاولت عرض منهجه بصفة عامة، مع عرض أهم مسائل أصول الدين التى أتاح لنا ما تبقى من تراث الطبرى درسها.

ولقد كان أهم ما هدفت إليه هذه الدراسة أن تبرز - بمجموعها - صلة الإمام الطبرى بالبحث الكلامى بصفة عامة، تلك الصلة التى غمز فى وثاقتها الأستاذ أحمد أمين، ورأى أن تفسيره «إن كان ينقضه شيء فهو أنه لم يتعرض كثيرا لأقوال المتكلمين فى عصره، وخاصة المعتزلة، لأن ثقافته كانت دينية ولغوية وتاريخية، ولم ينغمز فى تيار المتكلمين، وما جاء فيه من تعرض لمسائل القدر ونحوها، فقد أتاه على ما يظهر من طريق المحدثين...»^(٢).

وإزاء ذلك نشير إلى أمور:

أولاً: كَتَبَ الطبرى رسالتين فى «أصول الدين» هما: «صريح السنة»، التى عرفت بأنها عقيدته، والأخرى «التبصير» التى أجاب بها أهل بلده «أمل طبرستان»، فيما اختلف فيه من قضايا التوحيد والعدل، وما نجم بينهم من البدع الكلامية.

(١) يقول الجاحظ فى خاتمة كتابه «العثمانية» (ص: ٢٧٩): «وإنما ملاك وضع الكتاب إحكام أصله، وألا يشذ شيء من أركانه، فأما استقصاؤه حتى لا يجرى بين الخصمين منه إلا شيء قد وضع بعينه، فهذا ما لا يمكن الواضع، ولا يحتمل الكتاب».

(٢) ضحى الإسلام (٢/ ١٥٠). وأما قول بروكلمان (٣/ ٤٦): «وفى الحق أن عقليته لم تتسم بطابع الأصالة والابتكار...» فهو قول من لم يخبر تراث ابن جرير.

ثانياً: تنوعت طرق عرض ابن جرير للمسائل الكلامية في تفسيره وفي غيره من كتبه، فإما شرح معنى الآية، وكان شرحه ذلك تقريراً لرأيه، دون تعريج على ذكر الخلاف، وإما أشار إلى عدد من قضايا الخلاف، ثم قرر رأيه بدليله السمعى دون ذكر - أيضاً - لآراء المخالفين، وهو منهجه العام في «صريح السنة»، وإما عرض لذكر الخلاف، ونقل أقوال المخالفين مع أدلتهم أحياناً ثم ذكر ما يختاره، مع ذكر دليله السمعى والعقلي، وهو منهجه العام في رسالة «التبصير».

ثالثاً: فيما يخص المباحث الكلامية وأقوال المتكلمين في تفسيره، فقد أشرنا إلى منهجه في تقرير رأيه عند تفسير الآيات التى يعرض لها، مع أنه قد نقل في عدة مواضع خلاف المتكلمين الذين يسميهم «أهل البحث» أو «أهل الجدل»، وفي بعض هذه المواضع ينقل الخلاف فقط، دون التصريح بما يختاره، وفي بعضها يصرح برأيه، ويتوسع في الاستدلال لما يراه، والرد على حجج مخالفه. وقد كان المعتزلة هم أهم من يعنى ابن جرير بالرد عليه، إلا أنه يسميهم - شأن أكثر المتقدمين - : «القدرية»، وقد وقفت على التصريح باسم «المعتزلة» مرة واحدة في رسالة «التبصير»^(١).

رابعاً: لا يلزم من عدم ذكره لخلاف المتكلمين، أو عدم الإكثار منه، أن ذلك خارج عن «ثقافته». على حد تعبير الأستاذ أحمد أمين؛ فالثقافة الدينية لم تكن تعرف الفصل الحاسم بين فروع العلم، خاصة في حق شخص كالطبرى قيل فيه: إنه جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره.

خامساً: ليس لدينا ما يظهر اعتماد الطبرى على المحدثين، دون أن يكون له اطلاع مباشر على المقالات الكلامية التى ينقلها، ويضعف ذلك الاستظهار أيضاً تفرد به بنقل أمور لم نرها عند غيره؛ كالذى نقله من استدلال القائلين بالحاسة السادسة في الرؤية.

وفيما عدا ذلك المقصد العام للدراسة، فقد حاولت مباحثها المختلفة إبراز عدة أمور تتعلق بآراء الطبرى ومنهجه، ولعل أهمها ما يلي:

الأول: إبراز التزيد الذى أدخل على علاقة الطبرى بالحنابلة، أو بصورة أدق على موقفه من الإمام أحمد.

الثانى: بيان حقيقة تهمة التشيع التى ألصقت بالطبرى، وأنه مخالف فى منهجه وآرائه للشيعة عموماً، والرافضة خصوصاً.

الثالث: بيان اعتماد الطبرى على كل من الدليلين السمعى والعقلى فى «مسائل أصول الدين»، مع عرض أهم القواعد والضوابط التى بنى عليها ابن جرير فهمه للنص الشرعى، الذى هو الأصل الأول والأهم لآرائه، وأن ابن جرير يتمسك بظاهر النصوص - كما يفهمه السلف - مع الإشارة إلى ما رأيناه مغالفاً لمنهجه العام، وأصوله التى اعتمدها.

الرابع: اتفاق الطبرى فى منهجه وآرائه مع منهج أهل السنة وعلماء الحديث الذين يعد الطبرى أحد رجالهم، مع محاولة تتبع بعض أفكاره عند غيره من علماء السنة، خصوصاً سابقيه ومعاصريه.

الخامس: لم يمنع ذلك الاتفاق بين منهج الطبرى ومنهج أهل الحديث، وجود بعض الآراء التى تخالف - فيما بدا لنا - ما عرفناه من آراء أهل السنة وغيره، كالقول بوجوب النظر، وعدم عذر الجاهل والمخطئ فى قضايا التوحيد والعدل.

وبعد، فتلک أهم القضايا التى حاولت هذه الدراسة إبرازها، ولا يزال تراث الطبرى مجالاً خصباً للعديد من الدراسات من زوايا مختلفة، وخاصة جهوده الحديثية التى لا تزال - على عظیمها - بکراً، لم تطرقها دراسة متخصصة، فيما أعلم.

والله أسأل أن يوفقني فيما قصدت، وأن يسبغ عليّ فضله وإحسانه فيما أحسنت، ويغمرنى بعفوه وغفرانه فيما أسأت أو زلت.
والحمد لله رب العالمين، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



قائمة بأهم مراجع البحث^(١)

أولاً: مؤلفات الطبرى

(١) تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) ت محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٢) التبصير فى معالم الدين (تبصير أولى النهى ومعالم الهدى)، ت: على بن عبد العزيز الشبل، ط ١، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٦هـ.

- التبصير، نسخة خطية محفوظة فى مكتبة «دير الأسكوريال» رقم (١٥١٤)، وعنهما صورة على الميكروفيلم فى معهد المخطوطات العربية، القاهرة، وقد فُهرس خطأ فى «اختلاف الفقهاء» (١٤)، وهذه النسخة هى الوحيدة المتبقية لهذا الكتاب، حسب علمى، وبها خرم من آخرها.

(٣) تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن)، ت: محمود محمد شاکر، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاکر، ط ٢، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٦م.

(٤) تهذيب الآثار، وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، وهو

(١) المراجع بعد كتب الطبرى مرتبة حسب أسماء مؤلفيها، من غير اعتبار «أبو» أو «ابن» أو «ال-» فى الترتيب.

- الاسم المعتبر فى الترتيب هو ما اشتهر به المؤلف، اسماً كان، أو كنيةً، أو لقباً.

- التاريخ المذكور مع اسم المؤلف هو تاريخ وفاته فإن كان من المُحدثين لم أذكره معه.

- إذا لم أذكر مع المرجع أيّاً من بياناته؛ رقم الطبعة، تاريخها، .. فمعنى ذلك أنها لم تذكر فى الطبعة التى اعتمدتها.

- اكتفيت بتاريخنا «الهجرى» عند وروده فى الكتاب، فإذا لم يرد، وورد التاريخ

الميلادى، ذكرته.

كتاب فذُّ، وضخم، لم يُتِمَّه الطبرى، وما أتمه لم يصلنا منه إلا القليل.

* أجزاء من مسند عمر، ومسند على، ومسند ابن عباس، حققها أبو فهر: محمود محمد شاكر (في خمسة مجلدات، ومجلد سادس، فهارس) مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٨٢م، ١٩٨٣)، ونشرته جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

** جزء من مسند طلحة والزبير، ومسند عبد الرحمن بن عوف، طبع باسم «الجزء المفقود!!» ت: على رضا بن عبد الله بن على رضا، ط (١) دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤١٦هـ.

٥) صريح السنة، وهى رسالة صغيرة فى بيان مُعْتَقَدِهِ، ت: بدر بن يوسف المعتوق، ط ١، دار الخلفاء، الكويت، ١٤٠٥هـ. ورجعت أيضًا إلى نسختين مطبوعتين: إحداهما طبعة حجرية فى بمباى، الهند، ١٣١١هـ، والأخرى فى بيروت، ت: فؤاز زمرلى، ط ١، مكتب البحوث الثقافية، بيروت، ١٤١١هـ.

- نسخة أخرى مخطوطة، ضمن مجموع فى دار الكتب المصرية (١٠٦ - مجاميع تيمور) وعنوانها فيه: جزء فى الاعتقاد.

ثانيا: المخطوطات، والرسائل الجامعية:

** ابن بطل (أبو الحسن على بن خلف = ٤٤٩هـ).

١ - شرح صحيح البخارى، مخطوط فى أربعة أجزاء، دار الكتب المصرية، ٨٥٦ حديث طلعت^(١).

التميمى (أبو الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث التميمى ٤١٠هـ).

(١) استعنت أيضًا بنسخة أخرى مطبوعة، قام على تحقيقها الأستاذ ياسر إبراهيم فى مكتب المشكاة، حلوان القاهرة، وهى لا تزال قيد النشر، مكتبة الرشد، الرياض.

٢ - كتاب فيه اعتقاد الإمام المنبّل، أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق، ٢٤٥ حديث، وعنه صورة ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، القاهرة، رقم ٢٢ توحيد.

** ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين المالكي = ٣٧٨هـ).

٣ - أصول السنّة، مخطوط بمكتبة ريوآن كشك، تركيا، ضمن مجموعة، رقم ٥١٠ ب، وعنه صورة بمعهد المخطوطات، رقم ١٢٠ توحيد.

** عبد الرؤوف محمد عثمان.

٤ - النحو في تفسير ابن جرير الطبري، رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر، توجد في المكتبة المركزية، رقم (٩٧٣).

** ابن عساكر (أبو القاسم، علي بن الحسن بن هبة الله = ٥٧١هـ).

٥ - تاريخ دمشق، مخطوط مصور [مُلَفَّق من عدة نسخ] تصوير وتوزيع دار البيان، دمشق.

** محمد محمد قاسم.

٦ - الدخيل في تفسير ابن جرير، رسالة ماجستير، من جامعة الأزهر، المكتبة المركزية، رقم (٢٥٣٧ عام).

محمود محمد شبكة.

٧ - محمد بن جرير الطبري ومنهجه في التفسير، رسالة دكتوراه، من جامعة الأزهر، المكتبة المركزية، رقم (٢٩٥٣ عام).



ثالثًا: المراجع العامة:

- ** الأمدى (سيف الدين على بن محمد ت ٦٣١ هـ).
- الإحكام فى أصول الأحكام، تعليق عبد الرزاق عفيفى، ط ٢، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٢٠ هـ.
- ** ابن الأثير (عز الدين، أبو الحسن على بن أبى الكرم الجزرى، ت ٦٣٠ هـ).
- اللباب فى تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠ هـ.
- ** الآجرى (أبو بكر محمد بن الحسين، ت ٣٦٠ هـ).
- الشرية، ت: الوليد سيف النصر، ط ١، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١٤١٧ هـ.
- ** أحمد أمين.
- ضحى الإسلام، ط ٩، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩ م.
- ** أحمد بن حنبل (أبو عبد الله، إمام المذهب، ت ٢٤١ هـ).
- الرد على الزنادقة والجهمية، ط ٢، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.
- ** أحمد محمد الحوفى (الأستاذ الدكتور).
- الطبرى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة أعلام العرب، رقم: ١٣.
- ** أحمد محمد شاكر.
- عمدة التفسير، طبعة مصورة عن سلسلة تراث الإسلام (بدون بيانات).
- ** أحمد بن ناصر الحمد. (دكتور).
- رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها، ط ١، جامعة أم القرى، مكة،

١٤١١هـ.

**** أحمد محمود صبحي . (الأستاذ الدكتور).**

الزيدية، ط ٢، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٤هـ.
النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية، بحث منشور في مجلة عالم الفكر م
ج ٢٢، عدد ٢، ١٩٩٣م.

**** الأشعري (أبو الحسن علي بن إسماعيل، ت ٣٢٤هـ).**

الإبانة عن أصول الديانة، ت: د. فوقية حسين محمود، ط ١، دار الأنصار،
القاهرة، ١٣٩٧هـ.

رسالة أهل الثغر، ت: د. محمد السيد الجليند، سلسلة التراث السلفي،
مطبعة التقدم، ١٩٨٧م.

اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ت: د. حموده غرابة، مجمع البحوث
الإسلامية القاهرة، ١٩٧٥ م.

مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين، ت: محمد محي الدين عبد الحميد،
طبعة خاصة بورثة المحقق.

**** الأشقر (الدكتور، عمر سليمان).**

الرسل والرسالات، ط ٤، دار النفائس، الكويت، ١٤١٠هـ.

**** الأصبهاني (قوام السنة أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل، ت
٥٣٥هـ).**

الحجة في بيان المحجة، ت: محمد بن ربيع المدخلي، محمد بن محمود أبو
رحيم، ط ١، دار الراية، الرياض، ١٤١١هـ.

**** الألباني (محمد ناصر الدين).**

سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.

- سلسلة الأحاديث الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٢هـ.
- ضعيف الجامع الصغير، ط٣، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤١٠هـ.
- صحيح الجامع الصغير، ط٣، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- إرواء الغليل فى تخريج أحاديث منار السبيل، ط٢، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ** ابن الآلوسى (نعمان خير الدين بن محمود الآلوسى، ت ١٣١٧ هـ).**
- الآيات البينات فى عدم سماع الأموات، عند الحنفية السادات، ت: محمد ناصر الدين الألبانى، ط٤، المكتب الإسلامى، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين، مطبعة المدنى، ١٤٠١هـ.
- ** الإيجى (عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، ت ٧٥٦ هـ).**
- المواقف فى علم الكلام، ط عالم الكتب، بيروت، د. ط، ت.
- ** الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب، ت ٤٠٣ هـ).**
- التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة، ت: محمود الخضيرى، ومحمد عبد الهادى أبو ريدة، دار الفكر العربى، القاهرة.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، ت: محمد زاهد الكوثرى، ط٣، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٤١٣هـ.
- ** البخارى (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ).**
- خلق أفعال العباد، ت: سالم عبد الهادى، محمد السعيد بسيونى، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٢م.
- صحيح البخارى (انظر فتح البارى).
- ** البرهبارى (أبو محمد الحسن بن على بن خلف، ت ٣٢٩ هـ).**
- شرح السنة، ت: محمد بن سعيد القحطانى، ط٢، رمادى للنشر،

السعودية، ١٤١٤هـ.

**** ابن بطة (أبو عبد الله عبيد الله بن محمد، ت ٣٨٧ هـ).**

الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ت: رضا معطى وآخرين، دار الراية، الرياض. (صدر في أجزاء ما بين ١٤٠٩هـ و ١٤١٨هـ).

**** البغدادى (الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي، ت ٤٢٩ هـ).**

أصول الدين، ط ١، اسطنبول، ١٣٤٦هـ.

الفرق بين الفرق، ت: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة.

**** الياضى (كمال الدين أحمد الياضى الحفنى، ت ١٠٩٨هـ).**

إشارات المرام من عبارات الإمام، ت: يوسف عبد الرازق، ط ١، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

**** البيجورى (إبراهيم بن محمد بن أحمد، شيخ الأزهر، ت: ١٢٧٧ هـ).**

شرح البيجورى على الجوهرة، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٨٩هـ.

اليهقى (أبو بكر أحمد بن الحسين، ت ٥٤٨ هـ).

الأسماء والصفات، ت: عبد الله الحاشدى، ط ١، مكتبة السوادى، جدة، ١٤١٣هـ.

الاعتقاد على مذهب السلف، مكتبة السلام العالمية، القاهرة.

مناقب النافعى، ت: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة.

**** الترمذى (أبو عيسى محمد بن سورة، ت ٢٧٩ هـ).**

سنن الترمذى مع الشرح، تحفة الأحوذى، ط ٢، دار التراث، القاهرة،

١٣٨٣هـ.

** التفتازاني (سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله ٧٩١ هـ).

شرح المقاصد، ت: د. عبد الرحمن عميرة، ط١، عالم الكتب، بيروت،

١٤٠٩ هـ.

شرح العقائد النسفية، ت: د. أحمد حجازي السقا، ط١، مكتبة الكليات

الأزهرية، ١٤٠٧ هـ.

شرح التلويح على التوضيح، مكتبة صبيح، القاهرة.

** التهانوي (محمد بن علي بن شيخ علي الفاروق الحنفي، ت: بعد ١١٥٨

هـ).

كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت.

** ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، شيخ الإسلام،

ت ٧٢٨ هـ).

درء تعارض العقل والنقل، ت: د. محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية،

القاهرة.

الرد على البكري (الاستغاثة) ت: محمد علي عجال، ط١، مكتبة الغرباء،

المدينة النبوية، ١٤١٧ هـ.

منهاج السنة النبوية، ت: محمد رشاد سالم، ط٢، مكتبة ابن تيمية،

١٤٠٩ هـ.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام، دار الرحمة، القاهرة.

بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ت: محمد بن عبد الرحمن بن

قاسم، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

الرسالة المدنية، ت: الوليد بن عبد الرحمن الفريان، ط١، دار طيبة،

الرياض، ١٤٠٨ هـ.

جامع الرسائل، ت: محمد رشاد سالم، ط ٢، مطبعة المدنى، القاهرة، ١٤٠٥هـ.

النبوات، تصحيح محمد حامد الفقى، مكتبة السنة المحمدية.
التدمرية، ت: محمد بن عودة السعوى، ط ١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٠٦هـ.

شرح العقيدة الأصبهانية، تقديم حسنين مخلوف، دار الكتب الإسلامية، القاهرة.

العقيدة الواسطية، شرح محمد خليل هراس، ط ٤، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

** الجرجاني (الشريف على بن محمد بن على، أبو الحسن الحنفى، ت ٨١٦ هـ).

التعريفات، ط مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

** ابن جُزَيّ (أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي الغرناطى، ت ٧٤١ هـ).
التسهيل لعلوم التنزيل، ط الدار العربية للكتاب.

** ابن جماعة (بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله ٧٣٣ هـ).
إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل، ت: وهبى سليمان الألبانى، ط ١، دار السلام، القاهرة، ١٤١٠هـ.

** ابن جنى (أبو الفتح عثمان، ت ٣٩٢ هـ).

الخصائص، ط ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٦هـ.

** ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ت ٥٧٩ هـ).

مناقب الإمام أحمد، ت: د. عبد الله التركى، ط ٢، مؤسسة حجر، القاهرة، ١٤٠٩هـ.

المنتظم في تاريخ الملوك والإمام، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

** الجويني (أبو المعالي عبد الملك بن يوسف، إمام الحرمين، ت ٤٧٨ هـ).
الإرشاد إلى قواطع الأدلة، ت: أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، ت: محمد زاهد الكوثري، ط المكتبة الأزهرية، بالقاهرة، ١٤١٢هـ.

البرهان في أصول الفقه، ت: د. عبد العظيم الديب، ط ١، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٢هـ.

** الجيلاني (عبد القادر بن موسى ت ٥٦١ هـ).

الغنية لطالبي طريق الحق، ط ٣، مصطفى الحلبي، ١٣٧٥هـ.

** أبو حاتم الرازي (أحمد بن حمدان الرازي الإسماعيلي ت ٣٢٢ هـ).

الزينة في المصطلحات الإسلامية العربية، ت: حسين بن فيض الله الهمداني، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٥٦م.

** ابن حبان (الإمام الحافظ، محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم البُستي، ت ٣٥٤ هـ).

كتاب المجروحين، ت: محمود إبراهيم زايد، ط ٢، دار الوعي، حلب، ١٤٢٠هـ.

** ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإمام الحافظ، ت ٨٥٢ هـ).

فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط ١، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ.
تقريب التهذيب، ت: صغير أحمد شاغف، ط ١، دار العاصمة، الرياض،

١٤١٦هـ.

تهذيب التهذيب، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٣ هـ.

لسان الميزان، ط دار الفكر، بيروت.

** ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ).

مراتب الإجماع، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦ هـ.

الإحكام في أصول الأحكام، نشرة زكريا على يوسف، القاهرة.

الفصل في الأهواء والنحل، مكتبة السلام العالمية، القاهرة.

** أبو الحسين البصري (محمد بن علي بن الطيب المعتزلي، ت ٤٣٦ هـ).

المعتمد في أصول الفقه، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

** حسين بن علي الحربي

قواعد الترجيح عند المفسرين، ط ١، دار القاسم، الرياض، ١٤١٧ هـ.

ابن خزيمة (أبو بكر محمد بن إسحاق، ت ٣١١ هـ).

كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، ت: محمد خليل هراس، دار

الجيل، بيروت، ١٤٠٨ هـ.

** الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، ت: ٤٦٣ هـ).

تاريخ بغداد، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

** الخلال (أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون، ت ٣١١ هـ).

السنة، ت: د. عطية الزهراني، ط ٢، دار الراية، الرياض، ١٤١٥ هـ.

** ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ).

مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة.

** الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، ت حوالى

٣٠٠هـ).

الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، تقديم محمد حجازي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م.

** ابن أبي الخير (يحيى ابن أبي الخير العمراني، شيخ الشافعية في اليمن، ت ٥٥٨هـ).

الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، ت: د. سعود بن عبد العزيز الخل، ط ١، أضواء السلف، الرياض، ١٤١٩هـ.

** الدارقطني (الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر ت ٣٨٥هـ).

الصفات، ت: د. علي بن ناصر الفقيهي، دار إحياء السنة النبوية.

كتاب النزول، ت: د. علي بن ناصر الفقيهي، دار إحياء السنة النبوية.

** الدارمي (أبو سعيد عثمان بن سعيد ت ٢٨٠هـ).

الرد على الجهمية، ت: بدر بن عبد الله البدر، ط ٢، دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٦هـ.

الرد على بشر المريسي، ت: محمد حامد الفقي، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٥٨هـ.

أبو داود (سليمان بن الأشعث، ت ٢٧٥هـ).

سنن أبي داود، مع شرح العظيم آبادي (عون المعبود)، ط ٣ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

** الدميحي (عبد الله بن عمر بن سليمان).

الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، ط ١، دار طيبة، الرياض،

١٤٠٧هـ.

** الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ).

الأربعين في صفات رب العالمين، ت: عبد القادر عطا صوفي، ط ١، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ.

العلو للعلی الغفار، اختصره وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، ط ١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ.

ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.

سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

**** الرازي (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين، ت ٦٠٦ هـ).**

الأربعين في أصول الدين، ت: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م.

محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

أساس التقديس، ت: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

عصمة الأنبياء، سلسلة الثقافة الإسلامية، عدد ٤٧، ١٣٨٣هـ.

**** الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢ هـ).**

المفردات في غريب القرآن، ت: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

**** ابن رجب (زين الدين أبو الفرح عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي، ت**

٧٩٥ هـ)

جامع العلوم والحكم، ت: طارق عوض الله، ط ١، دار ابن الجوزي، السعودية.

لطائف المعارف، فيما لمواسم العام من الوظائف، دار الدعوة،

الإسكندرية.

**** ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد ت ٥٩٥ هـ).**

مناهج الأدلة في عقائد الملة، ت: د. محمود قاسم، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ت: محمد عمارة، ط ٢، دار المعارف، القاهرة.

تهافت التهافت، ت: د. سليمان دنيا، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

**** الرئيس (محمد ضياء الدين، الأستاذ الدكتور)**

النظريات السياسية الإسلامية، ط ٧، دار التراث، القاهرة.

**** زاده (عبد الرحيم بن علي، الشهير بشيخ زاده، ت).**

نظم الفرائد وجمع الفوائد في بيان المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الماتريدية والأشعرية، تصحيح: محمد بدر الدين النعساني، ط ٢، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٣٢٣ هـ.

**** الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، ت ٣٧٩ هـ).**

طبقات النحويين واللغويين، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤ م.

**** الزركان (دكتور محمد صالح).**

فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، دار الفكر، بيروت.

**** الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله، ت ٧٩٤ هـ).**

البحر المحيط، في أصول الفقه، تحرير د. عبد الستار أو غدة وآخرين، ط ٢، وزارة الأوقاف، الكويت ١٤١٣ هـ.

البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

** الزنجشري (محمود بن عمر، ت ٥٢٨ هـ).

الكشاف، صححه مصطفى حسين أحمد، ط ٣، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧ هـ.

** زهدى حسن جار الله.

المعتزلة، مطبعة مصر، القاهرة، ١٣٦٦ هـ.

** ابن السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ٧٧١ هـ).

طبقات الشافعية الكبرى، ت: د. محمود الطناحي، د. عبد الفتاح الحلو، ط ٢ دار هدر، القاهرة، ١٤١٣ هـ.

الإبهاج شرح المنهاج، ت: د. شعبان إسماعيل، ط ١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠١ هـ.

** السفاريني (محمد بن أحمد السفاريني، ت ١١٨٨ هـ).

لوامع الأنوار البهية، مطبعة المدنى، القاهرة.

** سفر الحوالى. (الدكتور)

ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامى، ط ١ مكتب الطيب، القاهرة، ١٤١٧ هـ.

منهج الأشاعرة في العقيدة، مكتبة العلم، القاهرة.

** سليمان دنيا (الأستاذ الدكتور).

الحقيقة في نظر الغزالي، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ م.

** السمعاني (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد، ت ٥٦٢ هـ).

الأنساب، ط ١، دار الجنان، بيروت، ١٤٠٨هـ.

** سيبويه (عمرو بن عثمان بن بشر، ت: ١٨٠ هـ).

الكتاب، ت: عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٥هـ.

** سيد قطب.

خصائص التصور الإسلامى، ط ٧، دار الشروق، ١٤٠٢هـ.

** ابن سينا (أبو علي الحسين بن عبد الله، الشيخ الرئيس، ت ٤٢٨ هـ).

الإشارات والتنبيهات، ت: د. سليمان دنيا، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

** السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، ت ٩١١ هـ).

الإتقان فى علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار التراث، القاهرة.

تدريب الراوى، شرح تقريب النواوى، ت: د. أحمد عمر هاشم، ط ١، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٤٠٥هـ.

الأزهار المتناثرة فى الأخبار المتواترة، ملحق مجلة الأزهر، صفر ١٤٠٩هـ.

صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، ت: د. على سامى النشار، دار الكتب العلمية، بيروت.

الحاوى للفتاوى، مكتبة القدسى، القاهرة.

** الشاطبى (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد ت ٧٩٠ هـ).

الاعتصام، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

الموافقات من أصول الشريعة، شرح الشيخ عبد الله دراز، المكتبة التجارية، القاهرة.

- ** الشافعى ، حسن محمود (أستاذنا الدكتور).**
- لمحات من الفكر الكلامى ، مطبعة العمرانية للأوفست ، الجيزة ، ١٤١٣ هـ .
- المدخل إلى دراسة علم الكلام ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة .
- ** الشافعى (محمد بن إدريس ، إمام المذهب ت ٢٠٤ هـ).**
- الرسالة ، ت : أحمد محمد شاكر ، ط ٢ ، دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ .
- اختلاف الحديث ، بهامش الأم ، ومطبعة مصورة عن طبعة بولاق (١٣٢١ هـ)
- الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٧ هـ .
- ** أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ، شهاب الدين أبو محمد ، ت ٦٦٥ هـ).**
- الضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى ، ت : د . أحمد عبد الرحمن الشريف ، ط ١ ، دار الصحوة ، القاهرة ١٤٠٥ هـ .
- ** الشنقيطى (محمد الأمين بن محمد المختار ، ١٣٩٣ هـ).**
- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، مكتبة بن تيمية بالقاهرة ، ١٤٠٨ هـ .
- ** الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد ، ت : ٥٤٨ هـ).**
- الملل والنحل ، ت : عبد العزيز الوكيل ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة .
- نهاية الإقدام فى علم الكلام ، ت : الفرد جيوم ، (بدون بيانات) .
- ** الشوكانى (محمد بن على القاضى ت ١٢٥٥ هـ).**
- إرشاد الفحول إلى ت : الحق من على الأصول ، ط ١ ، مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .
- التحفة فى مذاهب السلف ، ضمن الرسائل المنيرة .
- الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ، ت : عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليماني ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة .

- ** ابن أبي شيبة (الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد، ت ٢٣٥ هـ).
كتاب الإيمان، ت محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، المكتب الإسلامي،
بيروت، ١٤٠٣ هـ.
- ** أبو الشيخ الأصبهاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حياة، ت
٣٦٩ هـ).
العظمة، ت: رضا الله بن محمد إدريس المباركفوري، ط ١، دار العاصمة،
الرياض، ١٤٠٨ هـ.
- ** الصابوني (أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، ت ٤٤٩ هـ).
عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ط إدارة الطباعة المنيرية، ضمن عدة
رسائل.
- ** الصنعاني (محمد بن إسماعيل، الأمير ١١٨٢ هـ).
جمع الشتيت، في شرح آيات الشتيت، أشرف على تصحيحه: حسين محمد
المشاط، ط ٣، دار الإيمان، المدينة، ١٤٠٤ هـ.
- ** الطوسي (نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الشهير بخواجه نصير
الدين، ت ٦٧٢ هـ).
تلخيص المحصل، بهامش المحصل للرازي.
- ** أبو الطيب اللغوي (عبد الواحد بن علي، ت ٣٥١ هـ).
مراتب النحويين، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة.
- ** ابن أبي عاصم (أبو بكر عمر بن أبي الضحاك بن مخلد الشيباني ت ٢٨٧ هـ).
كتاب السنة، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط ١ المكتب الإسلامي،
١٤٠٠ هـ.

**** عبد الإله بن سليمان الأحمدى. (دكتور)**

المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، ط ١، دار طيبة، الرياض، ١٤١٢ هـ.

**** ابن عبد البر (أبو عمر بن عبد البر القرطبي ت ٤٦٣ هـ).**

التمهيد (طبعة مرتبة على الأبواب الفقهية باسم، فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر، ترتيب وتحقيق: عبد الرحمن المغراوي، ط ١، دار التحف والنفايس الدولية، الرياض، ١٤١٦ هـ).

جامع البيان العلم وفضله، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

**** عبد الجبار (القاضي عبد الجبار بن أحمد، أبو الحسن الأسد آبادى ت ٤١٥ هـ).**

المغنى في أبواب التوحيد والعدل، ت: مجموعة من الباحثين، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ م.

**** عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر).**

التوحيد الخالص (الإسلام والعقل)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٣ م.

**** عبد الرحمن بدوى (الأستاذ الدكتور)**

مذاهب الإسلاميين، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣ م.
التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، أبحاث مترجمة، ط ٣، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥ م.

**** عبد الغنى عبد الخالق (الأستاذ الدكتور).**

حجية السنة، ط ١ المعهد العالى للفكر الإسلامى، ألمانيا الغربية، ١٤٠٧ هـ.
**** عبد الغنى المقدسى، الحافظ الحنبلى (٦٠٠ هـ).**

عقيدة الحافظ عبد الغنى، ت مصعب الحايك، ط ١، مؤسسة المؤتمن، الرياض، ١٤١٣ هـ.

عبد الله بن أحمد بن حنبل، ت ٢٩٠ هـ.

السنة، ط ٢، الدار العلمية، الهند، ١٤٠٤ هـ.

** عبد الله صالح الغصن.

أسماء الله الحسنى، ط ١، دار الوطن، الرياض، ١٤١٧ هـ.

** عبد الوهاب خلاف.

السياسة الشرعية، دار الأنصار القاهرة، ١٣٩٧ هـ.

** أبو عبيد (القاسم بن سلام، ت ٢٢٤ هـ).

كتاب الإيمان، ت: محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

** ابن العربي (محمد بن عبد الله، أبو بكر المعروف بابن العربي، ت ٥٤٣ هـ).

أحكام القرآن، ت: علي محمد البجاوى، دار الفكر، بيروت.

العواصم من القواصم ت: د. عمار طالبي، ط ١ دار التراث القاهرة ١٤١٧ هـ.

** العز بن عبد السلام.

معنى الإيمان والإسلام، ت: إياد خالد الطباع، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٤١٣ هـ.

الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، دار المعرفة، بيروت.

** ابن أبي العز (الإمام القاضي، علي بن محمد بن أبي العز الحنفى ت ٧٩٢ هـ).

شرح العقيدة الطحاوية، ت د. عبد الله التركي، شعيب الأرنؤوط، ط ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣ هـ.

** ابن عساكر (أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله الدمشقي، ت ٥٧١ هـ).

تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

** ابن عقيل (أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي، ت ٥١٣ هـ).

الفنون، ت: جورج المقدسي، مكتبة لينة دمنهور، ١٤١١ هـ.

** العلائي (خليل بن كيكلدي ت ٧٦١ هـ).

تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة، ت: عبد الرحيم القشقرى، ط ١، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٠ هـ.

** علوى بن عبد القادر السقاف.

صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، ط ١، دار الهجرة، الرياض، ١٤١٤ هـ.

** عياض (القاضي عياض بن موسى اليحصبي، ت ٥٤٤ هـ).

الشفاء في شمائل صاحب الاصفطا (انظر شرح الشفاء للقارى).

** الغزالي (حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد، ت ٥٠٥ هـ).

الاقتصاد في الاعتقاد، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

إحياء علوم الدين، دار الفكر العربي، القاهرة.

تهافت الفلاسفة، ت: د. سليمان دينا، ط ٤، دار المعارف، القاهرة.

** ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين ت ٣٩٥ هـ).

مقاييس اللغة ت: عبد السلام هارون، ط دار الجليل، بيروت.

- الصاحبي ت: السيد أحمد صقر، ط عيسى الحلبي، القاهرة.
- ** فاروق أحمد الدسوقي (الأستاذ الدكتور).
- القضاء والقدر في الإسلام، دار الدعوة، الإسكندرية.
- ** الفيروزآبادي (محمد بن يعقوب، مجد الدين الفيروزآبادي) ت ٨١٧ هـ.
- القاموس المحيط، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧ هـ.
- ** القارى (ملا على بن سلطان محمد القارى الحنفى، ت ١٠١٤ هـ).
- شرح الشفا، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح الفقه الأكبر، ط ٢، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥ هـ.
- ** القاسمى (محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى ت ١٣٣٢ هـ).
- تاريخ الجهمية والمعتزلة، ط ٣ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
- ** ابن قتيبة (أبو عبد الله محمد بن مسلم، ت ٢٧٦ هـ).
- تأويل مختلف الحديث، ت: عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٤٠٢ هـ.
- تأويل مشكل القرآن، ت: السيد أحمد، ط ٢، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٣ هـ.
- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ت: عمر محمود أبو عمر، ط ١، دار الراية، الرياض، ١٤١٢ هـ.
- المعارف ت: د. ثروت عكاشة، ط ٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ م.
- ** ابن قدامة (الموفق أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلى، ت ٦٢٠ هـ).
- ** البرهان في بيان القرآن، ط ٢، مكتبة الهدى النبوى، بورسعيد، ١٤٠٩ هـ.

لمعة الاعتقاد، ط ٣، المكتب الإسلامي، ١٣٨٩ هـ.

ذم التأويل، ت: بدر بن عبد الله البدر، ط ١، دار الفتح، الشارقة، ١٤١٤ هـ.

روضة الناظر، مع شرح ابن بدران، دار الكتب العلمية، بيروت.

** القرطبي (محمد بن أحمد الأنصاري، أبو عبد الله، المفسر ت ٦٧١ هـ).

تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ط الهيئة العامة للكتاب، مصر،

١٩٨٧ م.

التذكرة في أحوال الموق والآخرة، ط دار المنار.

** ابن القيم (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت ٧٥١ هـ).

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، دار الفكر، القاهرة،

١٤٠١ هـ.

الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ت: علي بن محمد الدخيل الله، ط ٢

دار العاصمة، الرياض، ١٤١٢ هـ.

الصواعق المرسلة (المختصر) اختصار محمد بن الموصلي، مكتبة المتنبي،

القاهرة.

الروح، ت: كمال على الجمل، مكتبة الإيمان، المنصورة.

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتنزيل، تحرير الحساني

حسن عبد الله، دار التراث، القاهرة.

بدائع الفوائد، دار الفكر، بيروت.

حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٤٠٠ هـ.

تهذيب سنن أبي داود، مع مختصر المنذرى ومعالم السنن للخطابي، ت: أحمد

محمد شاكر ومحمد حامد الفقى، دار المعرفة، بيروت.

مدارج السالكين، دار الحديث، القاهرة.

المنار المنيف فى معرفة الصحيح والضعيف، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار المسلم، القاهرة، ١٩٨٣م.

** ابن كثير (إسماعيل بن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء الدمشقى، ت ٧٧٤هـ).

تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، ط دار التراث، القاهرة.
البداية والنهاية ت: د. أحمد أبو ملحّم وآخرين، ط ٤ دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ.

** الكنانى (عبد العزيز بن يحيى بن مسلم الكنانى ت: ٢٤٠هـ).
الحيدة، ط ١، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٩٩هـ.

** الماترىدى (أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، ت ٣٣٣هـ).
كتاب التوحيد، ت: د. فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية.

** اللالكائى (هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى، ت ٤١٨هـ).
شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ت: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض.

** ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى، الإمام الحافظ، ت ٢٧٥هـ).

سنن ابن ماجه، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان التراث.

** مالك بن أنس (أبو عبد الله، إمام المذهب، ت ١٧٩هـ).

الموطأ، تصحيح محمد فؤاد عبد الله الباقي، دار الشعب، القاهرة.

** الماوردى (على بن محمد بن حبيب البصرى ت ٤٥٠هـ).

** الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ١، دار الفكر، القاهرة، ١٤٠٤ هـ.

** المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد ت ٢٨٦ هـ).

الكامل، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة.

** المحاسبي (أبو عبد الله الحارث بن أسد، ت ٢٤٣ هـ).

فهم القرآن، ت: حسين القوتلى، ط ٣، دار الكندى، ١٤٠٢ هـ.

** محمد آمحزون (دكتور).

تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة عن روايات الإمام الطبرى والمحدثين ط ١، دار طيبة، الرياض، ١٤١٥ هـ.

** محمد البهى (الأستاذ الدكتور).

الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى، ط ٦، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٢ هـ.

** محمد الحفناوى (الأستاذ الدكتور).

التعارض والترجيح عند الأصوليين، ط ٢، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨ هـ.

** محمد الخضرى (الأستاذ الشيخ).

أصول الفقه، دار المعارف، تونس، ١٩٨٩ م.

** محمد رشاد سالم. (الأستاذ الدكتور)

مقارنة بين ابن تيمية والغزالي، دار القلم، الكويت، ١٤١٣ هـ.

** محمد رشيد رضا.

تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ م.

** محمد عبده (الأستاذ الإمام، ت ١٣٢٣ هـ).

رسالة التوحيد، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة صبيح، القاهرة، ١٣٨٦ هـ.

** محمد عمارة (دكتور).

الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٣ م.

رسائل العدل والتوحيد، جمع وتحقيق، دار الهلال، القاهرة.

** المحمود، عبد الرحمن صالح. (دكتور)

موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ط ٢، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٦ هـ.

** ابن المرتضى (أحمد يحيى المرتضى الملقب بالمهدي لدين الله، ت: ٨٤٠ هـ).

النية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، ت: توما أرندل، دائرة المعارف النظامية، الهند، ١٣١٦ هـ.

** مشهور (حسن سلمان)

قصص لا تثبت، الجزء الثاني، ط ١، دار الصميعي، الرياض، ١٤١٤ هـ.

** مصطفى محمد حلمي (أستاذنا الدكتور).

نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، دار الدعوة، الإسكندرية.

قواعد المنهج السلفي في الفكر، ط ١، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤١١ هـ.

** المقبل (صالح بن مهدي المقبل اليمني، ت ١١٠٨ هـ).

العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ، دار البيان، دمشق.

** مقبل بن هادي الوادعي.

الشفاعة، ط ١، دار الأرقم، الكويت، ١٤٠٢ هـ.

- ** المقدسي (المطهر بن طاهر، ٥٠٧ هـ).**
البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- ** المقریزی (تقی الدين أبو العباسي أحمد بن علي، ت ٨٤٥ هـ).**
الخطط المقریزیة، ط ٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧ م.
- ** الملطی (أبو الحسين محمد بن أحمد عبد الرحمن، ت ٣٧٧ هـ).**
التنبیه والرد على أهل الأهواء والبدع، تعليق محمد زاهد الكوثري.
- ** ابن مندة (محمد ابن إسحاق بن يحيى الإمام الحافظ، ت ٣٩٥ هـ).**
الرد على الجهمية، ت: د. علي بن ناصر الفقيهي، ط ٣، مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، ١٤١٤ هـ.
- ** ابن منظور (محمد بن المكرم بن أبي الحسن الأنصاري، ت ٧١١ هـ).**
لسان العرب ت: عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة.
- ** موصلي (أبو حفص عمر بن بدر، ت ٦٢٢ هـ).**
المغني عن الحفظ والكتاب، مطبوع مع جنة المراتب بنقد المغني لأبي إسحاق، ط ٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤ هـ.
- ** الندوي (أبو الحسن علي الحسن الندوي).**
صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعه الإمامية مطبعة الكلمة، الجيزة، ١٤٠٥ هـ.
- ** النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب ت: ٣٠٣ هـ).**
سنن النسائي بشرح السيوطي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧ هـ.
- ** النشار (علي سامي، الأستاذ الدكتور).**
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول، ط ٨، دار المعارف،

القاهرة، ١٨٨١م.

** النووى (محي الدين، أبو زكريا، يحيى بن شرف الدمشقي، ت ٦٧٦ هـ).

التقريب (انظر تدريب الراوى للسيوطي).

رياض الصالحين، ت: عبد العزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، ط ١٠ دار المأمون، دمشق ١٤٠٩ هـ.

شرح صحيح مسلم، ط ١، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١٤١٢ هـ.
** هراس (محمد خليل، الدكتور).

ابن تيمية السلفي ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

** ابن الوزير (محمد بن إبراهيم الوزير اليماني، ت ٨٤٠ هـ).

إيثار الحق على الخلق، دار الكتب العلمية، بيروت.

ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤ هـ.

العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ت: شعيب الأرنؤوط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢ هـ.

** ياقوت (أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت ٦٢٦ هـ).

معجم الأدباء، ت: فريد الرفاعي، ط القاهرة، ١٣٥٥ هـ.

** أبو يعلى (محمد بن الحسين الفراء البغدادي الحنبلي، ت ٤٥٨ هـ).

مسائل الإيمان، ت: سعود بن عبد العزيز الخلف، ط ١، دار العاصمة، الرياض، ١٤١٠ هـ.

الفهرس

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥ مقدمة الرسالة

الباب الأول قضايا منهجية في حياة الطبرى وتراثه

١٧ الفصل الأول: المحنة في حياة الطبرى
١٧ المبحث الأول: موجز حياته
١٨ طلبه العلم، ووفاته
١٩ هل سمع ابن جرير من الإمام؟
٢٠ هل سمع ابن جرير من البخارى
٢٣ المبحث الثانى: محنة الطبرى مع الحنابلة
٣٤ المبحث الثالث: تهمة التشيع
٤٩ الفصل الثانى: أصول المعرفة عند الطبرى
٥٥ المبحث الأول: موقف الطبرى من الدليل السمعى
٥٥ أولاً: الكتاب والسنة
٦٨ ثانياً: الإجماع
٧٢ المبحث الثانى: موقف الطبرى من الدليل العقلى
٧٦ أولاً: وجوب النظر والاستدلال
٨٣ ثانياً: حكم الجاهل والمخطئ في التوحيد
٩٤ الفصل الثالث: منهج الطبرى في تأويل النصوص
١٠٠ المبحث الأول: التأويل الذى لا يعلمه إلا الله
١٠٥ المبحث الثانى: التأويل الذى يعلم من قبل النبى ﷺ
١٠٦ القواعد المتعلقة بذلك الوجه عند ابن جرير
١٠٦ القاعدة الأولى

١٠٧ القاعدة الثانية
١١١ القاعدة الثالثة
١١٤ المبحث الثالث: التأويل الذى يعلمه أهل اللغة
١١٥ القواعد المتعلقة بهذا الوجه
١١٥ القاعدة الأولى
١١٧ القاعدة الثانية
١١٨ القاعدة الثالثة
١١٩ القاعدة الرابعة
١١٢ القاعدة الخامسة
١٢٧ القاعدة السادسة

الباب الثانى آراء الطبرى فى الإلهيات

١٣١ الفصل الأول: وجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته
١٣١ المبحث الأول: وجود الله، جل جلاله
١٣٥ منهج ابن جرير فى الاستدلال على «الوجود»
١٤٥ المبحث الثانى: الوحدانية
١٤٩ استدلال ابن جرير على الوحدانية
١٦٠ الفصل الثانى: مباحث عامة فى الأسماء والصفات
١٦٠ المبحث الأول: اسم الله الأعظم
١٦٦ المبحث الثانى: الاسم والمسمى
١٦٧ الخلاف حول القضية
١٧٣ المبحث الثالث: الصفات، أقسامها وأحكامها
١٧٣ أهمية القضية والخلاف حولها
١٨٢ المبحث الرابع: دلالة الأسماء على الصفات
 المبحث الخامس: تُبَيَّنُّ على ما يُعرف من معانيها فى اللغة من غير تشبيه
١٨٧ ولا تكييف

١٩٦ الفصل الثالث: الصفات العقلية عند الطبرى
١٩٨ المبحث الأول: صفة العلم
٢٠٦ الاستدلال على العلم
٢١٠ مسألة: تجدد العلم
٢١٥ المبحث الثانى: صفة الكلام
٢٣٠ الاستدلال على الكلام
٢٣١ قضية خلق القرآن
٢٣٤ قضية اللفظ بالقرآن
٢٤٠ المبحث الثالث: رؤية الله جل جلاله
٢٥٥ الاستدلال على الرؤية
٢٥٨ الفصل الرابع: الصفات الخبرية عند الطبرى
٢٥٨ مجمل ما أشار إليه ابن جرير
٢٦٢ المبحث الأول: العلو والفوقية
٢٧٥ الاستواء على العرش
٢٨٢ الكرسي
٢٨٨ النزول
٢٩٤ المبحث الثانى: صفة اليدين
٣٠٥ المبحث الثالث: استهزاء الله - سبحانه - بالمنافقين
٣١٢ الفصل الخامس: القضاء والقدر
٣١٦ المبحث الأول: البحث فى القدر ومنزلته عند ابن جرير
٣٢١ المبحث الثانى: العلم السابق والكتابة
٣٢٨ المبحث الثالث: المشيئة العامة
٣٣٦ المبحث الرابع: خلق أفعال العباد
٣٤٨ المبحث الخامس: الاستطاعة وتكليف ما لا يطاق
٣٥٧ المبحث السادس: الهداية والإضلال، والطبع والختم
٣٥٧ الهداية والإضلال
٣٦٣ الطبع والختم

الباب الثالث

آراء الطبري في النبوات والسمعيات

٣٧٣	
٣٧٣	الفصل الأول: قضايا النبوات عند الطبري
٣٧٥	المبحث الأول: دلائل النبوة
٣٨٧	المبحث الثاني: عصمة الأنبياء
٣٩٣	أولاً: عصمة الأنبياء من الكفر بالله تعالى بعد النبوة
٣٩٥	ثانياً: عصمة الأنبياء من الكفر بالله تعالى قبل النبوة
٤٠٣	ثالثاً: مذهب ابن جرير في عصمة الأنبياء من الصغائر (بعد النبوة)
٤٠٦	رابعاً: عصمة الأنبياء مما يخل بالتبليغ
٤٠٨	خامساً: اجتهاد النبي ﷺ وقضية التأخير
٤١٣	الفصل الثاني: مسائل الإيمان
٤١٣	المبحث الأول: حقيقة الإيمان
٤٣٠	المبحث الثاني: تفاضل الإيمان، والاستثناء فيه
٤٣٠	أولاً: زيادة الإيمان ونقصانه
٤٣٩	ثانياً: الاستثناء في الإيمان
٤٤٦	المبحث الثالث: حكم مرتكب الكبيرة
٤٥٩	الفصل الثالث: مسائل السمعيات عند الطبري
٤٥٩	المبحث الأول: عذاب القبر
٤٦٨	سماع الأموات
٤٧٤	المبحث الثاني: الشفاعة والميزان
٤٧٨	ثانياً: ميزان الأعمال
٤٨١	الفصل الرابع: مسائل الإمامة، وتفضيل الصحابة
٤٨٤	المبحث الأول: شروط الإمامة
٤٩٠	ثانياً: إمامة المفضل
٤٩٧	المبحث الثاني: تولية الإمام، والخروج عليه
٤٩٧	تولية الإمام

٥١٠ المبحث الثالث: خلافة الراشدين، وتفضيل الصحابة
٥١٧ ميراث النبي ﷺ
٥٢٠ الخاتمة، ونتائج الدراسة
٥٢٤ قائمة بأهم مراجع البحث
٥٢٤ أولاً: مؤلفات الطبري
٥٢٥ ثانياً: المخطوطات، والرسائل الجامعية
٥٢٧ ثالثاً: المراجع العامة
٥٥٢ الفهرس



